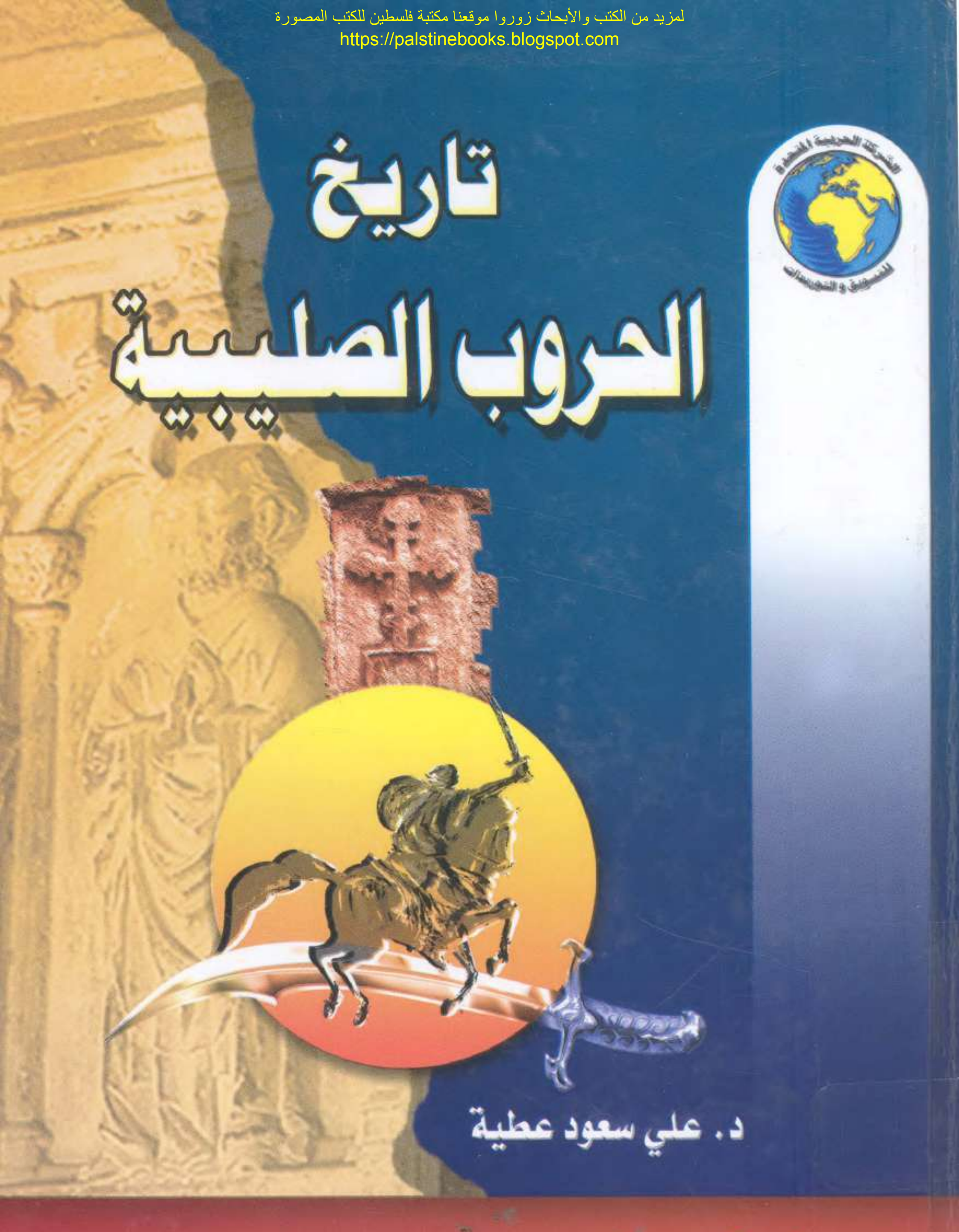


تاريخ الحروب الصليبية

د. علي سعود عطية

الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات

تاريخ

الحروب الصليبية

تأليف

د. علي سعود عطية

الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات

2010

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية؟ إدارة الشئون الإدارية

عطية، علي سعود .

تاريخ الحروب الصليبية /علي سعود عطية.

- ط - 1 القاهرة، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، 2010

351ص، 17*24 سم.

تدمك 978 977 477 0630

1 - الحروب الصليبية

953.07393

رقم الإيداع : 2009/15966

دار النشر: الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات

عنوان الكتاب: تاريخ الحروب الصليبية

اسم المؤلف: د.علي سعود عطية

رقم الطبعة: الأولى

تاريخ الطبعة: 2010

الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات

ص.ب: 203 هليوبوليس- القاهرة - جمهورية مصر العربية

موبايل/ 0101763677 (002) / 0103401184 (002)

www.uarab.net E-mail : u_arab@yahoo.com

مقدمة الكتاب

يتنـاول هـذا الكتاب تاريخ غـزو الصليبيـن (الفرنجة) للوطن العربي الاسـلامي في العصور الوسـطى. وتشـمل دراسـة هذا الغزو موضوعات من بينهـا : حقيقة هذا الغزو، ودوافعه، واهدافه، وسير الحملات الصليبية، واسباب نجاحها في تأسيس كيانات لها على ارض العرب والاسلام.

كما تناول رد الفعل على هذه الحملات والذي اطلق عليه اسـم حركة الجهاد الاسلامي، هـذه الحركـة التاريخية التي تمكنت في النهايـة من تحرير البلاد العربية الاسـلامية من الصليبيين. وقد بدأ التحرير باسـتعادة الرها 1144م اول امارة صليبية اقيمت على ارض الاسـلام. ثم تلتها بيت المقدس 1187، وكانت خاتمة التحرير باحتلال عكا واسـتعادتها من الصليبين 1291. فقد كانت عكا آخر المعاقل الصليبية التي سقطت في يد المسلمين. وانتهى بذلك الوجود الصليبي على أرض العرب والاسلام.

لقد هدفنا - عزيزي القارئ - من وراء هذه الدراسة، الى تعريفك بالاهداف العامة التالية :

1- علـى **البعـد المعرفـي** : ادراك مفهـوم الحـروب الصليبية وطبيعة هـذه الحروب الاسـتعمارية الاستيطانية التوسـعية. وبالاضافة الى هذا تحليل دوافع هذه الحروب واهدافهـا ومن ثم تتبع التطور التاريخي لها، ونقصد بها الحملات الصليبية الثماني اربع حملات ذهبت الى الشـرق العربي الاسـلامي الاولى والثانية والثالثة والسادسة واثنتان ذهبتا الى مصر هي الخامسـة والسابعة والثامنة ذهبت الى تونس والرابعة الـى القسـطنطينية. ومن ثم فانه سـيكون بامكانك، عزيزي القارئ، تفسـير نجاح الصليبيـن في البداية في انشـاء كيان لهم في المشـرق العربي الاسـلامي، متمثلاً بمملكـة هي مملكة بيت المقدس وثلاث امـارات هي الرها وانطاكية وطرابلس.حتى اذا ادركت هذه الأبعاد، فانه سيكون بامكانك - على هذه الخلفية - ان تستوعب لماذا ولدت حركة الجهاد، وكيف نجحت هذه الحركة في تحرير المشرق العربي الاسلامي من الاحتلال الصليبي. هذا التحرير الذي لم يتم بسـهولة، ولم يقدم للمسـلمين على طبـق مـن الفضة، كما يقال، وانما جاء من خلال الجهـود الكبيرة التي قام بها وقاد جنودهـا أبطال مؤمنـون تميزت اعمالهـم بالاخلاص والثواب والمثابـرة والتضحية والتغلب على الذات مثل مودود وعماد الدين زنكي وصلاح الدين وغيرهم وستفسـر ايضا كيف كانت الوحدة التي شملت وضمت اركان الامة في مصر والشام والجزيرة

الوسيلة الكبرى والخطوة الاكثر اهمية على طريق التحرير. فقد اعطتنا الحروب الصليبية، درساً لا ينسى الا وهو ان في الوحدة قوة.

2- **على البعد التثميني والتقويمي :** وهنا ستعرف عزيزي القارئ كيف تقدر وتقوم وتثمن هذا الجهاد العظيم، الذي خاضه العرب والمسلمون ضد الصليبيين في سبيل تحرير البلاد والعباد من الاحتلال الصليبي.ومن ثم فاننا نرجو ان ينشأ لديك اعتزاز بالتاريخ الاسلامي وان يتعمق في كيانك روح الانتماء للامة العربية الاسلامية هذه الامة الذي تكسرت على صخرة صلابتها وعزيمتها الحملات الصليبية ولم يتسن لها ان تبقى على ارضنا الا فترة وجيزة، اذا نحن نظرنا اليها نظرة تاريخية !

3- **على البعد الأكاديمي والفني :** فان سيتحقق لك، عزيزي القارئ القدرة على التفكير التاريخي واساليب البحث العلمي، واستقاء المعلومات من مصادرها الأولية الموثوقة. كما ستكون لديك مهارات التحليل والتعليل والربط والتفسير.

نختم بالقول، انه لن يتحقق لك، عزيزي القارئ، كل هذه الاهداف القيمة على المستويات الثلاثة، المعرفي والفني والتقديري التثميني الا من خلال قراءة هذا الكتاب بعمق.

[illegible] ي التوفيق

المؤلف

د. علي سعود عطية



فهرس الكتاب

الوحدة الأولى

مفهوم غزو الفرنجة (الحروب الصليبية)

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي القارئ، أهلاً بك إلى الوحدة الأولى من كتاب «تاريخ الحروب الصليبية» وهي بعنوان مفهوم غزو الفرنجة (الحروب الصليبية).

حرصنا في هذه الوحدة على ان نزودك بفكرة عن مفهوم الحروب الصليبية... وهي حروب شنها المسيحيون من حملة الصليب على المسلمين في بلاد الشام (الاراض المقدسة) بعد ان كانوا قد شنوا حرباً مماثلة في الاندلس، وقد بيّنا هنا أيضا أن هذه الحروب كانت نتاج عملية الإحياء الديني التي بلغت البابوية من خلالها شأواً عظيماً وقوة جبارة مكنتها من اخذ زمام المبادرة في توجيه حملات هذه الحروب الصليبية. وهنا جرى الاشارة الى وجهات نظر المؤرخين في تفسير الحروب الصليبية في محاولة لفهمها ووضعها في منظورها التاريخي.

كذلك تحدثنا في هذه الوحدة التمهيدية عن أدوار الحروب الصليبية وأوضحنا انه فازت بعض الحملات بأرقام معينة بينما بعضها الآخر لم يرقم. وليس الترقيم بدليل على الأهمية. فهناك بعض الحملات مما لم تحمل ارقاماً فاقت في الأهمية تلك التي حظيت بأرقام. ومهما يكن فإن الحملات الثمانية التي حملت ارقاماً تميزت بعض التميز ربما كان سبباً في اعطائها هذا البعد الرقمي.

ويا عزيزي القارئ، فإننا حاولنا ان نضعك في الظروف التاريخية لهذه الحروب الصليبية حين حاولنا ان ندرس حالة كل من الشرق والغرب عشية الحروب الصليبية وكيف أنه بالنسبة للغرب كانت الظروف مهيأة للانطلاق في الحروب الصليبية كما ان وضع الشرق الاسلامي كان لديه القابلية لذلك او ان أرضه مهيأة للغزو !

اما بواعث الحروب الصليبية. او الاسباب غير المباشرة لهذه الحروب فهي كثيرة يأتي على رأسها الباعث الديني، هذه العاطفة المشبوبة التي اخذت اشكالاً مختلفة: تعصباً دينياً ودوراً بابوياً تميز بالحماسة الكبيرة والاستجابة لنداء الامبرطور البيزنطي ممثل المسيحية اليونانية البيزنطية والرغبة في اخضاع عالم الاسلام. ...المهم كانت النزعة الدينية تكمن وراء كل التحركات الصليبية. ..كما كان كل جندي صليبي تكمن في أعماقه عاطفة دينية من نوع ما. .. حتى لو لم يلبس المسوح الدينية ولم يعش التجربة الدينية او الرهبانية من قبل او كما يقول المؤرخ البريطاني ستيفنسون: ان كل رجل عادي في الحروب الصليبية اصبح لديه احساس معين بأنه يقوم بواجب ديني ويرنو الى بركات هذا الواجب وما سيجنيه من ثمرات الحج والنضال من اجل المسيح !

وإلى جانب الباعث الديني كان الباعث المادي. ..الذي هو المكون الآخر بل هو المحرك الآخر الذي يحرك النفس البشرية وقد تجلى هذا الباعث. ..في موقف المدن الايطالية: البندقية وبيزا وجنوة.. كما تجلى في طمع الاوربين في خيرات الشرق من اللبن والعسل، كما أن الازمة الاقتصادية على الجبهة الاوربية التي وصلت الى درجة الجوع والتي حدثت في نهاية القرن الحادي عشر كانت محركاً آخر نحو الحروب الصليبية والبحث عن بديل افضل... غني عن القول ايضاً ان النظام الاقطاعي والبحث عن اقطاع لمن ليس لديه، او البحث عن اقطاع افضل مما لديه... كانت حوافز هامة في هذا الاتجاه.

الى جانب الباعثين الديني: والمادي، شكل الباعث السياسي محركاً آخر، فتفوق البابوية في قوتها. ..وعلو شأنها مقارنة بالملكية...ويحث الامراء الصليبيين تشبها بالملوك عن مناطق يحكمونها ويمارسون من خلالها نفوذاً وسيطرة وازدهاراً اقتصادياً وغيره... هذه العوامل شكلت أيضا سبباً في توخي الاشتراك في الحروب الصليبية للوصول الى المجد والجاه والقوة والعظمة.

يظل ان نقول: ان الاقنان او عبيد الارض في الاقطاعيات المختلفة في غرب اوربا بحثوا عن فرصتهم... او فتشوا عن مكان تحت الشمس بعد طول حياة الافقار والاذلال التي عانوها على يد السيد الاقطاعي.

يظل عزيزي القارئ ان نزودك بجانبين عالجتهما هذه الوحدة:

الاول: ان كل الاسباب التي تحدثنا عنها لم تكن لتفعل فعلها لولا ان ميزان القوى بين الاسلام والمسيحية والشرق والغرب. ..كان ميالاً للطرف الثاني. ..فتمزُّق الصف الاسلامي أفسح المجال واسعاً امام الاوربين للتقدم وملء الفراغ الناجم عن الفُرقة والتدابر والتقاتل.

ثانياً: ان الحروب الصليبية لم تكن لتأخذ البعد الشاسع والعميق الذي اخذته في مجرى التاريخ لولا البابا الذي كان هو المحرك الاول لهذه الحروب والمنظم الاول لصفوفها والداعية الاول لمشروعها والطاقة المولدة الكبرى وراء آلتها، صحيح ان شخصيات معينة مثل بطرس الناسك كان لها دورٌ كبيرٌ في التحريك الديني والصوفي لكن دور البابا إربان الثاني سيظلّ دوراً لا ينسى في هذا الحدث التاريخي العظيم الذي سمي الحروب الصليبية واستمر قرنين من الزمان.

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عزيزي القارئ، بعد قراءتك هذه الوحدة وتنفيذك لتدريباتها وانشطتها ان تصبح قادراً على أن: –

1. تعلل وتناقش سبب تسمية غزو الفرنجة للمشرق الاسلامي بالحروب الصليبية.
2. ترتب الادوار التاريخية لغزو الفرنجة (الحروب الصليبية).
3. تبين احوال اوربا عشية قيام حروب الفرنجة (الحروب الصليبية).
4. توضح احوال المشرق الاسلامي قبل غزو الفرنجة.
5. تذكر دور البابوية في الدعوة لهذه الحروب.
6. تحدد اطماع كل فئة من الفئات التي اشتركت في هذا الغزو.
7. تحلل دوافع حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) وتناقشها.

3.1 أقسام الوحدة:

تقسم هذه الوحدة إلى خمسة أقسام رئيسة ترتبط بقائمة الأهداف السابقة وهذه الأقسام هي:

القسم الأول:. مفهوم غزو الفرنجة (الحروب الصليبية) ويحقق هذا القسم الهدف الاول.

القسم الثاني: «الحروب الصليبية ضد العرب المسلمين في الاندلس» يحقق هذا القسم الهدف الاول أيضا.

أما القسم الثالث: «الادوار التاريخية لغزو الفرنجة (الحروب الصليبية)» ويحقق هذا القسم الهدف الثاني.

والقسم الرابع: «الظروف التاريخية للحروب الصليبية». ويحقق هذا القسم الهدفين الثالث والرابع.

والقسم الخامس: «دوافع (الحروب الصليبية) والذي يتطرق إلى الدوافع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

يحقق هذا القسم الاهداف: الخامس والسادس والسابع.

2. مفهوم غزو الحروب الصليبية

1.2 مصطلح الحروب الصليبية

هي الحروب التي عرفت عند الأروبيين بالحروب الصليبية، وذلك لأنها اتخذت من الصليب من القماش الأحمر الذي حمله المسيحيون على أذرعهم رمزاً لها. وقد أطلق المؤرخون المسلمون مثل ابن تغرى بردي على هؤلاء الصليبيين اسم الفرنجة، أو الفرنج.

وتعتبر الحروب الصليبية امتداداً للحروب التي شنها المسيحيون على المسلمين في الأندلس.

ويتحدث المؤرخ هانس ماير Hans Mayer في كتابه الصليبيين «**The Crusade**» عن مكافأة أو حسنة تُعطى للصليبي ألا وهي الغفران الصليبي. بحيث يُعتبر الصليبي نوعاً من الحاج عالي المكانة والذي نال شرف حمل السلاح. وبهذا حصلت عملية التحول من حاج مسلّح إلى جندي للعقيدة في الجيش الصليبي نفسه.

وقد أرسى مؤتمر كليرمونت (1095)، بكلمات دقيقة وغير غامضة، مفهوم أن كل من أخذ الصليب من أجل الدين وحده، سيتحرر من جميع العقوبات التي تفرضها الكنيسة. (Mayer, 1972 P.25).

2.2 بداية الفكرة الصليبية في أوربا وتطورها

وهذه الحروب في نظر بعض المؤرخين هي نتيجة عملية الإحياء الديني أو ما عرف بحركة الإصلاح الكوني، وكانت هذه الحركة قد بدأت في غرب أوربا في القرن العاشر، وبلغت أقصى قوتها في القرن الحادي عشر.

ويبين لنا جوناثان رايلي سميث Jonathan Riley Smith الأفكار التي كان يعتنقها الصليبيون وأهم هذه الأفكار:

- أنهم بالخروج في الحملات الصليبية كانوا ينفذون نوايا الله وإرادته.
- أنهم، أيضاً، «جيش الله»، وهذا التعبير بالاضافة إلى تعبير آخر هو «فرسان المسيح» كان يتكرران في الرسائل الصليبية.

- أنهم يحاربون حرباً مقدسة من أجل الله الذي يمنحهم عونه المادي.
- انهم تحت حمايته الدائمة.. فهو- أي الله - معينهم وحاميهم وقائدهم، وشريكهم في السفر وشريكهم في العمل. وعندما انتصروا في عام 1098، وصفت إحدى الرسائلهذا النصر بقولها: إن «الله قد انتصر».

ولعله من الواجب أن نذكر هنا أن البابا إربان الثاني قد خطب مبيناً أن الحرب الصليبية هي ذات هدفين: الأول هو إطلاق سراح الزملاء المسيحيين من ضروب الأذى والألم التي لحقت بهم على يد المسلمين. والثاني تحرير القدس. فقد كان هدف الحرب الصليبية هو التحرير؛ أو بشكل أدق، تحرير كنيسة القيامة.

لقد بالغ الصليبيون ذوو النزعة الدينية في الرؤى التي يرونها فزعموا أنهم يشاهدون خيالات وأشباحاً وأطيافاً. ففي كتابات رهبان الأديرة والصوامع ظهر هنالك اهتمام بالقدس السماوية على حساب القدس الأرضية.. ومن أجل الوصول إلى القدس السماوية؛ فإن يقتضي من الصليبي أن يقوم برحلة داخلية أو باطنية.. وقد بلغ الأمر بهؤلاء وقادتهم أنهم في أيلول 1 سبتمبر 1098 طلبوا من البابا أن يأتي أو أن يظهر و «يفتح لهم أبواب القدسين» الأمر الذي يعني أنهم كانوا يؤمنون بأنهم يقومون بنوعين من الحج: الحج الداخلي أو الباطني والحج الخارجي أو الظاهري. (Jonath Riley Smith: The First Crusade and the idea of Crusading. P.99-119).

وفي كتاب جوناثان رايلي سميث «ماذا كانت الحروب الصليبية» إشارة إلى الشروط التي وضعها الثيوقراطيون المسيحيون على الصليبي إذا أراد أن يشارك في حملة صليبية؛ وهذه الشروط، عزيزي القارئ، ثلاثة هي:-

1- أن يكون لهذه الحرب مبدأ عادل، كأن يرد الصليبي على عدوان أو أذى وقع عليه.

2- أن تقوم هذه الحرب على ما عرف بسلطة الأمير، أو بكلمات أخرى.. يجب أن يعلن عنها أو تعلنها سلطة شرعية أو مشروعة وهي في العادة سلطة علمانية.

3- على كل منخرط أو مشارك في الحرب الصليبية أن يخضع لمعيار ثالث ألا وهو النية الحسنة أو الحقة. بمعنى أن كل منخرط أو مشاركة يجب أن يكون لديه دوافع أو حوافز نقية؛ وأن الحرب ليست سوى وسيلة مبررة من أجل هدف تحارب من أجله. (Riley, What

were the Crusades P.16). ومثل هذه الحرب التي تنطبق عليها هذه الشروط الثلاثة هي الحرب المقدسة.

ولما لم يكن هنالك حروب صليبية بدون صليبيين. فإن الذي كان يجعل من الصليبي صليبياً هو أخذ القسم أو العهد على هذا الصليبي. ولقد كان البابا اربان الثاني في كليرمونت (1095) هو الذي سأل جمهوره أن يقوموا بإعطاء الوعود والتعهد بالالتزامات. وهو الذي أخبر الذي استجابوا لدعوته أن يخيطوا صلبانا على ملابسهم كإشارة عامة للالتزامهم.

(Riley Smith What were the Crusades, P.54 - 55)

وقد ترتب على أخذ القسم امتيازات معينة وحقوق للصليبي من بينها:

1 - حقوق دينية مؤقتة وبخاصة عندما يقدم إلى المحاكم.

2 - يتحول اليمين أو القسم إلى التزام قانوني يتم تنفيذه من قبل القضاة الذين يَمثُلُ أمامهم. ومنذ الحملة الصليبية الأولى كانت البابوية على استعداد لحرمان اولئك الذين فشلوا في تنفيذ ما وعدوا به من حقهم في الميراث كما أن محامي القانون بلغ بهم التفكير حدّاً اقترحوا فيه أن الورثة الذين لم ينفذ آباؤهم التعهدات أو الأيمان التي قطعوا على أنفسهم، يجب أن يحرموا من الميراث الذي يستحقونه.

3 - وكان هنالك امتيازات أخرى: من بينها حقوق روحية وحقوق مادية: صلوات تؤدى من أجل الصليبيين بواسطة الكنيسة العالمية، وشهادة تمنح إلى الكتاب الكنسيين الذين التحقوا بحملة صليبية أن يتمتعوا بدخل الكنيسة أو معاشها لبعض الوقت، والتحرر من الحرمان بسبب حملهم للصليب، وأن لا يخضع كل من يخرج في حملة صليبية لإجراءات قانونية خارج منطقة سكنه. والتحرر من نتائج سلاح الجو أو التحريم؛ ومنحه امتيازاً بأن يكون للصليبي كاهن يعترف له شخصياً فيغفر له خطاياه مثل جريمة القتل..

ويضاف إلى هذه الامتيازات، امتيازات أخرى (مثل ضيافة الكنيسة والإعفاء من ضريبة الرأس والضرائب الأخرى ومنحهم حصانة لا يسمح لأحد بموجبها بالقبض عليهم.

وفي حالة غيابهم فإن عائلاتهم وأملاكهم كان يتم حمايتها من قبل الكنيسة، التي تسلمت هذه المسؤولية خلال - وبسرعة كبيرة - الحملة الصليبية الأولى أو بعدها، وإضافة إلى كل ما مرّ، كان هنالك امتياز الغفران... وكان هنالك أيضاً نوع من التساؤل: هل يتم هذا الغفران بعد

أن يحلف الرجل الصليبي اليمين أو بعد أن ينجز مهمته الصليبية.

وتعطينا رسالة البابا يوجين الثالث التي تأثرت بالسابقة التي قام بإرسالها البابا، اربان الثاني؛ في هذا المجال، تعطينا هذه الرسالة فكرة الامتيازات التي تقدم للصليبيين دورهم، فقد ورد في هذه الرسالة، عزيزي القارئ، ما نصه:-

«بتقدير الله القدير وببركات بطرس أمير الرسل، وبتنازل رباني من الله، فإننا نمنح الغفران والتطهير من الذنوب، كما وضع ذلك سلفنا؛ وذلك بطريقة تعتبر أن كل من يبدأ ويكمل هذه الرحلة المقدسة أو يموت أثناءها سيحصل على تطهير من كل الذنوب التي قام باعتراف بها بقلب متواضع ونفس نادمة غاية الندم. وسوف يتلقى هذا الصليبيّ ثوابه الأبدي ممن يكافئ الخلق أجمعين» (Riley Smith, What were the Crusades, PP.55 -60).

3.2 البابوية وفكرة الحروب الصليبية

وقد ترتب عليها عودة البابوية إلى عزها القديم وسطوتها السابقة، وتحقق لها نوع من الإشراف المركزي الدقيق على كافة الكنائس الغربية وتقوية الجهاز الكنسي وتعزيزه، وربط أطرافه بالمركز الرئيس في روما. وقد تناغم مع هذا الموقف إثارة نوع من الحماسة الدينية بوجه عام في الغرب الأوربي...وقد كان من مبادىء هذا الإحياء الديني وهذه الحركة الدينية أن لا يحارب الأخ أخاه.. وعلى هذا فقد ظهر شعور قوي في القرن الحادي عشر الميلادي، للبحث عن متنفس خارجي، تستوعب فيه تلك الطاقة الهائلة التي تمخضت عنها حركة الإحياء الديني، فكان هذا المتنفس هو الحج بالجملة «**en masse**» حيث كان يخرج للحج بضع مئات من المسيحيين تحت قيادة أسقف نبيل إقطاعي، يتجهون سويةً من غرب اوربا في صورة تظاهرة دينية سلمية قاصدين الأراضي المقدسة بالشام. { عاشور ص21 - 23، Setton V.I.P.78} ومن هذا الحج الجماعي تولّدت حركة تاريخية شملت القرنين الحادي عشر والثاني عشر وتواصلت فيها قوافل الحجاج الذين تَحوّلوا إلى مقاتلين في سبيل العقيدة المسيحية وليس حجاجاً بالمعنى المعروف. ففي رأى كثير من المؤرخين أن الحروب الصليبية التي بدأت الدعوة إليها سنة 1095 ليست سوى امتداد لحركة الحج الجماعي الى بيت المقدس، مع حدوث تطور في الأسلوب، وهو أن الحج الجماعي صار حربياً بعد ان كان سلمياً.

ولعل هذا التطور في الأسلوب انما يعود إلى تلك الاخبار المبالغ فيها والتي أخذت تصل الى

أوربا عن سوء معاملة الحجاج المسيحيين بعد استيلاء السلاجقة على بيت المقدس سنة 1071 ثم استيلائهم على انطاكية سنة 1085 وطرد البيزنطيين منها مما جعل الغرب يؤمن بأنه لابد من استخدام القوة لتأمين عملية الحج الى الأراضي المقدسة. {عاشور جـ1 ص24}.

ومهما يكن من أمر فقد تعددت النظرات واختلفت التفسيرات حول الحركة الصليبية، بقدر الزوايا والنوافذ التي نظر منها المؤرخون إلى هذه الحركة. فهنالك من المؤرخين من اعتبر الحروب الصليبية جولة أو حلقة من جولات او حلقات الصراع بين الشرق والغرب. ... هذا الصراع الذي بدأ في العصور القديمة بين الفرس واليونان. .. وامتد عبر العصور الوسطى في صراع المسلمين - في فتوحاتهم - مع الأوربيين حتى بلغوا حدود فرنسا، وامتد في العصور الحديثة وتمثل في حروب الاستعمار والغزو الاستعماري للمشرق العربي والإسلامي.

وهناك فريق آخر من المؤرخين اعتبر الحروب الصليبية، حلقة أخيرة، في سلسلة الهجرات الكبرى التي جاءت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية، سنة (476م) هذه الحلقة في الهجرة الجماعية التي جعلت هدفا ومستقراً لها الشرق الأدنى وبالذات الأراضي المقدسة. فأقامت لها كيانات ومستوطنات واستمر وجودها قرنين من الزمان.

ويمكننا، عزيزي القارئ، أن نعّرف الحركة الصليبية بأنها: «حركة انبعثت من الغرب المسيحي. واتخذت شكل هجوم حربي...وقد نبعت جذور هذه الحرب من الأوضاع العامة الفكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والتي سادت في أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد أسهم في اسبابها استغاثة المسيحين في الشرق ضد المسلمين»، كما سنوضحه فيما سيأتي من دوافع الحروب الصليبية وبواعثها.

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1. عرف الحروب الصليبية ؟

2. بين بعض الأوجه في تفسير قيام الحروب الصليبية؟

3. الحروب الصليبية ضد العرب المسلمين في الأندلس

دارت في اسبانيا حرب بين المسلمين والمسيحيين لم تنته إلا بعد عدة قرون بطرد المسلمين. وقد اشار لهذه الحروب المؤرخ ابن الأثير، مما يدل على أنه أدرك العلاقة بين الحروب الصليبية في المشرق وبينها المغرب. وقد اتخذ من الحروب الصليبية في الأندلس مدخلاً للحروب الصليبية في الشام. فالكنيسة الغربية والقوى المسيحية عموماً كانت تتحين الفرصة لاسترداد الجزء الاكبر من إسبانيا. ونأخذ مثلاً على هذا التوجه ما قام به شارلمان من حرب ضد المسلمين في اسبانيا في أواخر القرن الثامن الميلادي.

لقد انبعث الخطر من الدويلات المسيحية في شمال اسبانيا: مملكة ليون ومملكة نافاري وكونتية برشلونة وكونتية قشتالة. هذا الخطر الذي هدد المسلمين في الأندلس، في الوقت الذي تدهورت فيه الخلافة في الاندلس حتى سقطت فعلاً سنة 1031. ولم يلبث أن بلغ التوسع المسيحي على حساب المسلمين درجة خطيرة في عهد الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة (1065 -1109). وهو الذي استولى على مدريد ثم طليطلة سنة 1085 وبذلك خسر المسلمون معقلاً من اهم معاقلهم في الأندلس (عاشور الحركة جـ1 ص 73).

وكان لسقوط طليطلة وقع كبير في جميع أرجاء العالم المسيحي إذ أن هذا الحدث الكبير أيقظ في نفوسهم الآمال العريضة باستنقاذ اسبانيا جميعها من ايدي المسلمين. كما كان لسقوطها اثر هزّ المسلمين في المشرق والمغرب. وهنا لم يتردد ملوك الطوائف في الاستعانة بالمرابطين في شمال افريقيا. وعلى هذا لم يلبث يوسف بن تاشفين ملك المرابطين أن عبر مضيق جبل طارق سنة 1086 على رأس جيش كبير من البربر حتى التقى مع الفونس السادس في موقعه الزلاقة في اكتوبر سنة 1086. وفي تلك الموقعة حلت هزيمة ساحقة بالقشتاليين، ففر الفونس السادس مع فلول جيشه تاركاً وراءه عدداً من القتلى والأسرى، في حين قفل يوسف بن تاشفين راجعاً الى شمال أفريقيا.

وقد أدى تجدد الخطر المسيحي على المسلمين في الأندلس من ناحية، واتساع رقعة الخلاف بين ملوك الطوائف من ناحية أخرى الى عودة يوسف بن تاشفين الى الاندلس سنة 1090. ولم يلبث المرابطون ان استولوا على بلاد الاندلس بكاملها ما عدا طليطلة. وعندما انتهت دولة المرابطين وخلفتها دولة الموحدين في شمال افريقيا فكر الموحدون في ضم الأندلس الى ملكهم

واستطاع قائدهم عبد المؤمن ان ينجح في ذلك سنة 1146م.

خاتمة القول، عزيزي القارئ، هنالك حروب صليبية التقى المسلمون فيها مع المسيحيين في صراع دام على ساحة الاندلس قبل أن يلتقوا على ساحة بلاد الشام، وأثناء ذلك أيضاً، وقد انتهت الحروب على ساحة الاندلس بسقوط آخر معاقل الاسلام هنالك في غرناطة سنة 1492.

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1. بين اهمية سقوط طليطلة في أيدي المسيحيين الاسبان؟

2. بين دور يوسف بن تاشفين في استنقاذ الاندلس من الإسبان؟

4. الأدوار التاريخية للحروب الصليبية ومداها الزمني:

جرت العادة في كتب التاريخ على تحديد المدى الزمني للحركة الصليبية بين سنتي 1095، 1291. وهذه الفترة هي الفترة الحاسمة في هذه الحركة بين الحملة الاولى وبين القضاء على الصليبين وطردهم من بلاد الشام. على ان الحركة الصليبية بمعناها الواسع لها جذور كما لها مقدمات جاءت قبل سنة 1095. كما ان التيار الصليبي استمر بعد سقوط عكا 1291. ومن هنا فإن الاقتصار على المدى الزمني بين سنتي 1095 - 1291 تحديد غير دقيق ان لم يكن تحديداً خاطئاً. ولا يقوم على أساس سليم. وعلاج الحركة الصليبية على هذا الاساس علاج مبتور يشمل جزءاً من الحركة ولا يشمل بقية أبعادها وامتداداتها وآثارها.

والواقع انه لا يعلم احد. ..لماذا فازت بعض الحملات بترقيم عددي معين دون البعض الآخر. فالواقع انه منذ وصول الحملة الصليبية الاولى لم يمر عام واحد دون مجيء جموع صليبية جديدة. وبعض هذه الجموع فاقت في اهميتها وكثرة اعدادها الحملات الصليبية المرقمة والمألوفة لدينا. ومع ذلك فان معظم هذه الحملات لم تمنح ارقاماً تضفي عليها اهمية معينة وقيمة خاصة.

ويرى الدكتور فيليب حتي أن التقسيم التقليدي للحركة الصليبية إلى عدد معين من الحملات، لا يخلو من تكلف أو افتعال، لأن سيل الإمدادات كاد يكون متواصلاً. (حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ2 ص234).وفي هذه الرأي كثير من الصحة: فوفود الحجاج المتحمسين، والتي لم تأت للحرب قصداً، كانت إذا وجدت الحرب قائمة اشترك فيها القادرون من رجالها وشبانها. وكذلك كانت الإمدادات العسكرية تتوالى من جميع أنحاء أوربا لنصرة الإمارات اللاتينية في الشرق، ولكن التاريخ لا يعتبر هذه الإمدادات الجانبيه حملات جماعية منظمة اشتركت فيها دول أوربية متعددة، لهذا فهو لا يسلكها في عداد الحملات الكبرى.

ومع ذلك فالحملات الثمانية التي فازت بأرقام عددية لها ميزتها في التاريخ فهنالك أربع منها توجهت نحو بلاد الشام (الاولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) واخرى توجهت الى شمال افريقية (الثامنة).

ويمكننا، عزيزي القارئ، أن نقسم هذه الحروب إلى أقسام معينة لها علاقة بحقيقتها الموضوعية وبتطورها عبرالحقب المختلفة: مثل مرحلة الاندفاع والتحمس أو الحماسة، وهي المرحلة الأولى، حتى سقوط الرها ثم تبدأ مرحلة أخرى هي مرحلة التراجع والتردد، ومن ثم

مرحلة الهزيمة في حطين وسقوط القدس في يد صلاح الدين.. حتى مجيء الحملة الثالثة حيث بدأت مرحلة صعود من جديد.. ثم مرحلة الحملات على مصر وتراجعها.. أنهاء بعهد تصفية الصليبيين على يد المماليك ونهايتهم في المشرق الإسلامي عام 1291م.

اسئلة التقويم الذاتي (3)

1. لماذا كانت الادوار التاريخية للحروب الصليبية - كما هي معروفة - غير دقيقة ؟

5. الظروف التاريخية للحروب الصليبية

أحوال أوربا عشية قيام الحروب الصليبية

لا يمكن لمن يريد التأريخ لحالة أوربا عشية الحروب الصليبية أن يتجاهل ما عرف بالصحوة الكبرى التي تعرضت لها أوربا منذ القرن الثاني عشر، واستمرت بعد ذلك حتى نبعت منها النهضة الأوربية في القرن الخامس عشر [عاشور الحركة جـ1 ص19].

وقد اخذت هذه النهضة اشكالاً وابعاداً دينية تمثلت في إصلاح الكنيسة ومعالجة المشاكل التي كانت تعاني منها آنذاك واهمها السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني. والمقصود بالتقليد العلماني الصراع الذي نجم بين البابوية والامبراطورية وحشد كل منهما كل طاقته للتغلب على الطرف الآخر [عاشور الحركة جـ1 ص20].

على ان الكنيسة خرجت ظافرة من هذا الصراع وشعرت الكنيسة بقوة جبارة كان لابد من تفجيرها او استنفاذها، ولما كان من المتعذر استنفاذ هذه الطاقة محلياً؛ كان لابد من البحث عن متنفس خارجي لتوجيه قدر من الطاقة اليه، وعندئذ ظهرت فكرة الحرب الصليبية من أجل ان تفسح المجال للغرب الأروبي وتوجد له ميداناً واسعاً يستغل فيه نشاطه المكبوت وحماسته الكامنة.

6. دوافع وبواعث الحروب الصليبية:

اختلف في تفسير دوافع الحروب الصليبية، فمنها ما هو مادي، مثل طمع الأوربيين في خيرات الشرق، أو ديني بالتعصب ضد المسلمين، وبخاصة أن الأوربيين بدأوا يرون ضرورتها لضم البلاد التي ظهر فيها المسيح، واعتبروها لذلك بلاداً مسيحية، وأن في هذه الحروب تكفير للذنوب. ويرى الدكتور عبدالمنعم ماجد ان ميزان القوى بين الشرق والغرب، قد تغير بضعف المسلمين في الأندلس، وضياع سيطرة المسلمين في البحر المتوسط: فكانت الخطوة التالية حرب الفرنجة ضد المسلمين، كمظهر من مظاهر الصراع البشري، اذ هي مقدمة لما عرف في التاريخ الحديث بالمسألة الشرقية (ماجد ص 131-132).

لعلّ من أفضل من عدد الدوافع الصليبية للحروب الصليبية سواء لدى الزعماء أو لدى المتطوعين الذين اندفعوا في غمارها، هو المستشرق جون لامونت، فقد اشار في هذا الشأن إلى خطاب البابا إربان الثاني في كليرمونت بقوله: «ولم ينس اربان ان يذكر مستمعيه بالارباح المادية والروحية التي سيجنيها الصليبيون. فالذين يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة والخلاص. اما مدن «ارض الميعاد» الغنية فستكون جزاء من يحتلها من الأحياء. ولم يشر البابا إلى الفائدة العظيمة التي ستجنيها السدّه البابوية من قيادة جيش يسير تحت راية البابا، كما لم يشر إلى الاثر العظيم الذي سيتركه مثل هذا الجيش البابوي في نفوس الاباطرة والملوك. ولم يشر البابا إلى النكسات التي نزلت بالكنيسة على ايدي السلطات الزمنية. وإلى ان الحملة الصليبية ستذكر عاهل الامبرطورية الرومانية المقدسة بان خادم خدام الرّب (البابا) مازال قادراً على القيادة واصدار الأوامر» (نقولا زيادة دراسات اسلامية ص 102).

وقد أشار لامونت إلى المتطوعين جنداً وقادة فقال: «وبينما تطوع عدد من القادة في «صليبية الامراء» مدفوعين بدوافع دينية في جوهرها، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب مغانم الدنيا أكثر مما فعلوا في سبيل اعلاء مجد الرب. لاشك في صدق الدوافع التي دفعت بغودفري للاشتراك في الحملة للتكفير عن ذنوبه السابقة، ونيل الخلاص لنفسه ويمكن أن يكون روبرت أوف نورماندي وروبرت اوف فلاندرز مدفوعين إلى حدّ كبير، بدوافع دينية. وان كنت أرى انهما كانا مدفوعين بدافع آخر، إلى جانب الدوافع الدينية، الا وهو ان الحملة اتاحت لهما الفرصة ليصبحا بطلين. ولكن لا يستطيع احد أن يزعم بأن بوهمند أوف تورنتو قد ذهب لسبب

آخر غير رغبته في تأسيس امارة في الشرق. كما كان ريموند اوف سنت انجيلز بطل الحروب الاسبانية يطمح في الاستيلاء على قطعة من أرض سورية الجميلة. وأغلب الظن ان اتباع هؤلاء القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب عديدة. فقد ذهب بعضهم مدفوعين بحماستهم الدينية المحضة، وذهب بعضهم فراراً من رتابة حياتهم المملّة، أو تخلصاً من ألسنة زوجاتهم السليطة. وحمل بعضهم الصليب حُبّاً بالمغامرة والمخاطرة. وذهب بعضهم لمجرد ان الآخرين قد فعلوا ذلك» (نقولا زيادة، دراسات اسلامية ص 102، ص 103).

1.6 الباعث الديني:

يأتي الباعث الديني على رأس البواعث التي أدت الى الحروب الصليبية، فالدين، كما هو معروف، مقوّم أساسٌ من مقومات حياة الإنسان وعامل رئيس من عوامل ممارساتها، ففي رأي أحد المؤرخين؛ ليست الحروب الصليبية سوى حروب دينية استهدفت عن طريق مباشر او غير مباشر الاستيلاء على الاراضي المقدسة بالشام.

على أنه تحت عنوان الدين الكبير، تندرج بالنسبة للحروب الصليبية عوامل كثيرة من بينها الأمور التالية: -

- التعصب الديني ضد المسلمين، والذي أخذ شكل ضرورة الاستيلاء على البلاد التي ظهر فيها المسيح، واعتبروها مسيحية، وان في هذه الحروب التي تشن من اجل هذه الغاية، تكفير للذنوب وتحقيق لرضا الرب! ومن اجل تبرير هذا التوجه في الاستيلاء على أرض العرب والمسلمين ركز المسيحيون على سوء معاملة الوالي على بيت المقدس لبعض الحجاج المسيحيين، هذا الوالي الذي هو من أصل تركي والذي لم يلبث حاكم سوريا السلجوقي - تتش - ان عزله وقتله، وولى غيره واسمه سقمان.

- دور البابوية: وهنا ينبغي ان نذكر ان البابوية تتحمل او تحملت العبء الاكبر في الحروب الصليبية. فالبابوية التي تجلت قوتها في القرن الحادي عشر، والذي ظهر من رموزها جريجوري السابع والذي اطلق عليه لقب القديس، هذه البابوية هي التي وجهت قوتها وركزت طاقتها علي القيام بالحروب الصليبية وتوفير عوامل النجاح المختلفة لها. وهنا ينبغي ان نتذكر دور البابا إربان الثاني بصورة خاصة، والذي سنتحدث عنه، عزيزي القارئ، فيما بعد.

وقد تحركت البابوية من جراء دوافع معينة يمكن اجمالها فيما يلي:

1. الاستجابة لاستنجـاد البيزنطيين الذين كان لهزيمتهم امام السلاجقـة في معركـة ملاذكـرد (1071)م وقع رهيب في نفوسهم جعلهم يقرعون ناقوس الخطر أمام البابا والمجتمع المسيحي الاوربي لإنقاذ آسيا الصغرى والقسطنطينية بوابة أوربا الشرقية. .وكان ان استجاب البابا لهذا النداء وتطلع – اكثر من ذلك – الى توحيد الكنيسة الشرقية والغربية. ..ولقد ذهبت طموحات البابا الى آفاق اوسع عندما فكر في اقامة حكومة في الشرق تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية (ماجد ص 138)).

2. الحماس الديني وخدمة الصليب والاستشهاد في سبيله. فالدعوة البابوية الى الحرب، والتي كان مؤتمر كليرمونت التجسيد الأهم لها، هي التي ادت الى خروج الناس افواجاً على شكل حملات صليبية ضخمة الى البلاد المقدسة. وقد جاءت هذه الموجة مع تصاعد قوة البابوية وحركة الإحياء الديني كما سبقت الاشارة إليه.

3. راودت البابا اربان الثاني في وقت من الاوقات، وصرح بذلك الى تابعين من المسيحيين، فكرة السيطرة على ديار الإسلام، واستخلاصها من المسلمين لكـي تقيم عليهـا الكنيسـة دولتها.. وتقصي المسلمين عن الشرق كما اقصوا عن الاندلس.

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1. ما الدوافع التي كانت تحرك البابوية لقيادة الحروب الصليبية والإسهام الكبير فيها ؟

2.6 الباعث المادي:

هنا لا يملك القارئ لأسباب الحروب الصليبية وبواعثها إلاّ أن يأخذ العامل المادي بعين الاعتبار وذلك من خلال النقاط الآتية: –

1. لقد استفحلت في نهاية القرن (11) في اوربا ازمة اقتصادية خطيرة سببها كثافة السكان، وهنا نشأ هدف رئيس آخر حرك باتجاه الشرق جموعاً بائسة ضاقت ذرعاً بأسالها وزرع في رؤوسها الامل بحياة افضل {ايليسيف ص 383 }. ومن يستعرض مسيرة الحروب الصليبية وبخاصة حملة العامة التي سبقت الحملة الاولى. والحملة الاولى نفسهايدرك كم كان الطعام

محركاً فظيعاً لجموع هذه الجماهير التي من المفترض انها خرجت للحج ودفاعاً عن مبادىء السيد المسيح في الأمن والسلام، فتحولت الى اعمال العدوان والسلب والنهب والقتل مما يتعارض مع أي وازع ديني !

2. شكلت المدن التجارية: البندقية، وجنوة وبيزا رافعة كبرى للحروب الصليبية من حيث نقل الصليبين والمؤن والاسلحة ومن حيث توظيف اساطيلها لغايات فتح المدن الاسلامية مثل طرابلس وعكا وحيفا وغيرها. وهذه المدن التي غذت الجهد الصليبي من البداية الى النهاية لم يكن يحركها سوى عامل واحد رئيس هو المكاسب المادية فمقابل - على سبيل المثال - كل مدينة تسقط في يد الصليبيين كانت تمنح المدينة التي تساعد على الاستيلاء عليها، شارعاً وسوقاً وفندقاً وحماماً عدا عن الضرائب المختلفة. فكما يقول ايليسيف **«الجمهوريات الايطالية كان لها دين واحد هو دين المال وذلك كان سبب زوالها»** {ايليسييف ص382 }.

3. طمع الاوربيين في خيرات الشرق. بحيث اخذ الموقف اتجاهاً اقتصادياً استغلاليا. فلقد كان البابا في خطابه الشهير في كليرمونت الذي يدعو جماهير المسيحين الى الرحيل الى ارض «اللبن والعسل». فالإشارة الى هذا المعنى والتي جعلت السلطة الاعلى في الحروب الصليبية تلفت نظر الناس اليها، هي دليل اكيد لما للعامل المادي من تأثير واغراء في تحريك الجموع وتوجهها وجهة معينة. ..

4. أدت طبيعة النظام الاقطاعي «الذي كان هو النظام الاقتصادي / الاجتماعي السائد في غرب اوربا الى جعل الفرسان والامراء، المحرومين من الارض بسبب نظام الارث السائد، يلبون نداء البابا في الإسهام بالحروب الصليبية لعلهم ينجحون في تأسيس امارات لهم في الشرق، تعوضهم عما فاتهم في الغرب. حتى اولئك الامراء الذين كانت لهم اقطاعاتهم واراضيهم في بلادهم الاصلية، وجدوا في الحروب الصليبية فرصة ملائمة لتحقيق مجد اكبر لهم وجاه اعظم. يقول المستشرق لامونت: «لا يستطيع احد ان يزعم بأن بوهمند من تورنتو قد ذهب لسبب غير رغبته في تأسيس امارة في الشرق. كما كان ريموند من سنت جيلز، بطل الحروب الاسبانية، يطمع في الاستيلاء على قطعة من ارض سورية الجميلة. ..» {نقولا زيادة، دراسات ص 102 - ص 103 }.

3.6 الباعث السياسي:

هنا نعود ايضاً الى سطوة البابوية وسيطرتها على الملوك الاوربيين الذين لم يكونوا يستطيعون

ان يعصوا لها امراً والاّ تعرضوا للحرمان. ويضرب المثل عادة على سطوة البابوية بإذلال كانوساً. ..حيث ركع الامبراطور هنري الرابع الالماني أمام البابا جريجوري السابع واعترف بذنبه في عدم الخضوع للبابا، حتى رضي عنه البابا بعد ثلاثة ايام، مكثها امام القصر ينتظر الغفران! كما يضرب مثل آخر على خضوع الملوك للبابوية اثناء الحملات الصليبية عندما طلب الى الملك فريدريك الثاني الخروج على رأس حملة صليبية، فأخذ يماطل ويهرب حتى صدر ضده قرار بالحرمان وهنا لم يملك الامبراطور، الا ان يخرج على رأس جماعة من رجاله متوجهاً نحو بلاد الشام، وعند وصوله إليها بادر الى الاتصال مع السلطان الكامل ملك مصر الايوبي ليشرح له موقفه ووضعه وانه «**ليس له غرض في القدس ولا غيره، وانما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج**»! {المقريزي السلوك ج1 ص 230 }.

وقد تجلى الباعث السياسي أيضاً في صراع الامراء الصليبيين على أن يحوز كل منهم امارة خاصة به. بل تكتشف ان كثيراً منهم لم يكن يحركهم سوى هذا الهدف السياسي في ان يحكم امارة معينة يتحكم هو بالسلطان عليها وتجبى له خيراتها. اما القدس والحج اليها وخدمة قضيتها لأهداف دينية بحتة كما يفهم من ظاهر الاشياء فلم تشكل بالنسبة لهؤلاء هدفاً اساسياً. ونحن نلمس هذا منذ مجيء حملة الامراء - الحملة الاولى فالبعض منهم قد سال لعابه عندما شاهد المجد والعظمة والرخاء الذي تتمتع به القسطنطينية وفكر بغزوها هي! والاستيلاء عليها ولا داعي للذهاب بعيداً الى القدس وتجشم المصاعب والمشقات في هذا السبيل! وعندما لاحت الفرصة لبلدوين شقيق غودفري نأى بنفسه جانباً وذهب الى الرها وهاجمها واستولى عليها بمعونة أهلها من الارمن واقام عليها امارة له واعتقد بذلك انه تحقق له ما يريد. ..ولم تعدُ تراوده أحلامٌ اخرى في نصرة القضية الصليبية التي جعلت على رأس اهدافها الحج الى القدس والاستيلاء عليها. ومثل بلدوين، بوهمند الذي خطط للاستيلاء على انطاكية ووظف في ذلك ذكاءه ودهاءه، وهدد بالانسحاب والعودة الى اوربا من حيث أتى الا اذا وافقه زملاؤه ان تكون انطاكية من نصيبه وحده. وبالفعل عندما سقطت انطاكية بيد الصليبيين لم يغادرها بوهمند ولم يقبل أن يصحب بقية الامراء الذين غادروها باتجاه الجنوب سيراً نحو القدس. وهكذا كان هاجس كل امير صليبي ان يظفر بإقطاعية له او اكثر حتى يحقق لذاته ما يصبو اليه من الرفعة والسيطرة والتملك! فالقضية الاعظم بالنسبة له: مزيداً من المجد الشخصي والذاتي ومزيداً من الجاه!.

4.6 الباعث الاجتماعي:

انقسم المجتمع الأوربي في العصور الوسطى الى ثلاث طبقات: طبقة رجال الدين، وطبقة المحاربين من النبلاء والفرسان، وطبقة الفلاحين من الاقنان ورقيق الارض. ..وكانت طبقة الفلاحين تمثل الطبقة التي يعمل افرادها ويشقون ليسدوا حاجة الطبقتين الأوليين.

وحقيقة الامر ان الالوف من الفلاحين عاشوا في غرب اوربا في ظل نظام القرية، حيث عاشوا في بيوت من جذوع الاشجار غطيت سقوفها وارضيتها بالطين والقش ولم يكن لها نوافذ كما لم يكن بداخلها أثاث عدا صندوق صغير من الخشب وبعض الادوات الفخارية والمعدنية البسيطة. وكان اولئك الفلاحون ملتزمين امام السيد الاقطاعي بالتزامات جمة منها انشاء الطرق او حفر الخنادق او اصلاح الجسور وكان هنالك انواع مختلفة من الضرائب يدفعها الفلاح لسيده في مناسبات متعددة مثل ضريبة الرأس وضريبة الماشية...وكان على الفلاح ان يدفع لسيده الاقطاعي اجوراً معينة عندما يطحن قمحه في طاحونته ويخبز خبزه في فرنه ويعصر عنبه وزيتونه وتفاحه في معصرته. فالسيد هو الذي يمتلك الطاحونه والفرن والمعصرة.

على هذا فقد استمرت فئة كبيرة من المجتمع في غرب اوربا تحيا حياة شاقة مليئة بضروب الذل وألوان الهوان. فعندما جاءت الدعوة للحروب الصليبية وجد الالوف من هؤلاء البؤساء فرصتهم للتخلص من اغلالهم والقول؛ وداعاً لحياة البؤس والهوان !.

لقد وجد هؤلاء في الحروب الصليبية منفذاً الى حياة افضل. .. ونستطيع القول انه لو كان لهؤلاء الجموع أن ينعموا بحياة فيها كرامة العيش لما كانوا قد غامروا بالجري وراء دعوة الكنيسة لهم.

تدريب (1)

بين ابعاد الباعث الاقتصادي على الحروب الصليبية ؟

تدريب (2)

لماذا شملت الحروب الصليبية عناصر متعددة وفئات كثيرة من الأوربيين ؟

تدريب (3)

لماذا اعتبرت الحروب الصليبية في نظر بعض المؤرخين حلقة من حلقات الصراع بين الشرق والغرب؟

د. ميزان القوى: كل الأسباب التي تحدثنا عنها لم تكن لتحدث تغييراً في الاوضاع ولم تكن لتغير من الأمر الواقع شيئاً لو أن ميزان القوى بين الشرق والغرب لم يتغير لصالح الغرب ضد المسلمين. فالمسلمون الذين عانوا من الانقسام الداخلي ما عانوا، لم يكن بإمكانهم الصمود أمام الصليبيين بل ان السبب الأساس في نجاح الحركة الصليبية كان عدم الاتحاد في صفوف هؤلاء المسلمين، عزيزي القارئ، وذلك للأسباب والعوامل الآتية: -

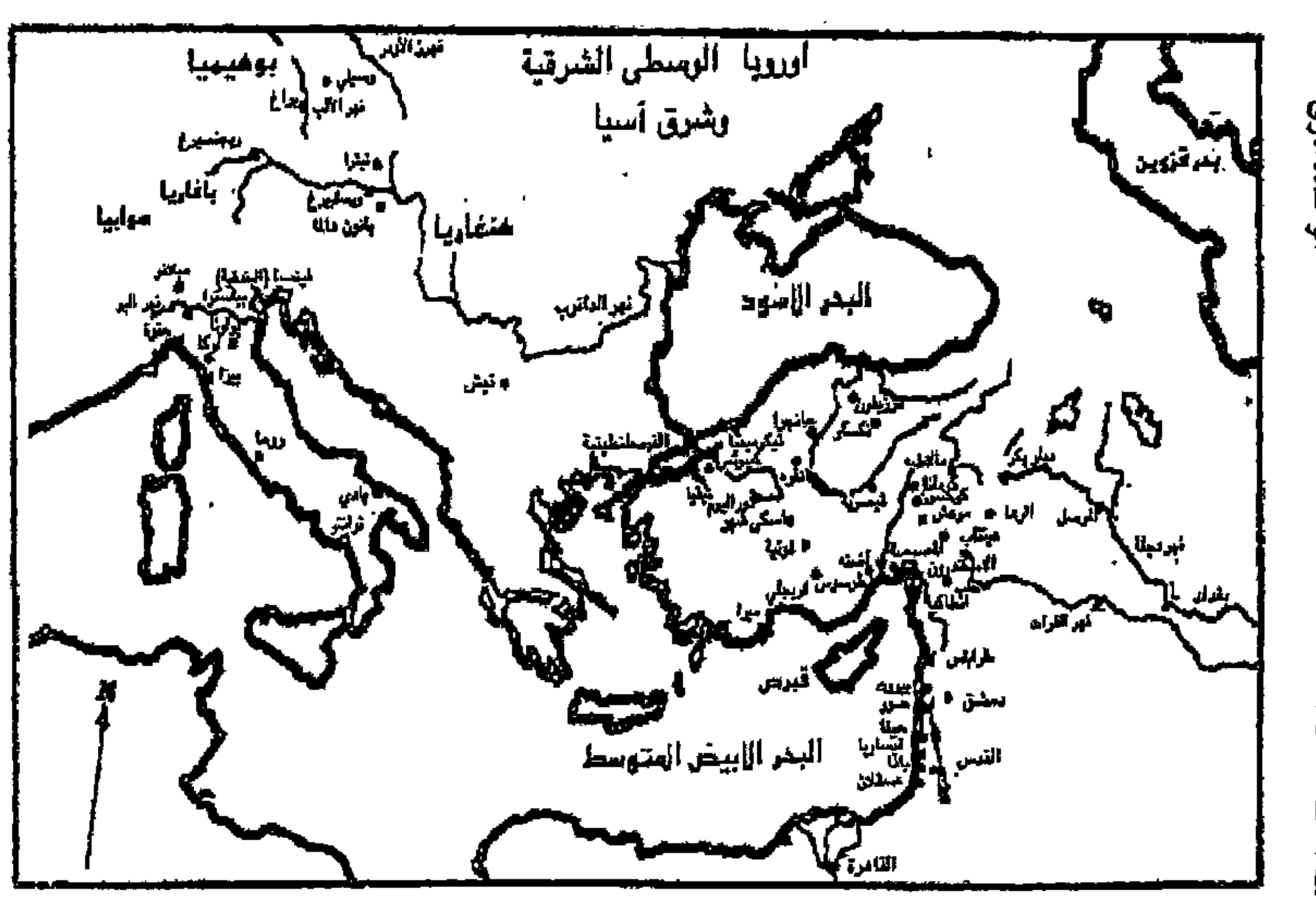
1. فمن ناحية كان هنالك صراع بين الخلافتين: الفاطمية وعاصمتها القاهرة من ناحية، والعباسية وعاصمتها بغداد من الناحية الاخرى. وزاد في اوار هذا الصراع وشدته الخلاف العقائدي والمذهبي بين الطرفين؛ فبينما كانت الخلافة الفاطمية اسماعيلية المذهب والهوى كانت بغداد مركز السنة والمدافع عنها. ولذلك فإننا نلمس ان الفاطميين لم ينظروا الى الصليبيين على انهم خطر يختلف كثيراً في تهديده لمصالحهم عن الخطر السني الذي تمثَّل في العباسيين وسلاطينهم من الاتراك السلاجقة. وقد لاحظ المراقبون لتطور الأحداث على جبهة الاراضي المقدس أن حماسة الفاطميين لصد الصليبيين وحماية ارض الاسلام منهم كان فاتراً وظاهراً اكثر منه حقيقياً وجوهرياً.

2. ومن ناحية اخرى كان هنالك النزاعات الداخلية في كل من الجبهتين السابقتين الفاطمية والعباسية. ..فبينما تصارعت المليشيات السودانية والمغربية والارمنية على ارض مصر. .. فقد تعددت الفتن المسلحة في القاهرة نتيجة المجابهات بين ميليشيات البربر والترك والسودان ولذلك - وكما يقول ايليسيف - لم يكن لوصول الصليبيين الى الشرق اي رد فعل على ضفاف النيل. (ايليسيف ص 383).

وفي المشرق، في العراق وايران، وبدءاً من 1069 تفاقمت المنازعات العائلية بين السلاجقة فتفتت امبراطوريتهم الواسعة. وتلك كانت خسارة كبرى لان القوة السلجوقية وحدها كانت قادرة على الوقوف في وجه الصليبيين. فسورية ارض المواجهة الاولى للصليبيين قطعت الى شطرين بحكم اقتسامها بين الوريثين للسلطان السلجوقي تتش وهما دقاق حاكم دمشق ورضوان صاحب حلب. وكان دقاق لا يهتم ابداً بالأحداث الجارية في الشمال. أما حلب فصاحبها رضوان لاهمَّ له سوى الاحتفاظ بمركزه المهدد من قبل جيرانه السلاجقة الطامعين به. ومن ناحية اخرى فإن السلاجقة الروم بزعامة قليج ارسلان اكتفوا بمصارعة البيزنطيين والمحافظة على حالة من التوازن معهم. ولم يكن هنالك هدف ابعد من هذه الاهداف. وقد

اشرنا سابقاً ان سبباً رئيساً من اسباب الحروب الصليبية هو اهتزاز هذا التوازن لصالح المسلمين بعد معركة ملاذكرد (مانزكرت 1071) الامر الذي دفع بالامبرطور اليكسوس كومنين الى الاستنجاد - مذعوراً - بالبابا حتى لا تقع القسطنطينية في ايدي المسلمين !.

هـ - اسباب وعوامل اخرى: لم تكن الاسباب المختلفة التي اشرنا اليها اعلاه، هي الوحيدة التي حركت جحافل الصليبيين نحو المشرق بل كان هنالك اسباب اخرى ذات علاقة بالنفس الانسانية نفسها، وبما جبلت عليه من حب المغامرة وحب الحرب فقد وجدت شخصيات كثيرة حركتها الروح نحو الاكتشاف والبحث عن الجديد والرغبة في ارتياد آفاق جديدة مثيرة. وقد وجد أناس كثيرون حرّكتهم روح الفضول والرغبة في معاناة تجربة جديدة. ولكن الحقيقة الكبرى التي تستوقفنا في اسباب الحروب الصليبية هو تذويب التناقض بين الواقعي والمثالي. فقد اصبح في مكنة الجندي الصليبي أن يلبي اشواقه الروحية بدون ان يضحي بصفته العادية او كونه رجلاً عادياً (layman) وبدون ان يحتاج إلى ان يجشم نفسه عناء حياة الرهبنة! وقد كونت هذه الناحية في معاناة الناحية الدينية - في جوهرها وبدون الشكل - جاذبية هائلة - للفرد المسيحي باعتباره سيحصل على امتياز تقبيل الصخرة التي مات عليها المنقذ وأن يركع على ضريحه! (Stevenson P.4).


اوروبا الوسطى الشرقية
وشرق آسيا
بوهيميا
بافاريا
سوابيا
هنغاريا
بحر قزوين
البحر الأسود
نهر الدانوب
القسطنطينية
الموصل
نهر دجلة
نهر الفرات
بغداد
الرها
طرابلس
دمشق
قبرص
البحر الابيض المتوسط
القاهرة

ومهما يكن من أمر فان في إمكاننا تلخيص اسباب الحروب الصليبية من خلال اقوال دارسين معينين. . فهذا محمد كرد علي يقول: اتفق ان بعض زوار الاوربيين في الارض المقدسة شاهدوا شيئاً من العنف في بيت المقدس لم يكن لهم عهد به في ادوار الحكومات العربية القومية، وانقلبت سماحة العرب إلى جفاء من خلفوهم من التركمان، فعاد الزوار يقصون ما لاقوا من الشدة في الشام ويعظمون الامر. وكان التعصب الديني يومئذ على اشد حالاته في الغرب، ومعظم حكوماته تدين بدين البابا وتخضع لسلطانه القاهر... فأوعز البابا الى أمم النصرانية في الغرب ليهبوا كلهم الى انقاذ القبر المقدس من ايدي المسلمين. . (قلعجي ص-36ص(39.

وهذا فيليب حتيّ يقول «ليس كل الذين حملوا اشارة الصليب فعلوا ذلك عن دوافع روحية. فقد كان عدد من زعمائهم ومنهم بوهمند، قد قصدوا بحركتهم هذه ان يفتتحوا اراضي جديدة لهم يرفعون عليها رايتهم. اما تجار بيزا والبندقية وجنوة فقد كان رائدهم خدمة مصالحهم التجارية. ومن هنا فقد كانت عوامل هذه الحروب الصليبية تشمل مطامع المغامرين واهل الخيال فضلاً عن آمال الأتقياء المخلصين. والواقع ان حمل شعار الصليب عند جمهور الناس في فرنسا واللورين، وايطاليا وصقلية في ذلك الزمن، بالنسبة لحالة البؤس التي كانوا عليها، والأزمة الاقتصادية وانحطاط الحالة الاجتماعية كل ذلك لم تكن تضحية من قبلهم بل تفريجا لكربتهم (Hitti P.636).

اما نقولا زيادة فيتحدث عن هذا الخليط العجيب من البشر الذي اسهم في الحروب الصليبية انعكاساً للاسباب المختلفة التي تحدثنا عنها: نفسية ودينية وسياسية واجتماعية الخ... «كان في الجيوش الصليبية، ومع التجار الصليبيين الفرنسيون من مختلف المدن واللومبارديون، من مدن ايطاليا التجارية الشمالية، والمالطيون والاسبان والاسكندنافيون والانجليز والهنغاريون والبلغار والجرمان من القبائل المتفرقة في أواسط اوربا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون. وكانت قلاعهم الخاصة حصينة. وكان من بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين: القاتل واللص وقاطع الطريق والمجرم والقرصان والسكير واللاعب والراهب والراهبة والرجل والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليها بالاعدام والملك والأمير والفلاح والتاجر والنبيل والغني والفقير. وباختلافهم اختلفت الغايات والاطماع من دينية خالصة الى مادية بحتة. والاخيرة هي التي غلبت متسترة

بالأولى، وقد كان هناك من يفتش عن اميرة شرقية غنية يتزوجها». (المقتطف 1935، يولية ص196).

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1. كيف كان تفاوت ميزان القوى بين الغرب والشرق سبباً للحروب الصليبية ؟
2. لماذا تعددت فئات المشاركين في الحروب الصليبية ؟

7. الدعوة للحملة الصليبية الاولى

لم تكن للعوامل والاسباب ان تفعل فعلها لو أنها استمرت في حالة سكونية (Static) وليست متحركة (dynamic) ولكن وجد لها ما حركها وجعلها تتفاعل لكي تؤدي غرضها في حفز الناس على التحرك الحربي الصليبي. ومن بين هذه العوامل المحركة يمكن أن نذكر، عزيزي القارئ:-

1.7 الإعلام الخبيث

فقد كان دعاة الحرب يصورون المسلمين لأبناء أوربا على انهم أكلة لحوم البشر وذئاب الانسانية وأعداء المسيح وغير ذلك من الصور التي يقول المؤرخ الانجليزي جيبون عنها: **«ولم تكن هذه التهم سوى نتيجة الجهل والتعصب، وهي صورة ينفيها القرآن ويكذبها تاريخ الفاتحين وتسامحهم مع المسيحية في الحياة العامة وفي الشرائع والقوانين».**

2.7 الزخم الدعائي

وقد ولد هذا الزخم حوافز كبيرة بحيث حصل بين الجنود الصليبيين ما يسميه هالام **«الجنون الوبائي»! حيث يقول: «انه لم تترك وسيلة الا اتبعت لإذكاء هذا الجنون الوبائي. فكان الجندي عندما يلبس الصليب مُعفىً من الديون والضرائب. وكان شخصه محمياً من قبل الكنيسة التي كانت تغفر له ذنوبه وآثامه وتضمن له الخلود الأبدي» (قلعجي ص 34).**

على ان المحرك الاول للحروب الصليبية – على مستوى دور القائد في التاريخ-.. بل لعله اصلح شخصية معاصرة لتنفيذ المشروع الصليبي الجديد هو البابا اريان الثاني ويتجسد دوره الكبير في بعث الحركة الصليبية في مؤتمر كليرمونت من نوفمبر عام 1095م، فقد انقضت الايام التسعة الاولى في مناقشة المشاكل الكنسية، حتى اذا ما تم ذلك وجه البابا دعوته في اليوم العاشر الى المسيحيين جميعاً للاتحاد لاستخلاص الاراضي المقدسة من المسلمين (عاشور جـ1 ص 132). ويلاحظ أن البابا وجه دعوته للقادرين والفقراء ليترك الجميع نزعاتهم ومشاحناتهم ويركزوا جهودهم في امر واحد هو محاربة المسلمين في الشرق، وسيكون جزاؤهم رعاية الله ومباركة الجهود وغفران الذنوب... ولم ينس البابا دعوة مستمعيه الى الإسراع في تقديم النجدة بحيث يكون جميع المتطوعين على أهبة المسير الى الشرق مع بداية فصل الصيف (Chalandan P. 37 – 39).

ومهما يكن من أمر فإن من يقرأ للمؤرخين المعاصرين بشيء من التمعن يخرج بأن فكرة الحروب الصليبية إنما نبعت من خطاب البابا اربان الثاني في مجمع كليرمونت وليس كما اعتقد الكثيرون وحتى القرن التاسع عشر انها نابعة من دعوة بطرس الناسك وخطبه ومواعظه. جدير بالقول، عزيزي القارئ، ان نداء البابا لم يلبث ان صادف استجابة كبيرة من جمهور الحاضرين في كليرمونت فصاحوا جميعاً صيحة رجل واحد: «هذه مشيئة الله، وكانت هذه الصيحة ذات صدى تاريخي واسع اذ كانت ايذاناً ببداية صفحة جديدة في تاريخ الحركة الصليبية وسيقدر لتأثيرها ان يستمر عدة قرون (Vasiliev II P.402).

اثارت دعوة البابا حركة شعبية ضخمة ترجمت عن نفسها في شكل تجمعات ضخمة العدد. وارتبطت في التاريخ بشخصية بطرس الناسك، الذي واكبه وسايره كثير من الدعاة الذين شكلوا اجهزة اعلامية متحركة في طول غرب القارة الأوربية وعرضها.

أما شخصية بطرس الناسك الذي كان على رأس الدعاة فهو رجل متقدم في السن حاول ان يقوم بالحج الى بيت المقدس. ولكنه تعرض في طريقه لبعض المخاطر من الاتراك فعاد الى بلده دون ان يحقق غايته، ويصل الى هدفه في الحج، مما ولدّ اثراً سلبياً في نفسه (Setton op. cit p.78).

ومهما يكن من أمر فإنه يمكن ان نضرب المثل ببطرس الناسك على ما يمكن ان تولده شخصية دينية معينة من حماسة دينيّة يمكن ان تصل الى درجة الهوس. ..فهذا رجل قصير القامة، ضعيف الجسد، ثيابه مهلهلة وقدماه عاريتان وله حمار اعرج ليس لديه من معاني القوة والتأثير سوى فصاحته وهيئته الغريبة، هذا الرجل أصبح شخصية خطيرة وذات تأثير خطير على جماهير العامة والدهماء في غرب أوربا، بحيث يكون لكلامه وقع السحر عليهم، فهم لايكادون يسمعون كلامه حتى تغلب عليهم الحماسة وتسيطر عليهم النشوة ويشرعون في الزحف نحو الشرق، لايلوون على شيء، ويدون أعطاء ادنى فرصة للعناصر المنظمة في الحركة الصليبية ان تستوعبهم وتنظمهم من الناحيتين السياسية والعسكرية.

وقد مضى الناسك في الدعوة الصليبية. ..يدعو اليها بقوة ويطوف من اجلها اقاليم فرنسا وشامبني واللورين، وقد خرج من هذه الاقاليم بعدد كبير من الأتباع بلغوا حوالي (15) الفاً اصطحب بعضهم نساءهم واطفالهم.

وقد زاد في اقبال هذه الجماهير، التي خرجت عن مركز ثقلها، على الانخراط في صفوف

الدهماء الذين ساروا وراء بطرس الناسك كأنما هم مُسَيّرون في نومهم او انهم مرتبطون به برباط سحري لا يبين! نقول زاد في إقبالهم ان الحروب والمنازعات بين الامراء والاقطاعيين كانت سبباً في الاخلال بالأمن ومدعاة لتعرض حياة هؤلاء الناس للهلاك.. فإذا أضيف الى ذلك كله النكبات التي اصابت – في هذا الوقت – بويلاتها غرب اوربا، ادركنا السرّ الحقيقي وراء إقبال هؤلاء المعدمين.. فليس لديهم ما يخسرونه وكان لسان حالهم يقول انهم بدلاً من أن يموتوا من الجوع في قراهم ومدنهم، محملين بما يكونوا قد ارتكبوه من ذنوب في حياتهم، فإن بامكانهم ان يموتوا في حرب مقدسة في أرض مقدسة مما يضمن لهم الغفران ويعوضهم عن حياتهم التعيسة بالجنة! (Runciman I P.114 – 115).

وأخيراً سارت هذه الجموع في طريقها المحتوم نحو الديار المقدسة، وقد رحب الحكام البيزنطيون بطلائع هذه الجموع، وبالذات جماعة وولتر المفلس، زميل بطرس الناسك، بالرغم من السلب والنهب. وقد لاحظ المراقبون او لعلهم لمسوا ما كان متوقعاً من هذه الجماهير ذات المظهر الرث الجاهلة بأصول الحرب بل بأبسط مبادىء القتال. وقد شق هؤلاء طريقهم الى صوفيا وأدرنه حتى وصلوا الى القسطنطينية في تموز يوليو 1096. وهناك سمح لهم الامبراطور البيزنطي ألكسيوس كومنين بالانتظار خارج أسوار القسطنطينية حتى وصول بطرس الناسك.

وقد دفع جشع هؤلاء الحجاج البؤساء، الباحثين طوال الوقت عن الطعام، الى ان يحدثوا مذبحة رهيبة في بلدة سيملين Semlin، في هنغاريا، أسفرت عن قتل (4) آلاف من الأبرياء، ولم تثنهم هذه ان يستمروا في مسيرتهم حتى وصلوا في نهاية المطاف الى اسوار القسطنطينية، كما كان من شأن من سبقوهم، في اول اغسطس 1096 حيث وجدوا وولتر المفلس في انتظارهم. (Cam,Med,Hist,V.5 PP. 275 -276).

شكل تجمع هؤلاء الحجاج من أتباع بطرس الناسك وولتر المفلس متاعب كثيرة للدولة البيزنطية، اذ ما انفك الصليبيون يواصلون نهب القرى والضياع المجاورة، يحصلون على قوتهم من أيدي الأهالي بالقوة! بل ان الكنائس لم تسلم من اعتداءات هؤلاء الرعاع. كل هذا

وهم لا يعلمون أن قاعدة قليج أرسلان السلطان السلجوقي ليست الا على بعد اميال قليلة منهم.

وعلى أرضية اللقاء مع السلاجقة واجه هؤلاء الصليبيون حتفهم! فقد باغتهم السلاجقة ولم تستطع غالبيتهم ان تقاوم. وهنا أعمل السلاجقة فيهم ذبحاً وتقتيلا...وهم لا يستطيعون

الدفع عن انفسهم حتى انه لم ينج من كل هذه الجموع سوى ثلاثة آلاف. كانت نجاتهم على يد الامبراطور ألكسيوس كومنين الذي عندما سمع بنبأ الكارثة قام بإرسال بعض سفن اسطوله لحمل إمدادات الى الصليبيين. ولكن ذلك كان بعد الكارثة وبعد فوات الأوان! فحملت فلول الصليبيين الى القسطنطينية حيث ظلوا في حماية الامبراطور حتى وصول حملة الامراء.

وبهذا يمكننا القول ان حملة العامة التي قادها بطرس ومعه وولتر المفلس من رعاع الناس. ولم تكن بقية الحملات المماثلة التي قادها فولكمار - وجوتشوك واميخ احسن حالاً. بل على العكس صارت كلها وصمة عارٍ سوداء في تاريخ الحركة الصليبية (عاشور حركة جـ1 ص140).

أسئلة التقويم الذاتي (6)

1. حلل شخصية بطرس الناسك كزعيم ديني للحروب الصليبية ؟

2. بين كيف فشلت حملة العامة في الوصول الى الاراضي المقدسة ؟

8. الخلاصة

عالجنا في هذه الوحدة اول، عزيزي القارئ، ما عالجنا: مفهوم غزو الفرنجة (الحروب الصليبية) واهدافه وادواره ودارت محاور البحث على الجوانب التالية: -

فمن حيث مفهوم الحروب الصليبية واسبابها وجدنا ان الحروب الصليبية ليست سوى نتيجة ما يعرف بعملية الإحياء الديني والتي هدفت الى اقامة نوع من ثيوقراطية دينية، وقد ترتب عليها عودة البابوية الى عزها القديم وسطوتها السابقة. وقد كان من مبادىء هذا الإحياء الديني، وهذه الحركة الدينية بأن لا يحارب الأخ اخاه، ولذلك جرى البحث عن متنفس خارجي، هو الحج بالجملة الى الاراضي المقدسة بالشام. ومن هذا الحج الجماعي ستولد حركة مقاتلة في سبيل العقيدة المسيحية، فيما سمي فيما بعد الحرب الصليبية.

ومهما يكن من امر فقد اختلفت التفسيرات حول الحروب الصليبية: فهناك من المؤرخين من اعتبرها جولة من جولات الصراع بين الشرق والغرب. كما ان فريقاً آخر من المؤرخين، اعتبرها حلقة اخيرة في سلسلة الهجرات الكبرى التي جاءت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية.

وعلى اية حال، فإنه يمكننا ان نعرف الحروب الصليبية بأنها: حركة نبعت من الغرب المسيحي واتخذت شكل هجوم عسكري...وقد كان لها جذور فكرية واجتماعية واقتصادية ودينية.

اشرنا، في سياق التحدث عن الحروب الصليبية، الى موضوع الحروب الصليبية في الاندلس، هذه الحرب التي اخذت شكل جولات انتصر فيها المسيحيون واستولوا على اهم معقل للمسلمين، ونعني بها طليطلة، الامر الذي ولد رد فعل من قبل المرابطين في المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين الذي عبر جبل طارق، وانتصر على الفونس السادس في موقعة الزلاقة سنة 1086، ولم يلبث ان استولى على بلاد الاندلس بكاملها ما عدا طليطلة. وقد لعب الموحدون الذين جاءوا من بعد المرابطين دوراً مكملاً لدورهم، ونجحوا في ضم الاندلس الى بلادهم.

وجرت الاشارة ايضاً في هذه الوحدة الى الادوار التاريخية للحروب الصليبية ومداها الزمني. فقد استمرت هذه الحرب من عام 1095 الى عام 1291 وإن كان تحديد تاريخ معين للبداية والنهاية لهذه الحروب عملية غير دقيقة ان لم تكن خاطئة. فجذور الحروب الصليبية

ابعد الى الخلف من عام 1095 وامتداداتها واستمرار هجماتها استمر اكثر من عام 1291. كما ان ترقيم هــذه الحمـلات غـير مـبرر تماماً لأنـه لـم يكـد يمـر عام، دون وصول حملة صليبية جديدة.

أضأنا كذلك، عزيزي القارئ، في هذه الوحدة احوال اوربا عشية الحروب الصليبية:

- فمن الناحية الدينية مرّت الكنيسة في هذه الفترة منذ القرن الحادي عشر عبوراً الى القرن الثاني عشر، بفترة انتصار على الملكية، وشعرت بقوة جبارة لابد من تفجيرها ليس محلياً فحسب وانما في الخارج أيضاً، فجاءت الحملات الصليبية لتفجير النشاط المكبوت والحماسة الكامنة.

ولابد ونحن نبحث في الناحية الدينية من اضاءة دور البابا إربان الثاني الذي اراد السيطرة على ديار الاسلام واستخلاصها من المسلمين.

- ومن ناحية الباعث المدني نجد على رأس الاوضاع المدنية حالة استحكام الازمة الاقتصادية في اوربا، فالاوربيون الجياع والفقراء بحثوا عن حل لمشكلتهم في المشرق.... كما ان من يتصدى للأوضاع الاقتصادية لابد له من ان يعرج على موضوع المدن الايطالية التي شكلت رافعة للحروب الصليبية، ولم يكن يحركها - اي المدن - اي دافع سوى الكسب المادي. ومن جملة العوامل الاقتصادية، طمع الأوربيين في خيرات الشرق وارض اللبن والعسل، كما ان فرسان الاقطاع وأمراءه تطلعوا الى اقامة اقطاعيات لهم في الشرق الاسلامي.

- واما من ناحية الباعث السياسي فنجد ان هذا الباعث انما نجم عن تغلب البابوية على الملوك الأوربيين الذين لم يكن في مكنتهم - على هذا الاساس - ان يعصوا للبابوية أمراً، بل ان من كان يماطل في الخروج في حملة صليبية كان مهدداً بتسليط عقوبة الحرمان الكنسي عليه.

كما ان شقاً آخر من الباعث السياسي كان له اثره في تحريك الحروب الصليبية، ونعني به طمع كل امير صليبي من ان يظفر باقطاعية له استجابة لرغبة الرفعة والسيطرة والتملك.

ولكن هل كانت هذه العوامل الدينية والمادية / السياسية والاقتصادية هي المحرك الوحيد للحروب الصليبية. ..كلا! فقد كان ميزان القوى لصالح للصليبيين بالنظر للصراع الداخلي في المعسكر الاسلامي ونعني به الصراع بين الخلافتين الفاطمية والعباسية... وفي داخل هذين المعسكرين كان هنالك خلافات اشد وقعاً وابعد تأثيراً.

عالجنا في هذه الوحدة - ايضاً - الدعوة للحملة الصليبية، وكيف أثّر الاعلام الخبيث في تشويه صورة المسلمين - من اجل تبرير غزوهم - وتصويرهم على انهم أكلة لحوم بشرية.

لكننا وقفنا وقفة خاصة عند دور القائد في التاريخ وتحدثنا عن دور اربان الثاني بصفته باعث الحروب الصليبية، في مؤتمر كليرمونت سنة 1095. هذا البابا الذي اثارت دعوته حركة شعبية ضخمة، ترجمت عن نفسها؛ شكل تجمعات ضخمة ارتبطت في التاريخ بشخصية رجل دين آخر وهو بطرس الناسك... فبطرس الناسك الذي كان رأس الدعاة - خرج بطلائع الصليبيين الذين واجهوا مأساة كبيرة على الطريق الى بيت المقدس، عندما لاقوا حتفهم تقريباً، على يد السلاجقة في آسيا الصغرى، ومن تبقى منهم لجأ الى القسطنطينية، حيث احتضنهم ألكسيوس كومنين امبراطور البيزنطيين حتى وصول حملة الامراء - الحملة الاولى.

9. لمحة مسبقة عن الوحدة الثانية

سنعالج في موضوع الوحدة الثانية، الحملة الصليبية الاولى وسنبحث في امر قادة هذه الحملة وخلفياتهم وطموحاتهم. ..كما ستتحدث عن مسيرة هذه الحملة من أوربا الى القسطنطينية ومن القسطنطينية الى الرها وأنطاكية. ومن أنطاكية الى بيت المقدس.

وستتناول دراستنا لهذه الحملة تأسيس الامارات الصليبية بدءاً بإمارة الرها وانتهاء بامارة طرابلس. وسنضيء ابعاداً كثيرة في دور القادة الصليبين في تأسيس هذه الإمارات. وسنولي موضوع القدس ما يستحقه من البحث والدراسة.

وسنختتم دراستنا في الوحدة الثانية عن اسباب انتصار الصليبيين بما تشمل من دور للقادة ودور لضخامة الجيوش ودور للامبراطور البيزنطي ودور رابع للمدن الايطالية التي عمل دورها بمثابة رافعة للحروب الصليبية.

10. اجابات التدريبات

تدريب (١):
كان هنالك اكثر من بعد اقتصادي للحروب الصليبية:

1. فقد استحكمت ازمة خطيرة في اوربا في نهاية القرن الحادي عشر. ونجد هذا واضحاً في تحرك العامة. في حملتهم التي جاءت قبل الحملة الاولى. هنا ظهر الجوع الى الطعام محركاً رهيباً لجماهير لهذه الجموع البشرية الجائعة.

2. شكلت المدن التجارية، التي عملت كرافعة كبرى للحروب الصليبية. هذه المدن مثل البندقية وبيزا وجنوة، لم يكن يحركها سوى المكاسب المادية ولذلك كان لابد من مردود اقتصادي يأتي لهذه المدن جزاء جهدها المبذول في الحروب الصليبية ولذلك كانت تستولي على شارع وسوق وفندق في المدن التي تساعد في احتلالها. وكما يقول المؤرخ ابليسيف:« الجمهوريات الايطالية كان لها دية واحدة هي دية المال وذلك سبب زوالها».

3. طمع الأوربيين في خيرات الشرق. . بحيث اصبح الوضع طمعاً استغلالياً وقد وضح هذا من خطاب البابا اربان الثاني في خطابه الشهير في كليرمونت الذي دعا الجماهير المسيحية الى الرحيل الى «ارض اللبن والعسل».

4. ادت طبيعة النظام الاقطاعي الى جعل الامراء الفرسان يلبون نداء البابا في الإسهام في الحروب الصليبية، لعلهم ينجحون في تأسيس امارات لهم في الشرق. وحتى من يمتلكون الاقطاعيات في الغرب من الامراء رغبوا في حيازة امارات جديدة في الشرق.

في الواقع ان العناصر التي شملتها الحروب الصليبية، تعدّدت بتعدد ابعاد الحياة واختلاف الخلفيات التي نبعت منها العناصر الصليبية ولأسباب تتعلق بالسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس... والقارئ المدقق يجد ان هذه العناصر تشكلت من الفئات والقطاعات التالية:

1. فهنالك فئات جبلت على حب المغامرة وحب الحرب. وقد وجدت هناك شخصيات كثيرة حركتها الروح نحو الاكتشاف والبحث عن الجديد والرغبة في ارتياد آفاق جديدة مثيرة. وقد كان هنالك اناس كثيرون، حركتهم روح الفضول والرغبة في معاناة تجربة جديدة.

2. هنالك قطاع كبير تمكن من الانخراط في الحروب الصليبية لأنها حلّت له التناقض

الرئيس في وجوده وكيانه بين الواقعي والمثالي. فقد اصبح في مكنة الجندي الصليبي ان يلبي اشواقه الروحية بدون ان يضحي بصفته العادية او كونه إنساناً عاديا (layman) وبدون ان يجشم نفسه عناء حياة الرهبنة. وقد شكلت معاناة هذه الناحية جاذبية هائلة للألوف باعتبارهم سيحصلون على امتياز بتقبيل الصخرة التي مات عليها المنقذ وان يركع على ضريحه.

3. تحدثنا سابقاً عن هؤلاء الذين حركهم الدافع الاقتصادي دون غيره على مستوى الافراد مثل بوهمند او على مستوى سكان المدن التجارية.

4. هنالك قطاع كبير انخرط في الحروب الصليبية بالنظر لحالة البؤس التي كان عليها بسبب الازمة الاقتصادية التي عانوا منها وانحطاط الحالة الاجتماعية. فقد نظر أفراده الى الحروب الصليبية كنوع من التفريغ لكربتهم.

5. ويرى بعض المؤرخين، أن المجتمع الاوربي كان يتشكل في جزء منه ويعيش على هامشه عادة عناصر غير مرغوبة وجدت مكاناً في صفوف الصليبيين، فقد كان هناك القاتل واللص وقاطع الطريق والمجرم والقرصان والسكير واللاعب والراهب والرجل والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليها بالإعدام، إضافة إلى الملك والأمير والفلاح والتاجر والنبيل والفتى والفقير...

تدريب (3):

منذ وجدت البشرية بصفتها الحضارية، وجد هذا الصراع بين الشرق والغرب، ففي التاريخ القديم كان هنالك صراع بين الفرس القادمين من الشرق واليونانيين الغربيين. وموقعة الماراثون والحرب البلونيزية البحرية مثال جيد على هذا الصراع. وفي هذا المجال يمكن اعتبار حروب الاسكندر الأكبر ضد الملك دارا الثالث الفارسي، صفحة اخرى من هذا الصراع بين اليونان الغربيين والفرس الشرقيين.

وقد امتد هذا الصراع عبر العصور الوسطى مع مجيء الاسلام وانطلاقه بفتوحاته العظمى واصطدامه بالتالي - بالعالم المسيحي الغربي واستيلائه على اسبانيا ووصوله الى مرتفعات البرانس في فرنسا، وسيطرة قواته على كثير من المواقع على الشاطىء الاوربي للبحر المتوسط (جنوب ايطاليا وصقيلة)

حتى اذا وقعت الحروب الصليبية كانت بمثابة امتداد لهذا الصراع. او انها رد على الفتوحات

الاسلامية في الاراضي الاوربية. وقد استمرت هذه الحروب اكثر من اي حرب سبقت، في مد متواصل اكثر من مائتي عام.

ولا يكتفي المؤرخون بالوقوف عند هذه الحروب، بل يعتبرونها خطوة في طريق طويل استمر بعد ذلك، وظهر واضحاً من الهجمة الاستعمارية الغربية الحديثة على عالم الاسلام في الشرق، بدأ هذا في الكشوف الجغرافية البرتغالية والهولندية والفرنسية والانجليزية، الى الحملة الفرنسية (1798) مروراً بالغزوات الاستعمارية الغربية في القرنين التاسع عشر والقرن العشرين، والممثلة بغزوات فرنسا وبريطانيا وايطاليا... والتي لم نستطع أن نتحرر من تأثير بعضها حتى وقتنا الراهن...

11. مسرد المصطلحات

الإحياء الديني:

وهي حالة من النهضة الدينية، عادت فيها الكنيسة الى احتلال مكانتها الدينية الكبرى في سياق الحياة الاوروبية بحيث تفوقت وتميزت البابوية على الملكية، وبحيث احتلت الامور الدينية الكنسية اهمية خاصة تمثلت في الصلاحيات الكبرى التي مارستها الكنيسة من موقعها القوي والنافذ.

الأراضي المقدسة:

هي بلاد الشام او سوريا الكبرى حيث تقع أهم المقدسات المسيحية وبخاصة في القدس وفلسطين.

الإعلام:

هو الوسائل المختلفة التي تُستخدم للدعوة لقضية معينة سواء أكانت خطابة أم صحافة أو منشورات أم رسائل. ..أم احاديث عادية هادفة الخ. .

الاقنان:

جمع قن (بكسر القاف) وهي تعني الفلاح المرتبط قانونياً أو بحكم العادة إلى الأرض أو إلى خدمة السيد الاقطاعي. والقن لا يستطيع ان يغادر الأرض بأرادته، كما لا يستطيع أحد أن يجبره على أن يغادر هذه الأرض. ولكن كان يباع، فقط، عندما تباع هذه الأرض لسيد آخر.

البابا:

أسقف أو مطران روما، والرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والذي هو وبحسب العقيدة الكاثوليكية، يستمد سلطته من السيد المسيح، ويقوم بدور النائب له.

البابوية:

كلمة مشتقة من كلمة بابا والمقصود بها وظيفة أو سلطة البابا.. كما انها تعنى مدة حكم البابا، كما تعنى أيضاً نظام حكم الكنيسة الكاثوليكية في روما، والتي يشكل فيها البابا السلطة العليا.

الحرمان الكنسي:

وهو الحرمان الذي يعلنه البابا على شخص معين ولا يُستثنى منه الملوك، بحيث يحرم من يعلن عليه هذا السلاح من ان تقام معه أي علاقة من قبل المجتمع المسيحي المحيط به، كما انه اذا توفي لا يدفن حسب الطقوس المسيحية.

الحرب المقدسة:

الحرب الدينية التي قامت تحت لواء الصليب والتي اعتقد المشاركون فيها ان جزاءهم الجنة!

الحروب الصليبية:

حروب شنها المسيحيون من فرنجة الغرب، من حملة الصليب على المسلمين في بلاد الشام ومصر، وكانت أهم معاركها بين عامي 1095 و 1291.

دول الطوائف (في الاندلس):

وهي دويلات متناحرة حكمت في عهد الضعف في العهد العربي في الاندلس.

العامة أو الدهماء:

المقصود بها الجماهير العريضة التي يمكن تجميعها وراء شعار معين، وهي تنساق عادة وراء هذه الشعار الجذاب بدون كثير من التفكير والتعمق في النظرة، ومن المعروف انه قامت حملة صليبية باسم هؤلاء العامة سميت حملة العامة.

ميزان القوى:

هو المعيار الذي تقاس به قوة دولة او جهة معينة بالنسبة لدولة اخرى او جهة اخرى.

مملكة اللاتين الصليبيين في بلاد الشام

- سلطنة الروم نهر سمتي جبيل
- امارة بنى أرتق في ديار بكر مرعش راسشيا

- امارة ارمينيا مامسترا دمش
- امارة الرها أضنه كسوه
- اتابكية الموصل طرسوس بيروت
- امارة انطاكيه قليقيه صور
- مملكة حلب انطاكيه بانياس
- امارة شيزر ملاطيه عكا
- امارة حمص سميصاط عيزرا
- امارة طرابلس الرّها المزيريب
- مملكة دمش سَروج نهر الفرات
- البحر المتوسط طوريل حيفا
- مملكة القدس ديار بكر يافا
- مصر نهر دجله عسقلان
- الجزيرة العربية حرّان غزه
- حصن الكرك (الشوبك) الرَّقة طبريا
- حلب نابلس
- سان سيمون القدس
- نهرالعاصي بيت لحم
- اللاذقية الخليل
- نيقوسيا نهر الأردن
- قبرص بُصرى
- مرقب جرش

- طرطوس الكرك (مؤاب)
- شيزر
- حماة
- حمص
- طرابلس

أوربا الوسطى والشرقية وشرق آسيا

- نيكوميديا نهر الأُودر
- جانجرا نهر الألب
- كيبوتس وسيلي
- انقرة براغ
- نيقيا ريجنسبرغ
- دور اليوم نيترا
- اسكى شهر ويسلبيرغ
- قيصرية بانون هالا
- قونية ميلانو
- أضنة فينيسيا «البندقية»
- طرسوس نهر البو بياسنزا
- اريجلى جنوة
- مسيرا بولونا
- مالاطيه لوكا

- كومانا بيزا
- كوكسون روما
- مرعش باري
- الرها ترانتو
- المصيصة نيش
- عينتاب نهر الدانوب
- الاسكندرون القسطنطينية
- حلب مرزيفون
- نكسار

الحملة الصليبية الأولى

- البحر الأسود القسطنطينية طرسوس
- بافلاجونيا نيقوميديا سان سيمون
- امارات الدنشماند نيقيـــه الرهـــا
- أرمينية هرقليـــا سروج
- الاراتقة قسطمونى اليونان والبنادقه
- الأرمن سيتوب الانجليز والاسكدنافيون
- مملكة حلب نكســـار البيازنه والجنديون
- اتابكة الموصل طرابزون الانجليز والاسكدنافيون
- مملكة دمشق ارضروم إلى الاسكندريه
- الخلافة الفاطمية في مصر ارضنجان الاسطول المصري
- البحر الأحمر دوراليوم (تموز 1097) الافضل (1100-1099)

- سلطنة الروم انقرة قبرص ونيقوسيا
- قيصرية انطاكيا
- الحملة الصليبية الأولى منزيكيرت (ملاذكرد) حلب
- خط السير المتعرج بحيرة فان معرة النعمان
- للحمله الصليبية الأولى قونيـــه بشيزر
- 1097 - 1099 هرقليا حمص
- كربوجا (1098) سمنتي عرقة
- الافضل (1099 - 1100) تقانا بعلبك
- بلدوين الأول أضنة بيروت
- من بولونسيا (وخط سير تنكريد مرعش دمشق
- حتى ما مسترا) لاياس صور
- الخط المتعرج الاسكندرونة عكا
- للاساطيل الحربية الصليبية والمصرية ملاطية حيفا
- نيقيه انتصار الصليبيين ديار بكر قيساريه
- (19 يونيو 1097) قليقية القدس تموز 1099/ 15
- يافا
- عسقلان

الوحدة الثانية

الحملة الصليبية الأولى وإنشاء الكيانات الصليبية في المشرق الإسلامي

I. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي القارئ، سنعالج في هذه الوحدة موضوعات ذات علاقة بالوحدة الثانية، والتي هي ذات علاقة بالحملة الصليبية الاولى. وهنا سنركز على قادة الحملة الصليبية، وعلى خلفياتهم ودوافعهم. وعلى من سيكون صاحب اكبر جيش فيهم وهو ريموند دوق طولوز، كما سيكون في طليعتهم غودفري وبلدوين وبوهمند وغيرهم.

تجمعت جيوش هؤلاء القادة الذين قدموا من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها عند محطة كبرى في طريقهم ونعني بها القسطنطينية، التي رحب ملكها بهم ولكنهم مع هذا سببوا له بعض المتاعب والمصاعب لعل اهمها اعتداء رعاع الصليبيين على أمن الدولة البيزنطية.

وبعد القسطنطينية عبر الصليبيون آسيا الصغرى واثناء عبورهم استولوا على نيقية المدينة السلجوقية. لكن الرها ستكون – عزيزي القارئ – مركز اول إمارة يقيمها الصليبيون على الأرض الإسلامية.

أما أنطاكية فسترى أنها المدينة الثانية التي سيتم الاستيلاء عليها. ولكن الاستيلاء عليها لم يتم بسهولة بالنظر لحصانة موقعها وطبيعة تكوينها. وفي هذه المدينة العظمى شكل الصليبيون الإمارة الثانية. وعندما استقر وضع الصليبيين في أنطاكية غادروها إلى بيت المقدس، وفي طريقهم كانت لهم وقفة رهيبة عند معرّة النعمان التي احتلوها لكن بعد ان سفكوا دماء اهلها في مذبحة راح ضحيتها عشرات الالوف.

وسترى عزيزي القارئ – ان الصليبيين سلكوا طريق الساحل. وعرجوا في طريقهم على الرملة التي كانت بمثابة المحطة الاخيرة قبل الوصول إلى القدس، التي وضعوا قواتهم على أسوارها واحتلوها بعد دفاع بطولي من اهلها عنها. لكن هؤلاء الاهالي لن ينجوا من مذبحة رهيبة اخرى. تحدثت عنها الاجيال جيلاً بعد جيل وبعد استيلاء الصليبيين على المدينة صعد إلى سدة الحكم فيها غودفري الذي رفض ان يضع التاج على رأسه في المدينة التي توج المسيح فيها بتاج الشوك!

ولكن هل ستنتهي مهمة الصليبيين – عزيزي القارئ – بالاستيلاء على بيت المقدس. كلا!

فهم سيعودون ليفتحوا كبريات المدن الإسلامية وعلى رأس هذه المدن ستكون طرابلس المدينة الواسعة الثراء التي طمع في السيطرة عليها وحكمها ريموند الطولوزي، وموجز القول إن هذه المدينة سقطت في يد الصليبيين، ولكن بعد ان وقع ريموند قتيلاً على أسوار قلعتها.

وسنحاول، ان نبين الأسباب التي أدت إلى انتصار الصليبيين وأظننا سنتفق على عوامل معينة وأسباب خاصة بالنصر ومن ذلك ضخامة الجيوش من الناحية الأولى وكفاية القواد من الناحية الثانية وتقديم اكثر من جهة العون لهم من الناحية الثالثة، ومن بين هؤلاء الذين قدّموا العون الامبرطور البيزنطي والمدن التجارية الايطالية وبالذات البندقية وجنوة وبيزا. واخيراً نجد عون بعض المسيحيين المحليين لهم مثل الارمن والسريان.

هذا ما يمكن ان نمهد به لهذه الحملة ونحن سندع وقائع وتفصيلات هذه الحملة بين يديك لترى فيها رأيك ولتحكم على الاشياء بنفسك.

2.1 أهداف الوحدة:

يتوقع منك – عزيزي القارئ – بعد قراءتك هذه الوحدة وتنفيذك لتدريباتها أن تكون قادراً على أن : –

1. تتبع سير الحملة الصليبية الأولى (حملة الأمراء).
2. تناقش العلاقة بين أمراء الفرنجة الصليبيين والامبرطور البيزنطي، وتفسر أسباب عدم الثقة فيما بينهم.
3. توضح الظروف التي نشأت فيها الكيانات الصليبية الرئيسة.
4. تعلل أسباب نجاح الفرنجة في إقامة كيانات لهم في المشرق الإسلامي في البداية.

3.1 أقسام الوحدة

تتكون هذه الوحدة من خمسة اقسام رئيسة ترتبط بقائمة الأهداف السابقة. فالقسم الاول «الحملة الصليبية الاولى (حملة الأمراء): قادتها، مسيرتها، احداثها» يرتبط بالهدف الاول، والقسم الثاني: «العلاقة مع الامبرطور البيزنطي»، فيرتبط بالهدف الثاني، واما القسم الثالث «انشاء الكيانات الصليبية في المشرق العربي الإسلامي» فيرتبط بالهدف الثالث. واما القسم الرابع: «العلاقة بين الكيانات الصليبية والبيزنطيين» فيرتبط بالهدف الثاني واما القسم الخامس «اسباب نجاح الصليبيين في اقامة كيان لهم في المشرق العربي الإسلامي» فهو يرتبط بالهدف الرابع.

2. الحملة الصليبية الأولى (حملة الأمراء): قادتها، مسيرتها، أحداثها

شاهدنا، عزيزي القارئ، ان الانطلاقة للحروب الصليبية، تنسب بالدرجة الاولى إلى البابا اربان الثاني. وكان دعاته فيها هم رجال الدين، وعلى ما يظهر فان جنوب ايطاليا علمت عن الحركة الصليبية في وقت متأخر، فكما يحدثنا صاحب الجستا الذي شارك في الحملة فإن بوهمند لم يعلم عن «هذه الطريقة الجديدة للكفارة» حتى وصلت الحملة الصليبية من فرنسا إلى ايطاليا. المهم ان البابا نشر الفكرة في ارجاء اوربا ووصلت فعلاً إلى الشعوب ولعل الوحيدين بين هذه الشعوب، والذين لم يرحبوا بهذه الرحلة هم الشعب الالماني، قائلين: ان الذين يخرجون في الحركة الصليبية إنما يستبدلون اليقين بالشك، وانهم يتخلون عن اراضي الآباء والاجداد من اجل الارض الموعودة المشكوك بأمرها. ولكن هؤلاء عادوا فغيروا رأيهم عندما شاهدوا جموع الصليبين الذين كان يظهر عليهم الترتيب والنظام. (Setton Vol:I P.259).

هكذا بدأت فكرة خروج الصليبيين على شكل تحشدات كبيرة... ولكن قبل ان نبحث قادة الحروب الصليبية، لابد ان نبين هنا، ان جذور هؤلاء القادة واتباعهم وظروف انطلاقهم ومسيرتهم حتى القسطنطينية، إنما نحن مدينون بها إلى الاستاذ دونكالف Duncalf الذي درس هؤلاء القادة وملابسات الحملة الصليبية من اصحاب الحوليات ومؤرخي الحملة الذين خرجوا مع عدد كبير من هؤلاء القادة:

فغودفري من منطقة اللورين في فرنسا، جاء اتباعه من منطقته، اما اخوه بلدوين، الذي اخذ وقته حتى يفكر، فقد اصطحب معه امرأته، واما بلدوين الآخر من منطقة لي بورج، فقد كان قريباً لغودفري، ومن المحتمل انه ابن عمه، واما اخو غودفري الاكبر، اوستاس الذي ورث اراضي ابيه الواسعة في انجلترا فقد ذهب مع الحركة الصليبية، وليس من الاكيد، انه كان مع غودفري او مع روبرت نورمندي. كما كان هنالك اعيان آخرون مع غودفري وعلى ما يظهر فان جماعة غودفري كانوا مستعدين بدرجة كافية... وليس بالامكان تقدير عدد افراد جيشه من الارقام المشكوك فيها. (Setton Vol: I, P. 269).

وقد انحدر غودفري من شارلمان وفي عام 1089 قام الملك هنري الرابع ملك المانيا بتعيينه دوقاً لمنطقة اللورين السفلى. وعلى ما يظهر، وربما بسبب ضعف ادارته، فانه لم يستخلص من دوقيته لا مالاً ولا قوة.

أما بالنسبة لتديّن غودفري فانه لا صحة للاخبار التي تقول انه تميز بتديّن معيّن، أو كما يقول وليم الصوري عنه انه اخذ معه رهباناً في الحملة الصليبية «مشهورين بحياتهم الربانية» وفي الحقيقة فقد دمرّ اديرة في جوار بويون. ولقد كانت امه المتدينة ايدا، هي التي دفعته ليتبرع بالقليل إلى الكنائس لينقذ سمعته قبل ان يغادر. وقد سلك غودفري مع اخيه بلدوين طريق المجر ووصلا في سبتمبر 1098.

اما بوهمند فتذكر الروايات انه كان من اقوى الأمراء في جنوب ايطاليا. ولما كانت املاكه في جنوب ايطاليا لاتفي بطموحاته فانه رحب بالفرصة العظمى التي تقدمها له الحملة الصليبية.

ويحدثنا مؤرخ حملته، مؤلف الجستا، أن بوهمند لم يكن يعلم عن الجيوش التي كانت تتشكل فيما وراء الجبال (الالب) حتى وصل الصليبيون الفرنسيون إلى ايطاليا. وعندما استيقن انهم رجال محاربون، وفي طريقهم لتخليص القبر المقدس، قرّر بسرعة ان يحمل الصليب. وقد تم هذا بعد سبعة شهور او ثمانية بعد كليرمونت حيث كان في هذا الوقت مشغولاً بالتعاون مع اخيه وعمه في محاصرة أمالفي، وبطريقة درامية فقد قطع عباءته الثمينة إلى صلبان، واكتسب اتباعاً كثيرين لحملته حتى ان الحصار كان لابد من ان يرفع، وكما يقول مالاترا، فانه كان هنالك «شباب كثيرون راغبون في شيء جديد، كما هو الامر الطبيعي في هذا العصر» (Setton Vol: I p.270).

ويظهر ان الشخصية القوية لهذا الرجل الكبير الجسم، الذي كانت عيناه تشتعلان ناراً، سحرتا الشابة أناكومنينا، ففي سن الاربعين، وبسبب من خبرته العسكرية في البانيا، تمكن من ان يجمع جيشاً بسرعة اكبر من اي قائد آخر. أما عن كيفية تمويل حملته فأمر غامض جداً. وعلى ما يظهر فانه لم ينفق على اتباعه باستثناء اولئك التابعين له شخصياً، ولم يكن هؤلاء سوى اقربائه كما هو مذكور في الجستا (Setton Vol: I p.270). فتنكرد ابن اخيه، كما يقال، جرى اقناعه بواسطة الهدايا والمجاملة واعطاؤه الموقع الثاني في القيادة، الامر الذي لم ينفع على ما يظهر مع وليم اخي بوهمند الذي التحق بهيو Hugh ورافقه إلى القسطنطينية. ولقد كان جيش بوهمند صغيراً «بسبب نقص النقود».

على ان الجيش الاكبر في الحملة كان جيش ريموند، كونت طولوز، الذي صاحبه ادهيمار، مطران بوي، المندوب البابوي. فريموند الامير الاكبر لجنوب فرنسا، والاكثر ثروة بين جميع الأمراء الصليبيين، وكما تذكر لنا الحوليات، فانه أعان عدداً من الجنود الفقراء ليجهزوا انفسهم للرحلة.

وكان ريموند قد اصطحب البابا في مجتمع «نيم» الذي عقد في تموز يوليو 1096 كما نبه البابا إلى ضرورة الاعتماد على مساندة بحرية لتنفيذ مشروع الحملة الصليبية، فارسل البابا إلى جنوة طالباً مشاركتها، فاستجابت وقدمت اثنتي عشرة سفينة لمساندة الحملة، فضلاً عن ناقلة.. كبيرة (عبد العظيم رمضان ص 334).

ريموند هذا، الذي كان عمره آنذاك خمساً وخمسين سنة، كان عمره كبيراً بالنسبة لمقاييس ذلك الزمن. وعلى هذا فانه ليس من المستغرب ان يتعرض للمرض اكثر من الآخرين، ومهما يكن من امر، فانه عاش اكثر من ادهيمار، مندوب البابا، الذي كان اسقفاً محارباً، وفارساً يعرف كيف يلبس لأمة الفارس، وقسيس ادهيمار، برنارد من فالنس اصبح بطريركاً لأنطاكيا.

واما روبرت من فلاندر فقد وصل إلى القسطنطينية قبل ريموند وليس لدينا تقرير عن مسيرته عبر شبه جزيرة البلقان(Setton Vol: I p.275). ويظهر انه وكما يذكر اصحاب الحوليات كان يبدي ميولاً دينية تعبدية بينها كان في الحملة.... وفي معية روبرت فلاندرز. كان ابن عمه روبرت من نورماندي، وابن عمه من ناحية زواج ستيفن من بلوا، زوج آدلي، شقيقة روبرت نورماندي. وكما اسلفنا فانه ليس من الواضح ان كان جاره، استاس الثالث من بولون، الاخ الاكبر لغودفري، سار مع اخيه او مع روبرت النورماندي.

ومهما يكن فقد سلك النورمانديون البحر ووصلوا إلى القسطنطينية في آذار – مارس 1097 وفي نفس الوقت فقد كان هنالك امير آخر في غرب فرنسا؛ كان يجهز نفسه ليذهب في حملة صليبية. وهذا هو ستيفن كونت شارترز وبلوا، وقد كان رجلاً ذا مكانة واهمية في الإمارة الاقطاعية، ويحكم قلاعاً كثيراً ككثرة ايام السنة، كما يقول جوبرت. وقد كشف ستيفن عن نفسه من خلال الرسائل التي كتبها ليؤثر علي «احلى الجميلات واكثرهن لياقة وادباً» آدلي، ابنة وليم الفاتح. وقد كان رأي زملائه فيه حسناً حتى انهم اختاروه جنرالاً لبعض الوقت، بعد ان اخل بشرفه بترك الحملة. فان فوشيه من شارترز، لم يملك الا ان يقول «لقد حزّنا جميعاً عليه لأنه كان نبيلاً جداً وشجاعاً في السلاح» ولقد اعدّ نفسه لكي يغادر ومعه صهره، روبرت من نورماندي، وابن عم زوجته، روبرت من فلاندرز، في اكتوبر، وقد ذهب في وداعهم كبير الرهبان جرنتو وسكرتيره، هوي من فلاتني، ووصلا معه إلى بونتالير ليقولا لهم وداعاً عندما بدأوا يخترقون الالب (Setton Vol: I p.277).

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1. بين خلفيات القادة الصليبيين: غودفري، بوهمند، وريموند الصنجيلي.

2. ماذا تعرف عن روبرت فلاندرز ؟

3. العلاقة مع الامبرطور البيزنطي

تحدثنا فيما مضى، عزيزي القارئ، عن الأمراء الذين شاركوا في الحملة الصليبية وعن خلفياتهم ونزعاتهم وطموحاتهم وستكشف لنا احوال وحوادث الامارات والمملكة الصليبية صفحات عن هؤلاء القادة وفيما يلي سنتحدث عن علاقتهم بامبرطور البيزنطيين.

- قامت العلاقة بين الامبرطور والقادة على الأسس التالية: -

رغب الامبرطور من الحركة الصليبية ان تستعيد له آسيا الصغرى الغربية من الأتراك السلاجقة. لا سيما وان اسطوله قد اعطاه السيطرة على السواحل وقد كانت عاصمته القسطنطينية، باعدادها الكبيرة من السكان، وثروتها العظيمة، وتحصيناتها المنيعة اكثر المدن جمالاً وتأثيراً في العالم.

وكانت الفتوح التركية في الاناضول قد حرمت الامبرطورية البيزنطية من المنطقة التي تحصل منها على الجنود والطعام.

ولقد كان اهتمام الامبرطور الرئيس منصباً على مصلحة الامبرطورية وازدهارها. وعلى هذا فقد رحب بالحملة الصليبية الاولى وكان على استعداد ان يتعاون مع قادتها. (Runciman I P. 14).

وبناء على هذا فعندما وصلوا إلى القسطنطينية (1097) ليعبروا بحر مرمرة إلى بلاد الترك السلاجقة، لم يمكنهم الامبرطور ألكسيوس من العبور، وطلب منهم البقاء في ضواحي القسطنطينية حتى يحلفوا له يمين الولاء، وربما كان تفكير ألكسيوس ان الفرنج سيعيدون له الاراضي التي فتحها المسلمون، فيسمح لهم بأن يحكموها باسمه. وعلى الرغم من ان الفرنجة لم تعجبهم هذه المساومة من ألكسيوس فإنهم حلفوا له يمين الولاء ؛ اذ كان هدفهم قتال المسلمين قبل كل شيء. وليطمئن ألكسيوس على تنفيذ خططه، عمل على مرافقة جيوش الفرنجة بيزنطي هو تاتيكيوس Tatitkios (ماجد ص143).

ومهما يكن من امر فان هذه الجيوش، مع انها كانت قوات نظامية، الا انها سببت للدولة البيزنطية كثيراً من المتاعب والمصاعب. وقد وصفت آنا كومنينا، هذه الجيوش بانها «هجرة كاسحة، انهم البحر بأمواجه المتلاطمة، أيخطر على البال حدوث تحركات هائلة كهذه انه العالم الغربي بأسره وسكانه» (عبد العظيم رمضان ص334).

وقد عبّر الامبراطور ألكسيوس عن مشاعره إزاء الحملة الصليبية النظامية في وصيته إلى ولده:« هل تذكر ما حصل لي من حركة الغرب التي جاءت إلى هذا البلد ؟ تلك الحركة التي تمثل ابد الدهر وصمة عار في جبين روما الجديدة، واهانه للعرش؟ يلزمك التفكير ملياً يا بني لايجاد ما تلقم به افواه هؤلاء البرابرة التي تنفث علينا سموم الكراهية والبغضاء» (عبد العظم رمضان ص335).

وعلى ما يظهر فان الخلاف بين الطرفين لم تكن دوافعه سياسية واقتصادية، بل كان خلافاً كاملاً بين حضارتين، فقد كان الشعب البيزنطي في قمة حضارته وكامل تقدمه وتفوقه. بينما كانت اوربا لا تزال تتخبط في القيم البربرية. وقد تعجب البيزنطيون حين رأوا رئيس اساقفة غربيا ممتطياً حصانه وعلى رأسه الخوذة والسلاح متوجهاً لساحة القتال! فقد كان الازدواج بين الدين والحرب من الامور المتناقضة بالنسبة للبيزنطي.

وعلى اية حال فقد كان لابد للصليبيين من أن يغادروا القسطنطينية متوجهين إلى غايتهم في الاراضي المقدسة، وكان اول مكان هاجموه هو نيقية وقد تسلمها امبرطور بيزنطة دون الفرنجة وكان اول نصر للفرنجة في سهل دروليه قرب اسكي شهر، التي انتصر فيها غودفري، وقتل قلج ارسلان امير السلاجقة، ونجد ان مؤلف اعمال الفرنجة Gesta Francorum، يتكلم عن شجاعة الاتراك ومقاومتهم الباسلة. وعلى اية حال فان هذا الانتصار فتح طريق اقليم فيرجيا وغيرها، وسهل وصول جيوش الحملة الاولى إلى بلاد الأرمن حيث استولَوْا على إمارتي الرها وأنطاكية وأقاموا فيها حكماً صليبياً (ماجد ص144).

لقد كان الامبرطور الذي لم تكن تهمه سوى المردود الاستراتيجي من الحملة الصليبية على استعداد على فتح ابواب التعاون إلى النهاية مع الصليبيين الفرنج وبالذات قادتها. الا ان تصرفات هؤلاء القادة وبالذات بوهمند واطماعه الكبيرة التي تجلت اثناء حصار أنطاكية والاستيلاء عليها اصابت الامبرطور بالصدمة وجعلته يشيط غضباً. وعندما تحرك هؤلاء الصليبيون إلى الجنوب نحو فلسطين توقف تعاون الامبرطور البيزنطي النشط. ولقد جرب، ان يتعامل مع المملكة الفرنجية في فلسطين على اساس من الاعتراف بحقوقه. لقد كان على استعداد ان يبدي للفرنجة علامات على حسن النية. ولكن هؤلاء ضيقوا امامه قنوات التعاون وحددوها فقط بتسهيل العبور في آسيا الصغرى.

وبالنسبة لممارسات النورمانديين في أنطاكية فلم يشعر بشيء سوى العداء وسيثبت انه عدوٌ

خطير"(Runciman II P. 16). ومن الممكن ان تكون قد راودته طموحات معينة باستعادة الرها وانه لمن الممكن انه شعر بأهمية إمارة الرها كرأس حربة ضد العالم الإسلامي.

لقد دخل عامل جديد في السياسة الشرقية وهو تدخل المدن الايطالية التجارية. وقد رحب الصليبيون بهذه المدن، فقد قدمت القوة البحرية التي لا يمكن بدونها معادلة قوة المدن الإسلامية الساحلية، وقد برهنت سفنهم انها اسرع واكثر اماناً كوسيلة للمواصلات مع اوربا الغربية إذا ما قيست الرحلة الطويلة عبر الطريق البرّي. ولكن التسهيلات التي طالبوا بها وحصلوا عليها كانت تعني ان حكومات الفرنجة في المشرق خسرت كثيراً من دخلها المنتظر. وهذا ما كان جعل الامبرطورية البيزنطية بديلاً ليس من السهل تعويضه.

وعلى اية حال فاننا سنحاول فيما يأتي ان نجلو العلاقة بين الصليبيين والبيزنطيين من خلال عدد من المواقف والحوادث والمناسبات التاريخية. سنفعل هذا، عزيزي القارئ، ونحن نتحدث عن فتوح المدن: الرها وأنطاكية والقدس وطرابلس...الخ.

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1. وضح ما هي استراتيجية ألكسيوس كومنين نحو الصليبيين؟

2. ما اسباب فشل التعاون بين الطرفين الصليبي والبيزنطي؟.

4. إنشاء الكيانات الصليبية في المشرق العربي الإسلامي

1.4. إمارة الرها

تقع إمارة الرها علي اعالي الفرات ويتكون سكانها في غالبيتهم من الارمن والسريان. وموقعها ذو اهمية استراتيجية كبيرة باعتبارها تشرف على شمال العراق والجزيرة، ويبرز التوجه لانشاء إمارة صليبية فيها من انفصال بلدوين أخ جودفرى دي بويون ومعه تنكرد الاميران الصليبيان عن بقية الجموع الصليبية لكي يبحثا عن حظيهما في تأسيس إمارة لكل منهما. وقد برز هذا التوجه بصورة فعلية. او تحول الهدف إلى واقع، بعد استيلائهما على قيليقية وانتزاعها من الاتراك السلاجقة (1097م) (Chalandon P. 172).

ولقد اتخذ بلدوين من سياسة التعاون مع الارمن استراتيجية ثابتة له وبخاصة ان هؤلاء الارمن كانوا يشعرون بتهديد حقيقي من قبل الاتراك السلاجقة لهم، وبالذات احسّ بهذا التهديد الارمن في الرها وملكهم ثوروس الارمني، الذي حكم هذه المقاطعة بشرعية معينة استمدها من تبعيته للامبرطور البيزنطي. ولقد زاد في مخاوف ثوروس – في هذه الفترة – ما علم به من ان كربوغا حاكم الموصل قد حشد جيشاً كبير لإنجاد أنطاكية وبلاد الشام من الخطر الصليبي وهنا ادرك ثوروس ان كربوغا ربما فكر في اكتساح الرها وغيرها من الامارات الصليبية في طريقه. ولذا فقد بادر إلى الاستنجاد ببلدوين البولوني، الذي رحب بهذا الاستنجاد وهب يسارع إلى الرها ومعه 280 فارساً. (عاشور الحركة حـ1 ص181).

ويلاحظ هنا ان قوة بلدوين كانت محدودة لكن الذي عوضه عن هذا النقص هو ترحيب اهالي الرها وملكهم ثوروس الكبير بهذه القوة الصغيرة وقد عبر عن هذا الترحيب وليم الصوري (الصوري جـ1 ص263) الذي صوّر دقائق التحرك الصليبي من بدايته إلى النهاية. واشار اليه ابن الاثير الذي يقول «انهم ملكوا مدينة الرها بمكاتبة من اهلها لان اكثرهم أرمن، وليس بها من المسلمين الا القليل» (ابن الاثير جـ10 324-325 الكامل).

خلاصة القول انه بالنسبة للاستيلاء الصليبي علي الرها نجد ان العامل الارمني وظف افضل توظيف. ولم يقتصر الدور الارمني على هذا بل نجد ان بلدوين يعمل على التعاون مع الارمن من اهل البلاد للتخلص من ملكها ثوروس الذي كان قد اساء الحكم في الرعية.

فقامت عليه ثورة مارس (1098) انتهت بقتله وانتقلت مقاليد الامور جميعها إلى بلدوين.

هكذا نلاحظ ان بلدوين هو الزعيم الاول من بين الزعماء الصليبيين الذي شكل لنفسه إمارة ينفرد هو بحكمها من دون الآخرين.

وهنا نلاحظ ايضاً، عزيزي القارئ، ان بلدوين تنكر للامبراطور البيزنطي ولم يف بتعهداته له. وقد نسي او تناسى انه وريث وخليفة لثوروس (Runciman P.206) واذا كان ثوروس قد احتفظ بمسحة بيزنطية ارمنية للرها فقد استبدل بلدوين اللاتينية الارمنية بالمسحة السابقة.

على ان الأهم من هذا هو ما يتعلق بالسياسة الداخلية فقد حكم بلدوين الارمن بنظرة استعلائية ونزعة فوقية. وفرض ارستقراطية معينة على هؤلاء الارمن بحيث إشتغلوا مزارعين لحساب اللاتين الوافدين. ولذا فلا عجب انه منذ البداية حاول الارمن التخلص من حكم بلدوين بان مدّوا جسورهم سرّا إلى الاراتقة الترك، وحاولوا ان يحصلوا منهم على عون يمكنهم من الانقضاض على الوافدين الجدد لكن هذا المشروع السرّي احبط وعوقب القائمون به عقاباً صارماً. ومهما يكن من امر فانه يشفع لبلدوين في تعامله مع اهل البلاد الاصليين دعوته للترابط بينهم وبين الفاتحين الجدد وانه تزوج من الاميرة الارمنية (اردا) وهي ابنة احد زعماء الارمن.

وستبقى هنالك محاولات تظهر بين الحين والآخر للتخلص من اللاتين الصليبيين حتى تكون الرها أول الامارات التي سقطت في يد الصليبيين هي أول إمارة تسقط في يد المسلمين كما سنرى.

أسئلة التقويم الذاتي (3)

- حلل ابعاد سياسة بلدوين في تأسيس إمارة الرها؟

2.4 إنشاء إمارة أنطاكية

وصلت الجحافل الصليبية إلى أنطاكية ووقفت امامها! وهنا جرت ملحمة كبرى تتناسب في دراميتها واثارتها مع عظمة هذه المدينة التي اعتبرت ثالثة مدينة في العالم المسيحي (بعد القسطنطينية وروما) في غناها وتحصينها وقدسيتها واهميتها على وجه العموم.

ويهمنا هنا ان نتحدث عن تحصينها. فقد كانت محصنة تحصيناً طبيعياً. فمن الشمال والشرق محدودة بالجبال، ومن الشمال بالمستنقعات والاحراش ومن الغرب نهر العاصي.. وبقية ارجائها وتخومها محاطة بالاسوار والبروج والحصون المتقدمة. اما سكانها فقد كانوا في غالبيتهم من السريان والارمن.

ولقد احدث وصول الصليبيين إلى بلاد الشام حالة كبيرة من الذعر والهلع لدى المسلمين وعبر عن ذلك ابن القلانسي بقوله انهم وصلوا «**في عالم لا يحصى عدده كثرة وتتابعت الانباء بذلك، فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها**» (ابن القلانسي ص134). وكان الصليبيون قد غادروا مَرْعش في اكتوبر 1097 واستولوا على حصن بغراس وقلعة ارتاح في الطريق. ووضعوا بفواتهم بقيادة بوهمند امام أنطاكية في 21 اكتوبر (1097) وكان خطأ الصليبيين في هذه المرحلة انهم لم يباغتوا المدينة ويحتلوها؛ الامر الذي كلفهم ثمناً غالياً وشهوراً طويلة من الحصار امتدت إلى سبعة شهور.

كان يحكم أنطاكية في هذا الوقت ياغي سيان، الذي عينه عليها السلطان ملكشاه السلجوقي (1087م) وتصف الروايات ياغي سيان «**بجودة رأيه وحزمه واحتياطه**» (الكامل حـ 10 ص 274).

كان اول رد فعل لياغي سيان امام هذا التدفق الصليبي الكبير على أنطاكية أن عمد إلى اخراج اهلها النصارى خوفاً من ان يشكلوا نوعاً من ظابور خامس داخلها (عاشور الحركة جـ 1 ص191). وكانت الذريعة التي تذرع بها أن اخرجهم لحفر خندق حول أنطاكية وعند المساء منعهم من دخول المدينة، في حين تكفل هو بالحفاظ على أهلهم.

التفت ياغي سيان بعد ذلك إلى طلب النجدة من جيرانه من المسلمين. وكان اول لقاء بين المسلمين والصليبيين عند البارة على امتداد نهر العاصي، ويظهر ان هذه المعركة كانت لصالح المسلمين اذ يذكر ابن العديم ان المسلمين «**قتلوا منهم جماعة**» (ابن العديم جـ2 ص 132).

ومن الذين بادروا ايضاً إلى انجاد ياغي سيان، دقاق صاحب دمشق، الذي هزم قوات الفرنجة التي توغلت في المنطقة باتجاه الشرق، ووصلت شمال غرب المعرّة، الا ان الامير السلجوقي قفل راجعاً إلى دمشق خشية نشوب اضطرابات ضده في غيابه. وقد ذهبت محاولات رضوان حاكم حلب في النجدة، ايضاً، ادراج الرياح، اذ عمد إلى ارسال قواته لنجدة

المحاصرين في شباط (1098) ولكنه لم يستطع مواجهة قوة الفرنجة فعاد إلى حلب.

وفي محاولة مستميته امام هذا الخطر حاول ياغي سيان ان يستحث جميع القوى الإسلامية القريبة للوقوف معه امام الصليبيين. وقد تجمعت هذه القوات جميعها في حارم، وهي قلعة تقع إلى الشرق من أنطاكية، على مسافة (30) كيلومترا. وكانت الخطة ان يضع المسلمون الصليبيين بين نارين، او بين فكي الكماشة كما يقال، بحيث تهاجم الجيوش الإسلامية أنطاكية فجأة في الوقت الذي تخرج فيه جيوش ياغي سيان لمهاجمة الصليبيين من الاتجاه المقابل او من الخلف، ولكن هذه الخطة فشلت! اذ ان بوهمند القائد العام للقوات الصليبية والذي عرف بالمبادرة واللّماحية وضع خطة مضادة مؤداها ان يجعل المشاة يحرسون معسكر الصليبيين ويمارس هو اسلوب «الهجوم افضل وسائل الدفاع». وقد اختار سبعمائة فارس فارساً لمساعدته في تطبيق هذه السياسة. وقد اختار بوهيمند مَوقعاً حصيناً بين بحيرة العمق من ناحية ومجرى نهر العاصي من ناحية اخرى (عاشور الحركة جـ 1 ص201-200) وعندما دارت المعركة في اليوم التالي هُزم المسلمون وارتدوا نحو حصن حارم وقد لحق بهم الصليبيون. وعندما ادركت حامية حارم حراجة الموقف الإسلامي لم يكن منها سوى الفرار، وقد ساعد في الاستيلاء على حارم اهلها من السريان والارمن الذين شكلوا طوال الوقت عاملاً مساعداً للصليبيين. ومن المعروف ان حارم تشكل قلعة استراتيجية كبيرة الاهمية وعظيمة القيمة وبخاصة لحمايتها أنطاكية من ناحية حلب.

وأمام افلاس دقاق حاكم دمشق ورضوان حاكم حلب ومن آزرهما من الأمراء المسلمين الآخرين لم يبق أمام ياغي سيان سوى الاستنجاد بسلطان سلاجقة فارس بركياروق، وتابعه كربوغا اتابك الموصل. وكان من جراء انتشار شائعة توجه جيش من الموصل لانجاد أنطاكية ان تحول تفكير الصليبيين جدياً إلى الاستيلاء على أنطاكية قبل وصول هذا الجيش الكبير الذي سيغير قدومه من موازين القوى ويحرم الصليبيين من ان يحققوا هدفهم بالاستيلاء على أنطاكية.

وهنا ينبغي لنا، عزيزي القارئ، ان نقوم بعملية تقويم لحالة المعسكر الصليبي ودراسته من جميع ابعاده، وهو في حالة لا يحسد عليها، من الامام والخلف.

عانى الصليبيون من تآكل معنوياتهم حتى انه بدأت تظهر في المعسكر الصليبي بعض حالات التسرب على شكل افراد وجماعات محدودة العدد، فقد انسحب ايتن دى بلوا من بين من انسحبوا من المعسكر الصليبي، وغادره عائداً إلى بلاده. وكان انسحابه في لحظة تحول خط الصليبيين وبداية الهجوم على أنطاكية لاحتلالها. على ان الرمزين اللذين كان لفرارهما وقع كبير

واثر خطير لما لهما من اهمية وقيمة معنوية، لم يكونا سوى بطرس الناسك ووليم النجار وبينما يصف رونسيمان وليم النجار بانه لم يكن سوى مغامر، وفرّ من حملة صليبية في اسبانيا؛ نجده يتساءل لماذا يفقد رجل مثل بطرس الناسك اعصابه !

اما عقاب بوهمند لوليم النجار فلم يكن سوى الاهانة والتوبيخ العنيف، فقد استبقاه طوال الليل في خيمته واقفاً على قدميه. وفي الصباح تلقى محاضرة تهديدية. وقد اقسم وليم النجار، اليمين انه لن يغادر الجيش حتى يصل إلى القدس. أما بطرس فقد جرى التكتم على جرمه وعفي عنه بصمت! (Runciman I P. 223).

ووسط هذا النزيف المعنوي فان روح المناورة، وصفة المغامرة لم تغادر بوهمند الذي استغل سوء حالة الجيش الصليبي وشعوره بروح الضيق والحصار واغلاق الابواب دون اي فرج، استغل ذلك وهدّد بانه سيغادر القوات الصليبية ويعود مع قواته من حيث اتى و كان ذلك في اوائل يناير سنة 1098، اذا لم تتفق القوات الصليبية على تسلمه أنطاكية حال سقوطها في يدهم. وأمام هذا المأزق، الذي كانوا يمرون فيه لم يكن هناك امامهم الا القبول بشروط بوهمند. والصبر على نزعاته في التفرد والتحكم بشؤون الحملة التي لم يتورع رونسيمان عن وصفها بالخيانة! (Runciman II P. 10) كما ان بوهمند عمل على اخراج تاكيتوس Takitus مندوب الامبرطور البيزنطي، بعد احراجه امام القادة الصليبيين، وعندئذ لم يسع تاكيتوس سوى ان يفكر في النجاة بنفسه فانسحب فوراً عن طريق ميناء السويدية إلى جزيرة قبرص (Setton PP. 313 - 314) كل هذا وجيش كربوغا، الذي تأخر عن الوصول في الوقت المناسب إلى أنطاكية لانشغاله بمهاجمة الرها، كانت تتواتر اخباره انه يواصل السير نحو أنطاكية الامر الذي جعل بوهمند وهو المقدّم في قومه، أن يفكر في مخرج غير عادي ينقذ به الروح المعنوية، ويوقف تسرب القوات ويخرج الجيش من حالة الجوع والنصب، وهنا عمد إلى مراسلة ارمني مسيحي يسمى فيروز سرّاً، والذي قاله له:» انا في البرج الفلاني، وانا اسلم اليك أنطاكية ان أمّنتني واعطيتني كذا وكذا». وكان ان وافقه بوهمند وبذل له «مالاً وقطاعاً»، على ان بوهمند احتفظ لنفسه بسرّ المؤامرة الذي رفض ان يذيعه على الأمراء «وكتم امره عن باقي الفرنج» (عاشور الحركة 1 ص 203) وبالفعل فإن فيروز، الذي كان يقوم بحراسة ابراج المدينة في الجنوب، فتح هذه الابراج حتى اذا طلع نهار يوم 3 يونيه 1098 كانت أنطاكية في قبضة الصليبيين وكانت نكبة فظيعة. فكما يذكر ابن القلانسي: «فقد تطرف الصليبيون في قتل

من وجدوه في أنطاكية من المسلمين، حتى قتل واسر وسبي من الرجال والنساء والاطفال ما لا يدركه حصر». (ابن القلانسي ص135).

على انه قد ساعدهم في مهمتهم البشعة هذه اهل أنطاكية نفسها من السريان والارمن الذين خرجوا يرحبون بهم ويساعدونهم في التعرف على خفاياها وفي قتل من فيها من المسلمين، وقد حاول ياغي سيان نفسه الفرار مع جملة من فرّ من الاتراك ولكنه سقط عن فرسه، «فقتله الارمن وحملوا رأسه إلى الفرنج» (ابن العديم جـ2 ص 135).

وقد اثار سقوط أنطاكية ضجة كبرى في البلاد الإسلامية القريبة، كما كان له دوي في العالم المسيحي وذلك بالنظر لاهميتها العظيمة تاريخياً واستراتيجيا، وكانت هي المدينة التي اطلق فيها على اتباع المسيح «المسيحيون» لاول مرة، وقد اسس فيهاالقديس بطرس اول اسقفية له. وكانت ملتقى الحضارتين العربية واليونانية منذ استيلاء المسلمين عليها في العقد الرابع من القرن السابع للميلاد (عبد العظيم رمضان ص355).

لقد سُرَّ الصليبيون حين فتحوا أنطاكية كثيرا وكما يقول رونسيمان:» كان الاستيلاء على أنطاكية انجازاً انشرحت له القلوب النصرانية». (Runciman IP. 236). الاّ ان هذا التعليق من قبل رونسيمان لم يمنعه من القول: لقد اثار النصر هذا السؤال الذي ظهرت بوادره في الانشقاق الصليبي وهو لمن تعطي المدينة ؟؟ ولكن مجريات الاحداث لم تعط الوقت الكافي للصليبين للتفكير في اجابة عن هذا السؤال. فماذا جرى ؟!

لم تلبث أنطاكية سوى ايام محدودة حتى وقعت في قبضة كربوغا فقد احاطت قواته باسوار المدينة وفي اليوم العاشر من سقوطها كانت المدينة محاصرة كلياً.وهنا حاول كربوغا الاستيلاء على المدينة عن طريق البرج الذي بقي صامداً وكان يقوده ابن ياغي سيان، ويبدو ان كربوغا آثر اطالة الحصار واضعاف خصومه المحاصرين عن طريق المجاعة. وهنا حاول الصليبيون ان يرفعوا الحصار وقاموا بهجوم شرس على قوات كربوغا لكنهم اجبروا على التراجع الامر الذي جعلهم ينطوون على انفسهم في حالة من الكآبة والاسى. فمعنوياتهم التي ارتفعت إلى السماء لمدة اسبوع من سقوط المدينة عادت إلى التدهور من جديد حتى وصلت، كما يذكر رونسميان، إلى ادنى درجاتها (Runciman I P.238).

وهكذا انقلب الموقف إلى ضده فبعد ان كان الصليبيون يحاصرون أنطاكية اصبحوا

محاصرين فيها. وقد نجحت خطة كربوغا في تجويع المدينة وهكذا بدأ الصليبيون يعانون من وطأة الحصار، معاناة شخصية وصلت الي كل بيت، وشملت القادة والجنود على السواء وقد وصف وليم الصوري ذلك فقال: (الصوري ص300-301) لقد ادى انعدام القوت إلى اكل الميتة، وبلغ سعر رغيف الخبز الصغير ديناراً والبيضة الواحدة دينارين، واضطر الكثيرون إلى العيش على اوراق الاشجار فضلاً عن «الميتات والدواب»(عبد العظيم رمضان ص 355).

وقد زاد في اشتداد الازمة وسوء حال الصليبيين انسحاب الجيش البيزنطي ومغادرة المدينة وعدم التدخل فيها، فقد كان هؤلاء الصليبيون ينظرون إلى انفسهم على انهم المحاربون من اجل المسيح ضد الوثنيين وعلى هذا فان الانسحاب البيزنطي اعتبر في نظرهم خيانة ضد العقيدة. وكما يقول رونسيمان فان بيزنطة لن تحظى بالسماح والعفو. بل أن بوهمند وجد ان هذا التصرف البيزنطي كان لصالحه ويستجيب لطموحاته.

وأصرّ كربوغا امام طلب الصليبيين بالخروج من المدينة، على الرفض، وقال لهم «لا تخرجوا الا بالسيف» (الكامل جـ10 ص276) وهنا لم يجد بوهمند امام شرط كربوغا واصراره على الاستسلام الصليبي سوى الحرب.

وهنا نقف، عزيزي القارئ، لنناقش هذه الرواية التي تنسب لكربوغا الخطأ في التصرف مع الصليبيين الذين بدأوا بالخروج من ابواب أنطاكية جماعات صغيرة اذ **«خرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين خمسة خمسة وستة ستة ونحو ذلك فقال المسلمون لكربوغا ينبغي ان نقف على الباب فنقتل كل من يخرج فان امرهم الآن وهم متفرقون أسهل، فقال: لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم» وتنتهي الرواية بانزال الهزيمة بالمسلمين، «ولما عاملهم كربوغا اولاً من الاستهانه بهم والاعراض عنهم»** (ابن الاثير الكامل حـ10 ص277).

فهذه الرواية اقل ما يقال فيها انها غير منصفة لكربوغا القائد المحنك... فاي قائد تتاح له الفرصة في القضاء على خصمه قطعة قطعة!، خطوة خطوة!! ويهملها ونحن نرى الصحيح في أحد الرأيين التاليين:

1. ضعف الرواية التي تقول انهم كانوا يخرجون على شكل دفعات كل دفعة منها خمسة او ستة والاصوب هو الرأي الذي يقول ان الصليبيين خرجوا على شكل طليعة. ومؤخرة ولم يرد كربوغا ان يصطدم مع هذه الطليعة حتى يتكامل له جميع الصليبيين فيقضي عليهم ويستأصل شأفتهم مرة واحدة! وهذا الرأي يتبناه رونسيمان الذي يقول «لقد خاف كربوغا من أن الضربة

العاجلة ستقضي فقط على الحرس المتقدم. ولكنه رأى انه اذا انتظر فانه سيتخلص من جميع قواهم في ضربة واحدة» (Runciman I P.248).

2. ان بوهمند قذف بكل قواته، مرة واحدة، واصطدم اصطداماً حاسماً مع قوات المسلمين وكان لعنف الصدمة وهول الضربة ان انتصر عليهم..ولكن كيف تم ذلك ؟ ان النصر الصليبي سيأخذنا مرّة اخرى إلى الجبهة الصليبية داخل أنطاكية لنرى كيف تحولت الروح المعنوية المنهارة والصفوف المتدهورة إلى قوة فاعلة وقلعة هجومية كبيرة.

تنسب الروايات ذات المصدر الصليبي انه امام اسوداد الظروف وانسداد الآفاق امام الصليبيين... كان اللجوء إلى غير الطبيعي! وسيأخذ هذا الشكل الرؤى التي تتوالد كما يقول رونسيمان (Runciman I P.243). فقد جرت عدة احداث اظهرت للمسيحيين ود الله الخاص بهم! لقد كان الجنود جوعى وقلقين وكانت العقيدة التي تشدهم وتقوي من صفوفهم تترجرج ولكنها لم تكن قد تحطمت ولقد كان هذا الجو هو الجو الذي تزدهر فيه الاحلام وتتألق فيه الرؤى! لقد كان الناس في العصور الوسطى يعتقدون ان الخروج عن المألوف وغير الطبيعي ليس امراً بعيد المنال، أو حتى نادراً.

ولما كانت الافكار المتعلقة بالعقل الباطن واللاشعور غير معروفة لديهم كان بدلاً منها الرؤى والاصلاح النابعة من العناية الإلهية أو من الشيطان. كما يذهب رونسيمان. فقد تراءى المسيح لرجل اسمه ستيفن وطلب اليه ان يخبر المطران ان رعيته اقترفت الآثام النابعة من الشهوات والزنا. ولكنها اذا عادت إلى المسيح فانه سيرسل لهم الحياة والامن في مدة خمسة أيام. وفي حالة اخرى قامت سيدة لتقول للسيد المسيح: ان هؤلاء الناس (الصليبيين) هم الذين كان يتعرض لهم غالباً وان معهم القديس بطرس. وقد حاول ستيفن ان يوقظ رفقاءه ليشهدوا على رؤياه ولكن قبل ان ينجح في هذه كانت الاشباح قد ذهبت !

اما ادهيمار مندوب البابا الذي شاهد تأثر الأمراء من هذه الروايات، فقد رغب اليهم ان يقسموا بالقرابين المقدسة انه منذ الآن فصاعداً لن يغادر احد أنطاكية بدون موافقة الآخرين. وقد اقسم بوهمند اليمين اول من أقسم ومن بعده ريموند، وبعدئذ روبرت نورماندي ثم غورفري وروبرت فلاندرز وتبعهم الأمراء الآخرون والاقل شأناً. وقد ادى خبر اليمين إلى الاعلاء من الروح المعنوية للجيش.

ولم يكتف ادهيميار بذلك، بل طلب اليهم جميعاً ان يصلّوا، ومن ثم وبروح الانتصار اظهر قطعة من الحديد، وهنا اعلن ريموند الصنجيلي انه هو الذي عانقها بينما كانت لا تزال مطمورة في التراب. المهم ان رواية اكتشاف هذه «الحربة» انتشرت حول الجيش واستُقبلت بالاثارة والفرح. ولم تكن قصة هذه الحربة سوى نبوءة لفلاح في الجيش الصليبي يدعى بارثلميو، زعم ان القديس اندرياس ظهر له في المنام عدة مرات، واخبره بأن الحربة التي اخترقت جنب المسيح مدفونة في احدى زوايا كنيسة القديس بطرس بأنطاكية. وقد تم العثور على قطعة حديد بالية في احدى الحفر بحضور ادهيمار المندوب البابوي، فاعتبر ذلك علامة على رعاية المسيح للصليبيين وهدايته لهم. ويعلق رونسيمان على هذه الحادثة ساخراً: «يبدو ان بارثلميو قد قام بدفن هذه الحديدة او ان له الموهبة الالهية في الكشف عن المعادن(.Runciman I P .(245

ومهما يكن من امر فرغم قناعة ادهيمار ان بارثلميو كان افاقاً مخادعاً، كما ستثبت الاحداث، ورغم ان كثيرين كانوا يشاركون ادهيمار هذا الرأي الاّ ان اكتشاف هذه الحربة احدث فعله في قلوب المسيحيين بمن فيهم اليونان والارمن، حتى أن أحداً لم يرغب في ان يدمر مفعولها...بل امتطوا موجتها وقادتهم إلى النصر!

بعد هذه التحولات التي تحول فيها الخرافي إلى واقع...بل إلى محرك في المعركة اندفع الصليبيون في اتجاه خصومهم المحاصرين الذين كانوا في حالة لا يحسدون عليها.... حالة كرّست الاندفاع والانتصار الصليبي بدلاً من ان تحده وتحجمه...فقد بلغ الامر بالمسلمين أمام أنطاكية ان عادوا إلى معاناة الخلاف والانقسام الذي طالما اعتادوا عليه. فقد ظهر النزاع بين اتراك كربوغا من جهة والعرب بزعامة وثاب بن محمود من جهة اخرى: «وجرت بين الاتراك والعرب الذين مع وثاب منافرة عادوا أعداء لاجلها وتفرق كثير من التركمان بتدبير الملك رضوان». (ابن العديم ج2 ص136).

اما المؤرخ ابو الفدا فيعزو ضعف المسلمين وانهزامهم إلى روح التباغض والتباعد التي سادت المسلمين أمام أنطاكية والسبب في ذلك ليس سوى كربوغا الذي «اساء السيرة فيمن اجتمع من الملوك والأمراء المذكورين، وتكبر عليهم، فخبثت نياتهم على كربوغا» (ابو الفدا المختصر، انظر عاشور الحركة ج1 ص 200).

ومهما يكن الامر فقد حلت الهزيمة بجيش كربوغا، فانفض عنه كثير من الأمراء «ونهب

من المسلمين من الالات والخيام والكراع والغلات ما لا يحصى، ومن انقطع من العسكر نهبه الارمن» (ابن العديم ج 2 ص137).

ويعزو المؤرخون سبب الانتصار الصليبي في أنطاكية ومن ثم اقامة إمارة عظيمة الشأن فيها إلى ثلاثة عوامل أولها قيادة بوهمند، وثانيها الحماسة الكبيرة التي رافقت اكتشاف الحربة والتي وظفت افضل توظيف، والعامل الثالث هو خلاف المسلمين وتفرق صفوفهم.

استولى بوهمند على السلطة في أنطاكية. ولم يقبل بمرافقة الأمراء الصليبيين الذين توجهوا بالجموع الصليبية نحو القدس. كما تنكر للبيزنطيين ولم يقبل بتنفيذ اليمين الذي تعهد بموجبه بتسليم أنطاكية للبيزنطيين. وهكذا خلصت أنطاكية لبوهمند الذي خطط منذ بداية الحصار لجعلها ولاية له من دون غيره من القادة الصليبيين الاخرين.

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1. حلل دور بوهمند في احتلال أنطاكية وبين إلى أي حدٍّ يعود الفضل لبوهمند في هذا الاحتلال ؟

2. ناقش سياسة الحصار الذي قام به كربوغا لأنطاكية وبين إلى أي حدٍّ يتحمل المسؤولية في فشل سياسته في التعامل مع المعسكر الصليبي داخل أنطاكية؟

3. بين ابعاد الخسارة الفادحة التي لحقت بالمسلمين من جراء سقوط أنطاكية؟

3.4 احتلال القدس ومدن فلسطين الأخرى

أ. المسيرة نحو القدس:

اجتمع الصليبيون في أنطاكية وقرروا الانطلاق إلى بيت المقدس وكان هذا الاجتماع في 5 نوفمبر 1098 بكنيسة القديس بطرس في أنطاكية وقد اجمع الزعماء الصليبيون جميعاً على الزحف على بيت المقدس. وكان هذا بعد انقضاء فصل الصيف واعتدال درجة الحرارة. وبعد ان تفاهم الجميع على تجميد الهجوم على اية مدن وقرى إسلامية ما عدا ما يمكن مواجهته على طريق بيت المقدس (عاشور الحركة جـ1 ص221).

ويظهر ان بوهمند وريموند خشيا من ان يعمد الصليبيون إلى تركهما في أنطاكية وحدهما

فتوصلا إلى اتفاق لإشغال الصليبيين عن هدفهم وتوجيه قواتهم نحو معرّة النعمان التي سبق للصليبيين ان هاجموها في شهر يوليو، وباء هجومهم بالفشل (Stevenson P.39).

وعندما هاجم الصليبيون معرّة النعمان، استنجد اهلها برضوان صاحب حلب، وجناح الدولة صاحب حمص فلم «ينجدهم احد» (ابن العديم زبدة المحلب جـ2 ص141-142)، ولما لم يكن ميزان القوى في صالح أهل المعرّة. كما هو متوقع، فقد اضطروا إلى الاستسلام للصليبيين في 11 ديسمبر 1098. وهنا احرقت المعرّة عن بكرة ابيها. ولم يكتف الصليبيون باحراقها بل قاموا بمذبحة رهيبة فيها «فقد أعمل الفرنج فيهم السيف ثلاثة ايام... وسبوا السبي الكثير وملكوه» ويظهر ان رد الفعل الصليبي هذا كان بسبب أن «قاتلهم اهلها قتالاً شديداً، ورأى الفرنج منهم شدة ونكاية» (الكامل جـ10 ص278).

وهنا حاول ريموند، ان يقنع القادة الصليبيين الآخرين بجعله قائداً عاماً على الحملة المتوجهة للقدس. لكن عرضه لم يقابل باستحسان. فلجأ إلى سياسة الامر الواقع التي طالما لجأ اليها بوهمند. فخرج من معرّة النعمان في 13 يناير على رأس جيشه، معلنا الزحف على بيت المقدس. وهنا تبعه بقية الصليبيين ما عدا بوهمند الذي أصر على أخذ أنطاكية باعتباره اول فاتح لها. التي جعل منها إمارة خالصة له وحده كما ذكرنا وهكذا تحركت اخيراً الحملة الصليبية نحو تحقيق هدفها التاريخي بعد ان ظلت قرابة خمسة عشر شهراً في شمال الشام (Setton I. P.327)

وهنا تضاربت الآراء بين الصليبيين، ايَّ الطريقين يسلكون: أهو طريق الساحل. أم طريق الداخل. وكان للتوجه الاول اغراءاته وهي الاستيلاء على مدن الساحل: جبلة وطرطوس وطرابلس وبيروت وصيدا وعكا وغيرها. لكن هذا التوجه جرى الاعتراض عليه من قبل تنكرد الذي وضع زملاءه امام حقيقة بسيطة وهي ان جيش الصليبيين لا يزيد عن الف فارس وخمسة آلاف من المشاة وهو عدد غير كاف لمحاصرة مدن الساحل. واقترح بالمقابل ان يسلك الصليبيون الطريق المباشر البري، واقرب طريق إلى القدس، حتى اذا خلصت لهم القدس استولوا على ما شاءوا من مدن الساحل.

لكن هذه الحماسة في الوصول إلى بيت المقدس سرعان ما شغل الصليبيين عنه شاغل يتعلق بعرقة القرية القريبة من طرابلس والتي وقفوا امامها يحاصرونها والتي شعروا امام الخيرات حولها وحول اقليم طرابلس بانهم لا يستطيعون التحرك بسهولة. فبدلاً من مواصلة الغارات والسلب والنهب عاشوا فترة من البحبوحة ورغد العيش عوضهم عن الحرمان الذي طالما

عانوا منه حتى الآن! وقد استمروا على حصارهم هذا لعرقة الصامدة اربعة اشهر ونقبوا سورها عدة نقوب. وأمام اعتراض غودفري على استمرار حصار عرقة التي لا تستحق كل هذا الاهتمام؛ قرر الصليبيون ان يواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس.

ومن الطريف ان ريموند كان مدفوعاً في حصاره «عرقة» برؤيا اخرى لبارثلميو الذي زعم ان المسيح اوصى بذلك! على ان صمود عرقة دعا الزعماء الصليبيين في جيش غودفري إلى التشكيك في صحة هذه الرؤيا. بل شكوا في انه اداة مسخرة لريموند. وان الحربة المقدسة ليست الا قطعة حديد قام بدفنها بنفسه! وبلغ اللغط والمهاترة حول هذه المسألة بين الصليبيين تحت اسوار عرقة مبلغا كبيراً واخيراً تفتق ذهن احد رجال الدين عن وضع رؤية بارتلميو تحت الاختبار وذلك عن طريق النار! حيث يقتحم بارثلميو النار الملتهبة حاملاً معه الحربة المقدسة، فاذا كانت نبوءته صحيحة لم تمسه النار بسوء واذا كانت كاذبة احرقته... وقد جرى هذا الاقتراح تبعاً لمعتقدات ذلك العصر. وبطبيعة الحال فقد احرقت النار بارثلميو... ومات بعد اثني عشر يوماً. وهنا انصرف الناس عن رواية الحربة المقدسة انصرافاً صاحب افلاسهم الحقيقي امام حصار عرقة!

ولم يلبث ان غادر الصليبيون اقليم طرابلس في 16 مايو 1099 متجهين إلى القدس عن طريق الساحل...ولعّل الذي رجح هذا التوجه اضافة إلى انهم كانوا على أرض ساحلية هو موافاة السفن الصليبية لهؤلاء بالمؤن والمعونة عن طريق البحر من مدن البندقية وبيزا وجنوة.

أمام هذه المعطيات وأمام تدفق القوات الصليبية نحو القدس، ترى ماذا كان موقف الفاطميين الذين كانوا يحتلون القدس في هذا الوقت (1098م) حيث كانوا قد استرجعوها من السلاجقة. وهذا التساؤل يقودنا إلى تساؤل مشابه تساءله المؤرخ المصري ابو المحاسن بن تغري بردي صاحب النجوم الزاهرة الذي عجب لموقف الفاطميين السلبي وعدم مشاركتهم القوى الإسلامية التي قامت للدفاع عن أنطاكية. يقول ابن تغري بردي :» ولم ينهض الافضل باخراج عسكر مصر، وما ادري ما كان السبب في عدم اخراجه مع قدرته على المال والرجال ؟» (النجوم الزاهرة جـ5 ص147) ثم يسترسل ابن تغري بردي في استغرابه هذه السلبية الفاطمية أمام سوء حال الصليبيين وتصدي المسلمين في العراق والشام لهم. «كل ذلك وعسكر مصر لم يحضر». (النجوم الزاهرة جـ5 ص 149).

وتروي المصادر التاريخية ان الوزير الفاطمي الافضل، حاكم مصر الفعلي (1095 -

1121) ارسل اليهم أول سفارة بعد الاستيلاء على انطاكية تحمل هدايا نفيسة لكل قائد من قوات الحملة الصليبية يسهل لهم مهمة الحج على شكل مجموعات من مئتين او ثلاثمائة حاج، بشرط الا يكونوا مسلحين. ولكنهم ردوا بانهم سيتمكنون من الحج فعلاً، ولكن بمعونة الله! (عاشور جـ1 ص278) مما يعني ان لاخيار لديهم سوى خيار الحرب !

اما ستيفنسون فيقول ان فرصته الفضلى ذهبت كلياً. فلو انه استخدم افضليته العددية بالكامل عندما كان عدد الجيوش اللاتينية (2000) او (3000) رجلاً فانه عندئذ فقط لم يكن للانتصار اللاتيني ان يسير بهذا اليسر وبهذه السهولة (Stevenson P.38).

ومهما يكن من أمر. فانه اثناء مسيرة الصليبيين على الساحل مروا بمدن هذا الساحل وكان رد فعل المدن الساحلية نحوهم متفاوتاً. فقد تعهد أهل بيروت بالدخول في طاعة الصليبيين. والاعتراف لهم بالتبعية اذا نجحوا في احتلال بيت المقدس. على ان صيدا ابدت بعض المقاومة. مما دفع الصليبيين إلى اتلاف مزارعها. كما مرّ الصليبيون بصرفند وصور. ومن ثم مرّوا بعكا التي تعهد حاكمها ايضاً بالدخول في طاعتهم، اذا استولوا على بيت المقدس. كما مرّوا بقيسارية وأرسوف ويافا، واتجهوا مباشرة إلى القدس دون المرور بيافا، ولكنهم احتلوا الرملة التي هجرها أهلها (عبد العظيم رمضان ص358).

وأمام احتلال الرملة وكما يقول رونسيان، فقد شعر الصليبيون بالسعادة لاحتلال هذه البلدة المسلمة في قلب الاراضي المقدسة. واقسموا على الفور ان يعيدوا بناء كنيسة القديس جورج وان يبنوا الرملة واللد لتكونا إمارة صغيرة lordship تقوم بالاشراف على الكنيسة، وان يقيموا مطرانية جديدة يقوم على رأسها مطران. وعين القسيس priest النورماندي، روبرت أف راون، على الفور لهذه المهمة.

ب. الحصار: لم يلبث الصليبيون ان توجهوا إلى القدس ووضعوا قواتهم حولها. وفي 12 يونية سنة 1098 قام الصليبيون بحج إلى جبل الزيتون. وهنا التقوا براهب نصحهم ان يهاجموا المدينة ويحتلوها صبيحة اليوم التالي. وعندما احتجوا بأن ليس لديهم آلات تحقق لهم النجاح قال لهم لا ضرورة لذلك، فان كان لديهم الايمان فان الله سيهبهم النصر. وبالفعل واستناداً إلى كلماته وجه هؤلاء صفوفهم نحو الهجوم في الصباح! ولمّا لم يتحقق لهم النصر فان رونسيمان يعلق بان الفشل سببه امران لا ثالث لهما! اما ان الراهب مخطىء وإما ايمانهم هو المخطىء! وعلى هذا فقد انسحبوا. على ان محاولاتهم في الهجوم استمرت. (Runciman I P. 281.).

ويروي ابو المحاسن بن تغري بردي ان الافرنج صنعوا برجين متحركين للوصول بهما إلى اسوار المدينة، وقد زحفوا بالاول إلى باب صهيون فأحرقه المسلمون. ثم انطلقوا بالثاني نحو باب العمود فالصقوه بالسور، وحكموا به البلد، وكشفوا من كان على السور من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق رمية رجل واحد فانهزم المسلمون (النجوم الزاهرة ج 5 ص148).

ومع هذه الكلمات القليلة التي يصور فيها ابن تغري بردي سقوط المدينة فنحن لا نريد ان نصور ان سقوط هذه المدينة الإسلامية العظيمة قد تم بسهولة. ومن اراد مرجعاً يصور الحقيقة، يصور المقاومة التي قام بها المسلمون وجسامة التضحيات التي حققها اهل القدس، فليرجع إلى وليم الصوري الذي يصف تفصيلاً بطولات عظيمة وصموداً رائعاً لأهل القدس الذين لم يسمحوا لجندي صليبي ان يمر الا على جسد كل منهم في ملحمة تاريخية (انظر وليم الصوري جـ2 ص 193، 101، 102).

ولكن امام شدة الضغط الواقع على المسلمين، يوم الهجوم الاكبر الجمعة 14 يوليو سنة 1099، كان لابد لهم ان يتراجعوا وهم يقاتلون بشراسة حتى انتهوا إلى الحرم الشريف الذي قرروا ان يكون القلعة التي بها يتمترسون! والخارطة التالية للمعركة، عزيزي القارئ، تصور بعض ابعادها:

1. قاد المعركة بوجه رئيس غودفري ومعه اخوه يوستاس.

2. توغل تنكرد ورجاله الذين كانوا وراء غودفري وقواته، داخل في المدينة باتجاه الحرم الشريف الذي توجه نحوه المسلمون باعتباره ملجأهم الاخير. ولكنهم لم يستطيعوا ان يهيئوه لكي يصبح قلعة حقيقية للدفاع اذ ان الصليبيين الذين كانوا وراءهم لم يمهلوهم! وعندما كان المسلمون يتجمهرون على السطح كان تنكرد وراءهم. ولم يملكوا أمام القوة سوى الاستسلام له وقد وعدوه بفدية كبيرة. واخذوا علمه وعرضوه فوق سطح المسجد. وكان تنكرد قد ضرب الصخرة المشرفة ونهبها.

3. وفي نفس الوقت توجه سكان المدينة إلى الحي الخلفي للمدينة وسط الفوضى الرهيبة، حيث كان افتخار الدولة قائد الحامية الفاطمية لا يزال صامداً امام ريموند. ولكن في وقت مبكر من مساء ذلك اليوم تحقق ان كل شيء قد انتهى! وهنا لجأ افتخار الدولة إلى برج داود الذي عَرَضَ بان يسلمه إلى ريموند مع دفعه فدية مالية كبيرة مقابل حياته وحياة حرسه.

وبالفعل فقد تم اخراج افتخار الدولة مع رجاله خارج المدينة وسمح له بأن يلتحق بحامية عسقلان !

4. لم يكن امام المسلمين سوى ان يتولوا أمر انفسهم بأنفسهم ولكن هيهات! فطوال الليلة التي جاءت بعد نهار الجمعة الرهيب كانت القوات الصليبية قد تحولت إلى ذبح الرجال والنساء والاطفال. ولم يشفع للناس علم تنكرد. بل ان عصابة من الصليبيين في صبيحة اليوم التالي دخلت المسجد الأقصى بالقوة وذبحت كل انسان وجدته هناك. وعندما ذهب ريموند ليزور منطقة الهيكل كان عليه ان يبحث عن طريق له بصعوبة وسط اكوام الجثث والاشلاء والارجل والايدي والدماء التي وصلت إلى الركب !

مذبحة القدس: ويقول رونسيمان: «ان مذبحة القدس اثرت بعمق ومست كل انسان في العالم» (Runciman I P. 287).

ولا بأس ان نستشهد هنا بآراء المسيحيين انفسهم اولاً عن هذه المذبحة: ولنستشهد بوليم الصوري الذي تحمس بقوة للصليبيين، واحب القدس مع ذلك، حيث يقول:»... ودخل المسجد حشد من الفرسان والمشاة، فذبحوا ذبح الشاة كل من لجأ إلى هنا يبتغي الحماية، واعملوا القتل فيهم ولم تأخذهم رحمة بأحد ما، حتى فاض المكان كله بدماء الضحايا»... إلى ان يقول ايضاً «كان من المستحيل ان يطالع المرء كثرة القتلى دون ان يستولي عليه الفزع. فقد كانت الاشلاء البشرية في كل ناحية، وغطت الارض دماء المذبوحين. ولم تكن مطالعة الجثث، وقد فارقت رؤوسها - ورؤية الاعضاء المبتورة المبعثرة في جميع الارجاء هي التي اثارت الرعب في نفوس جميع من شاهدوها، بل كان هنالك ما هو ابعث على الفزع، الا وهو منظر المنتصرين انفسهم، وقد تخضبوا بالدماء فغطتهم من رؤوسهم إلى اخمص اقدامهم، فكان منظراً مروعاً بعث الرعب في قلوب كل من قابلوهم، ويقال انه قتل في ساحة المسجد وحدها عشرة آلاف من «المارقين»، بالاضافة إلى ان القتلى الذين تناثرت جثثهم في كل شوارع المدينة وميادينها لم يكونوا اقل عدد مما ذكرناهم» (وليم الصوري جـ2 ص127).

وكتب مؤرخ صليبي آخر بأنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة «لم يستطع ان يشق طريقه وسط اشلاء المسلمين الا بصعوبة بالغة، وان دماء القتلى بلغت ركبتيه»! واورد المؤرخون المسيحيون الشرقيون اخبار هذه المذبحة، فكتب ابن العبري الملطي يقول: «ولبث الفرنج في البلد اسبوعاً يقتلون فيه المسلمين، وقتل بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين الفاً» وكذلك

ذكر متّى الرهاوي ان عدد القتلى من المسلمين في تلك المذبحة زاد على خمسة وستين الفاً (عبد العظيم رمضان ص362).

اما المؤرخون المسلمون فقد وصفوا هذا الحدث وسط الالم الشديد الذي يعكس رأي العام الإسلامي في ذلك الزمان فهذا ابن الاثير يقول: **«وقتل الفرنج، بالمسجد الاقصى، ما يزيد على سبعين الفاً، فيهم جماعة كثيرة من الائمة المسلمين، وعلمائهم، وعبّادهم وزهادهم، ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف، واخذوا من عند الصخرة نيفاً واربعين قنديلاً من الفضة».**

ويضيف ابن الاثير إلى ذلك قوله، **«وورد المستنفرون من الشام، في رمضان إلى بغداد، صحبة القاضي ابي سعد الهروي، فأوردوا في الديوان كلاماً ابكى العيون، واوجع القلوب، وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما داهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال، وسبي الحريم والاولاد ونهب الاموال، فلشدة ما اصابهم افطروا»** (الكامل جـ 10ص).وقد سخر الشاعر المظفر الابيوردي من هذا البكاء مطالباً بالاستنفار قائلاً: –

وشر سلاح المرء دمع بفيضه اذا الحرب شبت نارها بالصوارم

بعد هذه المذبحة العظيمة دخل الصليبيون بيوت المسلمين فتملكوا ماوجدوا فيها. ورتبوا ذلك بحيث ان اول من يدخل ويترك امام بيته قطعة من سلاحه (أو أي شيء آخر يدل عليه) يصبح مالكا لهذا البيت ولا يتحداه على ملكيته اي افرنجي آخر. وكان يشغل البيت او القصر، وكل ما يجده فيه، يمتلكه كما لو كان ملكا خالصاً له. وهكذا تم الاتفاق بينهم على حق الملكية هذا. وبهذا اصبح كثير من الفقراء اغنياء. (مصطفى الحياري: القدس تحت حكم الصليبيين (ص 177).

ومهما يكن من امر فقد حقق الصليبيون بغيتهم ونالوا هدفهم! فقد استرجعت القدس للمسيحية ولكن السؤال الذي طرح نفسه بقوة في هذه الحالة هو: كيف يمكن المحافظة عليها؟ وماذا ستكون عليه حكومتها؟ وكما يظهر فان الرأي العام الصليبي ارتأى انه لما كانت الحملة صليبية دينية الدافع فان الكنيسة ينبغي ان تكون لها السيطرة المطلقة في القدس. ولو كان ادهيمار مندوب البابا لا يزال حياً كان سيترك له ولا شك وضع دستور المدينة وتعيين موظفيها. وكان الحكم سيأخذ شكلاً دينياً على ان تكون لريموند دوق طولوز مهمة إمارة المدينة وحماية هذا الحكم الديني. لكن ادهيمار كان قد توفي وذهبت معه كل افكاره وتوجهاته. وكان البابا اربان

الثاني حتى هذا الوقت لا يعلم من امر نجاح الحملة والاستيلاء على القدس شيئاً وسيتوفى وهو لا يعلم من هذا الامر شيئاً...المهم انه لم يكن هناك من يستطيع ان يقوم بدور ادهيار ويدخل الصبغة الدينية على الحكم في بيت المقدس (Runciman I,p. 289). وهنا جرى البحث عمن يحكم القدس حكماً دنيويا وجرى وزن كل من المرشحين.

وقد كان ريموند اقوى المرشحين من حيث العمر والثروة والخبرة وتعايشه الطويل مع ادهيار...ولكن مشكلته انه كان يفتقد الشعبية لدى زملائه. لقد كان مغروراً واعتبر نفسه القائد العلماني للحملة الصليبية. وكانت سياسته في صداقة الامبرطور البيزنطي مكروهه. وقد أَضَرَّ به فضيحة عرقة وبطلان اسطورة الحربة المقدسة! وقد توقع ذوو الرأي انه اذا اسند اليه الحكم فسيكون اسلوبه اتوقراطياً لا يمنح الثقة لعدم انعكاس اسلوبه العسكري على سياسته العامة (Runciman Ip 291).

وبين الآخرين من المرشحين كان روبرت فلاندرز هو الأكثر كفاية، ولكن كان من المعروف انه سيعود إلى بلده عندما يطمئن الى الوضع في القدس. وكان المرشح الثالث هو روبرت نورماندي الذي كان محبوباً ولكن شخصيته لم تكن قوية، وكان ميالاً جداً للعودة إلى اوربا.

وهنا لم يبق سوى غودفري. الذي كان كدوق اللورين قد ملأ أعلى منصب بالنسبة لزملائه. ولم يكن غودفري كدوق كفؤاً. وكان سلوكه في القسطنطينية قد اثبت عناداً مشكاكاً... كما ان الانطباع الذي تكون عنه انه ضعيف وغير ذكي....ولكن مع كل هذه السلبيات فقد نظر اليه الصليبيون كرجل شجاع، ورباني وكخادم مخلص لقضيتهم (Runciman I P. 291 -292).

بعد قليل من اعتلاء غودفري عرش بيت المقدس الذي اقسم بعده ان لا يلبس التاج الذهبي في المكان الذي لبس فيه المسيح تاج الشوك وبدلاً من ان يسمي نفسه ملك بيت المقدس سمى نفسه حامي القبر المقدس. نقول بعد قليل من هذا كان لابد له ان يجابه الفاطميين في موقعة عسقلان وكان معه القادة الصليبيون الآخرون: ريموند على الميمنة والاثنان روبرت وتنكرد في الوسط. وقد اندفع جميعهم إلى قلب الجيش المصري وهنا اصابت الصدمة الوزير الافضل الذي فوجىء كليا بهذا الهجوم. فقد اخطأ كشافته ولم يتوقعوا ان يكون الفرنجة بهذا القرب منهم. وبعد دقائق كانوا يهربون وسط هلع شديد. وقد احتمت جماعة كبيرة منهم في غابة جميز، حيث حرقوا حتى الموت. وفي الميمنة قذف بأعداد عظيمة في البحر. وقد توغل روبرت

نورماندي ومعه تنكرد في قلب المعسكر. وامسك حرس روبرت بعلم الوزير الافضل ومعها ممتلكاته الشخصية. أما الوزير الافضل فقد فر إلى داخل عسقلان ومن هناك ركب السفينة إلى مصر. وفي ساعات قليلة ـ وكما يذهب رونسيمان ـ فان النصر كان تاماً. «وبذلك تأكدت سيطرة الصليبيين على القدس». (Runciman I P.296).

حـ. فتح مدن فلسطين

بعد معركة عسقلان استمرت المعارك لفتح بقية مدن فلسطين فقد كانت ارسوف الاقرب إلى المستوطنات اللاتينية. وكانت الاولى في تحدي جيرانها الجدد ودعوتهم إلى اختبارٍ قوي. وقد حاصر غودفري المدينة سبعة اسابيع من نهاية اكتوبر إلى منتصف ديسمبر 1099 وكان فشله في احتلالها يعود بصورة رئيسية إلى الحاجة إلى اسطول. ومع ذلك فلم تلبث المدينة سوى فترة وجيزة حتى سلمت مفاتيحها بواسطة وفد ضمها إلى غودفري وسلمت بعدها قيصرية وعكا.

وبينما قامت فترة سلام مع مدن الساحل فان غودفري مدّ يد المساعدة إلى تنكرد الذي كان يقيم سلطته على المنطقة التي تقع ما وراء نهر الاردن والاقرب إلى طبرية (Stevenson P.40).

اما اهالي نابلس فقد سلّموا اليه طواعية وصلحاً بعد سقوط القدس مباشرة كما ان بيسان كانت من جملة ما استحوذ عليه تنكرد مبكرا.

أسئلة التقويم الذاتي (5)

1. وضح كيف سقطت القدس في يد الصليبيين؟

2. إلى أي مدى يعتبر الفاطميون مقصرين في قضية سقوط القدس؟

3. يقول المؤرخ «رونسيمان:» ان مذبحة القدس اثرت بعمق ومسّت كل انسان في العالم» اشرح ما المقصود بهذا القول؟

وبعد هذا كان لابد من مهاجمة عكا، وبينما كانت القوات البرية تتوجه نحوها توفي غودفري عام (1100)، بينما كان الاسطول البندقي لا يزال في عكا. وبناء على اقتراح من تنكرد توجه

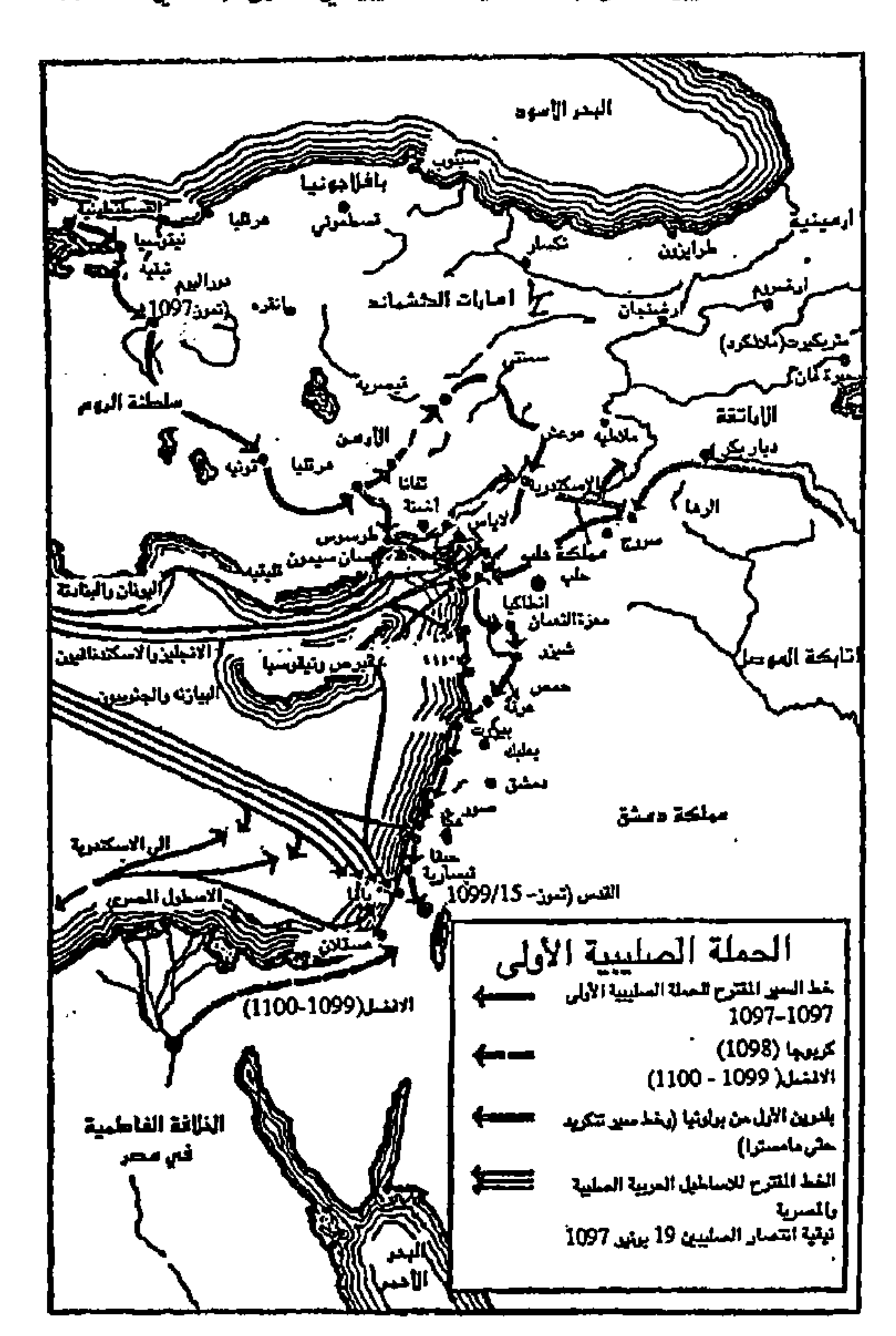
الاسطول إلى حيفا التي سقطت بعد شهر. وعلى الاثر ذبح سكانها بدون رحمة وبدون مراعاة لا للعمر ولا للجنس.

وفي سنة 1104 تمكن بلدوين، الذي خلف غودفري على حكم بيت المقدس، من ضمان تأييد الاسطول الجنوى من اجل تجديد هجومه على عكا. وقد سلّم اميرها بعد حصار استمر (20) يوماً.

وفي عام 1105 اصطدم بلدوين ــ الذي كان في يافا التي سبق لغودفري ان احتلها وحصنها في عام 1097 مع قوات إسلامية بقيادة الوزير الفاطمي الافضل وحليفه الدمشقي المكونه قواته من (1300) فارس، وكان مجمل القوات الإسلامية عشرة الاف رجل. وعندما تحركت هذه القوات لتلتقي ببلدوين وقواته عند الرملة، فاز اللاتين بمعركة فاصلة ولكنها قاسية. وبهذا تقرر مصير مدينة يافا.

وفاة غودفري:

توفي غودفري سنة 1100 وبالنظر لتديُّنه، فقد اعطى الكنيسة من الصلاحيات اكثر بكثير مما ينبغي (Runciman II P.3). ومهما يكن فلم يلبث ان غلفت شخصيته اسطورة تنسب اليه دوراً حاسماً في تأسيس المملكة اللاتينية في الشرق ولا يزال المؤرخون الغربيون يتساءلون عما اذا كان غودفري بطلاً او بارونا وعلى شاكلة البارونات الصليبين او شخصا تافها فيها خدمه الحظ.


البحر الأسود
سينوب
بافلاجونيا
القسطنطينية
هرقليا
قسطموني
نيقوميديا
نيقية
دوراليوم
(تموز 1097)
انقرة
امارات الدانشمند
طرابزون
ارمينية
ارضروم
ارزنجان
سيواس
قيصرية
سلطنة الروم
الارمن
قونيه
هرقليا
ملاطيه
مرعش
الاراتقة
ديار بكر
الرها
طرسوس
اذنة
مملكة حلب
حلب
انطاكيا
معرة النعمان
شيزر
حمص
بيروت
بعلبك
دمشق
مملكة دمشق
اتابكة الموصل
اليونان والبنادقة
الانجليز والاسكندنافيين
قبرص
البيازنه والجنويين
الى الاسكندرية
الاسطول المصري
يافا
عسقلان
حيفا
قيسارية
القدس (تموز- 1099/15
الانشل(1099-1100)
الخلافة الفاطمية
في مصر
البحر
الاحمر
الحملة الصليبية الأولى
خط السير المقترح للحملة الصليبية الأولى
1097-1097
كربوجا (1098)
الانشل(1099 - 1100)
بلدوين الاول من بولونيا (يخط سير تنكريد
حتى مامسترا)
الخط المقترح للاساطيل الحربية الصليبية
والمصرية
نيقية انتصار الصليبين 19 يونيو 1097

اعتلى بلدوين شقيق غودفري الملك في القدس بعد وفاة غودفري. وقد كان بلدوين حاكم الرها، ويعد اعتلاء بلدوين الاول عرش المملكة انهزاماً للداعين إلى الحكومة الثيوقراطية في بيت المقدس، وعلى رأسهم دايمبرت بطريرك القدس.

ومهما يكن من أمر فان رونسيمان يعتبر وفاة غودفري واستبداله ببلدوين إنقاذا للمملكة الفتية. لأن بلدوين امتلك صفة الحكمة وبعد النظر اضافة إلى صفة القوة وكونه رجل دولة. ولكن المهمة التي كانت تنتظره كانت مهمة صعبة ولم يكن لديه سوى قلة من المساعدين الذين يستطيع الاعتماد عليهم. فالمحاربون الاشداء للحملة الاولى إما انهم ذهبوا إلى الشمال او أنهم عادوا إلى بيوتهم ومن بين ممثلي قادة الحركة ظل في فلسطين أقلهم كفاية. ونحن لا نملك أي معلومات عن مصير حياة بطرس الناسك ذي الحياة الغامضة. والذي هو نفسه عاد إلى اوربا في عام 1101.

ولا بأس في ان ننظر اي الحدود التي شملتها المملكة اللاتينية عند تتويج بلدوين هذه الحدود التي كانت السيطرة اللاتينية عليها مهددة بالاخطار. لكن اشد المناطق امنا كان العمود الفقري للمملكة. من بيت لحم شمالاً إلى سهل جزريل... وإلى اقصى الشمال كانت إمارة الجليل التي قام بفتحها تنكرد. وقد شملت ايزدرلون والتلال من الناصرة إلى بحيرة الحولة.

ولقد استقرت حدود الصليبيين والفرنجة كما حرص عليها بلدوين على هذه الشاكلة: من حدود العقبة إلى جبل الشيخ، ومن لبنان إلى الفرات.

تدريب (1)

بين خلفيات قواد الحملة الاولى.

تدريب (2)

كيف تأسست إمارة الرها؟

تدريب (3)

ما هي - بايجاز - اسباب انتصار الصليبيين في الحملة الاولى؟

4.4 انشاء إمارة طرابلس:

يصف ابن الاثير طرابلس بانها من اعظم بلاد الإسلام واكثرها تجملاً وثروة (الكامل ج 10

ص 413). وقد زاد في اهمية طرابلس موقعها على البحر الابيض المتوسط، في موقع متوسط بين أنطاكية ومملكة بيت المقدس. ولعل هذا ما لفت اهتمام الصليبيين بها وعلى رأسهم ريموند الصنجيلي، ومن هنا فقد قاموا بحصارها وشددوا هذا الحصار. الذي دام سبع سنوات... وقد قابل ابن عمار صاحب طرابلس هذا التضييق عليه وعلى مدينته بالصبر والصمود والثبات يقول ابن الاثير. «أظهر ابن عمار صبراً عظيماً وشجاعة ورأياً صائبا»، على ان هذا الحصار الذي استمر كل هذه المدّة الطويلة يحتاج منا، عزيزي القارئ، إلى دراسة ابعاده وتبين جوانبه من النواحي التالية: -

- دور ريموند الصنجيلي: لا يمكن ان نفهم استماته ريموند الصنجيلي في الاستيلاء على طرابلس الا اذا ادركنا الخلفية التي انبنى عليها دوره: فهو من رواد الحركة الصليبية وكان الاكثر ثروة والاكبر تميزاً والرجل الذي توقع له الكثيرون بان يسمى اميراً للحملة الصليبية الاولى. ولكن بعد خمس سنوات من بداية الحملة كان الاقل شأناً واعتباراً بين القادة الصليبيين. وكانت مصائبه ومشكلاته كما يقول رونسيمان من صنع يديه. فلم يكن الاكثر شراهة ولا الابعد طموحاً بين اكثر زملائه لكن غروره اظهر بوضوح اخطاءه (Runciman I P.56).

وقد زاد في سوء وضع ريموند الصنجيلي ان اصيب بهزيمة ساحقة وهو يقود الحملة اللومبارية سنة 1101 وقد تمكن من الفرار إلى البحر الاسود ثم القسطنطينية، حيث اعد لهم الامبارطور الكسيس كومنين في اوائل عام 1102 سفناً حملتهم إلى المشرق العربي. وقد صحب ريموند الصنجيلي هؤلاء إلى الشام، فوصلوا إلى السويدية. وهنا تم القبض عليه وسلّم إلى غريمه تنكرد الذي اعتقله في قلعة في أنطاكية بتهمة التواطؤ مع البيزنطيين ضد الصليبيين الغربيين. وقد افرج عنه بعد ذلك لكن هذه الاهانة من تنكرد اعتبرت الاقسى والاكثر اذلالاً لا سيما وأن طلاق سراحه انما جاء مقابل التخلي عن مطالبته بأنطاكية واللاذقية (عبد العظيم رمضان 387).

- على هذا وانطلاقاً من هذه الخلفية فقد بذل ريموند جهداً كبيراً في الحصار. وقد ساعده في مهمته وصول اسطول جنوي إلى الشام 1102، استعان به ريموند في حصار طرابلس من البحر. وقد شكل الاسطول الجنوي قاعدة هامة لريموند لمواصلة مشروعاته في الاستيلاء على طرابلس ذاتها. بعد ان كان قد تم له الاستيلاء على طرطوس.

فشلت جهود ريموند في الاستيلاء على طرابلس لكنه استعاض عن هذا الفشل بالاستيلاء

على جبيل التي سقطت في سنة 1104. وهنا حصل الجنويون على مكافأتهم المعهودة وهي ثلث المدينة، مما مهد الطريق لكي تصبح هذه المدينة مستعمرة جنوية.

- ومهما يكن من أمر فقد استمرت طرابلس في صمودها. ولعل مما زاد في هذا الصمود هو انها كانت قائمة على شبه جزيرة في البحر، تتيح لها التزود بالمؤن عن طريق البحر بسهولة.

وقد كان هذا مما جعل ريموند يفكر في انشاء قلعة في مواجهة طرابلس مباشرة وقد اتى بالاخشاب والمعدات اللازمة لها من قبرص بواسطة الامبرطور البيزنطي.

وببناء القلعة اصبح أهل طرابلس محاصرين من جميع الجهات ما عدا البحر. وهذا ما حفزهم على التركيز، في مجابهتهم للقوات المحاصرة، على القلعة. وبالفعل فقد تمكنوا من اشعال النار فيها في اغسطس - سبتمبر. ومع ان القلعة لم تهدم الا ان العدو الصليبي اللدود ريموند سقط تحت جدرانها المشتعلة، فاصيب بجروح لم تمهله طويلاً اذ توفي بتأثير جروحه في28 فبراير 1105. وقد توفي على جبل الحجر. يقول ابن الاثير: «**ووقف صنجيل على بعض سقوفه المحترقة ومعه جماعة من القهامصة والفرسان فانخسف بهم، فمرض صنجيل من ذلك عشرة ايام ومات، وحمل إلى القدس فدفن فيه**» (الكامل جـ10 ص411).

- ولم يفد المسلمون من غياب ريموند الصنجيلي عن المسرح. فالتناقضات السياسية الإسلامية فوّتت فرصة ذهبية في الانقضاض على الجيش الصليبي حول طرابلس. ولم يلبث الفراغ الذي شغر باختفاء القائد الصليبي أن مُلِيءَ بواسطة ابن خالته وليم جوردان الذي واصل سياسة سلفه في تشديد الحصار على طرابلسَ مستعيناً بالامدادات البيزنطية من قبرص.

- زادت نتائج الحصار على طرابلس سوءاً وارتفعت اسعار الاغذية بصورة كبيرة حتى ان رطل البلح اصبح يكلف ديناراً من الذهب. وقد قام بالهجرة من المدينة وتركها كل قادر على ذلك، ويقول ابن الاثير «**ولم تزل الحرب بين أهل طرابلس والفرنج منذ خمس سنين إلى هذا الوقت. وخاف أهله على نفوسهم واولادهم وحرمهم، فجلا الفقراء وافتقر الاغنياء**» (الكامل حـ10 ص411). وداخل الاسوار كان هنالك المرض والبؤس الامر الذي دعا فخر الملك ان يخفف من وقع هذه الازمة بتوزيع الطعام على الجنود والمرضى. ويذكر رونسيمان أن بعض الاعيان فروا إلى معسكر الفرنجة حيث كشفوا لهم الممر الذي وكانت لا تزال تهرب منه البضائع إلى طرابلس وقد قدم فخر الملك، كميات كبيرة من المال لتسليم هؤلاء الخونة. ومع

أنه رفض الكونت تسليمهم، إلا أنهم وجدوا مقتولين في المعسكر المسيحي (Runciman IP.62).

ومع كل الآلام والشدائد التي رافقت الحصار فان فخر الملك صبر وصابر وسط الاسى المتزايد طوال سنتي 1106 و 1107.

- على ان فخر الملك، وامام اصرار الصليبيين على الحصار بالرغم من احتلال طغتكين والي دمشق رافانيا* الامر الذي حسّن من موقف فخر الملك، لم يجد بداً من السفر شخصياً ليطلب العون من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي محمد.

وقد استقبل الخليفة فخر الملك استقبالاً ممتازاً يليق بصموده وجهاده، «وسيَّر الخليفة خواصه وجماعة ارباب المناصب، فلقوه وأنزله الخليفة وأجرى عليه الجراية العظيمة، وكذلك أيضاً فعل السلطان، فقد فعل معه ما لم يفعل مع الملوك الذين معه من امثاله، وهذا جميعه ثمرة الجهاد في الدنيا والآخرة اكبر».(الكامل حـ0 1 ص453).

لكن رونسيمان أخذ على هذا الاستقبال الحافل انه كان مفرغاً من أي محتوى حقيقي، فيما يتعلق بنجدة طرابلس، وانقاذها من براثن الاعداء (Runciman. II P.64)

وخرج بنفس النتيجة أيضاً ابن الاثير الذي يذكر لنا ان الخليفة خلع عليه خلعاً نفيسة، واعطاه شيئاً كثيراً، وودعه وسار معه الامير حسين وهو أحد أمراء الخليفة. حتى يقول «فلم يُجْدِ ذلك نفعاً» (الكامل جـ10 ص 453).

على ان النتيجة الاكثر سوءاً بالنسبة لفخر الملك، هي ان اهل طرابلس اغتنموا فرصة غياب حاكم طرابلس في بغداد مدة اربعة اشهر وراسلوا الافضل الوزير الفاطمي يلتمسون منه والياً أن يكون عندهم، ومعه المؤن في البحر مما يحتاجه الحصار.

هكذا لم يملك فخر الدولة الذي وصل الى دمشق قبل ان يسمع بالثورة التي حصلت عليه إلا ان يتوجه من هنالك الى جبلة الى الشمال من طرطوس، والتي كانت تخضع له.

وعلى الرغم من كون فخر الملك خسر طرابلس، فان الفاطميين لم يستطيعوا الحفاظ عليها. كما ان وليم جوردان لم يستطع فتحها. وفي هذه الفترة ارسل الصليبيون الى ابن ريموند الصنجيلي الفونسو جوردان لكي يستولى على ميراثه الشرعي. لكن الكونتيسة الفيرا والدته

آثرت لابنها اراضي جنوب فرنسا على امارة في وضع خطر في الشرق.

– وعلى اية حال فان الصليبين لم يلبثوا ان حشدوا قواتهم ووحّدوا صفوفهم. فقد حدث نزاع بين وليم جوردان وبين برتراند بن ريموند الصنجيلي الاكبر، الذي جاء من فرنسا على رأس جيش مكون من (4) آلاف فارس يحملون أسطولاً قوياً من اربعين سفينة، للمطالبة بتركة ابيه بعد ان ظل جوردان يدافع عنها قرابة أربع سنوات. ثم تحالف مع تنكرد أمير انطاكية لطرد برتراند، بينما تحالف مع بلدوين ملك القدس على طرد وليم جوردان، وانتهى النزاع بين الطرفين على تقسيم التركة بين المتنازعين بحيث يأخذ وليم جوردان عرقة وطرطوس، ويأخذ برتراند قلعة صنجيل وجبيل. علاوة على طرابلس عندما يتم الاستيلاء عليها وبهذا توحدت وتعاضدت جهود الصليبيين مع بعضها البعض ضد طرابلس: فقد التقت قوات بيت المقدس وبروفانس وانطاكية والرهاء وشدّد هؤلاء الحصار عليها اكثر من ذي قبل.

– أمام هذا الحصار الشديد عرضت طرابلس التسليم للملك بلدوين ملك القدس بشروط أبرزها: عدم الاعتداء على حياة من يريد الخروج وعلى ممتلكات من يريد البقاء. وقد وفى بلدوين بهذه الشروط في المناطق التي قام بتسلمها فلم يكن هناك نهب ولا تدمير (Runciman I P.69). ولكن البحارة الجنويين، وقد وجدوا ان المدينة غير محمية، اقتحموا المدينة الى داخلها. وبدأوا بالنهب وحرق البيوت وذبح كل مسلم يقابلهم. وقد استمر الامر بعض الوقت حتى تمكنت السلطات من ردعهم. وفي وسط هذه الفوضى حرقت مكتبة بني عمّار وهي الاجمل والابهى في العالم الاسلامي، وحتى الاساس، واضمحلت جميع محتوياتها (المصدر نفسه). وقد تم الاستيلاء على طرابلس في 12 يوليو 1109. وقد سمح، في آخر الامر، للقائد الفاطمي بمغادرة المدينة مع الحامية التي معه.

وعندما تم الاستيلاء على المدينة كلياً، واستعيد فيها النظام، فقد عين برتراند كحاكم لها. وقد أخذ لقب كونت طرابلس. وأعاد تأكيد تابعيته لمملكة بيت المقدس. وقد اهملت التزاماته نحو الامبراطور ألكسيوس. وقد كوفىء الجنويون بربع طرابلس (Runciman IP.69).

– وهكذا قدر لابن ريموند الصنجيلي ان يحقق طموحات ابيه في تكوين دولة في المشرق. ولقد كانت إمارة أصغر مما رسم ريموند. ولكنها كانت تركة غنية ومزدهرة. ومن خلال ثروتها وموقعها، حيث كانت تربط بين الفرنجة في شمال سوريا والفرنجة في فلسطين، فانه كان عليها ان تلعب دوراً حيوياً في تاريخ الصليبيين.

- سقوط جبيل وبانياس وصيدا: عندما فرغ الصليبيون من الاستيلاء على طرابلس، سارع تنكرد حاكم انطاكية الى بانياس وحاصرها ثم افتتحها (الكامل حـ10 ص 476) ثم توجه نحو مدينة جبيل، وكان - كما اشرنا - فيها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس - وقد لجأ اليها بعد ان استولى الفاطميون على مدينته. وكان القوت في جبيل قليلاً، فقاتلها تنكرد حتى ملكها، وخرج فخر الملك بن عمار سالماً (الكامل حـ10 ص476) وكان هذا سنة 1109.

وفي السنة التي تلت (1110) وبالنظر الي وصول مراكب من اوروبا مشحونة بالرجال والذخائر للحج الى بيت المقدس فقد اغتنم بلدوين ملك القدس حضورهم فاصطحبهم من بيت المقدس الى صيدا وحاصروها برّا وبحراً. وكما يروي ابن الاثير فقد قام الفرنج بصنع برج من الخشب، وجعلوا عليه ما يمنع النار والحجارة (الكامل حـ10 ص476). وامام هذا الحصار، ومن جراء خشية أهل صيدا من تجربة سقوط بيروت، فقد ارسلوا قاضي صيدا ومعه عدد من وجهائها الى الفرنج، وطلبوا الامان. وهنا امنهم بلدوين على انفسهم واموالهم وعسكرهم، ومن اراد الخروج او البقاء فله ذلك. وقد خرج كثير من أهل البلد. ويعزو ستيفنسون تسليم صيدا الى طاقة بلدوين وجهده الشخصي (Stevenson P. 59).

5. العلاقة بين الكيانات الصليبية والبيزنطيين

بالرغم من اليمين الذي أقسمه بوهمند على نفسه، في القسطنطينية، بإطاعة الامبرطور البيزنطي والولاء له. فإنه لم يتردد في منازلة البيزنطيين، الذين صنفهم في خانة الاعداء وليس في خانة الاصدقاء، فبعد ان تمت له السيطرة على انطاكية هاجم البيزنطيين ليسترد منهم مدينة مرعش، وعلى ما يظهر فان بوهمند في حملته ضد مرعش لم يستطع ان يحقق غرضه، وكل ما استطاعه هو السيطرة على الاراضي المكشوفة المحيطة بها. (عاشور الحركة جـ1 ص386).

ويظهر ان بوهمند حاول ان يلعب ورقة الارمن الذين كانوا يعلمون بوجود بوهمند على مقربة منهم عند مرعش فاستنجدوا به ضد الاتراك فانجدهم.. ولكنه اراد توظيف التحالف معهم ضد البيزنطيين اكثر من اي شيء آخر اذ ان بوهمند كان يعتقد دائماً ان النورمان والارمن لهم جيعاً عدو مشترك وهم البيزنطيون والاتراك.

لكن مشاريع بوهمند هذه في التصدي للبيزنطيين والاتراك توقفت، فبينما كان بوهمند يقوم بحملة على مرعش، استنجد به احد زعماء الارمن واسمه جبريل، ضد الاتراك المسلمين، فسارع بوهمند الى نجدته، وفي هذه الاثناء كان الملك غازي بن الدانشمند ينصب له كمينا في الطريق الى ملطية، فقامت معركة شرسة انتهت بهزيمة بوهمند، وذبح رجاله ووقع في الاسر في اوائل اغسطس 1100، وحمل الملك اسيره متجها الى بلاده حيث سجن بوهمند في قلعة ينكسار قرب شاطئ البحر الاسود. (عبدالعظيم رمضان ص 396).

بعد اسر بوهمند كان على انطاكية ان تبحث عن امير آخر وقد اتفق امراؤها ورجال الدين فيها على استدعاء تنكرد ابن اخت بوهمند لكي يكون وصياً على الامارة اثناء أسر خاله، وهكذا فإن تنكرد ترك اقطاعه في الجليل، واتجه الى انطاكية لكي يباشر دوره الجديد (اواخر مارس 1100) (عاشور، الحركة، جـ1 ص389).

ولم يكن تنكرد بأقل طمعاً من خاله بوهمند. بل لعله كان يحلم بأن تطول مدة خاله في الاسر حتى تخلص له انطاكية. ويمكن تلخيص برنامج تنكرد التوسعي في جانبين: الجانب الاول الاستيلاء على اللاذقية وقيليقية من البيزنطيين، والجانب الثاني الاستيلاء على الجزء الاوسط من نهر العاصي من سلاجقة حلب واتباعهم.

ففي اواخر 1101 شرع تنكرد في التوسع على حساب الامبرطورية البيزنطية، وقام بغزو

قيليقية، واستطاع في فترة قصيرة الاستيلاء على ثلاث مدن رئيسه فيها وهي المصيصة واذنه وطرطوس. ثم شرع بعد ذلك في غزو اللاذقية وقام بفرض الحصار عليها ولما كانت اللاذقية قوية التحصين، وكان من ضمن من يدافعون عنها الامير ريموند الصنجيلي كما مرّ معنا، فقد اعتقله تنكرد ثم اطلق سراحه ليذهب هذا مع رجاله لمحاصرة طرابلس.

غاية الامر ان الحامية البيزنطية وجدت نفسها وحيدة في اللاذقية، في الوقت الذي شدد فيه تنكرد هجومه من البر والبحر. وكان الذي اعانه في الحصار البحري هم حلفاؤه الجنويون. وفي النهاية اضطرت اللاذقية الى التسليم في اوائل عام 1103. وهكذا فقد اصبح لامارة انطاكية ميناء رئيسياً يربطها بأوربا، وهو امر ذو اهمية كبيرة.

بعد اطلاق سراح بوهمند بعد ثلاث سنوات من الاسر في عام 1103. لم يكن باستطاعته ان يقف موقف المتفرج على امارته التي اجهد نفسه في اقامتها وهي تنهار ايام غزوات البيزنطيين من جهة والمسلمين من جهة اخرى، وهنا التفت بوهمند الى امارته وقام بالاعمال التالية:

1. اعطى ابن اخته تنكرد اقطاعاً صغيرا ليفرغ من امره ويحجم اطماعه.

2. استأنف الحرب ضد عدويه التقليديين البيزنطيين والمسلمين.

وهنا تمكن من الاستيلاء، وبالتعاون مع جوسلين نائب امير الرها، على مرعش والابلستين.. وقد تخلى لجوسلين عن الاولى واكتفى هو بالثانية. بوهمند يعاونه خليفة بلدوين دي بورج امير الرها وجوسلين حاكم تل باشر.

3. اصطدم مع التحالف الاسلامي المكون من اتابك الموصل شمس الدولة جكرمش وامير ماردين سكمان الارتقي، وهنا انتصر المسلمون انتصاراً عظيماً فيما يعرف بمعركة حران، وقد سقط امير الرها بلدوين دي بورج ومعه جوسلين حاكم تل باشر في ايدي المسلمين وفرَّ بوهمند لا يلوى على شيء!.

وهنا– وهذا ما يهمنا، عزيزي القارئ – تقدمت الدولة البيزنطية للإفادة من هذه الفرصة. فاستردت طرطوس واذنة والمصيصة عقب ثورات اشعلها البيزنطيون، في هذه المدن بالاشتراك مع الارمن، ثم أرسل الامبرطور البيزنطي اسطولاً بيزنطياً الى اللاذقية، فاجأ حاميتها واستولى على معظمها، وانطلق منها ينتزع من النورمان المراكز الاخرى على الساحل فيما بين اللاذقية وطرطوس وهكذا كان على بوهمند ان يدفع ثمن محاربته لمعسكرين ليس من السهولة الاستهانة بأي منهما، فأصبح في حالة لا يحسد عليها.

في هذه الفترة قرر بوهمند السفر الى أوربا لاستثارتها ضد الدولة البيزنطية. وفي أواخر 1104 ابحر بوهمند الى ايطاليا وبصحبته صديقه القديم البطريرك دايمبرت ويقال انه حمل معه كل ما استطاع من الاموال والتحف والمجوهرات لخدمة حملته الدعائية ضد خصمه اللدود؛ الدولة البيزنطية. وقد كانت الصورة التي عكسها بوهمند عن هذه الدولة انها حليفة الاسلام وانها تشكل الصخرة الحقيقية في وجه التحرك الصليبي بالشام، وقد استطاع عن طريق دعم البابا له ان يجمع قرابة (43) الف جندي صليبي من مختلف انحاء اوربا من الفرنسيين والانجليز والايطاليين والاسبان والالمان وعاد بهم الى أبوليا لمهاجمة البيزنطيين (عاشور الحركة جـ1 ص409).

ولقد اختار بوهمند مهاجمة دورازو في اكتوبر 1107 وهي اقوى قلعة عند مدخل الادرياتيك، ولكن هذه المدينة قاومت مقاومة باسلة، في الوقت الذي تقدم الامبرطور البيزنطي ألكسيوس لمساندة هذه المدينة، ومهاجمة جيش بوهمند من البر والبحر. ولم يتمكن بوهمند من الصمود وقد تعرض رجاله للجوع والامراض. وهنا طلب الاستسلام وعلى شروط الامبرطورا وقد استغل ألكسيوس هذه الفرصة وفرض شروطاً شديدة الاذلال لبوهمند فيما عرف بصلح دفول 1108 على النحو التالي:

1. تعهد بوهمند ان يصبح تابعاً للامبرطور.

2. ان يعيد للامبرطورية املاكها القديمة، فتعود مدن قيليقية والمنطقة الساحلية المحيطة باللاذقية الى الامبرطور.

3. تقتصر امارة انطاكية على انطاكية وميناثها السويدية ثم المنطقة الممتدة في الشمال الشرقي حتى مرعش.

4. تعهد بوهمند ان يحارب تنكرد، اذا رفض تنفيذ شروط هذا الصلح.

وعلى ما يظهر فان هذه المعاهدة جعلت من موقف بوهمند موقفاً مشيناً، كما ان آماله العريضة تبخرت فجأة، وبعد استسلام دفول الفاضح لم يستطع بوهمند العودة الى انطاكية، فذهب الى ايطاليا محتجبا عن الانظار في عزلة كئيبة حتى مات في مارس 1111.(Vasiliev II P. 411).

على ان قصة الصليبيين في انطاكية لا تنته مع نهاية بوهمند واستسلامه في دفول، فبينما كان الامبرطور البيزنطي مشغولاً في الجبهة الغربية، استغل تنكرد الفرصة وهاجم اللاذقية

فسقطت في يده (1108) وكافأ التجار من مدينة بيزا الذين آزروه باعطائهم شارعاً في انطاكية وحياً في اللاذقية يقيمون فيه تجارتهم (عبدالعظيم رمضان ص 402).

ولم يكتف تنكرد بهذا بل توج انتصاراته على البيزنطيين بالاستيلاء على المصيصة واذنة وطرطوس في عام 1109، فاسترد بذلك معظم ما فقدته الامارة بعد معركة حران.

وقد وجدت ساحة جديدة للصراع بين تنكرد والبيزنطيين. وقد كانت هذه الساحة هي طرابلس فبينما تحالف برترام ابن ريموند الصنجيلي الاكبر مع البيزنطيين، فقد وقف تنكرد مع وليم جوردان خصم برتراند الذي اعترف بالتبعية له، ولم يغفل برترام عن التحالف ايضاً مع ملك القدس بلدوين الاول، الامر الذي ضمن له النصر وانتهى النزاع بسيطرة حليف البيزنطيين على طرابلس واحباط مخطط تنكرد في السيطرة عليها، وانتهى النزاع باعتراف تنكرد نفسه بزعامة مملكة بيت المقدس على كل الامارات الصليبية في الشام وشمال الجزيرة.

أسئلة التقويم الذاتي (6)

1. تحدث ما تعرفه عن دور ريموند الصنجيلي في الاستيلاء على طرابلس.

2. ما المميزات التي جعلت من طرابلس مثار نزاع بين الصليبيين يتسابقون للاستئثار بها؟

6. أسباب نجاح الصليبيين في إقامة كيان لهم في المشرق العربي الإسلامي

تضافرت عدة عوامل واسباب لنجاح الصليبيين في اقامة كيان لهم في المشرق العربي الاسلامي.

ولعله يأتي على رأس هذه الاسباب دور البابوية.. هذه المؤسسة الضخمة واسعة الاثر والتأثير. فالى البابا ومن خلال مؤتمر كليرمونت يعود الفضل في تحريك الجيوش الصليبية النظامية للمشرق بقيادة الامراء الصليبيين ومن قبلها الجيوش الشعبية بقيادة بطرس الناسك، كما انه الى البابا ودعاته من رجال الدين المسيحي يعود الفضل في شحن الناس بالفكرة الصليبية، واعتناق فكرة الحرب الدينية ضد المسلمين من اجل تخليص القبر المقدس واستخلاص اراضي البلاد المقدسة من المسلمين واقامة كيانات دينية عليها وبذلك تستعيد الكنيسة المسيحية سيطرتها على الاراضي التي سبق ان تخلت عنها للمسلمين بعد حرب الفتوح الاسلامية.

والى دور البابوية، في اسباب الحروب الصليبية، يمكن ان نضم جهود رجال الحملات الصليبية وقادتها، وبالنسبة للحملة الصليبية الاولى التي هي مناط بحثنا ومحور حديثنا لا ينبغي ان ننسى دور غودفري وبوهمند وريموند الصنجيلي وروبرت من فلاندرز وروبرت من نورماندي وغيرهم، الذين زاوجوا في موقفهم بين الدين والسياسة، بين الحرب الدينية والبحث عن مجد شخصي واراض يحكمونها.

ولقد اثر في نجاح الحروب الصليبية في الحملة الصليبية الاولى ضخامة الجيوش التي حشدت وشاركت في هذه الحروب فقد وصلت اعداد هذه الجيوش مرات كثيرة، وفي مجابهات، او محاصرات لمدن، عشرات الالوف، ومن يستمع الى تقارير اناكومنينا ابنة الامبرطور البيزنطي ألكسيوس كومنين، يستطيع ان يستنتج ان اوربا عن بكرة ابيها قد خرجت في الحملة الصليبية والتقت عبوراً الى الاراضي المقدسة على اسوار القسطنطينية!

والحقيقة ان الصليبيين لم يعانوا طوال حملتهم الاولى من نقص في القوى البشرية. اكثر من ذلك لقد كان لديهم فن الحشد والتحشيد لخوض المعارك بقوات تضمن لهم النصر ضد المسلمين.

ولذلك لم تكتف القوات الصليبية بحشودها المبدئية التي خرجت بها افواجاً متلاحقة يتلو بعضها بعضاً. بل عقدت تحالفات واجرت اتفاقات وعقدت صفقات مع جهات مختلفة.

فقد تحالفت بداية مع الامبرطور البيزنطي. الذي قدّم لها تسهيلات كثيرة في العبور الى آسيا الصغرى وفي توفير الطعام والمؤن وبالتالي اخذ عليهم العهد في الخضوع له وتوسيد الاشراف له على الاراضي والمدن التي يتم استخلاصها من يد المسلمين. ولا شك في ان فتح قونية وانتصار دوراليوم واسكي شهر كان للامبرطور البيزنطي فيها دور لا يمكن التغاضي عنه. ولقد ظل التواجد البيزنطي موجوداً في التحرك البيزنطي لمسناه حول انطاكية والرها وطرابلس وهكذا.

اما التحالف الآخر للقوات الصليبية فقد كان مع المدن التجارية الايطالية التي كان لها دور عظيم في مساندة الحركة الصليبية من اجل اهداف تجارية دنيوية وان كانت بعض المناسبات في محاصرة المدن الاسلامية اثبتت هذه المدن انها اكثر تعصباً واشد تعطشاً لسفك الدماء من الصليبيين انفسهم، غاية الامر لقد كانت المدن التجارية الايطالية احدى الرئتين التي تنفست بهما الحركة الصليبية الاولى واستمر الحال ايضاً في الحملات الصليبية الاخرى. او انك تستطيع القول انها احد الجناحين الذي يطير بهما الطائر الصليبي. فلولا المدن الايطالية لما احتلت المدن الساحلية الاسلامية. كما ان الطريق البحري الذي تسيطر عليه هذه المدن كان اسرع من الطريق البري.

غاية الامر ان كل من يؤرخ للحروب الصليبية لا يمكن ان ينسى دور المدن الايطالية فيها وقد بدا اثر هذا في الحملة الصليبية وتأسس هذا الدور ووضعت اسسه في هذه الفترة.

لقد تحالف الصليبيون مع جهة ثالثة لعبت دوراً فعالاً في كسب هذه الحروب من جهتهم ونعني سكان البلاد الأصليين وبخاصة من الارمن والسريان. الذين كان لهم دور واي دور في اسقاط الرها ومن ثم انطاكية في يد الصليبيين كما انهم أسهموا في سفك دماء المسلمين حيثما اتيحت لهم الفرصة كما جرى في انطاكية والرها بصورة خاصة، ولا يقل كثيراً دور الموارنة في لبنان عن غيرهم في مؤازرة الغزاة الصليبيين.

ونحن لا نملك ونحن نقيم عوامل نجاح الحروب الصليبية الاولى، والحملة الصليبية الاولى منها بوجه خاص، الا أن نعترف بدور القادة الصليبيين وشدة بأس اشخاص مثل بوهمند وغودفري وتنكرد وريموند وبلدوين الذين لو اخذناهم حتى بالمقاييس العادية، ولم نضف عامل التعصب الشنيع الذي اذكى لديهم نزعة العدوان وضخّم من نزعة الشر والقتال الذي وصل الى حدود البربرية، لكان تصنيفهم بين القادة ذوي الباع الطويل في الحرب والمجابهة.

كل هذه العوامل، على اهميتها العظيمة في الانتصار الصليبي في الحملة الصليبية الاولى

لم تكن لتحقق اهدافها وتبلغ غاياتها لولا انه توفر لها عامل يتعلق بالجهة التي كانت تقاتلهم وتجابههم ونعني بها المعسكر الاسلامي. وهنا نجد ان هذا المعسكر الاسلامي لم يواجه الصليبيين وهو في احسن حالاته بل لعله قد واجهها في اسوأ حالاته. ولعل الهدية الكبرى والعامل الاعظم في النصر الذي اهداه المسلمون للصليبيين هو خلافهم وتنازعهم فيما بينهم! فالمؤرخون مسلمون ونصارى متفقون على ان الجبهة الاسلامية كانت في اسوأ اوضاعها من حيث انقسامها على نفسها. فهناك التناقض العباسي الفاطمي، الذي وضح أثره في الانقسام والفرقة والصراع، وعدم القدرة على توحيد الجهد في مواجهة التحدي وهناك التناقض التركي العربي والتناقض الاقليمي والمحلي.. فدمشق غير حلب وحلب غير انطاكية، وانطاكية غير معرة النعمان وطرابلس وشيزر وصور وصيدا وبيروت وعكا وارسوف وقيصرية وعسقلان وغيرها.. هذه المدن والحواضر والعواصم والثغور التي كانت تحكم من قبل افراد او عائلات معينة ترى في الاحتفاظ بالحكم في دائرتها الصغيرة هو نهاية المطاف وغاية الغايات. ولم تكن تعلم ان التناقض الاعظم، الاسلامي الصليبي سيسحق كلاً منها لو وقف وحده ولم يتحالف مع غيره لصد الخطر المشترك والذي لا يرحم!.

وتظهر هنا ثغرة كبرى في الصف او المعسكر الاسلامي ونعني بها الثغرة المصرية التي كان من المفترض فيها ان تدافع عن مدن الساحل الشامي ولكنها اكتفت بحرب يسميها المؤرخون «استعراضية» وتركت مدن الساحل تتساقط واحدة تِلْوَ الاخرى كأوراق الخريف، ولم تتورع السلطات الحاكمة في مصر ان تعرض التحالف على الصليبيين ولم تدبر لتحالفٍ مع المسلمين يحمي الجبهة الاسلامية في مجملها من السقوط!

7. الخلاصة

عالجنا في هذه الوحدة الحملة الاولى التي تنسب الى البابا اربان الثاني. كما عالجنا خلفيات ابرز قادتها مثل غودفري وقريبه بلدوين وبلدوين لي بورج. وغودفري امير منحدر من شارلمان. كما تحدثنا عن بوهمند وهو رجل ضخم الجسم، تصفه الروايات بان عيناه تشتعلان ناراً وسحراً! ولكن جيشه كان صغيراً.

على ان صاحب الجيش الاكبر في الحملة كان ريموند دوق طولوز. واما روبرت فلاندرز فقد وصل الى القسطنطينية قبل ريموند، وقد انضم للحملة الصليبية ستيفن كونت شارتر وبلوا، وعندما وصل هؤلاء الامراء الى القسطنطينية نظمت العلاقة بينهم وبين الامبراطور البيزنطي على اسس معينة أهمها اقامة التعاون بين الطرفين. وهنا طلب الامبراطور من الامراء ان يحلفوا له يمين الولاء.

ولكن على الرغم من هذا التوجه الى التعاون الا ان هذه الجيوش سببت للدولة كثيراً من المتاعب والمصاعب وقد وصفت اناكومنينا تحرك هذه الجيوش بانها «**هجرة كاسحة، انهم البحر بامواجه المتلاطمة، لم يخطر على البال حدوث تحركات كهذه، انه العالم الغربي بأسره وسكانه**»

ومهما يكن من امر فقد كان على الصليبيين ان يغادروا القسطنطينية الى الاراضي المقدسة، عبر آسيا الصغرى، حيث احتلوا في طريقهم مدينة نيقية التي كان يسيطر عليها السلاجقة.

ولقد كانت الرها اول مدينة استولى عليها الصليبيون. وكان الذي استولى عليها بلدوين أخو غودفري. والرها مدينة ذات اهمية استراتيجية باعتبارها تشرف على شمال العراق والجزيرة. وكان غالب اهلها من الارمن والسريان. وقد اتخذ بلدوين من سياسة التعاون مع الارمن استراتيجية ثابتة له. وبالنظر لقوة بلدوين المحدودة العدد فان التعاون مع الارمن بالنسبة له كان استراتيجية ممتازة، بل لا غنى له عنها بأي حال من الاحوال.

ومع هذا فقد أخذ على بلدوين ان حكم الرها بنزعة استعلائية وعلى اي حال، فان الحجافل الصليبية لم تلبث ان وصلت الى انطاكية. ووقفت أمامها: وهنا جرت ملحمة كبرى تتناسب في دراميتها واثارتها مع عظمة هذه المدينة التي اعتبرت ثالث مدينة في العالم. وكانت انطاكية محصنة طبيعياً. وكان خطأ الصليبيين انهم لم يباغتوا المدينة ويحتلوها الأمر الذي كَلَّفَهُمْ غالياً.

وكان حاكم المدينة المسلم هو ياغي سيان السلجوقي، الذي اخرج المسيحيين من المدينة وبادر الى طلب النجدات، الا ان هذه النجدات لم تقدم الكثير لإنقاذ المدينة وكان مصير المدينة ان تقع بيد الصليبيين. ومع ذلك فان الصليبيين - قبل ان تسقط المدينة بايديهم - عانوا على اسوار انطاكية من متاعب كثيرة. وقد تآكلت معنويات الجنود حتى ان بطرس الناسك ووليم النجار كانا من جملة من فرّ عائداً من حيث أتى!.

ومهما يكن من أمر فقد تمكن بوهمند بمناوراته ومؤامراته من احتلال المدينة بعد ان ساعده في ذلك السريان والارمن. لكن لم تلبث انطاكية سوى أيام محدودة حتى وقعت في قبضة كربوغا القائد السلجوقي الذي جاء لنجدة المدينة ووضع قواته على اسوارها واصبح الصليبيون بذلك تحت رحمته.

وهكذا انقلب الموقف فبعد ان كان الصليبيون يحاصرون انطاكية اصبحوا محاصرين فيها في ظل اوضاع قاسية جداً اشتدت فيها الازمة وساد الغلاء الى درجة المجاعة.

ولكن بوهمند، رجل المواقف المباغتة، والمفاجآت القوية، تمكن من ان يحقق معجزة النصر، عندما قذف بكل قواته مرة واحدة واصطدم اصطداماً حاسماً مع قوات المسلمين. وكان من عنف الصدمة وهول الضربة ان انتصر عليهم. ولعلّ للحالة النفسية التي عاشها اهل انطاكية بفعل الرؤى المسيحية واكتشاف الحربة المقدسة اثره في الروح المعنوية العالية التي مكنت الصليبيين من النصر.

بعد هذا الانتصار الكبير، قرر الصليبيون الانطلاق الى بيت المقدس وفي الطريق الى بيت المقدس استولى الصليبيون على معّرة النعمان وهنا قاموا بمذبحة رهيبة.

وقد تحدثنا في هذه الوحدة عن رفض بوهمند مغادرة انطاكية الى بيت المقدس مؤثراً القعود والاستيلاء على امارة خالصة له على التضحية من اجل البيت المقدس.

غاية الامر ان الصليبيين بعد تجاوز مدن الساحل تمكنوا من الوصول الى الرملة وهنا شعروا بالسعادة للاستيلاء على هذه المدينة المقدسة في قلب الاراضي المقدسة.

توجه الصليبيون - بعد الرملة - نحو بيت المقدس، ووضعوا قوتهم حول اسوارها وجدير بالذكر هنا، عزيزي القارئ - كما عالجنا في الدراسة - ان المدينة قاومت مقاومة باسلة ذكرها بتفصيل المؤرخ الصليبي وليم الصوري ولكن الثمن الذي دفعته القدس كان غالياً، فبعد انهزام

قوتها وخمود مقاومة اهلها، قام الصليبيون بمذبحة في هذه المدينة المقدسة ذبح فيها الرجال والنساء والاطفال بعشرات الالوف؛ بحيث ان كل انسان في العالم اثرت به هذه المذبحة. وكان من بين القتلى جماعة كثيرة من ائمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم.

ذكرنا ايضاً انه كان هنالك اكثر من مرشح من قادة الصليبيين لحكم المدينة الذي ظفر - بحكمها بعد مشاورات ومداولات - غودفري دوق اللورين مع انه لم يكن أقوى المرشحين.

تحدثنا بعد الحديث عن سقوط القدس عن قيام الامارة الثالثة للصليبيين ونعني بها طرابلس. وهنا ذكرنا دور الامير ريموند الصنجيلي ورغبته في الاستيلاء على امارة طرابلس لدرجة الاستماتة. وقد استعان ريموند بالاسطول الجنوي. لكن مصير ريموند كان الموت على قلعة طرابلس اشتعالاً بالنار التي اشتعلت فيها.

واخيراً فان طرابلس امام شدة الحصار لم تملك الا الاستسلام! وعندما تم الاستيلاء على المدينة كلياً واستعيد فيها النظام، عين برتراند بن ريموند الصنجيلي حاكماً عليها، وقد كوفىء الجنويون بربع طرابلس.

اشرنا في خاتمة هذه الوحدة الى الأسباب التي ادت الى نجاح الحملة الصليبية بهذا الشكل الكبير فعزوناها أولاً الى دور البابوية ثم الى ضخامة الجيوش، والى تقديم الامبراطور البيزنطي العون، والى التحالف مع المدن الايطالية ذات الاهمية في النقل والتسهيلات الاخرى، ثم التحالف مع الارمن والسريان....

لكننا استدركنا بالقول ان كل هذه الاسباب ولو تضافرت معا لم تكن لتحدث الأثر المطلوب وتجعل الصليبيين ينجزون ما انجزوا لولا اختلاف المسلمين وتنازعهم فيما بينهم على اكثر من مستوى ومن اكثر من سبيل. وبالذات الثغرة المصرية التي جرت على المسلمين الشر الكثير!

8. لمحة مسبقة عن الوحدة الثالثة

عزيزي القارئ، ستتحدث الوحدة الثالثة من هذا الكتاب وهي بعنوان «أحوال الفرنجة (الصليبيين) في المشرق العربي الاسلامي» - ان شاء الله - عن الحكم في بيت المقدس بين التوجه الثيوقراطي - باعتبارها مدينة مقدسة - وبين التوجه العلماني.

ثم سنعالج موضوع العلاقات بين الامارات الصليبية بين التحالف والتحالف المضاد والتحالف المتداخل.

ثم ستولى اضاءة ابعاد المشكلات الداخلية التي واجهت الامارات الصليبية. وستحدث ايضاً عن الصراع الطائفي والمذهبي في المجتمع المسيحي الصليبي والمحلي.

ثم سنولي عنايتنا حياة الفرنجة في المجالات المختلفة: الحكم والادارة والمجال الديني والناحية الاقتصادية والمجال الاجتماعي.

وسوف تنال المنظمات الصليبية: الاسبتارية والداوية اهتماماً من دراسة تاريخها، ومميزاتها وانجازاتها.

وسنختتم الوحدة بالعلاقات بين الكيانات الصليبية من الشام والبيزنطيين فنوليها مزيداً من البحث.

9. إجابات التدريبات

تدريب 1:

خلفيات قادة الحملة الاولى الصليبية:

- غودفري: هو القائد الاول بين من سنذكرهم في هذه الاجابة. باعتباره من اوائل من تحركوا للقيام بمشروع الحملة الاولى.

اصل غودفري من اللورين وجاء اتباعه من منطقته. وممن جاء معه اخوه بلدوين، كما جاء في معيته ايضاً بلدوين الآخر من منطقة لي بورج. وهنالك اختلاف حول مدى صدق وعمق تدينه، واصالة هذا التدين ايضا.

- والقائد الثاني بعد غودفري هو بوهمند، وتعتبره الروايات التاريخية انه رجل مبادر وله شخصية قوية يتميز بجسم كبير وعينين تشتعلان ناراً! وقد تمكن من جمع جيش بسرعة اكبر من اي قائد آخر، وممن رافقه في حملته تنكرد ابن اخيه.

- والقائد الثالث هو ريموند الامير الاكبر بين امراء جنوب فرنسا، والاكثر ثروة بين جميع الامراء الصليبيين، وكما تذكر لنا الحوليات فانه اعان عدداً كبيراً من الجنود الفقراء في تجهيز انفسهم للحملة. وقد كان عمر ريموند آنذاك (55) سنة.

- وكان مع الحملة ايضاً، وفي مركز هام فيها الاسقف ادهيمار، مندوب البابا، الذي كان اسقفاً محارباً، وفارساً، يعرف كيف يلبس لأمة الفرسان.

- اما روبرت فلاندرز، فقد وصل الى القسطنطينية قبل ريموند، وكان معه ابن عمه، روبرت نورماندي، وابن عمه من ناحية المصاهرة، ستيفن من بلوا.

- واخيراً الامير ستيفن كونت شارتر وبلو، وكان هذا الامير يحكم قلاعاً كثيرة، وقد كان رأي زملائه فيه جيداً، حتى انهم اختاروه جنرالاً ضابطاً لبعض الوقت.

تدريب 2:

تقع امارة الرها على اعالي الفرات. وموقعها ذو اهمية استراتيجية كبيرة باعتبارها تشرف على شمال العراق والجزيرة.

ويبرز التوجه لانشاء امارة صليبية فيها، من انفصال الاميرين بلدوين أخا غودفري،

وتنكرد ابن اخ بوهمند عن بقية الجموع الصليبية، لكي يبحثا عن حظيهما في تأسيس امارة لكل منهما. وقد وضح هذا التوجه بعد استيلائهما على قيليقية.

ومن اجل الوصول الى غايته من تأسيس امارة من الرها، فان بلدوين اتخذ من سياسة التعاون مع الارمن، استراتيجية ثابته. ذلك ان الارمن في الرها، كانوا قد احسّوا بتهديد الاتراك، وكان على رأس هؤلاء الارمن ملكهم ثوروس. فخوفاً من ان يكتسح كربوغا القائد السلجوقي مدينة الرها، وهو في طريقه لانجاد انطاكية، فقد استنجد ثوروس ببلدوين، الذي رحب - بالطبع - بهذا الاستنجاد، وهبّ يسارع الى الرها ومعه (80) فارساً.

وبالرغم من ان قوة بلدوين كانت محدودة، فقد عوضه عن هذا النقص ترحيب الاهالي من الارمن به والتفافهم حوله. الامر الذي سيوظفه بلدوين توظيفاً ممتازاً من اجل اقامة امارة له وتوطيد اركانها. وفي هذا المجال نجد ان بلدوين يقف مع الاهالي ضد ثوروس الملك الذي كان قد اساء الحكم في الرعية؛ فقامت عليه ثورة في مارس (1098) انتهت بقتله، وانتقلت مقاليد جميع الامور الى بلدوين.

وهكذا نلاحظ ان بلدوين هو الزعيم الاول من بين الزعماء الصليبيين الذي شكل لنفسه امارة ينفرد هو بحكمها دون الآخرين.

تدريب 3:

اسباب نجاح الصليبيين في اقامة كيان في الشرق العربي الاسلامي: تضافرت عدة عوامل واسباب لنجاح الصليبيين في اقامة كيان لهم في الشرق العربي الاسلامي.

1. ويأتي على رأس هذه الاسباب دور البابوية، فالى البابا من خلال مؤتمر كليرمونت 1095 يعود الفضل في تحريك الجيوش الشعبية بقيادة بطرس الناسك، كما انه الى البابا يعود الفضل في شحن الناس بالفكرة الصليبية من أجل تخليص القبر المقدس، واستخلاص الاراضي المقدسة واقامة كيانات دينية عليها.

2. دور القادة الصليبيين مثل غودفري وبوهمند وريموند الصنجيلي وروبرت فلاندر وروبرت نورماندي وغيرهم.

3. ضخامة الجيوش الصليبية التي تم حشدها وشاركت في هذه الحرب. فقد وصلت اعداد هذه الجيوش إلى عشرات الالوف.

4. تحالفت القوى الصليبية مع الامبراطور البيزنطي، الذي قدّم لهم تسهيلات كثيرة في العبور الى آسيا الصغرى وفي توفير الطعام والمؤن.

5. تحالف الصليبيين مع اهل البلاد الاصليين وبخاصة الارمن والسريان الذين كان لهم دور كبير في اسقاط الرها ومن ثم انطاكية في يد الصليبيين. ومثل دور الأرمن والسريان دور الموارنة في لبنان.

7. خلاف المسلمين وتنازعهم فيما بينهم. فالجبهة الاسلامية كانت في اسوأ اوضاعها من حيث انقسامها على نفسها. فهنالك التناقض العباسي الفاطمي، وهناك التناقض التركي العربي، والتناقض الاقليمي والمحلي.

10. مسرد المصطلحات

استراتيجية:

فن او علم التخطيط والادارة لعمليات عسكرية كبيرة او حملات.

تاج الشوك:

هو التاج الذي لبسه السيد المسيح وهو يسير على درب الآلام في القدس.

التحالف:

هو اتحاد شعوبٍ او دولٍ معينة يلتقون على هدفٍ مشترك.

الحربة المقدسة:

وهي حربة يعتقد المسيحيون ان المسيح طعن بها وهو معلّق على الصليب.

الحوليات:

وهي الروايات التي تروى حسب السنوات: سنة وراء سنة، وهو اسلوب في كتابة التاريخ وجد في البلاد الاسلامية وكذلك البلاد الاوروبية.

الدستور:

هو القانون الاساسي الذي تحكم به دوله معينة والذي يحدد عادة الحدود بين السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية.

رأس الحربة:

مأخوذ من الحربة التي تستعمل في الحرب، والمقصود بها موضع القدم، الذي يمهد به القادة العسكريون لانزال قواتهم به تمهيداً للانطلاق والغزو الرئيسي للبلاد التي يريدون فتحها والاستيلاء عليها.

الصليبيون:

هم الاوربيون الذين قاموا بعبء الحملات الصليبية وقاتلوا في حروبها، وكانوا يحملون شارة الصليب على اكتافهم.

الفرنج:

هو الاسم الذي اطلقه المسلمون على الصليبيين من الاوربيين الذين جاءوا في الحملات الصليبية.

الكشافة (من الجيش):

هم فريق من الجيش تكون مهمته استكشاف المناطق التي يتقدم اليها الجيش قبل تحركه نحوها.

كونت:

وهو لقب يطلق على النبلاء في بعض جهات اوربا وهي تقابل لقب الايرل عند الانجليز.

المقاومة:

هي المقاومة التي كان يبديها الاهالي عندما تهاجم مدنهم. وهذا ما حصل بصورة خاصة في بيت المقدس، والمقاومة الشعبية تنسب الى الشعب، وهو غير الجيش النظامي.

النزيف المعنوي:

انحطاط الروح المعنوية بصورة مستمرة ومتواصلة، هذه الروح التي هي عنصر أساس في صمود الجيوش والشعوب في حروبهم ونضالهم بوجه عام.

الوحدة الثالثة

أحوال الفرنجة (الصليبيين) في المشرق العربي الإسلامي

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي القارئ، حرصنا في هذه الوحدة على ان نزودك بفكرة عن تأسيس مملكة بيت المقدس، وقد قدمنا نبذة عن حكم غودفري دي بويون، الذي حكم في بيت المقدس بمثابة حلّ وسط، فهو ليس حكما دينيا ثيوقراطيا، كما انه ليس حكماً دنيوياً وراثياً.

وعندما توفي غودفري جرى نزاع بين الملكية الوراثية، العلمانية وبين أنصار النزعة الدينية. وانتهى الأمر بانتصار التوجّه الأول ممثلاً في تعيين بلدوين الأول، الذي استدعاه انصار الاتجاه الأول من الرها حيث كان يتولى إمارتها، وقد كان مجيئه وتوليه السلطة في بيت المقدس عملية إنقاذ من مأزق في الحكم كاد أن يؤدي إلى حرب أهليه.

تحدثنا، بعد ذلك، عن تنظيم مملكة بيت المقدس، وغيرها من الإمارات الصليبية، فمن ناحية الحدود، نجد ان بلدوين الأول حسم امور الحدود ووصل بها إلى البعد التاريخي، ما عدا الاستيلاء على صور وعسقلان وهنا نجد ان بلدوين الأول بعد بناء القلاع وممارسة سياسة «الهجوم أفضل وسائل الدفاع»، فطن إلى المشكلة السكانية الديموغرافية، فأتى بالطوائف الشرقية الارثودكس وغيرهم من الطوائف لملء الفراغ في بيت المقدس، هذا الفراغ الذي نجم عن هجرة الناس زرافات ووحدانا بعد المذابح التي رافقت عملية فتح القدس. إضافة إلى هذا، وعلى جبهة التنظيم، نجد ان بلدوين الأول حلّ المشكلة الدينية المزمنة بعزل دايمبرت البطريرك الذي اراد جعل القدس دولة ثيوقراطيه تتبع للبابا، وتعيين بطاركة آخرين، الأمر الذي ضمن لهذه المملكة الناشئة نظاماً وراثياً في بيت بلدوين.

وقد عالجنا – عزيزي القارئ – مسألة العلاقات بين إمارات الفرنجة وأوضحنا فيها، المكانة الخاصة لبيت المقدس في هذه العلاقات وبالتالي المكانة الخاصة لبلدوين – بوجه خاص – الذي أصبح له مكانة السيد او الزعيم للفرنجة كافة وليس لبيت المقدس فقط.

وقد وضعنا العلاقات بين المملكة والامارات ضمن ثلاث اطر أو حالات: الأول التحالف والتعاون وهذا يظهر في تحالف عام 1101 وتحالف 1104 وهذا التحالف لم ينجم عنه سوى خسارةً معركة حرّان، وايضاً تحالف 1110 الذي اراد فيه الصليبيون ان يقوموا بعمل جامع

ضد مودود المجاهد المسلم، في هجومه على الرها، الأمر الذي جعل مودود يترك محاصرة الرها ويذهب إلى حرّان. وتحالف 1111 لملاقاة مودود وطغتكين عند فامية. وكذلك تحالف 1113 لصد هجوم مودود وصحبه ضد مملكة بيت المقدس.

ولعله - عزيزي القارئ - ان كان لهذه التحالفات من درس فإنها اثبتت ان نقطة ضعف المسلمين هي في عدم توحدهم أمام الخطر المشترك فقد كان الصليبيون ما ان تصيبهم مصيبة أو مشكلة حتى يتوحدوا أمام المسلمين. وعلى هذا فان سرّ تفوقهم او صمودهم انما يعود إلى هذا التحالف والتعاون.

والاطار الثاني او الحالة الثانية للعلاقات او مظاهر العلاقات هي حالة النزاع بين الامراء الصليبيين انفسهم. وهذه نزاعات يستطيع ان نضع لها علامات او سنوات تاريخيه فنزاع 1108 مثلاً نجده قد شَبَّ بين بلدوين دي بورج وتنكرد وجرّ إلى النزاع بين امراء آخرين.

والاطار الثالث او الحالة الثالثة للعلاقات هي التحالفات المتداخلة التي يتحالف فيها المسلمون والصليبيون ضد المسلمين والصليبيين. فقد تطور النزاع سنة 1108 إلى تحالف جاولى المسلم مع بلدوين دي بورج، كما وقف تنكرد مع رضوان ضد جاولى ودي بورج.، وقد كان الانتصار مع فريق تنكرد ضد الفريق الآخر.

عالجنا بعد موضوع العلاقات - عزيزي القارئ - موضوع المشكلات الداخلية التي واجهت الامارات الصليبية فتحدثنا عن مشكلات محددة: مثل مشكلة - ضعف القوة البشرية والتي وجدنا أسبابها في العودة إلى أوربا، والموت في ساحة الحروب ومشكلة الصراع على السلطة وشؤون تولي الحكم. هذا الصراع الذي كان ينجم عن سقوط الحكام أسرى، وعن تغيّر الحكام في الامارات والذي كان يؤثر تأثيراً سلبياً على أوضاع الإمارة، كما كان ينجم عن الصراع بين العائلات الاقطاعية والارستقراطية على الحكم.

والمشكلة الثالثة من المشكلات الداخلية هي الصراع الطائفي والتي نشهد فيها هذه الظواهر: كراهية المسيحيين الارثوذكس للحكم الصليبي اللاتيني، وبالنسبة للسريان اليعاقبة تفضيلهم الحكم الاسلامي، كما ان مشكلة الارمن كمسيحين شرقيين ظلت مشكلة كبرى تتجدّد في اكثر من مناسبة واكثر من موقف.

واما المشكلة الرابعة فهي ضَعف المصداقية إلى درجه الخيانة للمبدأ المشترك للصليبين والمشكلة هنا هي مشكلة الصراع على الامارات الصليبية، وآخر هذه المشاكل انحطاط المستوى الادبي والمعنوي والاخلاقي والنفسي للمؤسسة الصليبية بوجه عام.

1.2 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عزيزي القارئ، بعد قراءتك هذه الوحدة وتنفيذك لتدريباتها وأنشطتها أن تصبح قادراً على أن:

1. توضح كيفية تأسيس مملكة بيت المقدس الصليبية.
2. تعلل اسباب المنازعات والخلافات بين الصليبيين.
3. تصف الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية للصليبيين في المشرق العربي الاسلامي.
4. تعرض أهداف كل من منظمتي الاسبتارية والداوية ودورهما في الحروب الصليبية.
5. تشرح المشكلات التي واجهت الكيانات الصليبية في المشرق العربي الاسلامي.
6. تعلل تطور العلاقات العدائية بين الكيانات الصليبية والبيزنطيين.

1.3 أقسام الوحدة

تقسم هذه الوحدة إلى سبعة أقسام رئيسة تربط بقائمة الأهداف السابقة

القسم الاول: تأسيس مملكة بيت المقدس ويرتبط هذا القسم بالهدف الأول للوحدة.

والقسم الثاني: «تنظيم مملكة بيت المقدس وغيرها من الامارات الصليبية» ويرتبط هذا القسم بالهدف الثاني للوحدة.

والقسم الثالث: «العلاقات بين إمارات الفرنجة» ويرتبط هذا القسم بالهدف الخامس للوحدة.

والقسم الرابع: «المشكلات الداخلية التي واجهت الإمارات الصليبية»، ويرتبط هذا القسم بالهدف الخامس للوحدة ايضاً.

والقسم الخامس: «حياة الفرنجة في بلاد الشام».

وفي مجال الحكم والادارة.

وفي المجال الديني

وفي المجال الاقتصادي

وفي المجال الاجتماعي

ويرتبط هذا القسم بالهدف الثالث للوحدة

والقسم السادس: «المنظمات الصليبية الدينية». ومنها الاسبتارية والداوية ويرتبط هذا القسم بالهدف الرابع للوحدة.

والقسم السابع العلاقات بين الكيانات الصليبية في الشام والبيزنطيين.ويرتبط بالهدف السادس للوحدة.

2. تأسيس مملكة بيت المقدس

عزيزي القارئ، بعد احتلال بيت المقدس تولى الحكم فيها غودفري دي بويون. الذي كان حكمه فيها بمثابة حل وسط. فهو ليس حكماً دينياً ثيوقراطيا. كما انه ليس حكماً دنيوياً علمانياً وراثياً. ولعل لطبيعة شخصية غودفري. دور في انه نحا هذا المنحنى الوسطي. يقول – رونسيمان عن غودفري: «لقد كان حاكماً ضعيفاً، ولكن الرجال من كل الأمم احترموه لاعتداله وايمانه..». [Runciman I. p. 314].

على ان وليم الصوري يروي ان غودفري أوصى ان يخلفه دايمبرت بطريرك القدس. وهذا يعني تحويل حكومة مملكة بيت المقدس، باعتبارها مركزاً دينياً عظيماً لدى المسيحيين، إلى حكومة ثيوقراطية. [وليم الصوري جـ2 ص173 – ص174].

ورواية الصوري هذه لا ينبغي ان تجعلنا نقع في التعميم الذي وقع فيه والذي لا تفسير له الا رغبته الدفينة كرجل دين في جعل بيت المقدس مركزاً دينياً بالدرجة الاولى وحكوماتها وما جاورها حكومة دينية.

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1 – وضح ابعاد الصراع بين الثيوقراطيين والعلمانيين ولمن كانت الغلبة في النهاية ولماذا؟

ولعل الأصح انه جرى نزاع بين انصار الملكية الوراثية العلمانية، الذين يؤازرهم ارنوف مالكورن البطريرك السابق، وبين انصار النزعة الدينية والحكومة الثيوقراطية الذين يتزعمهم دايمبرت.

لقد بادر كل من الطرفين إلى العمل فوراً! فالفريق الأول من أنصار الوراثية توجهوا حالاً إلى مراسلة بلدوين شقيق غودفري، ليقيم لآل بويون دولة وراثية في بيت المقدس.

وبالمقابل فإن دايمبرت داعية الثيوقراطية راهن على بوهمند ليقف في وجه بلدوين. وبالفعل قام بإرسال رسالة، بمشاركة من تنكرد، ابن اخت بوهمند، إلى بوهمند، أمير انطاكية. لكن هذه الرسالة لم يكتب لها الوصول، لأن الرسالة وقعت في يد رجال ريموند الصنجيلي، خصم بوهمند اللدود، وتعود خصومتهما إلى أيام فتح انطاكية والنزاع الذي وقع بينهما عليها. وخرج منه بوهمند منتصراً. ولعل الأهم من هذا ان بوهمند، في هذه الفترة الحاسمة حلت به كارثة اذ

وقع اسيراً في يد كمشتكين بن الدانشمند صاحب سيواس، الذي اسره في قلعة نيكسار على البحر الاسود.

ومهما يكن من امر فقد وصلت الرسالة إلى بلدوين في اوائل سبتمبر 1100. وهنا لا بدّ لنا من وقفة مع بلدوين الذي يكاد المؤرخون يجمعون على قوة شخصيته وثاقب نظرته وقوة مبادرته ودقة تخطيطه وبعد نظره. ويتفق الجميع ايضاً على انه الشخصية الاقوى بين كل الشخصيات التي حكمت بيت المقدس.

هبّ بلدوين يلبي نداء انصاره وانصار اسرة بويون في القدس.. ولقد مرّ في طريقه بأنطاكية التي رحبت به، بالنظر لموقفه ومحاولته انقاذ أميرها بوهمند من الأسر. كما رحب به بنو عمّار في طرابلس حين مرّ بهم. لكن الدماشقة بزعامة دقاق حاولوا اصطياده شمال بيروت عند مصب نهر الكلب الا أنه نجا منهم بعد أن كبدهم بعض الخسائر. ثم لم يلبث ان وصل إلى حيفا ثم إلى يافا، واستقبل استقبالاً رائعاً في بيت المقدس ونودي به سيداً وملكاً على بيت المقدس، بعد أن توج في بيت لحم وقد اشرف على تتويجه ووضع التاج على رأسه دايمبرت في يوم عيد الميلاد في ديسمبر 1100 [Stevenson P.44]. وفي هذا ما فيه من المغزى من أن – مثله مثل غودفري – رفض ان يلبس التاج الذهبي في بلد لبس فيه السيد المسيح التاج الشوكي. ونترك هنا لرونسيمان مؤرخ الحروب الصليبية القدير ان يعلق على هذا الرجل الذي حظاه القدر بهذا المركز الكبير حيث يقول: «من بين كل الزعماء العظماء، لقد كان بلدوين المفلس، الابن الأصغر لكونت بويون، هو الذي انتصر. فقد أزيل منافسوه واحداً وراء واحد. وكثير منهم رجع إلى الغرب، روبرت النورماندي، وردبرت فلاندرز، وهيو من فيرماندواو وستيفن من بلوا... ومن بين هؤلاء فقد برهن انه الأقدر، والأكثر صبراً والأكثر بعد نظر. لقد نال مكافأته. وسيُظهر المستقبل أنه يستحقها. وكان تتويجه رائعاً كما أنه كان خاتمة متفائلة لقصة الحملة الصليبية الأولى». [Runciman I P. 326].

وهكذا لم يقدّر للدولة الثيوقراطية التي عمل البطريرك دايمبرت على اقامتها ان تعيش أكثر من خمسة شهور. فالتيار العام في الرأي العام المسيحي في القدس كان يعتقد أن التحديات المحيطة والخطر الاسلامي المتوقع لا يمكن ان يقوم به ويجابهه الا دولة علمانية دنيوية. ولو انها لن تتنكر للدين وسوف تعطيه ما يستحقه، من أهمية واهتمام.

وهكذا وجدنا أن بلدوين بما عُرف عنه من حصافة لا يتعرض للبطريرك دايمبرت بالرغم من دوره في الوقوف ضده والتآمر عليه والذهاب في هذا إلى الكتابة لبوهمند. والحقيقة ان

القارئ لتاريخ دايمبرت، بالرغم من عدم تديُّنه، يجد أنه يحتل أهمية كبيرة في الدوائر الصليبية. فقبل مجيئه إلى الشرق كان رئيس اساقفة بيزا. والكل يعلم ما لمدينة بيزا من أهمية وبخاصة في النشاط ونقل الحجاج والمقاتلين الصليبيين إلى الأراضي المقدسة وقد شاهدنا دوره خلال الحملة الصليبية الأولى. كما شاهدنا دوره في تتويج بلدوين في بيت لحم.

غاية الأمر ان بلدوين أنقذ الوضع في بيت المقدس من مأزق كاد يقع فيه ويهدد بحرب أهلية في بيت المقدس نفسها. وضمن لبيت المقدس، والقبر المقدس، وكنيسة القيامة، حكماً دنيوياً. وضمن أيضاً حكماً وراثياً لأسرته الأمر الذي جلب معه الاستقرار وآذن لفترة من السيطرة على شؤون بيت المقدس. وسيفتح المجال لبلدوين للوصول بحدود مملكته إلى ابعادها. وان يضبط علاقته بالامارات الأخرى على أساس من الاحترام والتقدير للمكانة التي لبيت المقدس بين الإمارات الأخرى، باعتبارها المركز الأم وباعتبار سيدها هو سيد الصليبيين كافة - بالرغم من استقلالهم - الذين يلجأون اليه في الملمات ويستفتونه في المآزق ويحتمون به في الأزمات والحروب.

3. تنظيم مملكة بيت المقدس وغيرها من الإمارات الصليبية

[illegible] بلدوين الأول، عزيزي القارئ، أول ما التفت إلى قضية الحدود وذلك من اجل غايتين: الأولى الوصول بحدود الدولة إلى أقصى ما يمكن ان تصل اليه جغرافيا والثانية العمل على تقوية هذه الحدود وتوفير الحماية اللازمة لها. وهنا عمل بلدوين على حماية مملكة بيت المقدس من ناحية الجنوب الشرقي وذلك عن طريق الصحراء الممتدة جنوب البحر الميت حتى خليج العقبة. وهي المنطقة المعروفة باسم وادي عربة وهنا يلاحظ المتأمل لهذه الحدود انها مع ما توفره من ناحية دفاعية فانه بوساطتها يمكن دق اسفين بين العالم الاسلامي في آسيا والعالم الاسلامي في أفريقيا. كما أنها تعزل مصر بأهميتها البشرية والاستراتيجية عن بقية العالم الاسلامي وتقطع الطريق البري بينها وبين الشام والعراق والحجاز. (عاشور الحركة جـ1 ص327).

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1- ما هي الاجراءات التي اتبعها بلدوين في تنظيم مملكة بيت المقدس؟

- في عام 1115 شيّد بلدوين حصن الشوبك ليكون حصنا منيعاً يشرف على منطقة وادي عربة ويمكّن الصليبيين من السيطرة على هذا الوادي. على طريق المواصلات الدولي، وطريق الحاج وفي عام 1116 شيّد بلدوين قلعة حصينة للهيمنة والحكم على طريق القوافل البري بين مصر والشام كما شيّد قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة مقابلة أيله في خليج العقبة.

- وصل بمملكة بيت المقدس الصليبية إلى حدودها الشمالية التاريخية المعروفة. باستثناء مدينتين حصينتين وقلعتين صامدتين، استعصيتا عليه وهما صور وعسقلان. وبهذا تفرّغ بلدوين لممارسة نشاطه الهجومي واستراتيجيته العدوانية على المناطق المجاورة. وكان ان قام بمهاجمة الفاطميين ووصل بهذا الهجوم إلى الفرما التي غادرها أهلها من جراء هذا الهجوم.

- بعد حسم أمور الحدود وبناء القلاع وممارسة استراتيجية الهجوم التي هي أفضل وسائل الدفاع كما كان يعتقد بلدوين الأول فإنه التفت إلى الساحة الداخلية وهنا فطن إلى المشكلة الديمغرافية التي كانت تعاني منها القُدس. ذلك أن هذه المدينة العظيمة التي كانت تزخر بالسكان قبل الاحتلال الصليبي لها؛ أُصيبت بنكبة المذابح التي قضت على السكان وجعلت

الباقي يفرون على وجوههم. الأمر الذي جعل هذه المدينة تشكو ديموغرافيا وسكانيا وبخاصة ان بقية الصليبيين الذين استقروا فيها مارسوا مهنة الحرب والحكم. وللقضاء على هذه المشكلة فإن بلدوين لجأ إلى الطوائف المسيحية الشرقية من أرمن وأرثودكس (بصورة خاصة) وغيرهم من الطوائف كالموارنة والنساطرة والسريان، لملء الفراغ. أي ان بلدوين لجأ إلى سياسة تهجير داخلية واستطاع بما اوتي من حكمة ولباقة ان يوفق بين كل هذه الطوائف. والأكثر من هذا - على جبهة حل المشكلة الاجتماعية والنفسية للكسان - انه لجأ إلى اقناع المسيحيين الغربيين والشرقيين للتزاوج. وقد تم التزاوج بالفعل بين جمهرة القرسان الصليبيين وصغار جندهم الأمر الذي أدى إلى ظهور جيل مولد قدّر له ان يمدّ في عمر الصليبيين في الأراضي المقدسة وبخاصة عندما تولى هذا الجيل عبء الدفاع عن المملكة عندما تناقصت اعداد الوافدين من الغرب. (Runciman I, P. 100)

حل بلدوين الأول المشكلة الدينية المزمنة ونعنى بها مشكلة من يتولى الزعامة الدينية في بيت المقدس. فهذه المشكلة التي تجسدت في الخلاف بين بلدوين الأول وبين دايمبرت بطريرك القدس، الذي سبق الحديث عنه، والتي يعزوها وليم الصورى إلى دور ارنولف -البطريرك السابق- في الايقاع بينهما. وكما هو معروف فان ارنولف كان مناصراً كبيراً لآل بويون كما انه آثر الدولة العلمانية على الدولة الدينية. وفي نفس الوقت فإن بلدوين الأول اخذ على دايمبرت أمرين ليسا بالسهلين: الأول محاولة حرمانه من عرش اخيه والثاني محاولة الايقاع بينه وبين بوهمند. وقد رأينا ان بلدوين آثر الصبر والمصابرة على دايمبرت حتى يمكّن لنفسه. وبالفعل هذا ما تم فقد قام بلدوين بعزل دايمبرت عام 1102 واختار ابرمار بطريركا جديداً لبيت المقدس. وقد عُرف ابرمار بانصرافه إلى التقوى والعبادة كما عُرف عنه عدم الاهتمام بالسياسة. وهذا ما وجد وقعا طيباً في نفس بلدوين لأنه لم يكن يريد لبطريرك القدس أكثر من هذه الخصائص والصفات. لكن، مشكلة البطريركية لم تنته فقد وصلت المشكلة إلى البابا في روما الذي ارسل مندوباً عنه هو جبلين ليرى رأيه في المسألة. وقد استقر الرأي على عزل ابرمار، وتعيين جبلين مكانه. ولما كان جبلين هذا قد طعن بالسن فقد توفي في ابريل 1112. وهنا وقع الاختيار على ارنولف مالكورن ليعين بطريركا من جديد على القدس. ويصف رونسيمان ارنولف قائلاً: لم يكن ارنولف من أمير غير مميز. فقد كان استاذ ابنة وليم الفاتح، الراهبة سيسيليا. وهي التي اخبرت اخاها روبرت ان يقيم علاقة معه وان يعده بالمطرانية. لقد كان

واعظا ممتازاً ورجلاً أديباً، وكان معروفاً بأنه دنيوي جداً، وكان يُذكر على أنه عدو لبطرس بارثلميو... (Runciman I, P. 289)

ولعل الانجاز الأكبر لأرنولف مالكورن بالنسبة لبلدوين ومملكة بيت المقدس انه ضَمن لهذه المملكة الناشئة نظاماً وراثياً في بيت بلدوين، مما اتاح لها فرصة الاستقرار والاستمرار وجنَّبها النزاع والقلاقل (عاشور الحركة جـ1 ص334).

ولعلّ بلدوين أراد أن يقدم للكنيسة في القدس من التَّقدْمات مقابل ما لقي من خدمات ولذلك أراد أن يمد في نفوذها ويوسع في صلاحياتها. فعندما نشب نزاع بين بطريركية القدس وبطريركية انطاكية حول اسقفية بيروت التي رغبت انطاكية ان تكون تابعة لها لأنه حسب تنظيم الكنيسة البيزنطية يتبع اسقف بيروت أسقف صور. وهنا عرض بلدوين الأمر على البابوية فأفتى البابا باسكال الثاني 1111 بأن الفتح الاسلامي غير الأوضاع القديمة التي كانت معمولاً بها في الدولة البيزنطية. وبناء على ذلك فإن البابوية ترى ان تكون الكنائس في جميع البلاد التي يفتحها بلدوين الأول تابعة لبطريركية القدس. ويبدو أن ما حققه بلدوين الأول من سيادة على أمراء انطاكية وطرابلس والرها جعله يتمسك بأن يكون لبطريركية عاصمته نفس الدور بالنسبة للكنائس في هذه الامارات. ومهما يكن فقد استقر الأمر عند منتصف القرن الثاني عشر ان تتبع اسقفية امارة طرابلس لأنطاكية بينما تتبع اسقفيات بيروت وصور وصيدا وعكا وبانياس لبطريركية القدس.

4. العلاقات بين إمارات الفرنجة

ان القارئ للعلاقات بين إمارات الفرنجة يلاحظ السمات والمظاهر التالية:

إن لمملكة بيت المقدس مكانة خاصة في هذه العلاقات وإن لبلدوين الأول - بوجه خاص - مكانة السيد او الزعيم للفرنجة. كما ان امارات انطاكية والرها وطرابلس كانت الأطراف الهامة في هذه العلاقة. فبوهمند أمير انطاكية - على سبيل المثال - كان حارس الشمال في الكيان الصليبي. وعندما وقع في الأسر فإنه ترك فراغاً كبيراً، جعل انطاكية تعتمد على القدس. يقول رونسيمان: ان الفراغ السياسي الذي وُجد من جراء امارة انطاكية، عندما أسر بوهمند، أصاب بالخطر لب الكيان للشمال الافرنجي ومؤسسته. وعلى هذا فإن الزعماء الدينيين والدنيويين أعطوا بلدوين بطاقة بيضاء ليحكم الامارة. وقد استمر على هذه الحال في السياسة التي دشنها في الفترة ما بين وفاة روجر وما بين معركة دانيث الثانية والتي رعى فيها املاك المقاتلين الذين سقطوا في المعركة، كما رعى اطفالهم وجهز الأرامل بأزواج جدد من نفس السوية كما انه أعاد تعبئة وتجهيزها عدة قلاع.

أسئلة التقويم الذاتي (3)

في مضمار العلاقات بين إمارات الفرنجة بين أشكال التحالفات بين الأمراء الصليبيين، بعضهم مع بعض ومع الأخرين؟

الواقع ان بلدوين قبل وفاته، قد مكّن نفسه كزعيم للفرنجة في الشرق بلا منازع. ولم تكن هذه المكانة بالانجاز السهل. فبلدوين لم ينجح في الوصول إليها الا بالاستخدام الذكي للظروف (Runciman II P. 107) .

تراوحت العلاقات بين المملكة والامارات الصليبية جميعها، عزيزي القارئ، بين ثلاث حالات أو ظواهر وهي:

1- التحالف والتآزر والوقوف صفاً واحداً ضد العدو المشترك وهو المسلمون.

ويظهر هذا في:

أ- تحالف عام 1101 وهنا نجد الصفوف الصليبية في مجملها التي تم تجهيزها تلتقي ضد المسلمين. إذ نجد ان بلدوين دى بورج أمير الرها يطلب العون من امارة انطاكية وأميرها تتكرد

ثم يهاجم الاراتقة الذين كانوا يهاجمون قلعة سروج فيمزق شملهم في أوائل فبراير 1101 ثم يدخل سروج نفسها ويعاقب أهلها المسلمين لمساندتهم الاراتقة ويحمل منهم اسرى كثيرين. وتحالف عام 1104، في موقعة حران أو البليخ. حيث دارت معركة بين التحالف الصليبي المكوّن من بلدوين دي بورج أمير الرها وبوهمند أمير انطاكية وابن اخته تنكرد وبين المسلمين. وقد جرت هذه المعركة في مايو 1104 على ضفة نهر بليخ (الكامل جـ10 ص 374-375). وهنا حلّت الهزيمة بالصليبيين. ووقع أمير الرها بلدوين دي بورج أسيراً ومعه جوسلين حاكم تل باشر. وقد كان وقع هذه المعركة على الصليبيين كبيراً جداً بحيث أضاعت كثيراً من المكاسب التي حققتها امارة انطاكية على حساب المسلمين بالشام.

وهنا نلاحظ - أنه بالرغم من الهزيمة - فإن بوهمند أمير انطاكية وتنكرد ابن اخته لم يتخليا عن بلدوين دي بورج أمير الرها، بعد أن وقع اسيراً. وقد استطاع بوهمند وتنكرد ان يصلا إلى الرها سالمين. وهنا استقبلهما الأرمن في الرها بالترحيب واظهروا نحوهما ولاء شديداً بل انهم دعوا تنكرد لان يكون وصياً على مدينتهم حتى يتم اطلاق سراح أميرهم بلدوين دي بورج. وهكذا نجد ان بوهمند يغادر الرها عائداً إلى امارته انطاكية.

ب- تحالف عام 1110 في الدفاع عن الرها ضد مودود. فقد قام مودود اتابك الموصل بمحاصرة الرها في عام 1110 واوشك ان يقضى عليها وهنا أراد بلدوين الأول - الذي استنجد به بلدوين دي بورج- ان يقوم بعمل جامع ضد مودود ومن هنا فقد قام باستدعاء تنكرد من انطاكيه واصبحت المعادلة على هذا الوجه: بلدوين الأول + تنكرد (الذي كان معه 1500 فارس) ضد مودود واشترك معه سقمان القطبي أمير خلاط وميافارقين، ونجم الدين ايلغازي ابن أرتق أمير ماردين في ديار بكر.

وأمام التجمع الصليبي فإن مودود تحول إلى حرّان (Runciman II P. 115) وهنا عاد تنكرد إلى انطاكية. كما عاد بلدوين الأول إلى بيت المقدس.. وعاد بلدوين دي بورج إلى الرها ينعى امارته التي أصابها دمار كبير. [عاشور الحركة جـ1 ص459].

جـ- وفي عام 1111 تجمعت القوى الصليبية من جديد. وقد ضم تجمعهم بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبلدوين دي بورج أمير الرها وجوسلين دي كورتناي صاحب تل باشر وتنكرد أمير انطاكية، لملاقاة مودود وطغتكين، قرب فامية. وبعد ان وقف الفريقان وجهاً لوجه، عبر الاتراك نهر العاصي إلى الضفة التي عليها الصليبيون ودارت المناوشات بين الفريقين. ثم انسحب بعدها مودود إلى الموصل.

وهكذا ثبت من جديد أن نقطة ضعف المسلمين هي في عدم توحدهم في حين ترابط الصليبيون جميعاً من أطراف العراق وشمال الشام إلى جنوب فلسطين، تحت قيادة بلدوين الأول.

وفي هذه الآونة وبالضبط في عام 1112 يختفي عن مسرح هذه التحالفات، ركن من أركانها وأمير إمارة انطاكية، تنكرد. وقد كان لاختفائه أثر كبير على هذا المسرح. ذلك أن تنكرد يعتبر المؤسس الحقيقي لامارة انطاكية. وقد تميز تنكرد بشجاعة بلغت حدّ التهور، الاّ انه على ما يظهر لم ينل التقدير الواجب في أوساط الصليبيين، ويرى رونسيمان ان شخصية تنكرد لم تلمع عبر ضباب التاريخ. لقد كان نشيطاً على وجه عظيم، وكان قادراً حاذقاً وسياسياً ماكراً وجندياً شجاعاً وقد نمت – مع تقدمه في السن – حكمته. ولكنه لم ينل البريق الذي احاط بخاله بوهمند. وعلى ما يظهر فانه لم يكن صاحب شعبية مع رجاله. ويضيف رونسيمان قائلاً: لقد كان قاسياً، باحثاً عن مصالحه الذاتية، غير هيّاب ولا مرتاب، صحيح انه غير مخلص لخاله بوهمند وزميل غير مؤتمن لبلدوين أمير الرها، لكنه ناجح جداً في رفع عظمة انطاكية. وأن تاريخ انطاكية الطويل لم يكن سوى ثمرة طاقته.(Runciman II P. 125) .

ولعلّ ما يهمنا هنا، عزيزي القارئ، ونحن نبحث في التحالفات، واختفاء أحد أركانها، ان نبحث عن خليفته. فنجد روجر دي سالرنو، أو المعروف بروجر الانطاكي. وقد اختاره تنكرد وهو ابن عمه، وقد أوصى له وهو على فراش الموت بخلافته. وهنا نلاحظ ان روجر هذا كان متزوجاً من سيسيليا اخت بلدوين دي بورج امير الرها كما ان ماري اخت روجر صارت الزوجه الثانية لجوسلين دي كورتناي مما أوجد رباطاً قوياً بين امارتي الرها وانطاكية. وعندما أصبح بلدوين دي بورج ملكاً على بيت المقدس حظيت امارة انطاكية بفضل علاقة المصاهرة هذه بتأييد مملكة بيت المقدس (عاشور الحركة جـ1 ص 422).

د- تحالف عام 1113: في هذا العام اعد مودود بطل الجهاد الاسلامي وأحد زعماء حركة الإفاقة الاسلامية، حملة لغزو بلاد الصليبيين، وبالذات مملكة بيت المقدس. وقد شارك في هذه الحملة تميرك صاحب سنجار والأمير اياز الأرتقي وطغتكين اتابك دمشق. وكان أول من احسّ بهذا التحرك بلدوين دي بورج أمير الرها الذي بادر إلى تحذير بلدوين الأول ملك بيت المقدس. وهنا لم يتوان بلدوين عن الاستنجاد بالزعماء الصليبيين القريبين إليه ومنهم روجر الانطاكي وبونز امير طرابلس. ولم يستنجد بأمير الرها الذي كان في خطر دائم من جانب

الاتراك على امارته. وهنا انتصر المسلمون في موقعة الصِّنبْرة*. ووصلوا إلى مواقع متقدمة في قلب المملكة الصليبية لكنهم انسحبوا إلى دمشق عام 1113، بعد انتصار آخر احرزوه في طبرية.. وفي دمشق استشهد مودود. وباستشهاده توقفت هذه الهجمة الاسلامية وعاد كل طرف من حيث أتى.

تدريب (1)

بيّن أثر عودة الصليبيين إلى أوربا وسقوط عدد كبير منهم في المعارك على ضعف القوة البشرية لهؤلاء الصليبيين.

تدريب (2)

بين ابعاد الصراع الطائفي والمذهبي بين المسيحيين الشرقيين أثناء الحروب الصليبية؟

تدريب (3)

تحدث ما تعرفه عن الاسبتارية كمنظمة صليبية دينية عسكرية؟

2- التحالفات المضادة أو النزاع بين الأمراء الصليبيين أنفسهم. وهنا سنكتفي بمثال واحد على هذا النزاع بين هؤلاء الأمراء. ونعني به نزاع عام 1108 وهذا النزاع نشب بين بلدوين دي بورج وتنكرد وجرّ إلى النزاع بين أمراء آخرين. فبعد ان أُطلق سراح بلدوين دي بورج عام 1108 أراد العودة إلى امارته التي كان يتولى الوصاية عليها - أثناء الأسر- تنكرد. وهنا امتنع تنكرد عن التنازل لبلدوين دي بورج عن امارته. ومن ثم توجه بلدوين إلى جوسلين دي كورتناي أمير تل باشر. وقد استعان بلدوين أيضاً بكوغ باسيل زعيم امارة كيسون الصليبية. ولم يتورع عن أن يمد جسوره إلى جاولي الأمير التركي المسلم. وقد انتهى النزاع بين الامراء الصليبيين المؤيدين لبلدوين دي بورج ضد تنكرد بعد قتال نشب بين الأطراف المتنازعة تدخّل على اثره برنارد دي فالنس بطريرك انطاكية الذي حكم بأن يأخذ بلدوين الرها ويعود تنكرد إلى انطاكية وكان هذا في 18 سبتمبر 1108 (ابن الأثير الكامل جـ10 ص 462).

3- التحالفات المتداخلة التي يتحالف فيها المسلمون والصليبيون ضد المسلمين والصليبيين ونضرب مثلاً عليها بما جرى عام 1108 حيث ان الصراع بين بلدوين دي بورج وتنكرد لم يكن قد توقف. ووجد من ينفخ في هذا الصراع لدى الطرفين، مسلمون ايدوا كلا

منها. وقد هبّ لنصرة بلدوين دي بورج صديقه جاولي اتابك الموصل السابق، كما وقف مع رضوان – أمير حلب– في صراعه مع جاولي الذي استولى على مدينة بالس على الفرات وقتل اعوان رضوان فيها تنكرد حاكم انطاكية. ولقد وجد هذا الأخير الفرصة مواتية للانتقام من خصمه القديم دي بورج.

لقد دارت معركة بين دي بورج وجاولي من ناحية وتنكرد ورضوان من الناحية الأخرى قرب منبج. وهنا انتصر فريق تنكرد، وفرّ دي بوج بدوره إلى دلوك*. وقد تبع تنكرد خصمه لمحاصرته في دلوك. ولكنه تخوف ان يهاجمه جاولي من الخلف، ويقطع عليه خط الرجعة الأمر الذي جعله يعدل عن الاستمرار في الملاحقة. وقد قدرت خسارة المسيحين في معركة منبج بما يقارب من ألفين. [عاشور الحركة جـ1 ص 453].

5. المشكلات الداخلية التي واجهت الإمارات الصليبية

أولاً: من بين المشكلات الداخلية التي واجهت الإمارات الصليبية: مشكلة ضعف القوة البشرية أو النزيف البشري المستمر. ولقد نجمت هذه المشكلة عن الأمور التالية:

1- العودة إلى أوربا: فكثيرون من القادة الصليبيين مثل روبرت أمير فلاندرز وروبرت النورماندي وهو من فيرمانداو وستيفن من بلوا، جميعهم عادوا إلى أوربا وكذلك كثير من الحجاج الذين شعروا بأنهم، باحتلالهم بيت المقدس، وتأدية فريضة الحج، قد أدوا ما عليهم. ولم يبق عليهم الاّ ان يعودوا من حيث اتوا. هذه العودة كانت تؤثر على حجم التواجد الصليبي في الأراضي المقدسة. وتجعل هذا الحجم محصوراً في نسبة معينة محدودة. ويرى رونسيمان ان الصليبين كانوا أقلية صغيرة، في أرض مناخها وطريقة الحياة فيها غريبة عنهم. وهو يضيف ان الأرقام حول عدد الصليبيين الوافدين الذين بقوا في الأراضي المقدسة تظل أموراً تقديرية. ولكنه يرى أنها لم تزد في وقت من الأوقات عن (1000) بارون وفارس يقيمون بصفة دائمة في مملكة بيت المقدس. ويزيد على ذلك أن أطفالاً كثيرين كانوا يولدون، ولكن قلة منهم كانت تستمر على قيد الحياة، مما يعنى انه عدا عن رجال الدين، الذين كان عددهم مئات قليلة، وفرسان المنظمات العسكرية، كان العدد من ألفين إلى ثلاثة آلاف من البالغين من أعضاء الطبقات العليا من الفرنجة (Runciman II P.291-292) .

2- الموت في ساحات الحروب ولنضرب مثلاً هنا بموقعتين: الأولى موقعة نهر البليخ 7 مايو 1104 التي يقول المؤرخون انه سقط فيها من الصليبيين عشرة آلاف ما بين راجل وفارس (عاشور الحركة جـ1 ص 444). والثانية هي معركة حقل الدماء التي يتحدث عنها رونسيمان فيقول: «بالنسبة للفرنجة كانت الأسوأ من حيث النتيجة للحملة النسبة والكبيرة المرعبة من حيث الخسارة في القوة البشرية، فالفرسان، الذين سقطوا على حقل الدماء،واكثر منهم المشاة لم يكن استبدالهم منالسهولة بمكان» (Runciman II P.155) . بينما يرى سيتون ان اجتثاث الفرسان النورمانديين قد اثر باتجاه تناقص النورمانديين في سوريا. (Setton Vol: I P. 413).

ثانياً: ومن بين المشكلات الداخلية الأخرى التي كانت تواجه الامارات الصليبية الصراع على السلطة وشؤون تولي الحكم: ولقد كان من بين الظروف والأحوال التي تؤدي إلى هذا الصراع، عزيزي القارئ، الأسباب التالية:

1- وقوع الحكام اسرى مما كان يُحدث خللاً في التوازن الداخلي لسياسة الحكم كما أنه يؤدي إلى صراعات محلية بين الحكام الذين كانوا يعودون من الأسر والحكام الذين يحلون محلهم أثناء فترة أسرهم. ففي معركة نهر البليخ في 7 مايو سنة 1104 ابيد جيش الرها تقريباً، وسقط من الصليبيين عدد كبير كما ذكرنا أعلاه، ولكن الأهم من هذا كله هو وقوع كلٍ من بلدوين دي بورج حاكم الرها وتابعه جوسلين دي كورتناي في الأسر، وتقاسم كلٌ من جكرمش وسقمان بن ارتق الغنيمة فأخذ جوسلين بلدوين دي بورج، واخذ سقمان جوسلين دي كورتناي.

وقد حدث نزاع بين بلدوين دي بورج وتنكرد الذي تولى امارة الرها أثناء أسرِ بلدوين دي بورج مدة أربع سنوات من 1104-1108، عندما عاد بلدوين دي بورج لِتسلُم السلطة في الرها؛ رفض تنكرد أن يسلم المدينة لبلدوين الا اذا اقسم له على الولاء. وكان من المستحيل ان يفعل بلدوين ذلك، وهو تابع فعلاً لملك بيت المقدس، فانصرف غاضباً إلى تل باشر حيث انضم اليه جوسلين وأخذا يفكران في الاستعانة بجاولي ضد تنكرد. وهكذا انقسم المسلمون والصليبيون في شمال الشام والعراق على أنفسهم. فظهر حلفان الأول منِ جاولي وبلدوين دي بورج أمير الرها، والثاني من رضوان وتنكرد حاكم انطاكية، كما سبق ان أوضحنا.

وممن وقع في يد المسلمين، بل كان أول من وقع في ابديهم من عظماء الصليبين بوهمند، الفارس الذي عرف بشراسته ودهائه وكان أسره بمثابة كارثة حلت في صفوف الصليبين عام 1100. وقد تولى شؤون الإمارة أثناء فترة أسره، ابن اخته تنكرد، الذي استمرأ الولاية على امارة خاله. وعندما اطلق سراح بوهمند بفدية دُفعت عنه، اختلف مع تنكرد الذي راح يحاسب خاله على المناطق الجديدة التي أضافها لامارة انطاكية وانها من حقه هو وليس من حق خاله بحق الفتح وليس الاستمرار (Runciman II P. 39) ولا شك في أن مثل هذا الخلاف يترك اثره في النفوس ولا يمحى هذا الأثر بسهولة.

وكان بلدوين الثاني ملك بيت المقدس ممن وقع في الأَسر سنة 1123 وقد أثر غيابه عن المملكة تأثيراً سلبياً. كما تم أسر بلدوين الثاني أثناء قيامه بعملية فك أسر جوسلين دي كورتناي الذي كان لا يزال حبيس بلك الارتقي في خرتبرت. اذ انقض عليه بلك فجأة عند موضع اسمه اورش، بالقرب من قنطرة سنجة وحمل الملك اسيراً إلى قلعة خرتبرت. ومن الواضح ان أسر بلدوين الثاني جاء خسارة كبرى للصليبيين بالشام (عاشور الحركة جـ1 ص 513).

2- تغيّر الحكام في الامارات كان له أثره السلبي ولنضرب مثلاً هنا ببوهمند الذي رحل إلى أوربا بعد ان استدعى ابن اخته تنكرد واخبره انه قرر ترك الامارة بين يديه بينما اقلع هو إلى أوربا. وقد ترك سوريا 1108 ولم يَعُد بعدها ابداً! فنتيجة الصراع مع الامبراطور البيزنطي كانت كارثة بالنسبة لبوهمند اذ ان أيام حياته الأخيرة أو السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ذهبت هباء في جمع جيش من أجل تجديد الصراع مع الامبراطور. (Stevenson P. 79)

فقد توفي في عام 1111، وترك شؤون امارته التي لا شك انها خسرت طاقة كبيرة بوفاته. يقول سعيد عاشور: «اما بوهمند نفسه فقد كان الموقف مشيناً وسيئاً للغاية بالنسبة له. بعد ان رأى آماله العريضة تتحطم وتنتهي إلى ما انتهت إليه سنة 1108. وبعد ذلك الاستسلام الفاضح لم يستطع بوهمند العودة إلى امارته بالشام، فذهب إلى ايطاليا حيث قضى حياته محتجبا عن الأنظار..» (عاشور الحركة جـ1 ص410).

3- الصراع بين العائلات الاقطاعية والارستقراطية على الحكم. وهنا نضرب مثلاً بزواج الأمير ريموند الذي عمل البطريرك رادولف بطريرك انطاكية على تزويجه من الأميرة أليس Alice، فبعد أن اطمأن ان ريموند القادم الجديد من أوربا سيمنحه ولاءه ويرجع إليه في كل شيء، عرض البطريرك ارنولوف على الأميرة اليس فكرة الزواج من هذا المرشح الغريب الباهر وهو الأمير ريموند وأثناء ما كانت تنتظر لاستقبال خطيبها في قصرها فإن الأميرة الصغيرة (تسع سنوات) كونستانس اختطفت واخذت إلى الكنيسة حيث عقد لها البطريرك بسرعة على ريموند. وهكذا فإن أليس قد هزمت. واعتزلت مرة أخرى في مدينة اللاذقية، لتبقى هنالك بلا تعزية بقية أيام حياتها. (Runciman II P. 199-200) .

ويتحدث رونسيمان فيقول: أن النبلاء في مملكة بيتالمقدس كانوا يؤثرون التواجد في هيئة البلاط العليا High Court، على أن يديروا اقطاعياتهم. وان قوتهم كجسم متوحد قد ضعفت بسبب صراعاتهم الدائمة وبسبب الخلافات العائلية، التي تكثفت وتعقدت بمرور الزمن، وبالنظر أيضاً إلى سبب آخر وهو أن كل بيوتات النبلاء كانت تجمعها علاقات زواج متبادل. (Runciman II P. 301)

ومن جملة هذه النزاعات، النزاع الذي جرى حول امارة طرابلس بين تنكرد ووليم جوردان خليفة ريموند الصنجيلي في حصار طرابلس من ناحية وبرترام الابن الأكبر لريموند دوق طولوز من الناحية الأخرى والذي انتهى إلى صراع ساخن بين الطرفين، لجأ فيه وليم جوردان إلى التحالف مع تنكرد امير انطاكية، بينما تحالف برتّراند مع بلدوين ملك بيت المقدس، وانتهى

الصراع إلى المصالحة كما سبق أن ذكرنا عند الحديث عن الاستيلاء على طرابلس.

ثالثاً: الصراع الطائفي والمذهبي: بالرغم من تحالف الصليبيين مع المسيحيين الشرقيين الا أنه كانت تترسب في الأعماق كراهية المقيمين من المسيحيين في المشرق ضد خصومهم المذهبيين القادمين في الحملات الصليبية. ونضرب الأمثلة التالية كأدلة على ما نذهب إليه. والذي كان يترك أثره على تماسك الصف المسيحي وصموده في وجه المسلمين:

1- كان المسيحيون الارثودكس يكرهون الحكم الصليبي اللاتيني. فعندما انتهت حمايتهم من قبل الامبراطور البيزنطي مانويل، رغبوا - بل أكثر من ذلك - رحّبوا بقدوم صلاح الدين واعادة فتحه لبيت المقدس. وفي انطاكية فان وجود مجتمع ارثودكس قوي وظهور تطورات سياسية سببت عداء مكشوفاً بين اليونان واللاتين الأمر الذي اضعف بصورة جدية الامارة. (Runciman II P. 321-322).

2- وبالنسبة للسريان اليعاقبة فإنهم كانوا منذ البداية معادين للصليبيين وفضلوا الحكم الاسلامي. وبعد سقوط الرها، انحازوا نحو امير انطاكية بسبب خوفهما المشترك وكراهيتهما للحكم البيزنطي. (Runciman II P.323)

3- تميزت التجمعات المسيحية، على وجه العموم بعدم التجانس المذهبي. فبوجه عام كانت الغالبية العظمى من المسيحيين المحليين. وفي مملكة بيت المقدس كان هؤلاء من أصل متمازج Mixed، وكانت الغالبية تتكلم اللغة العربية، ويطلق عليهم المسيحيون العرب.

4- وقد ظلت مشكلة الأرمن كمسيحيين شرقيين، مشكلة كبرى، ظهر أثرها في أكثر من مناسبة وأكثر من موقف. فانتصار الاتراك وهزيمة الصليبيين على ضفاف نهر البليخ، كشفت عن حقيقة شعور الأرمن تجاه حكامهم الصليبيين الغربيين ومدى استيائهم من حكم الفرنجة. صحيح ان الأرمن تضامنوا مع الصليبيين في الرها، واظهروا ولاءهم لتنكرد عندما أسر أميرهم بلدوين دي بورج، ولكن ذلك لا ينسينا، ان الأرمن هم الذين سلّموا ارتاح لسلاجقة حلب، تخلصا من "جَوْرالفرنج". ويعلل متى الرهاوي موقف الأرمن هذا بتعسف الصليبيين الغربيين مع الكنيسة الأرمنية وإهمالها بل والاستبداد برجالها في كثير من الأحيان، مما دفع بالأرمن إلى الاتصال بالاتراك. (عاشور الحركة جـ1 ص444).

ونضرب مثلاً آخر بموقف الأرمن ضد اللاتين، وذلك ان استياءهم من بلدوين الثاني بالنظر

إلى اجراءاته التعسفية سنة 1112، دفعهم إلى التفكير في تسليم الرها للسلاجقة سنة 1113. أي في الوقت الذي كان فيه حاكم الموصل مودود يستعد لحملة ضد الصليبيين. الأمر الذي الذي جعل بلدوين دي بورج يسرع إلى اتخاذ اجراءات عنيفة لحماية الرها من جهة وللانتقام من الأرمن من جهة أخرى. وقد عهد دي بورج إلى أحد رجاله بعقاب الأرمن وطردهم من الرها. فانتشر الصليبيون في المدينة يذبحونهم، كما لجأوا في 13 مايو 1113 إلى طرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة (عاشور الحركة جـ1 ص 471). ولم يسمح بعودتهم الا بعد أن أحسَّ بما أَحَسَّ به من الخسارة، بسبب تغيبهم عن مسرح الأحداث.

رابعاً: ضعف المصداقية إلى درجة الخيانة للمبدأ المشترك للصليبيين، ويظهر هذا التوجه في أكثر من موقف ويتجلى في أكثر من مناسبة.

فالبنادقة كانوا على عداء دائم مع كبير مطارنة صور، والجنويون كانوا على شجار دائم مع الملك املرك الأول.. وعلى وجه العموم كانت المدن التجارية لا تخرج من أجل مصلحة المسيحيين، ولكن من أجل مكاسبها التجارية. وفي الغالب كانت المصلحتان تتفقان، ولكن اذا قُدر واصطدمتا فإن المكسب التجاري كان هو الغلاب.

وبالنسبة للحجاج بوجه خاص فقد بدت المدن التجارية الايطالية جشعة وغير مسيحية. (Runciman Vol:II, P.315).

خامساً: الصراع للسيطرة على الامارات الصليبية: لما كان ملك بيت المقدس يزعم ان له السيطرة على امارات الفرنجة، فإنه كان يتوقع من هؤلاء الأمراء ان يكونوا على استعداد ان يرسلوا الكتائب ليلحقوا به في حملاته ضد المسلمين. ولكن في حقيقة الحال فإن هذه السيطرة لم تتحقق الا عندما كان الملك يتميز بالقوة التي من خلالها يستطيع فرض هذه السيطرة. وحتى من الناحية النظرية فالحقيقة انه لم تكن انطاكية ولا طرابلس، تعتبران جزءاً من المملكة. أما امارة طرابلس فإن الملوك المبكرين لبيت المقدس توصلوا إلى سيطرة شخصية على طرابلس.

أما مع امارة الرها فإن العلاقة اعتمدت على الرابطة الشخصية. وعندما عين بلدوين الأول، بلدوين الثاني لكي يخلفه في الرها، اخذ عليه العهد بان يكون تابعاً له، ولقد اتبع بلدوين الثاني نفس المثال مع جوسلين دي كورتناي. ولكن جوسلين هذا، في ايامه المتأخرة، اعترف بأمير انطاكية سيداً عليه.

اما مع إمارة انطاكية فقد كان الوضع مختلفاً. فلم يعترف بوهمند لأحد عليه بالسيادة حتى ولا أوصياؤه تنكرد وروجر دي سالرنو أيضاً اعترفوا بشيء من هذا، على الرغم من ان كلاً منهما قد تم تعيينه من قبل هيئة البلاط العليا في القدس. وعلى ما يظهر فإن امير انطاكية اعتبر ملك بيت المقدس أعلى منه رتبة ولكن ليس سيداً له (Runciman Vol:11 P.304-306) .

وقد اضطردت هذه القاعدة على مستوى الإمارات والعلاقات فيها بين الحاكم الأصيل ووصيّه أو نائبه. فبعد أن لعب جوسلين دي كورتناي دوراً كبيراً في اطلاق بلدوين دي بورج، فإن هذا الأخير وكحاكم اصيل – إن صح القول – للرها لم يلبث ان انقلب على جوسلين دي كورتناي، صاحب الفضل في اطلاق سراحه، فقبض عليه وحبسه ثم اطلق سراحه وعزله عن حكم تل باشر، فلجأ جوسلين إلى ملك بيت المقدس، الذي اقطعه امارة طبرية والجليل (عبدالعظيم رمضان ص420).

سادساً: انحطاط المستوى الأدبي والمعنوي والاخلاقي والنفسي: كانت النواحي الأدبية والمعنوية والاخلاقية والنفسية من بين المشكلات التي انعكس أثرها قوياً ومؤثراً على الحالة العامة للصليبيين. فقد عاش الصليبيون في بلاد تفاقمت فيها المكائد والجريمة. بلاد كان ينتظرهم فيها ويتربص بهم الدوائر خصم غير قليل ا ولم يكن واحد يعلم متى سيتلقى طعنه من سكين من انسان نذر نفسه للحشاشين، أو متى سيظفر بشربة سمّ من أحد خدمه! وقد انتشرت فيها امراض غامضة لم يُعرف عنها سوى القليل، وحتى عند الأطباء المحليين، كما أنه لم يكن الفرنجي يعيش طويلاً في المشرق...

أسئلة التقويم الذاتي (4)

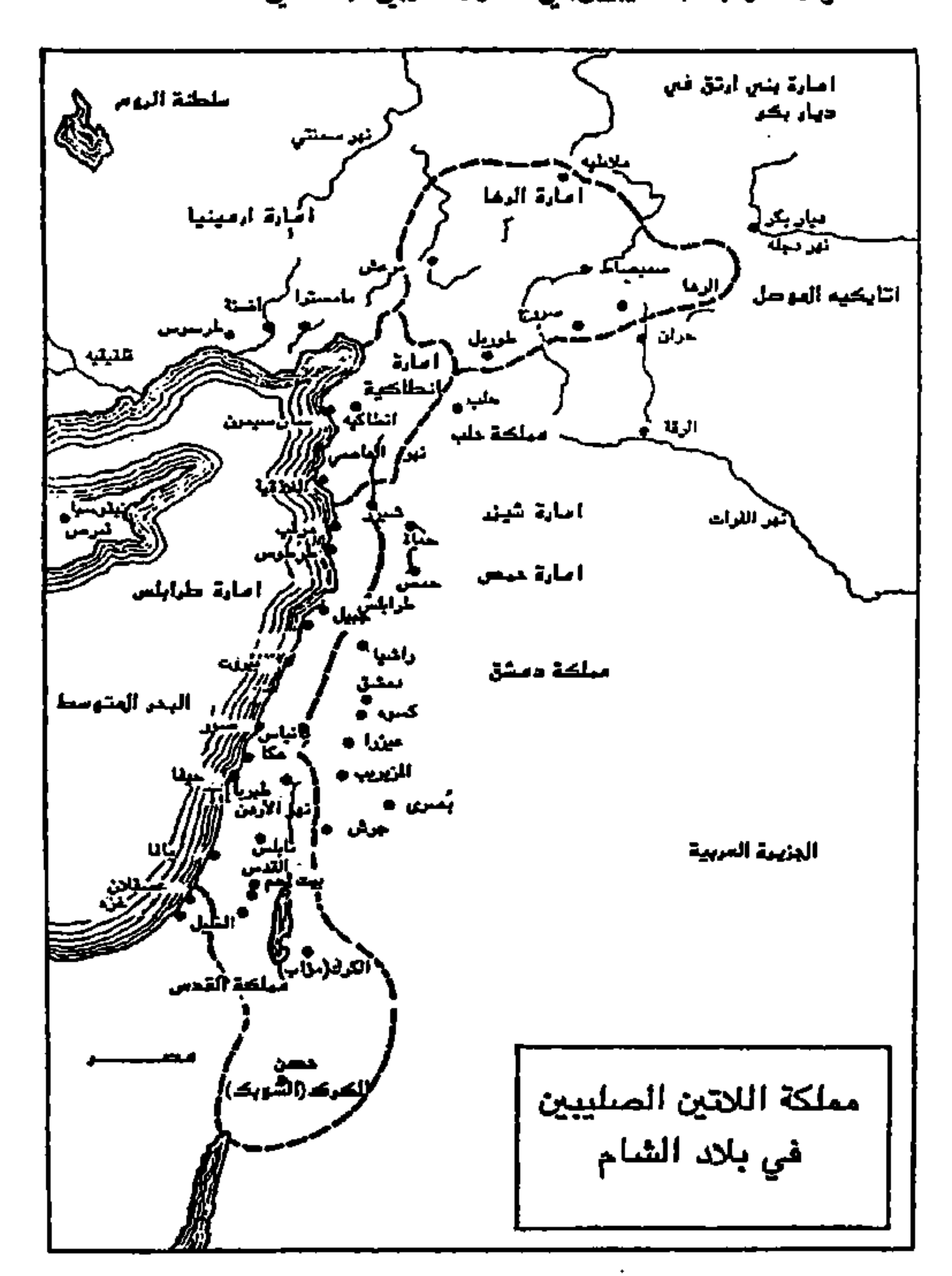
وضح كيف ساد المجتمع الصليبي في الأراضي المقدسة حالة من الانحطاط في المستوى الأدبي والمعنوي والاخلاقي والنفسي.

ومن ناحية أخرى فقد ساد نوع من النزعة الكلبية لدى الأفراد فكما يرى رونسيمان ان كل زواج كان عبارة عن حالة نزاع ومؤامرة. وكانت الزيجات غالباً عقيمة. وهناك أفراد من عتاة المحاربين لم ينجحوا في أن يكون الواحد منهم أباً لطفل. وكان التزاوج بين العائلات النبيلة يزيد من التنافس الشخصي.. وكان هناك شجارات دائمة بين الأقارب. ولقد كان هنالك انحطاط دائم في القوة البشرية – كما أشرنا أعلاه – وكان هذا التراجع مليئاً بالخطورة. وقد

خلف الخوف لدى الصليبيين نزعة إلى الوحشية والخيانة، كما ان حالة عدم الاستقرار لديهم شجعتهم على المرح التافه! ويختم رونسيمان وصف هذه الحالة الاجتماعية والنفسية المضطربة بالقول «لقد كان صيد الحياة في الشرق يستند دائماً على القلق وعدم اليقين والخوف، مما جعل الناظر عن بعد يعجب كيف تصمد المغامرة لوقت طويل حتى في كل ظلّ أفضل الحكام وأحسنهم». (Runciman Vol: 11 P. 323-324).

أسئلة التقويم الذاتي (5)

بيّن أبعاد الحكم والادارة في مملكة بيت المقدس.


سلطنة الروم
امارة بني ارتق في ديار بكر
امارة الرها
امارة ارمينيا
اتابكيه الموصل
امارة انطاكية
مملكة حلب
امارة شيزر
امارة حمص
امارة طرابلس
مملكة دمشق
البحر المتوسط
الجزيرة العربية
مملكة القدس
مصر
حصن الكرك (الشوبك)
مملكة اللاتين الصليبين
في بلاد الشام

شكل (3)

6. حياة الفرنجة في بلاد الشام

1.6 الحكم والإدارة

الملك: وكان يقيم بالقدس.

1- يقف على رأس الهرم في السلطة وفي الهيئة الاجتماعية.

2- كان الملك رئيس هيئة البلاط العليا ورئيس الجيش.

3- اعتمد الملك على هيئة من الأمراء، وهم: كونت يافا ولورد صيدا وأمير الجليل؛ الذين كان كل واحد منهم يقدم (100) فارس مسلحين كل التسلح، ويضاف إلى هؤلاء لورد شرق الأردن Ultrejordan ويقدم (60) جندياً وكانت كل بارونية من هؤلاء ادارة مستقلة، اشبه ما تكون بمملكة مصغرة. (Runciman II P.297)

وبالاضافة إلى هذه البارونيات كان هنالك ما يسمى المدن الملكية (Royal Cities). والتي كانت من الواجب عليها ان تقدم جنوداً للمملكة بحسب ثروتها. وكان مرتباً على القدس ان تقدم (60) جندياً، ونابلس (75) جندياً وعكا (80) جندياً. وكان هؤلاء الجنود لا يقدمون بواسطة البورجوازية ولكن بواسطة النبلاء الذين يقطنون في المدينة. وكان رجال الدين مطالبين، أيضاً بتقديم جنود يتفق عددهم مع مقدار ما يملكون من أراض أو عقارات. (Runciman II P.298)

4- ولم يكن الملك في مملكة بيت المقدس يبت في كثير من المسائل. إذ أن أكثر الموضوعات التي تحتاج إلى نظر كانت تحال إلى هيئة البلاط العليا High Court وهي هيئة قضائية تتكون من ممثلين عن النبلاء والكنيسة والجاليات الأجنبية، ولقد اتسعت اختصاصاتها وصلاحياتها بحيث أصبحت تمثل هيئة تشريعية. وكان من اختصاصها فض المنازعات والخلافات بين النبلاء في المملكة ومن حقها أيضاً توجيه سياستها العامة. وقد جاءت الهيئة البورجوازية بعد هيئة البلاط الأعلى من حيث الأهمية وكانت تنظر في أمور الناس الأقل شأناً من النبلاء. وكان هناك أيضاً كثير من المحاكم الأخرى ذات الاختصاصات المختلفة (الموسوعة الفلسطينية الجزء 3 ص 445).

5- ولقد كان لدى الملك طاقم من الموظفين على رأسهم ما يسمى القهرمان Seneschal

ويأتي من بعده في الرتبه الكونستابل constable أي قائد الجيش ثم المارشال ثم الملازم الأول Leutenant، ثم الياور Chamberlain (وهو مرافق الملك والقائم على تنظيم الخدمة له). ولم تكن هنالك وظيفة للساقي butler، ولقد كان الفيسكونت هو الذي يمثل الملك في المدن الملكية والنبلاء في المدن البارونية. وكان الملك يزعم انه يمثل السيادة على امارات الفرنجة Leutenant انطاكية والرها وطرابلس. وقد سبق لنا أن ناقشنا هذه القضية أعلاه. (.Runciman II P)

6- اما الموارد المالية التي عاش عليها الملك والأمراء، فكانت عديدة، منها ما يأتي عن طريق السلب والنهب، من خلال الاغارة على القرى والضياع والقوافل الاسلامية ومنها ما يتحصل من الحقول والمزارع التابعة للصليبيين والمحيطة بهم، وأهمها الضرائب العديدة التي فرضت على الصادرات والواردات والمبيعات والمشتريات، فضلاً عن الحجاج والموانئ والسفن (عاشور الحركة جـ1 ص 480).

7- وبينما كان أمراء انطاكية وطرابلس يتوارثون منصب الامارة وفقاً لما تعاهدوه من قانون اقطاعي معروف في الغرب، اذا بالملكية في القدس تظل انتخابية من حيث المبدأ. وان كان أمراء المملكة قد أخذوا بمبدأ الوراثة، كما حدث عند تولية بلدوين الرابع السلطة 1174، وهو في الثالثة عشرة من عمره بعد وفاة ابيه. ومهما يكن، فإنه مهما تعددت سلطات الملك، فإنه كان مقيداً بكثير من المسائل برأي امرائه، فضلاً عن رأى المحكمة العليا، فكان مثلاً لا يستطيع ان يعزل أميراً عن اقطاعه الا بموافقة المحكمة (عاشور الحركة جـ1 ص 481).

2.6 في المجال الديني

1- أول ما نلاحظه في المجال الديني، عزيزي القارئ، هو سيطرة البابوية على السلطة والكنيسة الكاثوليكية بصورة خاصة. وقد جربت الكنيسة الكاثوليكية في بيت المقدس السيطرة على المملكة والحكم حكما ثيوقراطيا على يد مندوب البابا دايمبرت كما مرّ معنا عند الحديث عن تأسيس بيت المقدس. ولعلها حاولت الاستحواذ على السلطة وانتزاع المركز من البابا مما جعل البابوية لا تؤيد هذا التوجه لدى كنيسة بيت المقدس الصليبية، بل إنها ايدت سيطرة الملكية على علمانيتها الممزوجة بمراعاة حقوق الكنيسة لأنها أقدر على صيانة حقوق

المسيحية والحفاظ على السيطرة على مملكة بيت المقدس في وجه الاخطار المحيطة.

ومهما يكن من أمر فقد تمتعت الكنيسة في مملكة بيت المقدس بصورة خاصة وبلاد الشام بصورة عامة بكثير من الامتيازات المادية وفازت بالنصيب الأكبر من الأموال والممتلكات العينية من أراض وعقار. وقد تخلصوا من رجال الدين الارثودكس ويكفي ان نعرف ان أحد الأديرة التابعة للكنيسة وهو دير جبل صهيون كان يمتلك 1178 حيا بأكمله في القدس ذاتها، مع تمتعه بحق فتح بوابة في أسوار المدينة. وكان لذلك الدير ممتلكات واراض وبساتين وأسواق في عسقلان ويافا ونابلس وقيسارية وعكا وصور وانطاكية وقيليقية. (عاشور الحركة حـ1 ص484).

2- وعلى أساس من هيمنة رجال الكنيسة الكاثوليكية على كل شيء من الناحية الدينية في ظل الوضع الصليبي فقد اعتبرت المذاهب الأخرى الشرقية مثل النساطرة واليعاقبة والموحدين هراطقة منشقين. وقد عاملوا الأرمن معاملة حسنه في البدء ثم انقلبوا عليهم. وتمتع الموارنة بخطوة خاصة، لتعاونهم معهم، ولاعترافهم بسلطة الكرسي الأقدس (حاطوم - يوم القدس ص149).

3- اما عن التنظيم الكنسي فقد امتلكت الهيئات الدينية خدمات النقباء Sergeants وليس خدمات الفرسان. وقد كان البطريرك والفصل Chapter في كنيسة القيامة يمتلك (500) نقيباً، وكان مطران بيت لحم يمتلك (200) نقيباً، ومطران صور الأكبر (150) كما فعل كبير الرهبان Abbot للقديسة ماري جوسافاط وجبل صهيون.

ولقد كانت ممتلكات انطاكية وطرابلس والرها من الناحية الدينية تحت بطريرك انطاكية. وقد حكم البابا باسكال الثاني أنَّ صور بمطرانياتها التابعة لها عكا وصيدا وبيروت يجب أن تنتقل في تبعيتها للقدس. وقد تحقق هذا، لأنه تناسب مع الحقائق السياسية. لكن محاولة بطريركية القدس ان تسيطر على مطرانيات طرابلس وطرطوس وجبلة فشلت بالرغم من محاولات البابوية. (Runciman Vol:II, P. 311-312)

3.6 من الناحية الاقتصادية

امتازت حياة الفرنجة في مملكة بيت المقدس، وبلاد الشام عامة، بنشاط اقتصادي جيد.

فتمكنوا من امتلاك كثير من مدن الساحل والأراضي الخصبة التي عمل فيها فلاحون وطنيون. وقد صدّر الفرنج من فلسطين الزيت والزيتون والحمضيات إلى الغرب الأوربي. (الموسوعة الفلسطينية جـ3 ص 445). وقد عرف الصليبيون في المشرق زراعة قصب السكر، وازدهرت صناعته في غور الأردن والساحل والكرك والشوبك. وقد قام الصليبيون بتصديره إلى أوربا. وكذلك صدّر الفرنج من فلسطين وبلاد الشام الأقمشة والملابس الحريرية والبسط والسجاد بالإضافة إلى المنتوجات الشرقية القادمة من الهند والصين إلى دمشق ثم إلى عكا وبيت المقدس ويافا. ولقد أقام الفرنجة الفنادق والبنوك الخاصة بهم لتسهيل مهماتهم التجارية.

أسئلة التقويم الذاتي (6)

بيّن ابعاد الحياة الاقتصادية في الأراضي المقدسة في العهد الصليبي ؟

وقد اهتم اليهود في المدن الصليبية، وبخاصة في صور وأنطاكية بإنتاج الزجاج وتصديره إلى غرب أوربا.

وبالنسبة للتجارة المارة بالبلاد التي سيطر عليها الصليبيون، فإن التجار الايطاليين تركزت في يدهم التجارة وهؤلاء هم تجار البندقية وبيزا وجنوة (عاشور الحركة جـ1 ص489).

وقد برزت عكا في النشاط التجاري الصليبي في بلاد الشام وقد وصفها ابن جبير بقوله: «قاعدة الافرنج بالشام ومحط الجواري والمنشآت في البحر كالأعلام» (ابن جبير ص 276) ولقد شبهها بالقسطنطينية في كونها مجتمع السفن «وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق» وذلك ان عكا كانت الميناء الطبيعي لاقليم دمشق. وإليها يتجه التجار الوافدون من اليمن وجنوب شبه الجزيرة إلى الشام. وقد حكى ابن جبير انه سافر من دمشق 1184 «في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع إلى عكة». واشار إلى ان مثل هذه القوافل كانت كثيرة، كما اظهر دهشته لسهولة الاجراءات المتعلقة بالمكوس (ابن جبير ص 271).

وهذه ملحوظات على التجارة والنشاط الاقتصادي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، عزيزي القارئ، هي:

1- ان السلع التجارية كانت محوراً للتجارة وبالذات الأقمشة الشرقية الفاخرة والحجارة الثمينة والزجاج المزخرف والعاج والعطور وغيرها.

2- ان النقود تنوعت، فبالإضافة إلى العملات المغربية التي احضرها معهم التجار والحجاج الوافدون من غرب أوربا، ظلت النقود العربية الاسلامية والنقود البيزنطية متداولة أيضاً في بلاد الشام طوال العصر الصليبي.

3- لم يفد ملوك بيت المقدس فائدة كبيرة من الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات لأن الملوك دأبوا على توزيع الموارد على الهيئات الكنسية وهيئات الفرسان، فكان ربع ضريبة معينة يخصص لمساعدة الاسبتارية وربع مكس (ضريبة الحدود) معين، يخصص للداوية، مما حرم الملكية نفسها من اختزان ثروة طائلة لذاتها. هذا على الرغم من ان ملوك بيت المقدس ظلوا أوفر ثروة واحسن حالاً بكثير من ملوك الغرب الأوربي.

4.6 في المجال الاجتماعي

كان السكان الأصلاء والاصليون من المسلمين والمسيحيين هم الغالبية. (حاطوم- يوم القدس ص149) في مملكة بيت المقدس والامارات الثلاث الأخرى. وقد ترك ابناء البلاد الأصليّون يمارسون نشاطاتهم الاقتصادية في حياتهم اليومية من فلاحة أرض وتربية مواشٍ وممارسة الحرف اليدوية وغيرها، وكان عليهم واجب مزدوج: الأول ان يعملوا في سبيل أنفسهمَ، والثاني في تأمين إعاشة المحتلين وقد وقع عليهم، عبء الضرائب والرسوم، وعهد في جبايتها إلى موظفين مختصين وكانت هذه الضرائب تتكون من ضريبة الرأس وضريبة القامة الثقيلة، وقد فرضت الضريبة الأولى، (الرأس) على المسيحيين، بينما فرضت الضريبة الثقيلة والتحكمية، على المسلمين، وأضيفت لها الاتاوات على العقارات وضريبة العشر على إنتاج الأرض، وكانت على الجميع وخصص ربعها للكنيسة اللاتينية. وفرض على الفلاحين دفع ضريبة الفلاحة، والحقل والقيام بأعمال السُخرة العديدة من نقلٍ على العربات والدواب وأعمال البناء وصيانة القصور. وبتعبير آخر كان هم المحتلين أولاً وقبلَ كل شيء جباية الضرائب وفرض الاتاوات، والغنى على حساب الأهالي، دون الاهتمام بتحويل النظم للصالح العام. وتركوا لكل جماعة إدارتها الخاصة في المدن والقرى والبادية، والقيام باعمال الأمن والقضاء حسب الأعراف المحلية السائدة. وهذا معناه كما يقول الدكتور حاطوم «انهم لم يقوموا بأي عمل ينتج، بل عاشوا طفيليين مستغلين على حساب البلاد وأهلها» (حاطوم يوم القدس ص 149).

ونحن اذا درسنا الطبقات الاجتماعية الأخرى، نلاحظ ان هناك الطبقة الارستقراطية

الحاكمة من النبلاء والفرسان. وهؤلاء هم الأوربيون. وكانوا أقلية بلغت الف فارس على أكثر تقدير. ثم هنالك طبقة المحاربين الغربيين، وهم ليسوا من نبلاء الغرب، بل من المحاربين المشاة. وقد استقروا في فلسطين والامارات الصليبية، وتزوجوا من المسيحيات الوطنيات الشرقيات. فنجم عن هذا التزاوج نشوء طبقة جديدة من آباء غربيين وامهات شرقيات أرمنيات أو سريانيات، وحلّت هذه الطبقة المولّدة مع الوقت، مكان الطبقة السابقة. وقامت بدورها بخدمة الوجود الصليبي في المشرق. أما التجار الايطاليون فكانوا طبقة مستقلة، مقامهم في المدن الهامة كعكا ويافا وحيفا وقيسارية وأرسوف وكانت لهم فنادقهم واحياؤهم الخاصة (عاشور الحركة جـ1 ص 494-493) وقد امتلك البنادقة والجنويون شوارع معينة في بيت المقدس نفسها. (Runciman II, P.292).

لقد تميزت كل هذه الطبقات الاجتماعية عن المسيحين والمسلمين سكان البلاد الاصليين، فالفئة الأولى لم تنل من الصليبيين سوى الاحتقار، وأما الفئة الثانية فلم تنل سوى الإهمال، الا ما كان من منافع معينة يجنوها من ورائهم كما اشرنا اعلاه.

واما من حيث الخصائص الاجتماعية الأخرى للصليبيين فيحدثنا المؤرخون ان المرأة الصليبية، بوجه عام، تميزت بالشجاعة (Runciman II, P.317).

وقد كانت الفكرة لدى الصليبيين، عندما جاءوا إلى الأراضي المقدسة، أن المسلمين متخلفين في حين أنهم في مرتبة أعلى بكثير من الناحية الحضارية من شعوب المنطقة، الذين اعتبروهم مارقين، يعبدون محمداً (صلى الله عليه وسلم) من دون الله. ولكن عندما شاهدوا المسلمين لأول وهلة أصيبوا بالحيرة. أما بالنسبة للشعور الذي تكوّن لدى المسلمين عنهم، فقد عبر عنه اسامة ابن منقذ الذي رأى فيهم «وحوشاً تمتلك فضيلة الشجاعة والحرب، ولكن ليس اي شيء آخر». ويضيف (حتّي) ان هؤلاء جاءوا بالنظام الاقطاعي معهم والذي طبق في تأجير الأرض بصورة دائمة. وقد جلب هؤلاء الصليبيون معهم الخيول والصقور والكلاب. ولم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً عندما دخل هؤلاء الصليبيون في اتفاقيات مع المسلمين لحرية الصيد، دون أن يهاجمهم أحد. وكان المرور التجاري وللمسافرين في أراضي كل طرف مضموناً. وقد استغنى الفرنجة عن ملابسهم الأوربية واستعاضوا عنها باللباس الوطني الأكثر مناسبة وملاءمة. وقد طوروا مع الوقت، ذوقاً جديداً في الطعام وبالذات بالنسبة للأطعمة التي تتضمن استعمال السكر والتوابل بكثرة. وقد فضلوا أيضاً البيوت الشرقية بإيواناتها الواسعة ومائها الجاري. (Hitti PP. 643 - 644).

7. المنظمات الصليبية الدينية

1.7 الاسبتارية

نبعت فكرة المنظمات الصليبية الدينية، من أنه كان هنالك كثيرون من هؤلاء الصليبيين الأكثر تديناً، الذين وجدوا ان حياة الزهد والعبادة في ظل الكنيسة والدير لا ينبغي ان تحرمهم من المشاركة في محاربة المسلمين. وقد وجد هؤلاء ان خير من يلبي غايتهم هذه منظمات تجمع افرادها بين المعاناة الدينية وحياة المحارب، حياة تتيح للرجل الصليبي المتدين، المشاركة الفعلية بعمل آخر هو العبادة ولكن عن طريق القتال وحمل السلاح. وتكريس كل وقته وجهده من أجل هذه الغاية. (عاشور الحركة جـ1 ص 486). ويقول رونسيمان: «إن هؤلاء أجابوا على نزوع عاطفي، ساد في هذا الوقت، عندما كان هنالك كثير من الرجال يحدوهم قلق معين لكي يسلكوا الطريق الديني ولكن تحدوهم رغبة أخرى في أن ينشطوا من أجل الانخراط في المعارك الحربية من أجل العقيدة». (Runciman II, P. 312).

والحقيقة ان المنظمتين الاسبتارية والداوية اللتين شكلتا الوعاء الذي استوعب اشواق هؤلاء وحقق غاياتهم وأهدافهم، قامتا بجهد كبير في حماية الكيان الصليبي بالشام والدفاع عنه في مقاومة المسلمين وغزو بلادهم، وصدّ هجماتهم، في وقت تراجع فيه عدد المقاتلين الصليبيين بالشام نتيجة عوامل متعددة، من بينها المرض والوفاة بسبب عدم التكيف مع البيئة، فضلاً عن أن آخرين عادوا إلى الغرب الأوربي، من تلقاء ذاتهم، وشعوراً منهم انهم حَقّقوا الغاية التي من اجلها قدموا.

واذا تساءلنا عن نشأة كل من هاتين المنظمتين وجدنا بعض المؤرخين يقول: ان جذور هيئة الاسبتارية، ترجع إلى ما قبل الحروب الصليبية، ذلك ان بعض تجار مدينة أمالفي الايطالية، قاموا بتأسيس جمعية خيرية غايتها رعاية بعض فقراء الحجاج، وقد اطلق على هذه الجمعية الخيرية اسم فرسان المستشفى Hospitalers التي تحولت في العربية إلى كلمة الاسبتارية. ولم يلبث هؤلاء ان دخلوا تحت لواء النظام الديري البندكتي المعروف في غرب أوربا ومن ثم صاروا يتبعون البابا تبعية مباشرة. ولما وصل الصليبيون إلى بيت المقدس. وبدأ حصارهم لها قام هؤلاء الاسبتارية - بالنظر إلى معرفتهم الوطيدة بالبلاد- بتقديم مساعدات مجزية للصليبيين. ومنذ ذلك الوقت اخذت منظمة الاسبتارية تتطور وتتبلور ويصبح لها كيان ثابت مستقل ونظام

خاص بها. ولعلّ ما ساعد في ترسيخ جذور الاسبتارية هي انها حظيت بمجموعة من الرؤساء عملوا جاهدين على إكساب منظمتهم خصائص معينة في النشاط الصليبي. ولعلّ ما ساعدهم أكثر هو انهم حصلوا على كثير من الأراضي والهبات والمكاسب والاعانات حتى انه لما حلّت سنة 1137 كان قد اصبح للاسبتارية دور كبير، ونشاط فعال، في محاربة المسلمين، والوقوف أمام الخطر الاسلامي. (عاشور الحركة جـ1 ص 500).

2.7 الداوية:

اما منظمة الداوية فقد قامت على أساس عسكري حربي. ووضع أساسها الفارس الفرنسي هيو دي باينز. وقد اختار، بل انه طلب من الملك بلدوين، ان يمنحه جزءاً من المسجد الأقصى ليكون مستقراً لمنظمته الجديدة. (Runciman II P. 157). ومن ثم اطلق على اتباعه اسم فرسان المعبد Templers، التي تحولت في العربية إلى الداوية ولم يلبث رئيسها ان قام برحلة إلى أوربا غايتها تجنيد الناس في فرنسا وانجلترا للالتحاق بمنظمته، والظاهر انه حظى بعدد من الفرسان والنبلاء عاد بهم إلى الديار المقدسة، حتى اصبحت منظمته قوية فاعلة ومؤثرة، كما جعلت هدفها الرئيس هو حماية الطريق الموصل بين القدس ويافا.. (عاشور الحركة جـ1 ص501).

ولعل أهم ما امتازت به هاتان المنظمتان الأولى الاسبتارية التي تحولت تدريجياً إلى هيئة عسكرية، والثانية الداوية التي نشأت وتأسست على أساس عسكري انها اصبحتا مركز ثقل في الكيان العسكري الصليبي في بيت المقدس وأكثر من هذا، انهما بالرغم مما حظيتا به من عون الملك بلدوين الأول، الا انهما حافظتا على استقلاليتهما عنه، وتبعتا البابويه في روما ولم تدينا لغيرها بالولاء.

اما عن الامتيازات الأخرى التي توفرت لهما فيمكن اجمالها، عزيزي القارئ، بما يأتي:

1- كان يحق لهم الجلوس في هيئة البلاط العليا High Courts في القدس وانطاكية وطرابلس. وكانوا يصدرون احكامهم بما يتناسب والعدالة أو الملوك والأمراء.

وكانوا يجرون اتصالاتهم الدبلوماسية ويعقدون المعاهدات مع الحكام المسلمين، غير مبالين بالسياسة الرسمية للحكام الاقطاعيين في المشرق الاسلامي. وقد صُنِّف الاستياريون والداويين – من حيث المركز – في الصف الأول بين الصليبيين، وتأتي من بعدهم مملكة بيت المقدس الفقيرة.

وعلى الرغم من غرورهم وكونهم غير هيابين ولا ترددين فانهم كانوا أقوياء وكانوا سبباً من سبب الاستقرار والثبات في الوسط الصليبي. (Treece, The Crusades, PP. 177-176).

2- انقسمت هاتان المنظمتان عسكريتا الطابع إلى طبقات تعتمد على أصل الرهبان –الذين تشكلتا منهم– الاجتماعي. فالرهبان الذين هم في أصلهم من طبقة الفرسان Knights شكلوا الطبقة الأولى.

وقد جاء من بعدهم في الرتبة طبقة الرقباء (Seargents) الذين هم من أصل بورجوازي. وفي الرتبة الثالثة كانت طبقة الكتاب (Clerks). وكان المطلوب من هؤلاء المتأخرين رتبة، القيام بالعمل المكتبي المقدس. (Oldenboure, The Crasade, P.288).

وقد حمل كل من هاتين المنظمتين علامة مميزة تميزها فكانت الشارة لفرسان الاسبتارية الصليب الأبيض، لبسوه على سترة أو صدرية Tunic كل منهم فوق السلاح.

أما فرسان الداوية فكانت شارتهم الصليب الأحمر يلبسونه على رداء أبيض يرتديه الفرسان عادة.

ولعلّ من يتعمق أكثر في دراسة هاتين المنظمتين من الجوانب الأخرى يجد انهما كانتا تنطلقان من مبادىء معينة وأهداف محددة، كانت المعين الذي تتغذيان منه وتنطلقان ولعلنا نستطيع ان نلخص هذه المبادىء والغايات، في رسالة العقيدة الدينية المسيحية من حيث الزهد والتقشف والانصراف الذاتي إلى الله، والفقر والطاعة والأمر الثاني هو السلوك العملي وليس المعاناة الصوفية الدينية، ونقصد بالسلوك العملي خدمة الناس والمحتاجين، وفوق كل هذا، – في جانب السلوك – هو التفرغ للحرب الفعلية ضد المسلمين. (Runciman II P.157) .

ومع ذلك، وبالرغم، من هذه الممارسات الايجابية فقد عانى الاستبارية ومعهم الداوية من بعض الأمراض والرعونات النفسية والممارسات غير المنضبطة: يقول اولدنبور Oldenboure: "ان الداوية والاسبتارية، هؤلاء الانقى بين النقيين، الذين كرسوا جهودهم لخدمة الفقراء وحماية الضعفاء، هؤلاء انفسهم، تجمعوا في مجتمعات معينة Communities، وتمت لهم مقاليد الحكم ولبسوا لباسهم الرسمي، لم يتباطأوا في النظر إلى أنفسهم على أنهم ملح الأرض" Oldenboure, The Crusades, P.288، وهو يشير بذلك إلى نزعة الفرد –

التي اتسموا بها. ويضيف اولدنبور – أيضاً تحدثا عن قسوتهم وتعطشهم لسفك الدماء بقوله: **«وعندما كانوا يصبحون لؤماء فان لؤمهم كان أشبه بلؤم الحيوانات المفترسة التي تقتل لأنه يجب عليها أن تقتل»** [المرجع نفسه ص 286].

اما عددهم فيحدثنا رونسيان ان ما لدينا من معلومات تقول إن عددهم قليل ولكنه يذكر ان الاسبتارية أرسلت بخمسمائة فارس، مع عدد مناسب من رتب عسكرية أخرى في الحملة على مصر 1158، وان عدد فرسان الداوية الذين شاركوا في معركة حطين 1187 كانوا ثلاثمائة. وفي كلتا الحالتين فانه يقول: أن المحتمل ان هؤلاء مثلوا الفرسان من بيت المقدس فقط وان هنالك عدداً آخر احتفظ به من اجل واجبات الحماية في القدس نفسها.(Runciman II P. 312)، ومع ذلك فقد انتشروا في كل جهات المملكة والإمارات، وبالذات في الحصون والقلاع وما كان منها على الحدود بوجه خاص.

ومن يريد ان يبحث عن ممارسات اخرى، يومية، لهم غير الممارسات العسكرية فانه يجد انهم قاموا بجهد كبير في ميدان الخدمة الاجتماعية. فقد كان ملجأ الاسبتارية يتسع لألف حاج. وقد كان كل من الاسبتارية والداوية يوزعون صدقات واعطيات يومية، وعلى ما يظهر فإن الاسبتارية كانت توزع صدقات بشكل أكثر مما توزعه الداوية. وقد بلغ توزيع الأولى درجةً لَفَتَت انتباه الزوار والاغراب.

وقد قام الطرفان بإخراج الدوريات التي تشرف على طرق الحجاج، وبالذات الطريق بين بيت المقدس ويافا وعكا. بل انهم شكلوا قوة شرطة حقيقية تشرف على طرق الأماكن المقدسة. (Treece, The Crusades P. 176).

واضافة إلى ما مر فقد كان هنالك نشاط مالي للاسبتارية والداوية، الذين قاموا بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج، الوافدين من الغرب، وعلى ما يظهر فان افراد هاتين المنظمتين لم يمارسوا أساليب الانتهازية والاستغلال – في هذا المجال – على الحجاج الا في السنوات الأواخر للعهد الصليبي الأمر الذي أثار السخط عليهم وأكسبهم سوء السمعة بعد ما حظوا به من ترحيب في البداية.

اما ماهية الامدادات التي كانوا ينفقون منها بهذه الكيفية الكبيرة على الحجاج وعلى مختلف الانشطة، فإن المتابع لهذه الناحية في تكوينهم يلاحظ ان هاتين المنظمتين منذ البداية كانتا

بصورة ثابتة تزدادان من حيث العدد والثروة، فقد كانوا هم الملاكون الرئيسون في ما وراء البحار Qutremer. وقد ازدادت الثروات والهدايا والمشتريات في ممتلكاتهم وعقاراتهم. وقد انضم إلى صفوفهم عدد كبير من النبلاء اللاتين كما ان المتطوعين جاءوا اليهم باستمرار من الغرب. يقول رونسيمان: «إن المنظمات العسكرية بتنظيمها الذي تتميّز بالكفاية، وبما أحاطت به نفسها من تألق ولمعان وأهمية بلغ أثرها من خلال المسيحية الغربية شأواً بعيداً، هذه العوامل جميعها أمنت لهم مصدراً منتظماً من رجال كرسوا حياتهم للقتال، لا يثنيهم عن هدفهم نوازع الطموح الشخصي والربح الذاتي». (Runciman II P. 158) .

يظل، عزيزي القارئ، ان نقوم بعملية تقويمية شاملة لهاتين الفرقتين أو المنظمتين وهنا نلاحظ: انه من الناحية الايجابية فإن فرسان الاسبتارية والداوية اثبتوا انهم أكثر فئات الصليبيين اقبالاً على القتال واكثرهم صبراً على معاناة الحروب ومكابدة أخطارها وويلاتها. ويعتقد كثيرون من المؤرخين انه لولا دورهما وما قدماه للصليبيين من جهود واضافات لانتهى اجل الصليبيين في الأراضي المقدسة قبل نهاية القرن الثالث عشر.

غاية الأمر ان المنظمات العسكرية ضمنت للمملكة الصليبية سيلاً متصلاً من الجنود المحترفين الذين لم يكلفوا الملك شيئاً، ليس هذا فقط وإنما كانوا اغنياء أيضاً لدرجة يبنون معها الحصون ويحافظون على حمايتها وعلى مستوى لا يستطيعه سوى نبلاء علمانيين قليلين. (Runciman P. 312) .

اما من الناحية السلبية فقد كان لهم سلبيات كثيرة ايضاً منها:

- ان الملك لم يكن له سلطة عليهم لأن سيدهم المطاع والمسؤول الأوحد عنهم هو البابا وكانت الأراضي التي تؤخذ منهم يحتفظ بها كأراضي وقف مما جعل منهم دولة داخل الدولة وكنيسة داخل الكنيسة. (Treece, The Crusades P.173)

- لم تكن لتطلب منهم خدمات معينة سوى تلك التي يفرضونها على أنفسهم.

- رفضوا ان يسمحوا لمستأجري الأرض منهم ان يدفعوا الضريبة dime الواجبة عليهم للكنيسة.

ولقد كان السادة الكبار Grand Masters أو مندوبوهم الذين جلسوا في هيئة البلاط العليا High Court في المملكة ومثّلوا المحاكم العليا في الامارات الأخرى في انطاكية

وطرابلس، يرفضون التعاون اذا هم كرهوا السياسة الرسمية، كما حصل عندما قاطع فرسان الداوية الحملة التي غزت مصر سنة 1158.

– وقد شكلت المنافسة المستمرة بين المنظمتين خطراً مستمراً. فقد كان من النادر اغراؤهما بأن يخرجا في حملة مشتركة. وقد كانت كل منظمة تتبع خطها الخاص بها في دبلوماسيتها، بغض النظر عن سياسة المملكة الرسمية. وقد كانت كل منظمة منهما تعقد معاهداتها الخاصة بها مع الحكام المسلمين. تواجهنا هنا قصة الداوية في تعاملها ومفاوضتها مع الحشاشين سنة 1172 حيث ظهر انها لم تراع الترتيب المناسب لها من الناحية المالية، كما انه كان في موقفها احتقار صريح لسلطة المحاكم الملكية. ولقد كان الاسبتاريون أكثر اعتدالاً وأقل انانية. ولكن حتى مع هؤلاء فان مصالح المنظمة اخذت أولوية على شؤون المملكة ومصالحها. (Runciman II PP. 313 -314).

– وكما اشرنا اعلاه فان هاتين المنظمتين مثلهما مثل الكنيسة امتلكتا كثيراً من الأملاك، فلم تمتلكا أراضي وضياعاً واسواقاً ومراعي للمواشي فحسب؛ وانما امتلكتا أيضاً كثيراً من المدن والحصون والقلاع وتعدتا بالدفاع عنها ضد المسلمين ولا شك ان هذه الممتلكات جاءت على حساب الفئات الأخرى في بلاد الشام. ولقد دفعها هذا الغنى وتدفق الثروة بلا حدود إلى ترسيخ امتيازاتها وجعلها تتدخل فيما لا يعنيها.. حتى رؤساءَها ذهبوا بعيداً في الدخول في المنازعات حتى انهم كانت لهم مشاكلهم مع بطريرك القسطنطينية نفسه.

8. العلاقات بين الكيانات الصليبية في الشام والبيزنطيين

تقع العلاقات بين الصليبيين والبيزنطيين في العشرينيات والثلاثينيات والاربعينيات من القرن الثاني عشر الميلادي ضمن الاطر والمواقف التالية:

- ظهور الامبرطور حنا كومنينس وما يتمتع به من صفات وما احاطت به من ظروف مواتية للامتداد والتوسع. فقد تمتع حنا بالأمان. وكان في الثلاثين من عمره.. ميالاً إلى الزهد. ولم يكن ينخرط في المسرّات التي يمارسها معظم أفراد عائلته، بل انشغل في قراءة الأدب واجراء المناقشات الدينية. ولكن فوق كل ذلك كان جندياً أكثر سعادة عندما يكون في الحملات العسكرية منه عندما يكون في القصر. ولقد كان قديراً وادارياً عادلاً، ورغم انه كان قاسياً على نفسه الاّ انه كان كريماً مع أصدقائه ومع الفقراء. ولقد كان - كما يصفه رونسيمان - ودوداً صابراً مع أفراد عائلته. ولقد كان والده قد ترك له اسطولاً جيد التنظيم، جيد الاعداد. كما ترك له خزانة مليئة بحيث تسمح له ان يمارس سياسة نشطة. ولقد تجلت سياسته ليس في المحافظة على حدود الامبراطورية فحسب وإنما أيضاً في ان يستعيد حدود الامبراطورية القديمة وان يحقق المطالب الامبراطورية في سوريا الشمالية. (Runciman II P. 209)

هذا ما كان على الجبهة البيزنطية وظهور هذه القيادة فيها فما الذي كان على الجبهة الصليبية. ولنحاول، عزيزي القارئ، هنا تفحص وجهة نظر فولك ملك بيت المقدس ثم نبحث في موقف انطاكية التي كانت دائماً المحرك الأول للمطالب البيزنطية.

- انطلق موقف الملك فولك من ان انطاكية كانت جزءاً من امبراطورية القسطنطينية حتى تم انتزاعها من الامبرطور بواسطة الاتراك، الذين احتفظوا بها (14) سنة. كما انه اقرّ ان مطالب الامبرطور عن المعاهدات التي عقدها الاجداد هي ايضاً صحيحة. ويعتقد المؤرخون ان موقف فولك هذا إنما املاه ظهور زنكي العدو الاكبر للمملكة الفرنجية وأهمية العمل على جعله قادراً على تهديد القوة المسيحية الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه المسلمين. وعلى ما يظهر فإن نفوذ الملكة مايلزاند قد بذل من أجل اتباع سياسة تبرر موقف شقيقتها أليس، وتذلّ - بالمقابل - الرجل الذي قام بخداعها.

- وعلى هذا فقد تمخض موقف الملك فولك عن المقولة التالية: ان انطاكية كان ينبغي ان تعاد إلى الامبراطورية، وان كلاً من بوهمند وتنكرد، بمخالفتهما الأيمان التي اقسماها قد افسد forfeited كل المطالب التي طالبا بها.

– على ان هذا الموقف من قبل فولك كان نظرة استعمارية اكثر مما كان يعتقد الامبراطور. فقد كانت الحكومة الامبراطورية دائماً واقعية. وقد رأت انه من غير العملي ومن غير الحكمة ان تحاول إخراج الفرنجة من انطاكية دون تقديم تعويض معين. والأكثر من هذا انها ارادت ان تَدُصّ الحدود بدول تابعة يقوم الامبرطور نفسه بالاشراف عليها، هذا الامبرطور الذي سيتحمل العبء الأكبر في مواجهة هجمات الاعداء. وعلى هذا فان الامبرطور لم يعتمد في مطالبه على المعاهدة التي عقدت في القسطنطينية بل على المعاهدة التي عقدت مع بوهمند في دفول. وعلى هذا فقد طلب الاستسلام المطلق لأنطاكية كأنها هي إمارة ثورية تابعة ثارت على الدولة الأم، ولكنه – في الحقيقة – كان على استعداد لأن يسمح لأنطاكية بالاستمرار كدولة – تابعة. ولقد كانت بغيته الاساسية ان تتعاون انطاكية في حملاته ضد المسلمين.

– على اننا نجد ان التحرك الفعلي للامبرطور حنا كومنينس انما بدأ عندما طلبت اليه ارملة بوهمند الثاني أليس زواج ابنه وولي عهده من ابنتها كونستانس الوريثة الشرعية لإمارة انطاكية. وقد عقدت اتفاقية سرّية فعلاً بخصوص ذلك الشأن بين أليس وبلاط القسطنطينية. ولكن مجيء ريموند دي بواتييه وزواجه من الأميرة كونستانس – كما مرّ معنا – سنة 1136 قطع الأمل في تنفيذها. وبذلك لم يبق امام الامبرطور حنا كومنين سوى استخدام القوة لحل المسألة الأنطاكية، فخرج على رأس جيوشه في يوليو سنة 1137 قاصداً انطاكية. (عاشور الحركة جـ1 ص583).

– ولم يكن ريموند قوياً ليستطيع الدفاع عن مدينته. ليس هذا فقط وانما زاد الطين بلّه انه في هذا الوقت استنجد بالملك فولك الذي يدافع عن طرابلس أمام المسلمين فوقع في حصار المسلمين له في قرية بعرين. وعلى هذا فقد أسرع اليه ريموند ليرفع الحصار عنه دون ان يبالي بالهجوم البيزنطي. وهنا اضطر المسلمون لرفع الحصار عن فولك، الذي كان يهدف إلى الذهاب إلى انطاكية ولكنه عدل عن ذلك لكي يعود إلى القدس. وهنا اسرع ريموند إلى انطاكية ليجد ان الأمبراطور قد بدأ فعلاً حصار المدينة وضيق على أهلها ومع ذلك فقد استطاع ريموند مع حرسه الدخول إلى المدينة عبر البوابة الحديدية التي تحت القلعة. (Runciman II P. 212).

– وهنا يظهر ان الصليبيين والبيزنطيين قاموا بتقدير مشترك للموقف. خرج الطرفان منه بأيّة هجوم البيزنطيين غير معقول وأن المسلمين يتربصون للدوائر بالمعسكر المسيحي بمجمله. وعلى هذا فقد دخل حنا وريموند سنة 1137 في مفاوضات انتهت بعقد اتفاقية انتهت

بالاعتراف بسيادة الامبرطورية على أنطاكية، على ان يحكمها الصليبيون نيابة عن الامبراطور. وقد وافق الملك فولك على ذلك ليكسب ود البيزنطيين ومعونتهم ضد زنكي.

– ولم يلبث هذا التحالف ان تمخض عن الاتفاق على إعداد حملة صليبية مشتركة في الربيع التالي، بهدف تدمير قوة زنكي في حلب، وامارة بني منقذ في شيزر وانتزاع حمص من اتابكة دمشق، واقامة امارة صليبية في هذه الجهات، يتولاها ريموند دي بواتية، ويترك امارة انطاكية للامبرطور البيزنطي.

وسرعان ما بدأ تنفيذ الخطة أواخر مارس 1138، حين انضمت القوات الصليبية في انطاكية والرها إلى قوات حنا كومنين، وزحف الجميع باتجاه حلب، حيث كان عماد الدين زنكي في هذا الوقت عند حماة يعمل على طرد الدمشقيين منها. وهنا استولى التحالف على بُزَاعة بين حلب ومنبج.. وقد فقدوا بسبب حصارهم بزاعة بعض الوقت الأمر الذي اتاح لعماد الدين زنكي بعض الوقت للاستعداد وارسال قسم من قواته إلى حلب بقيادة قائده القدير سوار. وهكذا فإن القوات المشتركة عجزت عن الاستيلاء على حلب واكتفت بالاستيلاء على الاثارب في 21 ابريل سنة 1138 لكن سوار عاد اليها واستردها، وفي 25 ابريل استولى التحالف على معرة النعمان وفي 27 ابريل استولوا على كفرطاب. وفي 28 منه كان التحالف على أبواب شيزر، وعند ذلك قدم زنكي مسرعاً وَنَشَرَ قواته على نهر العاصي.

وهنا تتجلى مواهب زنكي في الحرب النفسية أو ما يسمى أحياناً حرب الاعصاب! فبالنظر لتوقف قوات العدو من الناحية العددية فإن عماد الدين زنكي آثر عدم الدخول معها في مجابهة مباشرة وعلى هذا فقد لجأ إلى اللعبة النفسية في الحرب، مستغلاً معرفته بالنزاع بين البيزنطيين والصليبيين. فكان يرسل إلى الامبراطور يخوفه من التحالف مع الصليبيين، ويُظهر له انهم سينفضّون عنه، ويرسل إلى الصليبيين يخوفهم من مطامع الامبراطور، وانه إنْ ملك بالشام حصنا واحد، فسيملك بلادكم جميعاً! (عبدالعظيم رمضان ص435 – ص436).

وكان مما كتبه إلى الامبرطور أيضاً: «انكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزعوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم ارحت المسلمين منكم، وان ظفرتم بي استرحتم واخذتم شيزر وغيرها!» وهنا يعترف النويري ان زنكي «لم تكن له بهم قوة، وإنما دائماً كان يرهبهم بهذا القول واشباهه» (انظر النويري في عاشور الحركة جـ1 ص587).

وعلى ما يظهر فإن الحرب النفسية، وعدم تمكن التحالف من القيام بعملية اختراق للجبهة الاسلامية أوقعت كلاً من الصليبيين والبيزنطيين في حيرة من أمرهم فريموند اعتبر إعطاء، حلب وشيزر حسب الاتفاقية بين الصليبيين والبيزنطيين سيجعله في موقف متطرف على خط النار أمام المسلمين، بعيداً عن انطاكية امارته، في حين ان جوسلين الثاني حسب حساباً لوجود ريموند قريباً منه في حلب. (Runciman II P. 216). وهكذا فإن عدم توافر حسن النية بين طرفي التحالف، الصليبيين أولاً فيما بينهم، ثم ما بينهم وبين البيزنطيين قد أدى إلى فشل هذا التحالف، غاية ذلك ان حنا كومنين قبل العروض التي عرضت عليه من قبل صاحب شيزر، والتي تضمنت دفع مبلغ كبير من المال وجزية سنوية، رمزاً للتبعية للامبراطور البيزنطي، فضلاًعن الهدايا والخيول والمنسوجات الثمنية، ولم ينته شهر مايو سنة 1138 حتى كانت الجيوش البيزنطية قد انسحبت تماماً من شيزر متجهة إلى انطاكية.

وبعد دخول حنا كومنين انطاكية على رأس جنده استدعى ريموند دي بواتيه وجوسلين الثاني ووبخهما لموقفهما السلبي من حصار شيزر وطلب اليهما تسليم قلعة انطاكية. ولم يجد هذان من وسيلة يردان بها على الأمبرطور الا بتسج مؤامرة عليه فقد ارسل جوسلين بعملائه المحرضين إلى الشوارع لاخبار الشعب بمطالب الامبرطور كما يطلب إليهم ان يرفعوا السلاح في وجهه. ولما كانت انطاكية في هذا الوقت مترعه Convulsed بالجماهير الغاضبة، فقد اندفع جوسلين إلى حضرة الامبرطور، مخبراً اياه انه كان ملاحقاً.

غاية الأمر، عزيزي القارئ، ان حنا كومنين خرج – ولعله طرد – من انطاكية، وعاد إلى عاصمته، ولم تأتِ محاولاته بعد ذلك في غزو الامارات الصليبية في الشمال بأية جدوى ومات في سنة 1143.

وهكذا فإن المؤامرة قد نجحت بالغوغاء والرعاع من المواطنين الغضاب! فعندما تصاعد غضب الناس ووقع بعض حاشية الامبرطور ضحايا غضبهم، فإن كومنين، الذي خشي على سلامته، سحب طلباته ووافق ان ينسحب من انطاكية. وهنا اسكت القادة الرعاع! وترك البيزنطيون المدينة في اليوم التالي. (Setton P.440) .

لكن حنا كومنين، وبعد أربع سنوات من مغادرته انطاكية سنة 1138، جدّد مطالبه في شمال سوريا الفرنجية؛ ووضع خططاً ليؤسّس امارة تتألف من اداليا (انطاليا) وقبرص وانطاكية يتولاها ابنه مانويل. وعلى هذا، فقد عاد، ومعه جيش كبير، وغزا الرها، وعسكر

امام تل باشر. ولما كان جوسلين غير مستعد فقد استسلم بسرعة، وقد قبل ان يلبي طلب حنا بأخذ رهائن فتخلّى عن ابنته لكي تكون رهينة. وعلى الأثر تقدم كومنين إلى انطاكية وعسكر في ما جاورها في 25 سبتمبر سنة 1142. وقد رفض ريموند صراحة طلب كومنين ان تستسلم انطاكية مع قلعتها وتحصيناتها اليه، معلناً بلطف رفضه اتفاقية 1137 وان وعوده لكومنين لا تحمل صفة الثبات بالنظر إلى ان النبلاء الفرنجة يؤكدون ان ليس لديه (ريموند) قوة قانونية لكي يعقد مثل هذه الاتفاقات.

وهنا ادرك حنا كومنين انه «لا مزاج الانطاكيين ولا اقتراب الشتاء تجعلان من الممكن الاستيلاء على المدينة. وعلى هذا فقد انسحب إلى قيليقية، وفي ذهنه خطة ليعود في ربيع 1143. (Setton P.445)

– فكر الامبراطور في اثبات سيادته على بيت المقدس فأرسل إلى ملكها يخبره بأن الامبرطور سيحضر على رأس جيوشه للحج. لكن فولك ردّ على الامبراطور قائلاً أن ليس له اي حق شرعي في بيت المقدس. واضاف أن الأحوال الاقتصادية لبيت المقدس لا تسمح ولا تحتمل بإيواء جيش كبير في حجم جيش الامبرطور. وهنا طرح عليه بديلاً آخر. وهو انه اذا كانت هنالك ضرورة لحج الامبرطور فليأت على رأس عشرةً آلاف فقط من رجاله. ولم يلق هذا الردّ الرضا من الامبرطور الذي تمثل رد فعله في الاستعداد لحملة كبيرة شاملة على الشام عندما توفي في 18 ابريل 1143، وبذلك انتهى خطره على الشام، لكن الخسارة التي سببها للصليبيين كبيرة ذلك ان الصراع بين اليونان واللاتين يمكن اعتباره مسؤولاً عن الخراب الذي لحق بالرها بعد سنة على يد زنكي. (Stevenson P. 149).

على أن النزاع بين الصليبيين والبيزنطيين لم ينته بوفاة حنا كومنين. فقد حاول ريموند انطاكية انتهاز الفرصة، واستغلال الفراغ المؤقت الذي شغر بوفاة حنا كومنين، ولكن الامبرطور الجديد الذي عرف بأنه حاكم يتميز بالذكاء والموهبة. وانه قائد وُجد لكي يقوم بالقيادة وأنه جنديٌ شجاعٌ، Versatile وحاكمٌ ذو امكانات ومواهب كثيرة (Ostrogorsky P.380) (1143 – 1180) ارسل جيشاً واسطولاً طرد الصليبيين من قيليقية ثم هاجم انطاكية نفسها وانزل الهزيمة بريموند.

على ان نقطة التحول الجذرية في العلاقة البيزنطية الصليبية، لم تتحقق الا بعد أن تمكن عماد الدين الزنكي من استعادة الرها سنة 1144. هنا عاد ريموند دي بواتيه لكي يرتمي في احضان

البيزنطيين فقد ادرك ان الاحتفاظ بأنطاكية لن يتحقق الا بالتحالف مع البيزنطيين. وعلى هذا فقد سافر إلى القسطنطينية سنة 1145، وهنا اعلن ولاءه للامبرطور البيزنطي بل لقد اعلن تبعيته للامبراطور مانويل كومنين، الذي وعده بالمساعدة في وجه زنكي.

جدير بنا، عزيزي القارئ، ان نختتم هذا الفصل عن العلاقة بين البيزنطية والكيانات الصليبية بالاشارة إلى أن العلاقة بين الطرفين لم تصف ابداً. بل ظلت يشوبها الخصومة وتحدوها العداوة التي كانت تختفي حينا وتظهر حينا آخر حتى سقطت الامبراطورية البيزنطية في أوائل القرن الثالث عشر في يد الصليبيين كما سيأتي معنا.

أسئلة التقويم الذاتي (7)

تتبع العلاقة بين الكيانات الصليبية في الشام والبيزنطيتين؟

9. الخلاصة

وردت عزيزي القارئ، الأفكار الرئيسة التالية نوجزها لك كما يأتي:

أولاً: تأسيس مملكة بيت المقدس

بعد احتلال بيت المقدس تولى الحكم فيها غودفري دي بويون.

وعلى الاثر ومع وفاة غودفري ثار صراع في بيت المقدس بين الثيوقراطيين والعلمانيين على حكمها. وقد تمكن العلمانيون من الفوز بالحكم، بقيادة بلدوين الذي قدم من الرها، وتسلم الحكم، وسيهلل المؤرخ رونسيمان لفوز بلدوين ويثني عليه ثناء كبيراً وبالذات لانتصاره على دايمبرت البطريرك الذي كان داعية الثيوقراطية في حكم بيت المقدس.

وقد قام بلدوين بعدة اعمال تناسبت مع كونه ملكاً قوي الارادة قوي التدبير:

- فقد وضع بلدوين الحدود في الجنوب بحيث تعزل مصر، بأهميتها البشرية والاستراتيجية عن بقية العالم الاسلامي.

- وفي سنة 1145 شيد بلدوين حصن الشوبك.

- في الشمال وصل إلى الحدود التاريخية لمملكة بيت المقدس ولم يخرج عن دائرته سوى صور وعكا.

- اتبع بلدوين استراتيجية الهجوم التي هي أفضل وسائل الدفاع.

- عمد إلى معالجة المشكلة الديمغرافية في القدس: وهنا لجأ إلى الموارنة والنساطرة والسريان لملء الفراغ، كما انه دعا إلى تزاوج المسيحيين الغربيين والشرقيين، الأمر الذي نجم عنه جيل مولّد.

- وقد تمكّن بلدوين من عزل خصمه القديم دايمبرت سنة 1102، وتعيين ابرمار بدلاً منه، لكن البطريركية انتهت إلى ارنولف، الذي ضمن لمملكة بيت المقدس نظاماً وراثياً في بيت بلدوين. وبالمقابل اكرم بلدوين رجال الكنيسة وحاول دعمهم في مطالبهم في السيطرة على كنائس الشرق حتى ظفروا بهذه السيطرة ولو بعد حين (عند منتصف القرن الثاني عشر الميلادي).

ثانياً: العلاقات بين امارات الفرنجة:

يلاحظ في هذه العلاقات ما يلي:

1- تميز مكانة القدس في هذه العلاقات.

2- راوحت العلاقات بين المملكة والامارات الصليبية، والامارات فيما بينها، بين الأشكال التالية:

- التحالف:

أ- عام 1101، بين بلدوين أمير الرها والأمير تنكرد أمير انطاكية، ضد الاراتقة.

ب- تحالف 1104 بين بلدوين دي بورج وبوهمند أمير انطاكية وابن اخته تنكرد ضد المسلمين.

جـ- تحالف 1110 بين بلدوين الأول وبين بلدوين دي بورج

د- تحالف 1111 بين بلدوين الأول ملك بيت المقدس، وبلدوين دي بورج أمير الرها، وجوسلين امير كورتناي وتنكرد أمير انطاكية ضد مودود وطغتكين.

هـ- تحالف 1113 بين بلدوين دي بورج امير الرها وبين بلدوين الاول ملك بيت المقدس ضد مودود بطل الجهاد ومعه تميرك صاحب سنجار.

- التحالف المضاد: نزاع 1108 بين بلدوين دي بورج وتنكرد الذي رفض ان يسلم الرها التي كان وصياً عليها لحاكمها بلدوين دي بورج الذي كان قد وقع في الأسر.

- التحالفات المتداخلة: ونعني بها هذه التحالفات التي تحالف فيها المسلمون والصليبيون ضد المسلمين والصليبيين، ونضرب عليها مثلاً بما جرى عام 1108 حيث وقف جاولي مع بلدوين دي بورج وبالمقابل وقف تنكرد مع رضوان.

ثالثاً المشكلات الداخلية التي واجهت الامارات الصليبية:

1. عودة الصليبيين إلى أوربا مما جعل الباقين منهم يشكلون أقلية.

2. الموت في ساحات الحروب (10,000 بين راجل وفارس).

3. الصراع على السلطة وشؤون تولي الحكم في هذه الامارات.

4. الصراع بين العائلات الاقطاعية الارستقراطية على الحكم.

رابعاً الصراع الطائفي والمذهبي:

وقد تجسد هذا الصراع في ما يلي:

1. المسيحيون الارثودكس يكرهون الحكم الصليبي اللاتيني.

2. السريان اليعاقبه كانوا منذ البداية معادين للصليبيين

3. عدم التجانس المذهبي بين التجمعات المسيحية.

4. ظلت مشكلة الارمن كمسيحيين شرقيين وعدم ولاتهم للصليبيين اللاتين مشكلة كبرى.

خامسًا: الصراع للسيطرة على الامارات الصليبية:

زعم ملك بيت المقدس ان له السيطرة على الامارات. وصراع امراء الولايات نفسها [الاصلاء والأوصياء] بين بعضهم بعضاً

سادسًا: انحطاط المستوى الادبي والمعنوي والاخلاقي والنفسي:

عدم الشعور بالأمن.. وخراب مؤسسة الزواج بوجه عام وعقمها.

حياة الفرنجة في بلاد الشام:

1. الحكم والادارة: الملك يقف على رأس السلطة ويساعده هيئة البلاط الأعلى High Court.

2. في المجال الديني:

أ. سيطرة البابوية

ب. اعتبار المذاهب الاخرى مثل النساطرة واليعاقبه والموحدين هراطقة منشقين.

3. من الناحية الاقتصاد: امتلاك كثير من اراضي الساحل الخصبة، وازدهار التجار الايطاليين، وبروز دور عكا كمدينة تجارية.

4. في المجال الاجتماعي: كان المجتمع ينقسم إلى ثلاث طبقات

أ. الارستقراطيون (الاوربيون)

ب. طبقة المحاربين الغربيين (تزاوجوا مع المسيحيات الوطنيات):

جـ. التجار الايطاليون طبقة مستقلة.

سابعاً المنظمات الصليبية:

- الاسبتارية ذات دور انساني لكنها تتطور إلى مؤسسة عسكرية. بينما الداويه تولد عسكريه. عدد الاسبتارية 500، والداوية 300.

- اثبت الطرفان انهما اكثر فئات المجتمع صبراً على معاناة الحروب.

- من سلبياتهم انهم لم يحسنوا التنسيق مع الملك كما انهم لم يدفعوا ضريبة الارض.

ثامناً العلاقات بين الكيانات الصليبية في الشام والبيزنطيين:

- ظهور الامبرطور البيزنطي حنا كومنينس: امبراطوراً زاهداً ولكنه جادٌ يريد ان يعبر حدود بيزنطية إلى ما كانت عليه قديماً.

- فولك ملك بيت المقدس لا يمانع في اعادة انطاكية للبيزنطيين.

- حنا كومنين يخرج لانتزاع انطاكية لنفسه.

- اتفاقية بين حنا كومنين وريموند، يعترف فيها ريموند بسيادة الامبرطور على انطاكية

- البيزنطيون والقوات الصليبية في الرها وانطاكية يتحالفون ضد زنكي في حلب - الخلاف يجري بين الحلفاء ورحيل حنا كومنين..

- مشاريع حنا كومنين في الاستيلاء على انطاكية وبيت المقدس تنتهي بوفاته سنة 1143.

10. لمحة مسبقة عن الوحدة الرابعة

ستعالج الوحدة الرابعة، عزيزي القارئ، وهي بعنوان «أحوال الفرنجة (الصليبين) في المشرق العربي الاسلامي» موضوع رد الفعل الاسلامي وبالذات حركة الإفاقة التي تولى

امرها اقطاب الجهاد مثل مودود وايلغازي وارتق وعماد الدين زنكي. ثم سنتحدث عن دور نور الدين محمود في حرب الصليبيين في جبهة الشمال [سوريا] وجهة الجنوب مصر. وسننظر عما ستمخض عنه هذه الحروب. ولانخالها سوى توحيد سوريا ومصر استعداداً للمعركة الفاصلة.

ثم سنشير إلى بروز نجم صلاح الدين ودوره في اعداد اركان الجبهة الاسلامية لكي يعدها لحرب تحرير القدس والساحل وسنشير تفصيلاً إلى موقعة حطين العظيمة وسندرس نتائجها العسكرية والسياسية.

إن ابرز هذه النتائج كان استعادة العواصم والثغور وعلى رأسها. بيت المقدس والذي سيكون لتحريرها أثر رائع على عالم الإسلام. وسيتزلزل لسقوطها في يد المسلمين عروش في الغرب ستهب لنجدتها. ونعني بهم فردريك بربروسا ريتشارد قلب الاسد وفيليب اغسطس. والاخيران سيحتلان عكا ويخلصانها من المسلمين بالقوة. حيث ستعود الحرب من جديد. وسيناضل صلاح الدين ضد هذا الخطر الوافد ويتمكن من إنقاذ القدس فلا تسقط ثانية في ايديهم.. وسيكون هذا بموجب صلح الرملة 1192.

11. إجابات التدريبات

تدريب (1)

أجل، اثرت هاتان الناحيتان من ضعف القوة البشرية للصليبيين وذلك على الوجه التالي:

1. بالنسبة للعودة إلى اوربا: كثير من القادة الصليبيين في بيت المقدس، عادوا إلى أوربا لأنهم اعتقدوا ان مهمتهم قد انتهت باحتلال بيت المقدس، وتأدية فريضة الحج. وقد أثَّرت هذه العودة على عدد الصليبيين في الشرق؛ بحيث قلصت عددهم إلى درجة الاقلية الصغيرة، حوالي (1000) بارون وفارس كما يقدرهم المؤرخ رونسيمان، وحوالي (3000) من رجال الدين وفرسان المنظمات العسكرية.

2. الموت في ساحات الحروب: ونضرب لها مثلاً بموقعة نهر البليخ في 7 مايو سنة1104، التي يقول المؤرخون انه سقط فيها من الصليبيين عشرة آلاف فارس وراجل. والثانية هي معركة مرج الدماء. وهذه المعركة أكثر معركة مُني فيها الصليبيون بالخسارة البشرية بحيث ان الجيش – تقريباً – ابيد عن آخره.

تدريب (2)

بالرغم من تحالف الصليبيين على المسيحيين الشرقيين الاّ انه كانت تترسب في الاعماق كراهية المقيمين المسيحيين ضد خصومهم المذهبيين القادمين من وراء البحار، من الحملات الصليبية:

1. فالمسيحيون الارثودكس يكرهون الحكم الصليبي اللاتيني. وفي انطاكية فإن وجود مجتمع يوناني قوي وظهور تطورات سياسية سببت عداء مكشوفاً بين اليونان واللاتين، الأمر الذي اضعف بصورة جدية الامارة.

2. وبالنسبة للسريان اليعاقبة فانهم كانوا من البداية معادين للصليبيين وفضلوا الحكم الاسلامي.. وبعد سقوط الرها انحازوا نحو أمير انطاكية بسبب خوفهما المشتركوكراهيتهما للحكم البيزنطي.

3. تميزت التجمعات المسيحية، على وجه العموم، بعدم التجانس المذهبي. وكانت الغالبية العظمى من المسيحيين المحليين الذين يتكلمون العربية، ويطلق عليهم المسيحيون العرب.

4. وقد ظلت مشكلة الأرمن كمسيحيين شرقيين وعدم ولائهم للاتين مشكلة كبرى، حتى ان الارمن فكروا بتسليم الرها للسلاجقة سنة 1113، الأمر الذي جعل بلدوين دي بورج يسرع إلى اتخاذ اجراءات عنيفة لحماية الرها وللانتقام من الأرمن.

من جهة أخرى. وقد عهد دي بورج إلى أحد رجاله بعقاب الارمن وطردهم من الرها. فانتشر الصليبيون في المدينة يذبحونهم، كما لجأوا في 13 مايو سنة 1113 إلى طرد من تبقى منهم على قيد الحياة خارج المدينة. ولم يسمح بعودتهم الا بعد أن احسّ الخسارة بسبب تغيبهم عن مسرح الأحداث.

تدريب (3)

جذور هيئة الاسبتارية ترجع إلى ما قبل الحروب الصليبية: ذلك ان بعض تجار مدينة أمالفي الايطالية، قاموا بتأسيس جمعية خيرية في بيت المقدس، غايتها رعاية بعض فقراء الحجاج. وقد اطلق على هذه الجمعية الخيرية اسم فرسان المستشفى Hospitalers التي تحولت في العربية إلى كلمة اسبتارية. وبعد الاحتلال الصليبي لبيت المقدس قام هؤلاء الاسبتارية، بالنظر لمعرفتهم الوطيدة بالبلاد، بتقديم معونات مجزية للصليبيين.

ولعلّ السرّ في ترسيخ جذور الاسبتارية انها حظيت بمجموعة من الرؤساء عملوا جاهدين على إكساب منظمتهم خصائص معينة في النشاط الصليبي. ولعلّ ما ساعدهم اكثر هو انهم حصلوا على كثير من الاراضي والهبات والمكاسب والاعانات حتى انه لما حلت سنة 1137، كان قد اصبح للاسبتارية دور كبير، ونشاط فعال، في محاربة المسلمين والوقوف أمام الخطر الاسلامي.

ولعلّ أهم ما امتازت به هذه المنظمة - إضافة إلى منظمة الداوية - انها أصبحت مركز ثقل في الكيان العسكري الصليبي في بيت المقدس، وانها حافظت على استقلاليتها عن ملك بيت المقدس، وتتبعان البابوية في روما ولا تدينان لغيرها بالولاء.

وقد كانت شارة فرقة الاسبتارية الصليب الابيض.

ويمكن تلخيص مبادئها وغاياتها: في رسالة العقيدة الدينية المسيحية من حيث الزهد والتقشف والانصراف الذاتي إلى الله، والفقر والطاعة. والأمر الثاني هو السلوك العملي وليس المعاناة الصوفية الدينية المجردة، ونقصد بالسلوك العملي خدمة الناس والمحتاجين. وفوق كل هذا الوقوف إلى جانب الحرب الفعلية ضد المسلمين.

وقد كان ملجأ الاسبتارية يتسع لألف حاج. كما انهم قاموا بتقديم تسهيلات ائتمانية للحجاج الوافدين من الغرب.

12. مسرد المصطلحات

- الاتابك: هو مربي الامراء، وهي مشتقة من التركية التي تعني فيها كلمة اتا، الأب، وبك لقب.

- الارثودكسيه: وهو المذهب المسيحي الذي يتبع للكنيسة الارثودكسية الموجودة في الامبراطورية البيزنطية وهي لا تعترف بالبابا.

- بارون: أمير اقطاعي.. وعادة يمتلك هذا الأمير أراضيَ يتبع فيها للملك، او هو الرجل النبيل في بعض البلدان الاوربية.

- بطريركية: نسبة إلى بطريرك وهو رئيس العائلة او القبيلة او هو الشخص الذي يؤسس فلسفة أو ديانة أو نظاماً معيناً. وبالنسبة للكنيسة الكاثوليكية او الارثودكسية ومختلف الكنائس في الشرق الاوسط. فإن البطريرك هو من يمارس أعلى السلطات على كل المطارنة والقسيسين وغيرهم من رجال الدين في منطقته.

- الثيوقراطية: الثيوقراطية وهي المؤسسة التي يعتبر فيها الله القوة الحاكمة العليا أو هي المؤسسة التي يحكمها رجال الدين أو أي سلطة دينية أخرى.

- حرب أهلية: وهي الحرب التي تنشأ بين فريقين متعارضين في الوطن الواحد وبخاصة عندما ينقسم المجتمع بمجمله إلى قسمين متحاربين.

- العلمانيون: اللادينيون وهم الذين لا يؤمنون بوجود خالق لهذا الكون.. بل يعتقدون ان العالم الذي يرونه ويحسون به احساساً مادياً هو كل ما هنالك في هذا الوجود.

- الفرسان: وهو نظام يتعلق بالمحاربين الذين يحاربون على ظهور الخيل وبالنسبة للنظام الاقطاعي الاوربي تشكل الفروسية نظاماً وطقوساً قائمة بذاتها.

- الكاثوليكية: وهو المذهب المسيحي الذي يشمل الكنيسة التي تخضع للبابا في روما.

- اليعاقبة: وهي فرقة تؤمن بالطبيعة الواحدة والالهية للسيد المسيح.

الوحدة الرابعة

رد الفعل الإسلامي وحركة الجهاد

1. المقدمة

1.1 تمهيد

ستتحدث في هذه الوحدة، عزيزي القارئ، عن رد الفعل الإسلامي على الغزو الصليبي وستتحدث عن رموز معينة فيه .. ففي البداية والانطلاقة لهذا الغزو نجد مودود من اوائل الدعاة لحركة الجهاد .. وقد اصطف في صف الجهاد العظيم رموز آخرون مثل ايلغازي وارتق وبرسق وغيره.

وقد لقى كثير من هؤلاء الاستشهاد في سبيل رسالتهم وكانت بدايتهم من مودود الذي استشهد في مسجد دمشق. وقد خاض بعض هؤلاء معارك عظيمة مع الصليبين، فايلغازي قاد معركة مرج الدماء Ager Sanguinis عام 1119 وقضى على جيش برمته. وقد حمل الراية بعد ايلغازي بَلَك بن بهرام الذي كان مصيره الشهادة واعتبر استشهاده ضربة قاصمة للإسلام. وجاء من بعده اقسنقر البرسقي الذي توج جهده بالاستشهاد ايضا: وستعرف ايها القارئ العزيز ان المرحلة كانت مرحلة جهاد واستشهاد.

على أن عماد الدين زنكي، الذي سنضع شخصيته في هذه الوحدة، هو العمود الفقري الذي ارتكزت عليه المقاومة الإسلامية وكان له فيها قصب السبق، فعماد الدين زنكي سيثبت انه رجل الساعة وبطل الإسلام. وسيحاول اول ما سيحاول توحيد الجبهة الإسلامية في حلب وحماة وغيرهما قبل ان يبدأ معركته العظمى ضد الصليبين ونعني بها استعادة الرها اول امارة صليبية اقامها الصليبيون على ارض الإسلام. وسنحاول شأننا في هذه الدراسة بوحداتها المختلفة ان نضع ايدينا على اسباب النصر لما عرف بفتح الفتوح (الرها) الأمر الذي جعل احدهم يعلق عند استشهاد عماد الدين – المصير المنتظر لامثالهم –: لقد قتلت المسلمين بقتله.

وستحدث، ما وسعنا ذلك، عن الحملة الصليبية الثانية، التي جاءت بمثابة رد فعل على سقوط الرها وكان قائداها لويس السابع الفرنسي وكونراد الثالث الالماني الا ان مصيرها كان الفشل والارتداد خائبة. وبهذا تكرس انتصار آخر للمسلمين.

استلم الراية من عماد الدين زنكي، ابنه نور الدين وسنبرز في دراستنا عنه ناحيتين اثنتين

الاولى حروبه ضد الصليبيين في بلاد الشام، حيث استولى على دمشق التي كان سقوطها في يده نقطة تحول كبرى.

والثانية حروبه مع الصليبيين على ارض مصر.

كل هذه التقدمات بدءاً بمودود ومروراً بأبطال المقاومة حتى عماد الدين زنكي وامتداداً لنور الدين. انما كانت مقدمات لدور عظيم سيقوم به صلاح الدين الذي ستتحدث عن هزيمته للصليبيين في حطين 1187، وعن استرداده لبيت المقدس. فقد كان صلاح الدين هو الذي قطف ثمار توحيد مصر وسوريا. كما كان هو الذي قاد حرب الاسترداد لكثير من الحصون والثغور مثل جبلة واللاذقية وصهيون والشغر والكرك وشقيف أرنون.

وسيضرب صلاح الدين مثلاً أعلى في التسامح والاخلاق الإسلامية السامية عندما يسمح للصليبيين ان يغادروا بيت المقدس دون أن تسفك قطرة دم ظلماً وعدوانا وتتجلى عظمة صلاح الدين هذه عندما نقارنها بما فعله الصليبيون في بيت المقدس عند احتلالهم لها في الحملة الصليبية الاولى.

وكانت آخر صفحات صلاح الدين المجيدة الاحتفاظ بالقدس بالرغم من كل المخاطر التي تمخضت عن الحملة الصليبية الثالثة التي كان من قوادها ريتشارد قلب الاسد. وكان هذا الاحتفاظ قد تكرس بعد صلح الرملة 1192، الذي عقد مع ريتشارد والذي اتفق فيه على ان تبقى القدس للمسلمين ويسمح للمسيحيين بالحج اليها.

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عزيزي القارئ، بعد قراءتك هذه الوحدة وتنفيذك لتدريباتها وأنشطتها ان تصبح قادراً على أن:

1- تعلل اسباب قيام حركة الجهاد ضد الغزو الفرنجي الصليبي.

2- تبيّن دور كل من عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين في حركة الجهاد والتحرير.

3- توضح مقدمات معركة حطين واحداثها ونتائجها.

4- تبين أهمية تحرير بيت المقدس ونتائج ذلك على كل من المسلمين والصليبيين.

5- تقدّر دور القادة والشعب والمطوعة وتضحياتهم في سبيل العقيدة والوطن.

6- تستنتج اثر الوحدة وبناء القوة الذاتية في تحرير البلاد من الغزاة.

3.1 اقسام الوحدة

تقسم هذه الوحدة إلى قسمين رئيسين يرتبطان بقائمة الأهداف السابقة:

القسم الأول: «رد الفعل الإسلامي ضد الكيان الصليبي».

والذي يتطرق إلى عماد الدين زنكي وتحرير الرها، والى الحملة الصليبية الثانية ومصيرها، والى موضوع الشروع في بناء القوة العربية الإسلامية الموحدة، ويرتبط هذا القسم بالأهداف الثلاثة الأولى.

أما القسم الثاني: «صلاح الدين»

والذي يتطرق إلى مواضيع عدة منها: بروز شخصية صلاح الدين، وتوحيد القوى العربية الإسلامية، وجهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، ومعركة حطين: مقدماتها واحداثها ونتائجها، ويرتبط هذا الجزء من القسم الثاني بالأهداف الثلاثة الأولى، كذلك يبحث القسم في تحرير بيت المقدس، واستمرار الجهاد الإسلامي، والحروب بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد، وأخيراً احوال المشرق العربي الإسلامي بعد وفاة صلاح الدين، ويرتبط هذا الجزء بالأهداف الرابع والخامس والسادس.

2. رد الفعل الإسلامي ضد الكيان الصليبي

- البداية والانطلاقة:

لم يهب المسلمون للرد على الصليبيين في اول الأمر. بل لقد استمر الصليبيون في التوسع والامتداد لأن الامراء المسلمين كما يقول ابن القلانسي لم يكن لديهم **«عزيمة صادقة في جهاد ولا حماية بلاد»** [ذيل تاريخ دمشق ص 175] ويؤيد هذا القول، أيضا، من المؤرخين المحدثين غروسه الذي يقول: «وبدلاً من أن يتحد الامراء المسلمون ضد الصليبية، واجهوها فرادى، وفرادى سحقوا، الواحد تلو الآخر، وتغلغلت الصليبية بينهم [انظر قلعجي ص 85].

فضلاً عن أن الفوضى التي لحقت بالخلافة الفاطمية، والتي كانت مدن الشام الساحلية وفلسطين تابعة لها في ذلك الحين قد جعلت من العسير او المستحيل مساعدة المدن التي تعرضت لهجوم الاعداء [مختصر تاريخ العرب ص 292].

لكن هذا العالم الإسلامي أصابه ما يصيب كل الشعوب التي تُبتلى بالغزو لأرضها، فبعد السنوات الاولى من الاحتلال الصليبي، وفي اوائل القرن الثاني عشر الميلادي بدأت ما سميت بحركة الإفاقة: **«وليس أدل على تلك الإفاقة من تسرب فكرة الجهاد إلى نفوس العامة، وفي البلاد المستظلة بظل الخلافة العباسية، واعتناقها إياها» وهنا يجمل المؤرخون المسلمون من قدوم جماعة من أشراف حلب وصوفييها وتجارها إلى بغداد بداية دق ناقوس الخطر لايقاظ العالم الإسلامي على خطورة ما حدث! اذ يروي ابن الأثير ان بعض الاهالي في حلب قصدوا عندئذ بغداد للتعبير عن استيائهم وطلب المساعدة ضد الفرنج وهناك «اجتمع خلق كثير من الفقهاء وغيرهم وقصدوا جامع السلطان واستغاثوا ومُنعوا من الصلاة وكسروا المنبر فوعدهم السلطان انفاذ العسكر للجهاد» وأرسل إلى السلطان السلجوقي «يأمره بالاهتمام بهذا الفتق ورتقه»** [الكامل ج 1 ص482-483].

ويروي ابن القلانسي انه في ذلك الوقت بالذات، بلغ العداء اشده بين البيزنطيين والصليبيين مما جعل الامبرطور ألكسيوس كومنين يرسل مبعوثا إلى السلطان محمد السلجوقي يحثه على محاربة الفرنجة وطردهم من البلاد **«وترك التراخي في امرهم واستعمال الجهد والاجتهاد في**

الفتك بهم قبل اعضال خطبهم واستفحال شرهم» [ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ص73]. وقد وصل المبعوث البيزنطي إلى بغداد قبل وصول وفد حلب، الأمر الذي جعل المسلمين في بغداد يصيحون في السلطان: «اما تتقي الله ان يكون ملك الروم اكثر حمية منك للإسلام، حتى قد أرسل اليك في جهادهم!» [الكامل ج 10 ص 483].

وهكذا تنامت ردة الفعل الإسلامي تدريجيا حتى وجدنا مؤرخا مثل ستيفنسون Stevenson يتحدث عن عاصفة الهجوم الإسلامي Storm of Moslem Attack.

مودود:

ويقف على رأس فئة ابطال الجهاد ضد الصليبيين من الجناح الشرقي لدولة الإسلام، الأمير مودود الذي عهد اليه، السلطان السلجوقي محمد باستئناف الجهاد وقد عينه حاكما على الموصل وقد اشترك معه في مهمته، وسار معه في حملته سكمان القطبي امير خلاط وميافارقين، ونجم الدين ايلغازي بن ارتق أمير ماردين في ديار بكر ومع الاخير «خلق كثير من التركمان».

وقد اعتبر مودود منقذ الدين ومخلّص الإسلام والعقيدة، كما يقول ستيفنسون (Stevenson P.69). بل لقد اعتُبر من اوائل الداعين لحركة الجهاد، واكتسبت شخصيته طابعاً عميقاً من الايمان والتبتل في سبيل الرسالة، حتى انه اعتبر بمثابة القدوة والمثل لمن جاء بعده [عماد الدين خليل ص95].

ولقد قام مودود بعدة حملات في سبيل جهاد الصليبيين، وكانت الحملة عام 1110م على الرها التي حاصرها مودود، الا انه اضطر لرفع الحصار عنها بالنظر للحشود الكبيرة التي قام الصليبيون تحت راية ملوكهم وامرائهم بحشدها ومن هؤلاء بلدوين الأول وتنكرد وبلدوين دي بورج الذين ارادوها معركة فاصلة ضد المسلمين [Stevenson P.88]. وفي تلك الاثناء كان مودود ورجاله عند حران يتحينون الفرصة المناسبة للعمل، فأخذوا يجتاحون المزارع والضياع والقرى اللاتينية، حتى وصلوا إلى الفرات (عاشور – الحركة ج 1 ص 459).

كما كانت الحملة الثانية عام 1111 على الرها نفسها، وكان ان اجتمع تحت قيادة مودود – حاكم الموصل – جميع حكام الاقاليم في دولة السلاجقة، سكمان القطبي صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر والامير ايلنكي وزنكي ابنا برسق، وكانا يحكمان همذان وخوزستان، والأمير

احمد بك (احمد بل) صاحب مراغة في اذربيجان، وغيرهم.

وعلى ما يظهر فان نصيب المسلمين في التمكن من الرها في هذه الحملة لم يكن بأفضل من المرة السابقة بعد أن قويت نفوس أهلها بالذخائر التي تركت عندهم وبكثرة المقاتلين عنهم. لذلك رأى مودود أن يعبر الفرات لمهاجمة تل باشر. وفي الطريق لم يُحجم الاتراك عن تدمير كل ما صادفهم من ضياع الصليبيين ومزارعهم.

وفي هذه المرحلة يظهر ان مودود نجح في تكتيل قوات المسلمين الاتراك حوله ما عدا رضوان صاحب حلب الذي تحالف بسرعة مع تنكرد للوقوف في وجه ذلك الخطر المشترك. على أن طغتكين صاحب دمشق، الذي كان قد التحق بحلف الامراء عند معرة النعمان لم يلبث ان تخاذل عن موقفه وتراجع وشرع في مهادنة الفرنجة سرا. وهكذا صدق المؤرخ ابن العديم حين قال ان امراء المسلمين في ذلك العصر كانوا يرجون باستمرار بقاء الصليبيين ليضمن اولئك الامراء استمرار بقائهم في مناصبهم (انظر عاشور الحركة ج 1 ص 463).

الا ان هذا التراجع لم يمنع مودود من ان يقوم في صيف 1112 بمهاجمة الرها فجأة، حيث ترك قواته تحاصرها قرابة الشهرين، ولما عرف ان الاستيلاء عليها لن يتم بسهولة بالنظر لقوة تحصينها سار نحو سروج بوصفها المركز الثاني للصليبيين شرقي الفرات.

ويبدو ان هجمات القوات الإسلامية على الرها وما جاورها لم تتوقف حتى اصبحت الرها بمثابة قلعة وسط صحراء مجدبة مليئة بالاعداء من كل جانب [عاشور الحركة ج 1 ص 468].

ارتأى مودود ان يوسع من دائرة اهتمامه وجهاده ففي عام 1113 عبر الفرات إلى الشام، من جديد، ليتحد مع طغتكين امير دمشق، في حرب الصليبيين، وهزم الاثنان بلدوين .. وقد وفق المسلمون في دحر الصليبيين إلى طبرية ولنترك ابن الأثير يصف لنا المعركة التي جرت في طبرية: «وجمع الفرنج فالتقوا عند طبرية ثالث عشر المحرم، واشتد القتال وصبر الفريقان، وكثر القتل فيهم والاسر، وممن اسر ملكهم بغدوين (بلدوين)، فلم يعرف، فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، وغرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الاردن كثير. وغنم المسلمون اموالهم وسلاحهم ووصل الفرنج إلى مضيق دون طبرية، فلقيهم عسكر طرابلس وانطاكية، فقويت نفوسهم بهم، وعاودوا الحرب، فاحاط بهم المسلمون من كل ناحية، وصعد الفرنج إلى جبل غرب طبرية،

فاقاموا فيه ستة وعشرين يوما، والمسلمون ازاءهم يرمونهم بالنشاب، فيصيبون من يقرب منهم، ومنعوا الميرة عنهم لعلهم يخرجون إلى قتالهم، فلم يخرج منهم أحد، فسار المسلمون إلى بيسان، ونهبوا بلاد الفرنج بين عكا والقدس، وخربوها وقتلوا من ظفروا به من النصارى ....».

على أن هذا المجاهد العظيم، باعث حركة الجهاد، المدرك لأبعاد المعركة مع العدو وانها حركة جهاد شامل ضد اعداء الامة ينبغي ان تتضافر جميع الجهود حوله، استشهد قبل ان يكمل رسالته، فبعد ان وصل إلى مسافة متقدمة في الهجوم على الصليبيين عاد إلى دمشق، وهناك دخل الجامع يوم الجمعة في ربيع الأول ليصلي فيه ويده في يد طغتكين، وهنا «وثب عليه باطني فجرحه اربعة جروح، وكان صائما، فحمل إلى دار طغتكين: واجتهد به ليفطر فلم يفعل، وقال: لا لقيت الله الا صائما» [الكامل ج 10 ص 495] فمات من يومه وقيل في تفسير موته: «ان الباطنية (الحشاشين) خافوه وقتلوه»، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله !» [المرجع نفسه].

ايلغازي بن ارتق، صاحب ماردين:

يأتي بعد مودود في قيادة الجهاد، ايلغازي بن ارتق صاحب ماردين. وتركز الروايات التاريخية في ميدان جهاده للصليبيين على المعركة المشهورة «مرج الدماء» عام 1119م وسنحاول نقل صورة عن هذه الموقعة من المصادر الصليبية التي تنقل مقدار الضرر الذي لحق بالصليبيين والدماء التي سفكت على ارض هذه المعركة التي قادها ايلغازي ضد الصليبيين. يقول رونسيمان: في يونيه تقدم ايلغازي يهاجم حصن الاثارب الصليبي الذي يشبهّه بعض المؤرخين بالقبضة الممسكة برقبة حلب. وقد اتيح لروجر حاكم انطاكية ان يدفع ببعض جنوده نحو المعركة، ولكنه فوجئ ان جنود العدو كانت قريبة جدا. وعندما خيم الظلام ارسل كل خزينة الجيش إلى قلعة ارتاح على الطريق إلى انطاكية. وخلال الليل انتظر روجر بقلق شيئاً عن اخبار تحركات جيش المسلمين بينما اخترقت راحة جنوده بواسطة شخص مسير في نومه اخترق المعسكر وهو يصيح ان الكارثة ستلحق بهم وشيكا! وفي الفجر من 28 يونيه جاء الكشافه باخبار إلى الأمير تفيد ان المعسكر كان محاصرا.

أسئلة التقويم الذاتي (1)

1- ابحث في ابطال المقاومة الإسلامية: مودود، ايلغازي، عماد الدين زنكي .

2- بين إلى أي مدى كانت المقاومة الإسلامية فعالة – استشهد بأسماء المعارك التي خاضها المسلمون في هذا الشأن ؟

وكانت في ذلك الوقت – تهب رياح خمسينيه بوهن من الجنوب، وفي المعسكر نفسه كان هناك قليل من الطعام والماء. ولقد رأى روجر انه إما انه يخترق صفوف الاعداء وإما انه سينتهي! وكان رئيس اساقفة افاميا مع الجيش وقد دعا هذا الجنود إلى الاجتماع ووعظهم وجعلهم يعترفون جميعا. ولقد جعل روجر يعترف في خيمته وطهره من خطايا الجسد الكثيرة. وعندئذ اعلن روجر بجرأة انه سيذهب ليصطاد. ولكنه قبل ذلك ارسل فريقا آخر من الكشافه وقع في كمين من المسلمين. أما الذين نجوا فقد عادوا مسرعين معلنين انه لا سبيل لاختراق الدائرة التي فرضها المسلمون عليهم، وهنا قسم روجر الجيش إلى اربعة أقسام، اضافة إلى قسم آخر جعله احتياطا. وهنا باركهم رئيس الاساقفة مرة اخرى. وقام الجنود بهجوم على المسلمين وهم في كامل النظام.

ولقد كانت المعركة ميؤوساً منها منذ البداية. فلم يكن هنالك مفر عبر صفوف خيول التركمان وحاملي السهام. ولقد كان المشاة من السريان والارمن اول من اصابهم الوهن ولكن لم يكن لهم مكان يفرّون اليه!

لقد تحولت الرياح نحو الشمال واقامت سحابة من الغبار غشيت وجوه الفرنجة. وفي وقت مبكر من المعركة اخترق الصفوف الإسلامية (100) فارس فروا إلى انطاكية. وبعد ذلك بقليل فر رينولد مازوار وبعض الفرسان الآخرين ووصلوا إلى مدينة سرمدا الصغيرة. وما عدا هؤلاء لم ينج أحد من جيش انطاكية. ولقد سقط روجر نفسه على قدم صليبه المرصع بالجواهر، وقد سقط حوله فرسانه ما عدا قلة اخذوا اسرى. وفي منتصف النهار كان كل شيء قد انتهى. وقد عرفت هذه المعركة لدى الصليبيين باسم Ager Sanguinis مرج الدماء .(Runciman II p. 150)

بَلَك بن بهرام:

خلف عمه ايلغازي في جهاد الصليبيين. وقد بدأ جهاده ضد جوسلين أمير الرها بحصار الرها، وبقى على حصارها مدة.. ولم يرفع حصاره عنها الا عندما علم ان جوسلين قد جمع ما عنده من الصليبيين، وهو متوجه لمجابهته. ولم يكن مع بلك في هذه الاونة سوى اربعمائة فارس ولم تمنعه قلة العدد من ان يصمد في وجه الاعداء. يقول ابن الأثير واصفا هذه المعركة: «**فمن لطف الله تعالى بالمسلمين ان الفرنج قد وصلوا إلى ارض قد نضب عنها الماء، فصارت وحلاً غاصت خيولهم فيه، فلم تتمكن مع ثقل السلاح والفرسان من الاسراع والجري، فرماهم اصحاب بَلَك بالنشاب، فلم يفلت منهم أحد، واسر جوسلين وجُعل في جلد جمل وخيط عليه**» ويكمل ابن الأثير روايته عن نتيجة المعركة بان بلك لم يقبل بالفداء من جوسلين وانه حمله إلى قلعة خرتبرت فسجنه بها وأسر معه ابن خالته، «**وكان من شياطين الكفار**» واسر أيضًا جماعة من فرسانه المشهورين، فسجنهم معه [الكامل ج 10 ص 593].

ولقد ذهب بلك إلى منبج، من أجل ان يستعيد النظام هناك، حيث تلقى في نفس الوقت نداء من الجنوب من صور، ولكنه اصيب بسهم طائش من القلعة انهى حياته في 6 مايو 1124. ولقد مات وهو يهمس كان «**ضربة قاصمة للإسلام**». ولقد كان على حق في قوله هذا، لأنه من بين جميع القادة الاتراك الذين جابهم الصليبيون كان هو الاكثر طاقة وحكمة. وعلى هذا فان قوة الاراتقة لم تخلد بعده [Runciman II p. 165].

اقسنقر البرسقي:

وقد عهد اليه السلطان محمد السلجوقي بحكم الموصل بعد استشهاد مودود، وكلفه السلطان مثلما كلف سلفه مودود بمواصلة الجهاد. ولم يكن البرسقي بأقل من مودود تفانيا واخلاصا. وقد وصل إلى حلب 1125 وحاصرها اطول حصار استمر (4) شهورٍ حتى تمكن من الاستيلاء عليها وانقاذها (Stevenson p. 112). ولقد اثبت البرسقي انه خليفه ممتاز لكلٍ من بلك وايلغازي في مهامها (Stevenson p. 116) لا سيما وانه تمكن من اخضاع كلٍ من أمير حمص وطغتكين صاحب دمشق [Runciman II p. 173].

حقيقة الأمر أن اتحاد حلب والموصل هدد قوة الصليبيين (عماد الدين خليل ص 126) مما تولد عنه قيام تحالف صليبي إسلامي ضد البرسقي. فقد تحالف ايلغازي وطغتكين وبلدوين امير الرها ضد البرسقي وعند تل دانيث (1115) نشب القتال بين البرسقي والحلفاء وحلت الهزيمة بقوات البرسقي وقتل الصليبيون عدداً كبيرا منهم. فاضطر برسق إلى التراجع والعودة إلى بلاد فارس بعد ان تفرقت قواته. وبعد أن ثأر من ايلغازي بقتل ابنه اياز الذي كان محتجزاً لديه. لقد انهت هزيمة تل دانيث آخر محاولة جادة قام بها سلاطين السلاجقة لاستعادة الشام وقوّت مركز روجر امير انطاكية الذي تمكن بانتصاره هذا من تخليص الامارات الصليبية جميعا من الخطر الاسلامي. لكن من ناحية أخرى ادت هذه المعركة ومثيلاتها إلى مجابهة الصليبيين أسَراً محلية مثل الاراتقة والزنكيين والايوبيين ركزت كل اهتمامها على امور الجزيرة والشام [عماد خليل [115-116].

لكن هزيمة البرسقي غير المتوقعة في عزاز هي التي قلبت ميزان القوى في المنطقة، ووضعت جداراً صلبا أمام طموحات البرسقي وانحرفت بحركته الجهادية عن هدفها، ومع هذا سيظل الصليبيون يشعرون بأنه يشكل خطرا على وجودهم. ولئن كان البرسقي قد اضاع الفرصة اثر هزيمة عزاز، فقد فتح الطريق، ولا ريب، بضمه حلب إلى الموصل، امام زنكي الذي جاء بعد ستتين لكي يصفي الحساب مع الصليبيين [عماد الدين خليل ص 127].

وكما جرى مع اسلافه، فقد كان نصيب البرسقي الاستشهاد، إذ اغتيل إثر دخوله الموصل على ايدي طائفة الحشاشين نفسها التي كانت قد اغتالت من قبل مودوداً، وعدداً من زعماء الجهاد ضد الصليبيين. ومن عجب يقول ابن الأثير – ان صاحب انطاكية أرسل إلى عز الدين مسعود يخبره بقتل والده قبل ان يصل الخبر اليه شخصيا، وكان قد سمعه الفرنج قبله لشدة عنايته – أي امير انطاكية – بمعرفة الاحوال الإسلامية [الكامل 10 ص 342] لكن الا يلقي هذا الخبر ظلاً من الشك حول امكانية حدوث اتفاق مسبق بين الحشاشين والصليبيين لاغتيال المجاهد المسلم، لا سيما وان قتلته ربما كانوا من أهل حماة القريبة من معاقل الصليبيين ؟!

1.2 عماد الدين زنكي وتحرير الرها

يقول ابن الاثير: «واما الفرنج، فقد كانوا لما مَلَك البلاد قد قهروا المسلمين، وملكوا

بلادهم واكثروا فيهم القتل، ولهم فيهم الصوت العظيم والهيبة التي تحملهم على مفارقة بلادهم خوفاً منهم، فلما ملك [عماد الدين زنكي] البلاد فعل بهم ما ذكرنا بعضه، ولو لم يكن لهم فيهم نكاية غير فتح الرها لكان عظيما».

والحقيقة ان دور عماد الدين زنكي في مقاومة الغزو الصليبي دور كبير يستحق منا استقصاء ابعاده والوقوف عنده لتمحيص جوانبه المختلفة، التي غيرت الابعاد الاستراتيجية لصورة الصراع الإسلامي الصليبي.

تولى عماد الدين زنكي اتابكية الموصل عام 521هـ/ 1127م. وقد خلف اقسنقر البرسقي الذي قتل قبل عام كما سبق وذكرنا. ويعتبر المؤرخون هذا التاريخ نقطة انطلاق المقاومة السنية الجادة ضد الفرنجة وبداية الانتصارات الإسلامية على الصليبيين [ايليسيف ص 292]. وكان عماد الدين قد اصبح معروفاً ومقدراً في الموصل كما ان معرفته بالاوضاع والسياسة التي يجب ان يسلكها لا تحتاج إلى المزيد [Stevenson p. 122]. وقد ذكر صاحب الكامل في التاريخ مبررات اختيار عماد الدين لولاية الموصل، وكان القاضي بهاء الدين الشهرزوري هو الذي خاطب الوزير شرف الدين انوشروان بن خالد وزير السلطان السلجوقي، وكان هذا بعد ان توفي عز الدين مسعود بن البرسقي – قال القاضي الشهرزوري: «قد علمت انت والسلطان ان ديار الجزيرة والشام قد تمكن الفرنج منها، وقويت شوكتهم فيها، فاستولوا على اكثرها، وقد اصبحت ولايتهم من حدود ماردين إلى عريش مصر، ما عدا البلاد الباقية بيد المسلمين، وقد كان البرسقي مع شجاعته وتجربته وانقياد العساكر اليه، يكف بعض عاديتهم وشرهم، فمنذ قتل ازداد طمعهم، وهذا ولده طفل صغير، ولا بد للبلاد من رجل شهم شجاع، ذي رأي وتجربة يذب عنها ويحفظها ويحمي حوزتها، وقد انهينا الحال لئلا يجري خلل، او وهن على الإسلام والمسلمين، فيختص اللوم بنا، ويقال: الا أنهيتم الينا جلية الحال؟».

فما كان من الوزير الا ان رفع قولهما إلى السلطان، فاستحسنه، وشكرهما عليه، واحضرهما واستشارهما، فيمن يصلح للولاية، فذكر جماعة منهم عماد الدين «وبذلا عنه، تقربا إلى خزينة السلطان، مالا جليلا، لما يعلمه من كفايته لما يليه، فأحضره وولاه البلاد، وكتب منشوره بها» [الكامل ج 1 ص 644].

غاية الأمر، عزيزي القارئ، ان عماد الدين زنكي تجمعت له من الصفات والخصائص ما جعلته رجل الساعة وبطل الإسلام كما يقول رنسيمان [Runciman II p. 182]. فقد كان عماد الدين ذا قوة شامخة ولم يكن يتوانى عن مقابلة اي خطر لعدو مهما كان هذا الخطر. وقد ظهرت شجاعته ومقدرته منذ نعومة اظافره، وقد تأثر بصورة خاصة بحكام الموصل الذين عاصرهم وعايشهم، فقد ثبت بالموصل بعد وفاة كربوغا 1102، وقد شارك مودود في هجماته على اللاتين وكان مودود يحترمه كثيرا. وفي حملة عام 1111 على الرها ظل عماد الدين مع مودود طوال الحملة. وفي عام 1113 ميز عماد الدين نفسه بجرأته وروحه المقتحمة في حصار طبرية ويلخص ستيفنسون شخصية عماد الدين بالابعاد التالية: «لقد امتلك معظم صفات الجندي الجيد والحاكم القدير، والتي هي المقوم الاساسي للنجاح، والسرعة في تنفيذ خططه، ولم تكن تأخذه شفقه – بل تميز بالقسوة – في معاملة اعدائه. ولكن اصدقاءه وأتباعه كانوا هم الغانمين. ولقد كان يخشى اكثر مما يحب، لكن جنوده كانوا مشدودين اليه بقوة، لانه لم يكن يتجنب اية خطورة، وكانت مصالحهم هي مصالحه. ولقد كانت العدالة التي ادار بها دولته علامة القوة وعلامة الحاكم القوي في المشرق. وكان تصوره للدولة، وكما يقول هو نفسه: «انها الحديقة التي يحيطها سياج بحيث أن اولئك الذين هم في الخارج يخشون دخولها» [Stevenson p. 123].

فتوحاته:

كانت اولى البلاد التي فتحها عماد الدين زنكي هي حلب، ففي مطلع عام 524 هـ/ كانون الثاني 1130 عاد زنكي من الموصل إلى حلب لاستئناف الجهاد ضد الفرنجة، وباستيلائه على حلب عمل زنكي على تخفيف ضغط الفرنجة عليها، فقد كانت تؤدي للصليبين نصف موارد اقطاعها الغربي فشن عماد الدين غارة لاستعادة الأثارب المشرفة على نهر العاصي والتي كان يتخذها الفرنجة قاعدة لغزواتهم وغاراتهم. وبعد أن أحكم زنكي حصار المكان انطلق لسحق جيش قادم لنجدتها، ثم عاد لمتابعة محاصرة الاثارب حتى سقطت. وتقدم المسلمون حتى بلغوا حارم، وهكذا ومن خلال حملة واحدة، لم ينجح زنكي فقط في استعادة الاراضي التي كانت تدفع الغرامة للفرنجة، بل انتزع من فرنجة حارم غرامة موازية لتلك التي سبق للحلبيين ان دفعوها. وسرعان ما تحسنت الاوضاع في حلب وأصبح بامكان زنكي التغيب عنها دون خوف عليها [ايليسيف ص 395].

وقد تمكن عماد الدين من احتلال حصون اخرى حول حلب منها حصن زردنا كما احتل معرة النعمان وكفر طاب كما ان كل المنطقة بين حلب وحماة استعيدت لأرض الإسلام. وانطلاقا من هذه الفتوح التي تمت ضد اللاتين انطلق عماد الدين للهجوم على حمص.

وفي عام 1137 حاصر زنكي حصن بعرين. وهنا سمع باقتراب الصليبيين بزعامة ريموند حاكم طرابلس وفولك ملك بيت المقدس، فكمن لهما وتمكن من اسر ريموند، ولجأ فولك إلى حصن بعرين واصبح محاصراً فيه. وهنا لجأ زنكي إلى مفاوضة المحاصرين بالحصن لا سيما وانه سمع ان هناك نجدة من الصليبيين قد قدمت لإنجاد الحصن. وقد سمح بالخروج لمن كانوا في الحصن كما ان الاسرى المسلمين الذين اخذوا في المعركة الاخيرة، اطلق سراحهم [Stevenson p. 137].

وفي 523هـ/ 1129م تمكن عماد الدين من فتح حماة، وقد وجدها خالية من الجند الحماة المدافعين عنها، فاستولى عليها، ورحل عنها إلى حمص، التي حاصرها بدورها، وطلب من صاحبها تسليمها، فلم يقبل، وهنا استمر عماد الدين في حصارها مدة طويلة، فلم يقدر على ملكها، فرحل عنها عائدا إلى الموصل. [الكامل ج 10 ص 657].

وقد اعترف كل من أمير شيزر وأمير حمص بحكمه وسيطرته. وفي نهاية 1130 كان زنكي سيدا لسوريا حتى حمص جنوبا [Runciman II p. 182].

وكان زنكي يرمي إلى ضم اتابكية دمشق، إلى ملكه، ومع انه حاصر دمشق في 534هـ/ 1139م، الا انه لم يَسْتَوْلِ عليها، بسبب استنجاد حاكمها انر بالفرنج، مما جعله يرفع الحصار عنها [ماجد ص 154].

على ان الانجاز الاعظم لعماد الدين زنكي هو استرجاع الرها من الصليبيين. وقد بدأ عماد الدين خطته في الاستيلاء على الرها بتحصين نفسه واحتلال مناطق حولها. ومن اجل ان يستولى على المدينة نفسها قام عماد الدين بعملية تمويه. فقد نشر عماد الدين مقولة وهمية مفادها انه ذاهب لمهاجمة الاراتقه في ديار بكر حتى انه استولى فعلاً على بعض مراكزهم كي لا يوقظ شبهات الفرنجة. وقد علم عندئذ ان جوسلين حاكم الرها قد خرج منها لمهاجمة الرقة. ولكن

عماد الدين لم يغير ساكنا، وقدر ان جوسلين أصبح بعيداً عن الرها فأرسل لحصارها بعض قواته ومعهم قوات كردية وتركمانية. وغني عن القول ان معظم سكان الرها كانوا من الارمن وان الرها نفسها كانت أهم مدينة فرنجية شرقي الفرات وكانت حاميتها القوية تشن غارات متتابعة ضد المسلمين إضافة إلى كونها مفترق طرق مواصلات [ايليسيف ص 296].

وقد ضم جيش عماد الدين زنكي، الذي اختاره لكي يستعيد اول امارة صليبية أُنشئت في المنطقة على اعالي دجلة والفرات، ضم هذا الجيش أكراداً وتركماناً من أعالي دجلة، وكان لدى عماد الدين زنكي ادوات حصار ممتازة وبالمقابل كان الكتاب والتجار الذي كونوا جملة الحامية المدافعة عن المدينة غير خبراء في الحرب بينما كان جوسلين الثاني حاكم الرها بعيداً في تل باشر وقد نشطت اعمال الحفر تحت الاسوار، التي قام بها المهاجمون، وفتح الخراسانيون انفاقا، وعرف جوسلين بالحصار، وعاد على عجل ولكنه وصل متأخرا.

وفي 26 جمادي الثانية / عشية عيد الميلاد 1144 اضرمت النار في التخاشيب فأحرقت الجسور ودمرتها فانهارت شقة أحد الجدران ونفذ المسلمون من ثلمة الحائط وسقطت القلعة بعد يومين من دخول المدينة. وقد كان الدفاع عن المدينة قويا عنيدا لكن المدينة لم تستغرق سوى (28) يوما حتى سقطت نهائيا في يد المسلمين.

ويذكر المؤرخون ان موجة الاضطرابات الاولى التي وافت الساعات الثلاث الاولى لفتح المدينة رافقها مذابح لكن ما ان جاءت الاخبار إلى زنكي بذلك حتى امر بوقف المذابح ومنع تخريب المدينة وإحراقها. ويذكر المؤرخون ان زنكي عندما استولى على الرها رأى ان ذلك البلد «لا يجوز في السياسة تخريب مثله» [ابن واصل: مفرج الكروب ج 1 ص 94]. واضافة إلى هذا فان عماد الدين لم يمكن احداً من جنوده من الاعتداء على السكان وامر عساكره «برد ما اخذوه من الرجال والنساء والاطفال إلى بيوتهم، واعادة ما غنموه من اثاثهم وامتعتهم، فردوا الجميع عن آخره» [ابن الأثير الكامل جـ 11 ص 99].

وقد شبه الانتصار في الرها بالانتصار في بدر. (ماجد ص 156).

ومهما يكن فقد تضافرت عدة عوامل في جلب النصر لعماد الدين زنكي وتمكنه من الاستيلاء على هذه المدينة ذات الاهمية الدينية العظيمة عند الصليبيين. فإلى جانب صفات

عماد الدين زنكي العظيمة كقائد عسكري يعرف فن الحشد كما يعرف فن الهجوم. والتخطيط الطويل المدى، ممتلئ بالحماس والإيمان بالجهاد لاعادة اراضي الإسلام إلى ما كانت عليه. إلى جانب هذه الصفات فقد كان خصم عماد الدين، جوسلين الثاني، حاكم الرها، وبالرغم مما اعتاد المؤرخون المسلمون من اطلاق صفات القوة والشجاعة عليه [Stevenson p. 150] فانه – على ما يظهر – كان ضعيفا ميالاً إلى الراحة والدعة وليس ديناميكيا متحركا يحسن السهر على امارته. فوليم الصوري المؤرخ المشهور للصليبيات ينتقده بقسوة ويقول بأنه لديه رخاوة وجبن منعتاه من الذهاب لنجدة مدينته [Runciman II p. 235].

أسئلة التقويم الذاتي (2)

1– اشرح دور عماد الدين زنكي في سقوط مدينة الرها، بين أهمية هذا السقوط؟

2– تتبّع تحركات الحملة الصليبية الثانية 1148 وبين كيف انتهت إلى الفشل.

ويبدو أن ما زاد في سوء حظ جوسلين هو عدم تمكن انطاكية وبيت المقدس من إنجاد الرها والقيام بما تقتضيه المصلحة الصليبية نَحوها فريموند دي بواتيه حاكم انطاكية كان اضعف من ان يقوم بعمل جدي ضد المسلمين كما كان بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس والذي كان تحت وصاية أمه لا يزال قاصرا عن فهم نتائج فتح الرها، فلعل الصليبيين لم يدركوا – ربما لضخامة الخسارة وقوة الضربة التي لحقت بهم لأول وهله – مغزى استيلاء المسلمين على الرها، ولم يدروا ان هذه الخطوة في نظر التاريخ جاءت بالنسبة للمسلمين «فتح الفتوح» وبالنسبة للصليبيين الخطوة الاولى في هدم البناء الذي شيده الفرنجة بالشرق (Cam. Med. His. Vol: 5 p. 307).

أما ستيفنسون فهو يرى ان مصير عماد الدين زنكي انما ارتبط بالعمل العظيم والخدمة الجليلة التي قدمها للإسلام بفتح الرها. فقد جعله هذا الفتح يكتسي بثوب فخار أحاط حياته، وهكذا نظرت اليه الاجيال اللاحقة، وقد كان الناس يسعدون بإعطائه لقب الشهيد او بطل الإسلام [Stevenson p. 151].

ويذهب رونسيمان إلى ان فتح الرها انتشر عبر العالم. وبالنسبة للمسلمين فقد جلب لهم املاً

جديدا. فدولة مسيحية كانت تعترض وسط بلادهم، قد تم تدميرها، وقد اصبح الصليبيون محصورين في البلاد المجاورة للبحر المتوسط، واصبحت الطرق بين الموصل وحلب خالية من الاعداء،ولم يعد هنالك اسفين يدق بين الاتراك في ايران والاتراك في الاناضول. أما بالنسبة للفرنجة فقد جلبت شعورا بالجزع والقنوط والذعر، وبالنسبة لمسيحيي غرب أوربا فقد كانت صدمة قاسية، ولأول مرة ادركوا ان الامور ليست حسنة في المشرق. وهنا بدأت حركة للدعوة إلى حملة جديدة [Runciman II p. 237].

في ظل هذه المعطيات، وانطلاقاً من الدور العظيم الذي قام به عماد الدين زنكي في توحيد الجبهة الإسلامية بين حلب والموصل وفي تحرير كثير من القلاع والمدن من ايدي الصليبيين وضمها جميعا تحت جناحيه وتتويج ذلك كله بتحرير الرها. نقول في ظل هذه المعطيات فإن خسارة المسلمين جاءت فادحة بقتل زنكي، في قلعة جعبر، حتى لقد صاح أهل جعبر انفسهم في القاتل «لقد قتلت المسلمين كلهم بقتله» وكان مقتله على يد أحد مواليه واسمه يرنقش. ويرى ابن القلانسي ان يرنقش هذا كان من أصل فرنجي، وان زنكي عنفه لأنه شرب فضل شرابه فانتقم يرنقش لنفسه بقتل زنكي [ابن القلانسي: الذيل، ص 284].

2.2 الحملة الصليبية الثانية ومصيرها

اسباب الحملة:

يعتبر سقوط الرها السبب الرئيس وراء خروج هذه الحملة من أوربا. فقد حرك سقوط هذه المدينة القاعدة في يد المسلمين الروح الصليبية حتى الاعماق. ولقد كان الحماس على اشده في فرنسا، البيت الذي انطلقت منه الحملة الصليبية الاولى. فقد كان الفرنسيون هم الاقرب إلى اللاتين السوريين واستجابوا إلى مواعظ القديس برنار والى تأثير ملكهم لويس السابع. ولقد تمكن القديس برنارد أيضا من جذب الامبراطور كونراد الالماني لمشروع الحملة الصليبية الثانية [Stevenson p. 158].

أما لماذا اثر سقوط الرها على الأوربيين الغربيين بهذا القدر وبهذه الكيفية ؟ إن هذا راجع إلى كون الرها اول امارة اسسها الصليبيون، فجاء سقوطها ايذانا بترنح البناء الصليبي الكبير الذي نجحت الحملة الصليبية الاولى في اقامته بالشرق، ومن هنا فقد ادرك الغرب الأوربي انه

ان لم يسرع في ترميم هذا البناء وإسناده فانه لن يلبث ان ينهار [عاشور ج 1 ص621].

غني عن القول، عزيزي القارئ، ان مدينة الرها، بنفسها كانت ذات مكانة دينية كبيرة في تاريخ المسيحية، الأمر الذي يجعل من إنجادها ومساندتها أمراً جوهريا لدى المسيحيين.

والظاهر ان فكرة الحملة الصليبية الثانية نبتت في بلاط لويس السابع ملك فرنسا، عام 1145، وقد عُرف هذا الملك بتدينه وحماسته الكبيرة للمسيحية والروح الصليبية، وقد تأكدت هذه الفكرة في مجمع فزلاي Vezelay في آخر مارس 1146. واستجاب لها امبراطور المانيا كونراد الثالث في ديسمبر من العام نفسه. وكما خرجت الحملة الصليبية الاولى في نهاية القرن الحادي عشر من جموع ودول شتى ومن اجناس مختلفة فقد خرجت الحملة الثانية قرب منتصف القرن الثاني في جيشين كبيرين هما جيش فرنسا ويقوده عاهل فرنسا، وجيش المانيا ويقوده كونراد الثالث عاهل المانيا. وقد تألف كل جيش من حوالي (70) الف رجل. واتفق ان يسبق كونراد وجيشه ثم يلحق به إلى القسطنطينية الجيش الفرنسي من أجل ان لا يؤدي مسير الجيشين معا إلى صعوبة في المواصلات [Runciman II 259].

ولم يلبث الصليبيون الالمان أن وصلوا إلى اسوار القسطنطينية .. وكما هي العادة فقد لجأ الامبراطور البيزنطي إلى محاولة جعل الملك الالماني يقسم يمين الولاء له، الأمر الذي أغضب الامبراطور، ومما زاد الطين بلة في العلاقات بين الطرفين أن الامبراطور البيزنطي عمد إلى عقد صلح مع مسعود سلطان قونية السلجوقي.

بعد أن اجتاز كونراد الثالث مضيق البوسفور إلى آسيا الصغرى، شرع في الزحف شرقاً. وهنا وقع في خطأ كبير، فبدلاً من ان يتخذ الامبراطور الالماني طريق الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى ليتبين معالم الطريق من ناحية وليحتمي بالقلاع والمدن من الناحية الاخرى، اختار ان يشق طريقه في جوف البلاد مخترقاً اراضي السلاجقة الذين اصلوه ناراً حامية من غاراتهم وسهامهم زاد في وقعها عدم معرفة الصليبيين بالطريق، وهكذا فإن كونراد خسر جيشه - اذ لم يكن قد سلك الطريق الجنوبية سوى الجيش - [عاشور ج 1 ص 625].

أما لويس السابع فقد وصل إلى اسوار القسطنطينية في عام 1147، حيث صدمه نبأ الصلح المنفرد الذي عقده الامبرطور البيزنطي مع سلاجقة قونية، والذي اعتبره خيانة عظمى

في حق الحملة الصليبية بوجه عام، وفي حق الحملة الصليبية الثانية على وجه الخصوص، ومع هذا فقد اذعن الملك لويس السابع إلى رغبة الامبرطور البيزنطي واقسم يمين الولاء والتبعية له بما يفتحونه من اراض صليبية [Ostrogorsty p. 339] وما هي الا بضعة ايام حتى وصلت حملة لويس السابع إلى نيقية لتفاجأ بالكارثة التي حلت بالالمان وامبراطورهم كونراد الرابع.

حول لويس السابع طريقه بعيدا عن قلب آسيا الصغرى وعلى هذا فقد اتجه ومعه كونراد وفلول جيشه إلى ازمير ومنها إلى افسوس، الا ان كونراد الثالث لم يلبث ان اصيب بمرض جعله يترك جانب الفرنسيين ويعود إلى القسطنطينية حيث حظى بعطف مانويل وظل هناك حتى مارس 1148 حيث اتجه إلى فلسطين على سفن بيزنطية، وَنَزَلَ اول ما نزل في عكا ثم ذهب إلى القدس.

توجه لويس السابع وزوجته اليانور إلى انطاكية وهنا رحب به حاكمها ريموند دي بواتيه على اعتبار ان هذه الحملة انما جاءت لتنتقم لسقوط الرها والقضاء على قوة الزنكيين. وبهذا يبعثان القوة في امارة انطاكية التي تعرضت - مع الرها - إلى الخطر الإسلامي اكثر من اي منطقة اخرى. الا ان لويس السابع خيب آمال الصليبيين في انطاكية ولم يوافقهم على ان التناقض الرئيس والخطر الاكبر هو الدولة النورية؛ وان حلب ليست هدفهم الرئيسي. وقد قال لويس السابع انه انما قبل بحمل الصليب واتى إلى الاراضي المقدسة للحج ولزيارة بيت المقدس والدفاع عن تلك المدينة لا لغزو حلب.

ومهما يكن من أمر فقد سار لويس السابع إلى بيت المقدس ليجد أن الامبراطور كونراد الثالث قد سبقه اليها، وانه كان في انتظاره في منتصف ابريل 1148. وكما خضع لويس السابع إلى اغراءات ريموند دي بواتيه ليوجه قواته نحو انطاكية والرها فقد خضع الامبراطور الالماني - ومن ثم الملك الفرنسي - إلى اغراءات ومطامح مملكة بيت المقدس في الاستيلاء على امارة دمشق ذاتها، مع ان صاحبها معين الدين انر كان حليفا لمملكة بيت المقدس نفسها. ولقد ادرك المعسكر الإسلامي هذا الصراع حول توجيه بوصلة الحملة الصليبية أما إلى حلب او دمشق وسجله صاحب ذيل تاريخ دمشق بقوله: «**واختلفت الآراء بينهم فيما يريدون منازلته من البلاد الإسلامية والاعمال الشامية إلى ان استقر الحال بينهم على منازلة دمشق وحدثتهم نفوسهم الخبيثة بملكها وتبايعوا ضياعها وجهاتها**» [ذيل تاريخ دمشق ص 298].

وهكذا انطلق الصليبيون نحو دمشق وجعلوا من طبرية نقطة تجمع لهم وجاء هجومهم في 24 يوليه 1148 وفيما يلي محاولة لاستجلاء ابعاد المعركة من جوانبها المختلفة:

– تميز عدد الصليبيين المهاجين بالكبر والضخامة فكما يقول ابن القلانسي: «صرفوا أعنتهم إلى ناحية دمشق في حشدهم الخلق الكثير والذي زاد على الخمسين ألفاً من الخيل والرجال ومعهم من السواد والجمال والأبقار، ما كثروا به العدد الكثير» أما بالنسبة للمسلمين فقد عوضوا عن الجند النظامي بالحشد الشعبي «واجتمع عليهم من الأعمال والاجناد والقتال واحداث البلد والمطوعة والغزاة، الجم الغفير» [كتاب الروضتين ج 1 ص 134].

– وقع الهجوم على دمشق من الناحية الغربية والجنوبية الغربية «وخيموا في المزة» [ذيل تاريخ دمشق ص 298].

– ويبدو أن الصليبيين كانت لهم الكفة العليا في اليوم الأول من الهجوم «واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة العدّة والعدد وغلبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا فيها واقتربوا من البلد واستقروا بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديما ولا حديثا منه» [ذيل تاريخ دمشق 299].

– لم يلبث المسلمون ان ظهروا عليهم في اليوم التالي يوم الأحد «وزحفوا عليهم ووقعوا الطراد بينهم واستظهر المسلمون عليهم واكثروا القتل والجراح فيهم» [الذيل ص 299].

– كان دور معين الدين انر دوراً ممتازاً في قيادة المعركة على الجبهتين العسكرية والسياسية: أما من الناحية العسكرية فيقول عنه صاحب الروضتين: «وأبلى معين الدين أنر في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يظهر في غيره بحيث كان لا يخفي جهادهم ولا ينثني عن دمارهم» [الروضتين ج 1 ص 135].

أما من الناحية السياسية فقد ارسل إلى الفرنج الغرباء برسالة يقول فيها: «ان ملك المشرق قد حضر، فإن رحلتم، والا اسلمت البلد اليه، وحينئذ تندمون» وارسل إلى فرنج الشام – الصليبيين المحليين –: «بأي عقل تساندون هؤلاء علينا، وانتم تعلمون انهم ان ملكوا دمشق اخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية، وأما أنا فان رأيت عجزاً عن حفظ البلد أسلمته إلى سيف الدين [اخانور الدين] تعلمون انه ان ملك دمشق فلن يبقى لكم معه مقام في الشام»

وكان رد الفعل ان هؤلاء الصليبيين المحليين اجابوه إلى التخلي عن ملك الالمان. وتتمة رواية ابن الأثير «واجتمع الساحلية (يعني صليبي المشرق) بملك الالمان، وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره، وتتابع الامداد اليه، وانما ربما اخذ دمشق وعندها تضعف عن مقاومته، ولم يزالوا به حتى رحل عن البلد، وتسلموا قلعة بانياس، وعاد الفرنج الالمانية إلى بلادهم وهي من وراء القسطنطينية وكفى الله المؤمنين شرهم».

وهكذا يتبين لنا، عزيزي القارئ، دور معين الدين أنر حاكم دمشق في الحرب النفسية كما هي الحرب الساخنة. ودوره - ضمن عوامل اخرى - في وضع قوات الصليبيين بعيداً عن دمشق.

- نقل الصليبيون قواتهم من المناطق ذات الاشجار الباسقة، والتي احسن الدمشقيون الاختفاء بينها وضرب الصليبيين ضربات موجعة، إلى المناطق العارية من الاشجار إلى الشرق من المنطقة التي عسكروا فيها اولاً. وهنا تضافرت عدة عوامل - في اليوم الرابع للهجوم - على جعل الصليبيين ينهزمون وهم لا يلوون على شيء. فقد تدفقت النجدات على دمشق من الابواب الشمالية مما جعل الصليبيين يتحولون من الهجوم إلى الدفاع «وايقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار» [ذيل تاريخ دمشق ص 299]... وزاد الطين بلة انهم عندما حاولوا العودة إلى حيث كانوا بين الاشجار كانت المنطقة قد احتلت [Stevenson 160].

- وهكذا دب الشقاق بين الامراء الصليبيين، الوافدين منهم والمقيمين، حتى اتهم بعض المؤرخين امراء بيت المقدس بانهم حصلوا على رشاوي من معين الدين انر لتضليل الصليبيين وافساد الحملة، وقد روج لهذه التهمة وليم الصوري [Stevenson 161].

- في اليوم الخامس للقتال لم يكن أمام الصليبيين الا الرحيل «فلم يجدوا لهم خلاصاً من الشبكة التي وقعوا فيها والهوة التي القوا بنفوسهم اليها غير الرحيل يوم الاربعاء التالي مجفلين والهرب مخذولين مغلولين» [قارن الذيل ص 300-299، بالروضتين ج 1 ص 136].

أما نتائج هذه الحملة فيمكن اجمالها، عزيزي القارئ، بما يلي:

1- شعر اللاتين السوريون أن الصليبيين الوافدين غرباء عنهم وان بلادهم هي سوريا وليست أوربا [Stevenson p.163].

2- زوال الخطر الذي طالما هدد المسلمين. لقد اثبت الصليبيون انهم ضعاف امام سيوف المسلمين وانه لا داعي للخوف من محاولات اخرى. وان المجابهة القادمة مع نورالدين يجب ان تحارب بعون قليل من أوربا.

3.2 الشروع في بناء القوة الإسلامية

1.3.2 حروب نور الدين ضد الصليبيين

ابتداء لا بد لنا من اضاءة شخصية نور الدين نفسه. فالتقوى ملمح أساسي في شخصية نور الدين، وتظهر هذه التقوى واضحة في كل ما له علاقة به. فقد اعتقد نور الدين ان المدافع الحقيقي والرئيس عن الإسلام واراضيه، ليس هو نفسه، وانما هو الله سبحانه وتعالى وانه انما يقوم بالحرب ضد المسيحية كواجب ديني. لقد كان حاكماً حكيماً وفاضلاً وإليه نفسه يعود نجاح عهده حتى أعداؤه لم يضنوا عليه بالاعجاب. ولقد كان نمط حياته بسيطا كما يتناسب مع ابن زنكي وتابعٌ مخلص للنبي صلى الله عليه وسلم [Stevenson p. 155+156].

ولشدة حماسة نور الدين في قتال الصليبيين، عرف كأبيه بالشهيد، لطلبة الشهادة في قتالهم، واعتبر من اشد اعدائهم، على حد قول المؤرخ المسيحي وليم الصوري (ماجد ص 161).

ويبدي بروكلمان المؤرخ الالماني اعجاباً خاصاً بشخصية نور الدين فيقول عنه: «انه ورث عن ابيه صفات الحاكم الفاضل إلى حد بعيد جداً. فبينما كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذي تصدوا لسياسة المسلمين، طوال اجيال عدة، يعتبرون ممالكهم اقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة، كان هو اول من استشعر انه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته. ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة التي نمت بالادارة البارعة، والتي لم تثقل كاهل رعيته على كل حال، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالاعداء - وهو ا اقتضاه نفقات ضخمة - فحسب، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا الدراويش وخانات المسافرين والمستشفيات ودوائر العلم (بروكلمان، تاريخ العرب الاسلامية، ترجمة نبيه فارس، ومنير بعلبكي ص 220-219).

ولقد افتتح نور الدين عهداً مستقلاً، أصبح فيه فتح الدول اللاتينية واجباً ملحاً، ولقد وجد فيه الصليبيون عدواً اكثر خطورة من اي عدو لهم في السابق، لان طاقته جميعها تركزت ضدهم. فالحماسة الدينية لدى نور الدين والاحداث المبكرة في عهده اشتركتا في حفزه إلى المهمة التي املتها عليه الحالة السياسية [Stevenson p. 154].

أسئلة التقويم الذاتي (3)

1- بيّن دور نور الدين في توحيد الجبهة الإسلامية؟

2- تتبّع خطوات شيركوه في الاستيلاء على مصر لصالح نور الدين ؟

وقد ابتدأ نور الدين حربه ضد الصليبيين بالتمركز في حلب واتخاذها قاعدة له وقد كان هذا العمل ذا اهمية عظيمة من ثلاثِ نواحٍ: الاولى اتصال هذه المدينة بالمشرق والثانية ان العدو الصليبي اصبح موقعه من الأمام وليس من الخلف والثالثة هي ان نور الدين ابتدأ يحيط بما تبقى من الارض اللاتينية [Stevenson p. 153].

ثم لم يلبث نور الدين طويلاً حتى استولى على حمص 1149 وكان ان اصطدم نور الدين بريموند حاكم انطاكية ورجاله في يونية 1149 وأبادهم عن بكرة أبيهم، وكان من جملة من وقعوا صرعى في المعركة ريموند نفسه الذي كان لمقتله رنة فرح خاصة في نفوس المسلمين ومؤرخيهم، لا سيما وانه طاغية «عاتٍ من عتاة الصليبيين وعظيما من عظمائهم» كما يقول ابن واصل [مفرج الكروب ص 121] بينما يقول ابن الاثير: «ان قتل البرنس ريموند كان عظيما عند الطائفتين» [الكامل ج 11 ص 144].

وأما صاحب الروضتين فيصفه انه من «ذوي التقدم والمال» [الروضتين ج 1 ص 150] وأما ابن القلانسي فيقول: «وكان هذا اللعين من ابطال الفرنج المشهورين بالفروسيه وشدة البأس وقوة الحيل وعظم الخلقه مع اشتهار الهيبة وكبر السطوة والتناهي في الشر» [ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ص 305] .. ويضيف بأنه «حملت رأسه في الحال وحملت إلى نور الدين، فوصل حامله بأحسن حال» [المصدر نفسه].

اتجه نور الدين بعد ذلك بنظره إلى الشرق حيث كان جوسلين الثاني، حاكم الرها السابق، يشرف على بقية البلاد التابعة لإمارته وهي سُمَيْسَاط وقلعة الروم وغيرها. وقد تمكن اتباع نور الدين من ان ينصبوا كمينا يـأسرون فيه جوسلين الثاني 1149 ولقد اعتبر اسره من اعظم الفتوح وتردّدت اصداؤه في كتابات المؤرخين المعاصرين ايضا. فهذا صاحب الروضتين يقول: «وكان أسره من اعظم الفتوح على المسلمين، فإن كان شيطانا عاتيا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة

رأيه، وشدة عداوته للحملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها. واصيبت النصرانيه كافة بأسره، وعظمت المصيبة عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها، وسهل امرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين ولا يفي بعهد، طالما صالحه نورالدين وهادنه، فإذا امن جانبه بالعهد والمواثيق نكث وغدر وحاق به مكره «ولا يحيق المكر السيء الا بأهله» [الروضتين ج 1 ص 158-184].... ويعدّد أبو شامه صاحب الروضتين عدداً كبيرا من البلاد التي تيسر فتحها بأسره وهي: عين تاب، وعزاز، وقورس، والراوندان وحصن البارة وتل خالد وكفر لاثا وكفرسود، وحصن بسرفوث بجبل بني عليم، ودلوك ومرعش ونهر الجوز وبرج الرصاص. [الروضتين ج 1 ص 185].

ومهما يكن من أمر فقد شهدت هذه المرحلة عدة تراجعات ونكسات وبعض تقدّم في المعسكر الصليبي بمجمله. أما التراجعات والنكسات فيما يسمى عادة في التاريخ الصليبي، وعهد بلدوين الثالث، وهو ملك بيت المقدس الذي كان قاصراً تحت وصاية امه يلزندا فهي سقوط الرها، وفشل الحملة الصليبية الثانية، وتصدع الحلف بين بيت المقدس ودمشق، وقتل ديموند دي بواتيه امير انطاكية، واسر جوسلين الثاني وضياع جميع الاراضي الصليبية التي كانت تابعة لإمارة انطاكية شرقي العاصي، ثم استيلاء المسلمين على بقية انقاض الرها ..

أما التقدم فقد كان على جبهة عسقلان جنوبي بيت المقدس وقد تمكن بلدوين الثالث من القيام بخطة ذات شقين الشق الاول اعادة تحصين غزة. فقد هدم اسوارها القديمة وبنى لها سوراً جديدا. كما شيد بها قلعة قوية عهد بحراستها إلى الداوية، والشق الثاني كان تجديد عقد التحالف مع دمشق بعد الحماقة التي ارتكبها الصليبيون في الحملة الصليبية الثانية فقد عقد تحالفاً بين اتابكية دمشق ومملكة بيت المقدس.

في عام 548هـ/ 1153م سقطت عسقلان بعد ان اشتعلت الحرب بين أهلها، وقد انشغل عنهم حكام مصر بخلافاتهم الداخلية، وما كان بينهم وبين الصليبيين «واشتد الخطب حينئذ، وتفاقم الشر، ووقعت الحرب بينهم، فسقط بينهم قتلى، فطمع الفرنج وزحفوا اليه، فلم يجدوا من يمنعهم فملكوه» [الكامل ج 11 ص 189].

ويؤكد المؤرخ ابن الأثير نفسه في كتابه التاريخ الباهر ان الصليبيين بعد الاستيلاء على

عسقلان ثغر جنوب فلسطين وعروس المدن كما كانت تسمى اصبحوا على جانب كبير من البأس «فقوى الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارات على اعماله» [التاريخ الباهر ص 106] وهكذا انحدر موقف دمشق إلى ان دخلت فعليا في حماية الصليبيين، فصار أهل دمشق يدفعون ضريبة سنوية للصليبيين، وصار الصليبيون يدخلون دمشق نفسها لجمع الضريبة المفروضة على اهلها من الصليبيين [ابن واصل مفرج الكروب ج 1 ص 126].

من هنا وحتى يرد نور الدين على الصليبيين ويعيد للجبهة الإسلامية الصليبية توازنها، بادر إلى الاستيلاء على دمشق. فنور الدين الذي وجد ان الصليبيين، بعد سقوط عسقلان، يتوجهون في اطماعهم إلى احتلال دمشق نفسها: «لما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق» [الكامل ج 11 ص 197] كان لا بد ان يوظف الظروف الموضوعية لدمشق للسيطرة عليها: فمن ناحية وظف نور الدين قلة احترام الناس لمجير الدين الذي سلم اموره للصليبيين، كما وظف التناقض الحاصل بين مجير الدين وبين مؤيد الدين ابن الصوفي الذي التف حوله الناس بدلاً من مجير الدين. كما انه حاول ان يُفيد من طاقة الشباب «وكان قد كاتب من بها من الاحداث واستمالهم، فوعدوه بالتسليم اليه» [الكامل ج 11 ص 198].

سار نور الدين بعدئذ إلى دمشق وحاصرها، وهنا ارسل مجير الدين إلى الفرنج يستنجدهم «وبذل لهم الاموال وقلعة بعلبك» ولكن هذه النجدة لم تجد نفعا اذ أن نور الدين تسلم البلد «فعادوا بخفي حنين» [المرجع نفسه].

أما كيفية الاستيلاء على دمشق، فإنه لما حاصر نور الدين المدينة ثار الاحداث الذين راسلهم فسلموه البلد من الباب الشرقي، وهنا حاصر نور الدين مجير الدين في القلعة، وراسله في تسليم القلعة مقابل ان يعطيه نور الدين مدينة حمص، وبالفعل تخلى مجير الدين عن القلعة وسار إلى حمص وتسلمها، لكنه عاد إلى مراسلة أهل دمشق، فعلم بذلك نور الدين فجرده من حمص واعطاه عوضا عنها (يالس)، فلم يقبل بها وسار من هناك إلى العراق.

ويمكننا أن نوجز نتائج سقوط دمشق في يد نور الدين، عزيزي القارئ، بما يلي:

1- كان سقوط دمشق خسارة كبيرة من الناحية الاستراتيجية للصليبيين فكما يقول

صاحب الروضتين: «وكان أبغض الاشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف اذا اخذها وقوي بها» [الروضتين ج 1 ص 237].

2- نَعِم نور الدين بجبهة كبيرة سياسية وعسكرية متماسكة وهادئة او كما يقول ابن واصل «صفت الممالك بالشام لنور الدين» [ابن واصل]. ويؤكد هذا ابن الأثير الذي يقول «والقى الإسلام بدمشق بجرانه وثبتت اوتاده» [التاريخ الباهر ص 107].

3- كان سقوط دمشق نقطة تحول كبرى في وحدة بلاد الشام، فقد تمتع المسلمون بدولة إسلامية واحدة من الرها شمالاً إلى حوران جنوبا.

4- ايجاد نوع من التوازن بين المسلمين والصليبيين، فباستيلاء الصليبيين على عسقلان سيطروا على بلاد الشام من الاسكندرونة حتى غزه، فجاء الاستيلاء على دمشق، استيلاء على داخلية بلاد الشام حتى بردى.

5- كان الاستيلاء على دمشق مقدمة توحيد الجبهة الإسلامية العربية. فحتى الاستيلاء على دمشق وانفتاح الطريق جنوبا كانت الجبهة العربية الإسلامية منقسمه إلى قسمين جبهة الشمال، وجبهة الجنوب. وقد كانت السياسة الصليبية الاستفراد بكل جبهة على حدة وضربها لوحدها. وكانت دمشق هي العقبة التي تحول دون نور الدين والوصول إلى نصرة عسقلان عندما سقطت في يد الصليبيين. يقول ابن واصل: «وكان نور الدين لما نزل العدو (الصليبيون) عسقلان يتأسف، اذ لا يمكنه الوصول اليها ودفعهم عنها، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم» [ابن واصل ج 1 ص 129].

هذه هي النتائج التي ترتبت على سقوط دمشق في يد نور الدين وتحقيق هذا النصر المبين. وغاية الأمر ان الطريق أصبح مفتوحاً باتجاه مصر لكلٍ من الصليبيين والمسلمين على حد سواء. ولننظر ماذا سيترتب على افتتاح هذه الثغرة الاستراتيجية من نتائج.

2.3.2 مصر بين نور الدين والصليبيين

غلب الوزراء في مصر على الخلفاء، وساد فيها في اواخر عهدها (منذ نهاية القرن الحادي عشر) عهد سُمي عهد الوزراء العظام. وقد أدى الطموح إلى منصب الوزير إلى تنافس

الطامعين، وما يجر اليه من تدبير المؤامرات والنزاعات، ويقول ابن الأثير في هذا ان الوزارة كانت «لمن غلب: والخلفاء من وراء حجاب، والوزراء كالمتملكين، وقلَّ ان وليها أحدٌ بعد الأفضل، الا بحرب وقتل وما شاكل» [الكامل ج 11 ص 185].

وقد أدى النزاع بين وزيرين من وزراء هذا العهد وهما شاور وضرغام إلى تدخلُ نور الدين محمود في شؤون مصر، وجر النزاع بينه وبين الصليبيين عليها. فقد اشعل ضرغام حاكم الصعيد، نار الثورة على شاور وزير الفاطميين، فكانت النتيجة ان هزم شاور وفرَّ من القاهرة واتجه إلى الشام في شهر اغسطس 1163 / رمضان 558 لاجئا ومستعينا بنور الدين، ووصل إلى دمشق في 23 اكتوبر / 23 ذي القعدة.

أولاً: الحملة الاولى 559هـ/ 1164م: بداية الصراع على مصر:

تبدأ الحملات النورية ثم الصليبية على مصر بقدوم ذلك الوزير الفار شاور إلى بلاط نور الدين محمود في دمشق، طالباً النجدة والعساكر ضد ضرغام الذي طرده من الوزارة واستولى عليها كما ذكرنا، عزيزي القارئ.

وبالرغم من قدرة شاور على الإقناع والعروض المغرية التي قدمها لنور الدين في ارض مصر وخيراتها، فان نورالدين لم يبادر إلى ارسال حملة إلى مصر وذلك خوفا من ان يتورط، وهو لا يزال امام اعداء اقوياء. ولم يخرج نور الدين من حالة التردد التي عاشها، ويرجح كفة التدخل الا أسد الدين شيركوه ابن شادي، الذي ترجع علاقته هو وايوب زنكي إلى زمن عماد الدين زنكي. فقد التحق مع اخيه ايوب (والد صلاح الدين) بخدمة زنكي بالموصل 1138. وكان وجهة نظر شيركوه ان الشعب المصري يفضل حاكما مسلما على حاكم من الفرنجة، وانه ليس هناك من حاكم مصري يشكل منافساً جديا لنور الدين، كما ان شيركوه عرض على نورالدين أن بإمكانه أن يُعِدّ اسطولاً في مصر ينطلق من الدلتا إلى سواحل بلاد الشام ويقطع المواصلات بين الصليبيين وأوربا [Stevenson p. 187].

خرجت الحملة الاولى من دمشق بقيادة شيركوه. وكان في صحبة شيركوه ابن اخيه صلاح الدين الذي كان على النقيض من عمه غير متحمس للحملة على مصر، ويصف ابن خلكان صلاح الدين في هذه الفترة قائلاً: «وكانت مخايل السعادة عليه لائحة والنجابة تقدمه من

حالة لحالة، ونور الدين يرعاه ويؤثره - ومنه تعلم صلاح الدين طريق الخير، وفعل المعروف، والاجتهاد في امور الجهاد» [ابن خلكان: وفيات الاعيان ج 6 ص 145-144].

وعندما علم ضرغام بأمر الحملة، أسرع مذعوراً يطلب النجدة بأملرك أو عموري الأول. وتعهد له أن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين، فبادر الفرنجة اليه لاغتنام الفرصة السانحة، وعرضوا مساعدتهم عليه، اذ قدّروا خطورة الاتحاد بين مصر والشام. ويذكر ابن واصل: «انهم قد خافوا خوفا شديدا اذا ما تحقق ذلك وايقنوا بالهلاك وان بلادهم تستأصل» فاجتمعت جيوشهم بقيادة املرك وسارت نحو مصر.

وعندما دخل جيش شيركوه القاهرة، خرج ضرغام لملاقاته، ولكن دارت الدائرة عليه بالرغم من استبساله في القتال. ولم ينهض الصليبيون لمساعدته حسب اتفاقهم معه لأن نور الدين اغار على ممتلكاتهم المجاورة لدمشق [ابن واصل مفرج الكروب ج 1 ص 138].

وفي نهاية عام 1164 كان شاور قد عاد إلى الوزارة. لكنه لم يلبث ان نقض عهده مع شيركوه ونور الدين، وظهرت منه إمارات الغدر بجند شيركوه الذي كان يقيم بظاهر القاهرة. ولعل الذي حفز شاور على اتخاذ هذا الموقف هو ان سلطته أصبحت مهددة بالقوة التي اعادته [Stevenson p. 188] وهكذا فان شاور ارسل إلى شيركوه يطلب اليه الرجوع إلى الشام، فامتنع شيركوه، وطلب منه ان يؤدي ما جرى عليه الاتفاق. ولما لم يجبه شاور إلى طلبه ارسل شيركوه نوابه إلى بلبيس فتسلموها. وصار الجيش النوري يغير على القاهرة من وقت إلى آخر [الكامل في التاريخ ج 11 ص 300].

وارسل شاور إلى الصليبيين يستمدهم ويخوفهم من نور الدين، ويبين لهم انه اذا ملك مصر فانه سيخرجهم من البلاد التي يحتلونها. وحث شاور أملرك على القدوم باقصى سرعة. وهكذا قدم املرك إلى مصر للمرة الثانية. وكان ذلك في الوقت الذي حضر فيه شاور من القاهرة على رأس جيشه واشترك مع املرك في حصار شيركوه في بلبيس واستمر هذا الحصار ثلاثة شهور (اغسطس - اكتوبر) وعبثا حاول املرك اقتحام سور المدينة الذي لم يكن منيعا «فسورها قصير جدا وليس لها خندق ولا فصيل تحميها» [الكامل ج 11 ص 300].

على ان شيركوه آثر في النهاية ان يفاوض املرك على الصلح. وكان املرك في وضع جعله

يرحب بعرض شيركوه. فقد اغتنم نور الدين خلو البلاد من الفرنج فأخذ يهاجمهم وقد تمكن من الاستيلاء على حارم وبانياس. وارسل ما استولى عليه من اعلام الصليبيين، فنشرها شيركوه على اسوار بلبيس. فعرف الصليبيون ما حل بأملاكهم وفاوضوا شيركوه على الصلح. واتفق الطرفان على مغادرة مصر وتسليم ما بيدهم منها إلى المصريين.

ثانيا: تجدد التنافس بين نور الدين والصليبيين حول مصر: الحملة الثانية 562 هـ/ 1167 م.

خرج نور الدين والصليبيون من أرض مصر بفكرة واضحة عن مدى ثروة البلاد وضعفها الشديد، حتى بدا لهم ان الاستيلاء عليها يمكن ان يتم بسهولة، لولا تربص كل طرف بالآخر، ورغبة كل جانب في ان يتفرد بالغنيمة دون خصمه.

ويذكر أبو المحاسن بن تغري بردي، ان شيركوه غادر مصر «وهو في غاية القهر» [النجوم الزاهرة ج 5 ص 348]. ويقول أبو شامه« ان ما كان يهيجه على العودة زيادة حقده على شاور» [أبو شامة كتاب الروضتين ج 1 ص 142] كما ان شيركوه وفد في هذه الفترة على الخليفة العباسي، وشرح له اوضاع مصر المتردية، وأطمعه في اسقاط الخلافة الفاطمية وإحلال الخلافة العباسية محلها. وقد كتب الخليفة إلى جميع الامراء يطلب منهم المبادرة إلى مساعدة شيركوه [الكامل ج 11 ص 324، حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، ص 109].

وسار شيركوه هذه المرة إلى مصر في 6 يناير عام 1167م/ 562هـ. واتخذ طريق الصحراء. ثم نزل الجيزة قبالة مصر (الفسطاط). كما انه وجد ان ليس من الحكمة مهاجمة القاهرة خوفاً من ان يستنجد شاور بالصليبيين. ولكن صح ما كان يخشاه شيركوه، فقد استنجد شاور بأملرك و «راسل الفرنج يستغيثهم ويستصرخهم» [التاريخ الباهر، ص 132].

فعقد الملك املرك اجتماعات واتخذ قراراً بالاجماع، ان يدفع كل فرد بدون استثناء عُشر ثروته المنقولة من اجل انقاذ مملكة بيت المقدس ونفذ هذا القرار[Runciman II p. 372]. وقاد املرك حملة على مصر في نهاية يناير 1167. ووصل بلبيس دون ان يلقى مقاومة، وعندما بلغ القاهرة ارسل رسله إلى قصر العاضد، الخليفة الفاطمي، للاتفاق على ما سيدفعه له لقاء اخراجه شيركوه، فاتفق شاور مع املرك على تجديد المعاهدة التي سبق ان عُقدت بينهما، على ان يزيد شاور الضريبة السنوية، وان يكون هناك مبلغ خاص لاملرك يؤخذ من الخليفة العاضد.

وهنا حاول اسد الدين شيركوه ان يكسب شاور إلى جانبه وان يحول دون اراقة دماء المسلمين بيد المسلمين وارسل له كتابا جاء فيه «واريد منك ان نجتمع أنا وانت عليه، ونتهز الفرصة التي امكنت، والغنيمة التي قد كتبت، فسنستأصل شأفته ونخمد ثائرته، وما اظن انه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة» [الروضتين ج 1 ص 168].

لكن شاور قام بقتل الرسول الذي يحمل الكتاب وقال: «ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفرج».

وكتب أسد الدين شيركوه إلى أهل الاسكندرية يطلب مؤازرتهم على شاور لأنه ادخل الفرنج في دار الإسلام. وضيّع اموال المسلمين فيهم، فأيدوه وقاموا معه، وذلك لأنهم نقموا على شاور استعانته بالفرنج كما يرى أبو شامه [كتاب الروضتين ج 1 ص 168] ولميلهم لمذهب السنة وكراهيتهم لرأي المصريين (المذهب الشيعي) كما يرى ابن واصل [مفرج الكروب ج 1 ص 151].

وعندما استكمل الصليبيون وشاور استعداداتهم، اجتازوا نهر النيل إلى الضفة الغربية، وهنا ادرك شيركوه حرج موقفه، فاتجه إلى الصعيد حيث لحق به املرك الأول، وشاور وهناك في البابين، وبالقرب من الاشمونين وجنوب المنيا الحالية دارت معركة البابين في مارس 1167، واشترك فيها صلاح الدين.

وهنا تتعدد روايات المؤرخين حول نتيجة هذه المعركة. وان كان على ما يبدو من محصلة، إن المعركة كانت في صالح شيركوه. لكن هذا النصر لم يكن حاسما. فلم يستطع ان يستأصل شأفة اعدائه، بل بقوا في الميدان [Runciman II p. 375].

وقد قام جيش املرك وجيش شاور بمحاصرة الاسكندرية حيث كان صلاح الدين قد تمركز فيها ومعه الف جندي. وهنا سأل شاور أهل الاسكندرية ان يسلموه صلاح الدين ويرفع عنهم الضرائب، الا انهم رفضوا ان يسلموا المسلمين إلى الفرنج حسب قولهم «وصبر أهلها على ذلك» كما يقول ابن الأثير [الكامل ج 11 ص 326] لكن صلاح الدين ارسل يطلب النجدة العاجلة من عمه تخوفا من الاخطار المحيقه. لكن شيركوه لم يستطع فك الحصار رغم انه هاجم الاسكندرية في غارتين. وهنا ارسل الأمير الصليبي ارنوف امير تل باشر - وكان اسيراً لديه - إلى املرك يطلب السلام على أساس أن ينسحب الطرفان من الميدان.

ويبدو ان املرك لم يكن اقل رغبة من شيركوه في السلام، فقد كانت خسائره كبيرة وعلم بتحركات نور الدين في الشمال، وبحملاته على حصن المنيطرة وحصن العريمة وهونين .. فساوره القلق على مملكة بيت المقدس، كما بدأ جنوده الذين طال حصارهم للاسكندرية يعلنون تذمرهم، ويبدون رغبتهم في وضع حدٍ لهذه الحرب مجهولة النتائج. وبالفعل اتفق الطرفان على ان ينسحبا من مصر.

في اوائل سبتمبر 1167 وصل شيركوه إلى دمشق. وتأخر املرك الأول بضعة أسابيع لأنه مكث بالقاهرة ليثبت الحماية الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية. وكانت أهم مظاهر تلك الحماية دفع جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار [النجوم الزاهرة ج 5 ص 349].

وهكذا فإننا نلاحظ ان الحملة الثانية لم تنه الصراع على مصر، وبقي وضعها معلقاً حتى الحملة الثالثة 1169.

ثالثاً: الحملة الصليبية الثالثة 1168م / 564 هـ:

عندما عاد املرك إلى بيت المقدس، أخذ يسعى إلى عقد تحالف مع البيزنطيين من اجل فتح مصر، ولقد وجد توجه املرك هذا اذنا صاغية من الامبرطور البيزنطي مانويل كومنين، الذي اراد ان يتخذ من املرك مخلباً لتحقيق مطامعه.

على هذا فقد كان املرك يفضل انتظار وصول الجيش البيزنطي، الا ان فرسان مملكته وذوي الرأي فيها اشاروا عليه أن يقصد مصر لفتحها – وحدهم – ولحساب مملكتهم، وتقوية موقفهم بها في نزاعهم مع نور الدين.

ويورد ابن الاثير، أيضًا أن رجال الحامية الصليبية، الذين كانوا في القاهرة، كان لهم نصيب في حفز املرك على الغزو فقد ارسلوا اليه «يستدعونه ليملكها واعلموه خلوها من أية موانع وهونوا أمرها عليه» [الكامل ج 11 ص 235].

والواقع ان املرك تشبث برأيه في عدم التدخل، لكن ضغط الامراء الصليبيين لعب دوره. اذ لما بلغ اوج قوته قابل ذلك هوى كامنا من ناحية املرك الذي كان يؤثر الاستيلاء على مصر على الاكتفاء بضريبة [Stevenson p. 193].

وهكذا انتصر في النهاية رأي القائلين «ان مصر لا مانع لها ولا حافظ» [أبو شامة كتاب الروضتين ج 1: ص 154].

سارت الحملة إلى مصر في اكتوبر 1167م. وهنا بدا لشاور ان يقاوم ولا يسلـم [المقريزي: الخطط ج2: ص 143]. فعندما وصل املرك إلى بلبيس لاحظ تغيرا في موقف المصريين. فقد اغلقت بلبيس أبوابها في وجهه هذه المرة. وعندما طلب املرك من طي بن شاور الذي كان على رأس حامية المدينة ان يسمح لجنده ان يعسكروا في المدينة، اجابه طي: «على اسنة الرماح .. اتحسب ان بلبيس جبنة تأكلها؟ «فرد عليه املرك: «نعم هي جبنة والقاهرة زبدة» [أبو شامة: كتاب الروضتين ج 1: ص 170].

وكان ان حاصر املرك بلبيس وهاجمها للاستيلاء عليها في صفر 564هـ/ 4 نوفمبر 1168م وعند دخول الصليبيين المدينة ارتكبوا حماقة كبرى، اذ قتل املرك من أهلها خلقاً كثيراً وخرّب اكثرها، واحرق جل دورها، فظائع تذكّر بما حدث عند فتح الفرنجة بيت المقدس. مما زاد في التأكيد على نيات الغزو الحقيقية عند الفرنجة في هذه المرة لدى شاور والجميع. ويعزو رونسيمان إلى هذه المذبحة ما تولد في نفوس المصريين بعدها من رد فعل تميّز بالنفور والرهبة من الصليبيين [Runciman II p. 380].

واتبع شاور سياسة الارض المحروقة، فأحرق اكثر من قرية ومدينة في طريق املرك إلى القاهرة لئلا تسقط في يده فينتفع بخيراتها ويتمتّع فيها. ثم ان شاور عزم على احراق الفسطاط. وكان شاور قد انذر اهل الفسطاط قبل ان يشعل النار فيها. فظلت النار مشتعلة بها (54) يوما.

انتهز شاور فرصة الحريق، واخذ يفاوض املرك في امر الجلاء نظير مبلغ من المال. ولكن تلك المفاوضات لم تنته إلى شيء بسبب واضح، وهو ان املرك انما جاء هذه المرة للفتح والاستقرار لا لغرض آخر سواه.

وكان شاور قد طلب العون من نوّر الدين عن طريق الخليفة العاضد، الذي كتب إلى نور الدين وارسل اليه شعور نسائه. وكان مما قاله له «ادركني واستنقذ نسائي من ايدي الفرنج» [السيوطي: حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، ج 2 ص 20] ويذكر بعض المؤرخين كأبي المحاسن ان شاور هو الذي استدعاه [النجوم الزاهرة ج 5 ص 350].

فقد كان نور الدين يراقب ويتتبع الاوضاع في مصر، فلم يكد يسمع بعودة املرك والصليبين، حتى أسرع بتجهيز العساكر خوفا على مصر» كذلك يروي أبو شامه أن نور الدين اخذ يتخوف عندئذ من تردد الصليبيين على مصر بين حين وآخر «وادرك ان شاور يلعب بهم تاره وبالافرنج اخرى» [الروضتين ج 1، ص 157]. ولذا قر رأيه انه يتخذ موقفاً حاسماً من المسألة المصرية. وقد أفاد نور الدين من اجماع العاضد وشاور ومعهم أهل مصر الذين كانوا يراسلون نور الدين اثناء الحصار [الكامل ج 11 ص 337].

ورأى نور الدين ان تكون حملته هذه المرة على مستوى ما ينتظر منها فاختار لها قائده شيركوه - الذي خبر مصر وحرب الصحراء - وابن اخيه صلاح الدين واختار من العساكر 2000 فارس، وجمع من التركمان 6000. وألحق بأسد الدين مجموعة من الامراء والمماليك، ورافق شيركوه مماليكه الخمسمائة.

وقد اتخذ أملرك خطة تستهدف مواجهة شيركوه قبل ان يتمكن من وصول القاهرة. وهنا يحدثنا رونسيمان ان الذي حذر أملرك بقدوم جيش شيركوه هو شاور [Runciman II p. 382]. وذلك لرغبته على ما يبدو في تحقيق فرصة لصدام بينهما يجني هو ثمراته على اي حال. ولقد اعتمدت خطة أملرك على الاتجاه من سرياقوس إلى بلبيس حيث ترك هناك قوة تحمي الطريق المؤدي إلى القاهرة - ثم التقدم إلى فاقوس لمباغتة قوات شيركوه، وهي قادمة متعبة من الصحراء الشرقية، والقضاء عليها قبل الاتحاد مع القوات المصرية. ولكن هذه الخطة انهارت من اساسها عندما علم ان شيركوه اخترق الصحراء إلى القاهرة، وانه وصل عاصمة مصر فعلاً، والتف حوله الاهالي بوصفه المدافع عنهم، وكان ذلك في 7 ربيع الثاني 564 هـ/ 8 يناير 1169م. ولم يستطع شاور امام هذا الموقف الجديد الا السكوت مؤقتا والانتظار.

وهكذا لم يبق أمام املرك الا ان يسحب حاميته التي تركها في بلبيس وينسحب فوراً ومعه رجاله (يناير 1169) عائدين إلى بلادهم بخفي حنين خائبين مما املوه [ابن الاثير: التاريخ الباهر، ص 139]. وفقد املرك ورجاله مصر إلى الابد بعد ان نشروا عليها ظل حمايتهم.

ووصلت اخبار انتصار اسد الدين إلى نور الدين، فأمر بضرب البشائر بالبلاد الإسلامية، واعتبره كثيرون الفتح الثاني لمصر بعد الفتح الأول على يد عمرو بن العاص. ويقول ابن واصل

«فانها كانت من أجلّ الفتوح واعظمها ولو استولى العدو - لعنه الله - على الديار المصرية لاستولى على سائر الخطة الإسلامية [ابن واصل: مفرج الكروب ص 160].

تدريب (1)

1- تحدث عن مودود باعتباره رائد البداية والانطلاقة في حروب رد الفعل الإسلامي ضد الصليبين ؟

تدريب (2)

1- وضح بايجاز دور نور الدين في الجهاد ضد الصليبين ؟

تدريب (3)

1- تحدث عن معركة حطين، وبين أهميتها بايجاز؟

3. صلاح الدين

1.3 بروز شخصية صلاح الدين

بدأ ظهور شخصية صلاح الدين في مصر، حتى اذا انتقل إلى الشام كان قد بنى أسس نجاحه وأرسى قواعد كيانه. ولعل من ابرز ما صنع شهرة صلاح الدين: إلغاء الخلافة الفاطمية في مصر والاستيلاء على مقاليد السلطة فيها، ثم الانتقال منها إلى الشام، بعد وفاة نور الدين محمود ليفرض سلطته عليها كذلك.

بدأ صلاح الدين مسيرته في إلغاء الخلافة الفاطمية، هذا الاجراء التاريخي العظيم، بالقضاء على دعوة الفاطميين وإزالة شعائر الفاطميين، وعزل قضاة مصر، وتشريد الدعاة والغاء مجالس دعوتهم، وازالة اصول المذهب الشيعي، مثل الاذان؛ بحيَّ على خير العمل [أبو شامة، كتاب الروضتين ج 1 ص 201].

اخذ صلاح الدين بعد ذلك يُظهر عدم صحة نسب الفاطميين، وانهم من نسل المجوس، كذلك منع صلاة الجمع بالازهر ويجامع الحاكم، واستمر هذا المنع إلى ان جاء المماليك فأعادوها للجامعين. كما صار يخطب لنور الدين بعد العاضد في الجوامع الأخرى.

أسئلة التقويم الذاتي (4)

1- بيّن كيف برزت شخصية صلاح الدين حتى أصبح اعظم قادة المسلمين ضد الصليبيين ؟

ولا يستبعد البعض ان صلاح الدين قد حرص على إبقاء الخلافة الفاطمية - في صورتها الشكلية - وفي تلك الفترة بالذات التي اخذ يحس فيها بتغير شعور سيده نور الدين نحوه - فيقول ابن الاثير: «كان صلاح الدين يكره قطع الخطبة لهم (للعلويين)، ويريد بقاءهم خوفاً من نور الدين، فانه كان يخاف ان يدخل سيده الديار المصرية ويأخذها منه فكان يريد]أن[يكون العاضد معه، حتى إذا قصده نور الدين امتنع به وبأهل مصر عليه» [ابن الأثير الكامل ج 11 ص 368].

وعلى اية حال، فانه لم يسع صلاح الدين الا الاستجابة لمشيئة نور الدين، وفي هذا يقول ابن الأثير نفسه: «انه ما يمكنه الا امتثال امر نور الدين» [الكامل ج 11 ص 369] على قطع الخطبة 567هـ.

أما كيف تمت عملية قطع الخطبة فتذهب الرواية إلى انه دخل إلى مصر انسان اعجمي يعرف بالامير العالم، فلما رأى ما هم فيه من الاحجام قال: «انا ابتدئ بها. وفي يوم الجمعة صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضئ بامر الله» [الخليفة العباسي] فغعلوا ذلك وكتب بذلك لسائر الديار المصرية» [أبو شامة كتاب الروضتين ج 1 ص194]، [ابن الأثير التاريخ الباهر ص 156، الكامل ج 11 ص 369]، قابل [السيوطي: حسن المحاضرة، ج 2 ص 21، النجوم ج 5، ص 34، Jane Poole, p. 108].

وبهذا تم الإلغاء اخيرا في اول جمعة من محرم 567هـ/ سبتمبر1171 وحدث التحول الرسمي من المذهب الشيعي إلى المذهب السني بهدوء، «ولم ينتطح فيها عنزان» على قول ابن الاثير. وتوفي الخليفة العاضد بعد إلغاء الخلافة بثلاثة وقيل انه توفي ولم يسمع بإلغاء خلافته.

لم يكتف صلاح الدين بإلغاء الخلافة الفاطمية من الناحية الرسمية فقط وانما عمل على ازالة باقي معالمها «وقطع دابرها ومحو آثارها». ومن ذلك ما يرويه المقريزي انه نزع المناطق الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتي كانت تحمل اسماء الخلفاء الفاطميين. كما انه استولى على الكنوز التي كان الخلفاء الفاطميون قد كدسوها في الخزائن والحواصل [المقريزي الخطط ج 2 ص 294].

وقد ترتب على انهاء صلاح الدين للخلافة رنة فرح كبيرة بين السنيين. وبعث صلاح الدين ببشارة الالغاء إلى نور الدين، فبعث نور الدين بكتاب تهنئة للمستضيء، ومعه منشور الالغاء الذي قرئ في سائر المدن إلى ان وصل إلى بغداد [المقريزي: السلوك ج 1، ق 1، ص 44 وما بعدها] وجاء فيه «اصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإسلامية عامة بما فتح الله على ايدينا رتاجه، واوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من اقامة الدعوة الهادية العباسية، لجميع المدن والبلاد والاقطار والامصار المصرية والاسكندرية ومصر والقاهرة، وسائر الاطراف الدانية والقاصية والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد والى قوص واسوان وأقصى الصعيد،

وهذا شرف لزماننا هذا وأهله نفتخر به على الازمنة التي مضت من قبل ..» [أبو شامة كتاب الروضتين ج 1 ص 117].

وفي مصر احتفل صلاح الدين رسميا بوصول خلعة الخليفة العباسي إليه فلبسها، وشق بها حارات القاهرة، ولبس الخطباء ثيابا سوداً، ارسل بها من بغداد، واجبر على الحضور رجال الدولة واعيان المصريين، وهدد من تأخر منهم بالعقاب، فحضر من لا يريد الحضور [المقريزي السلوك ج 1 ص 46].

وأصبح يخطب لصلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة العباسي ونور الدين [النجوم الزاهرة ج 5 ص 257] كذلك قررت العملة باسم المستضيء بالله وباسم الملك العادل نور الدين، فنقش اسم كل منهما في وجه [المقريزي السلوك ج 1، ص 1، ص 45].

غاية آلأمر: صحيح انه في النهاية توصل نور الدين إلى الغاية التي استهدفها، وهي الاستيلاء على مصر، وتوحيدها مع سوريا سياسيا ومذهبيا، وحصر املاك الصليبيين من الشمال والجنوب، الأمر الذي قرر مصير الحروب الصليبية إلى مدى طويل. ولكن الذي قطف ثمار النزاع على مصر، كان صلاح الدين الذي تمكن من وضع يده على سوريا ومصر فعلاً، واصبحت مصر، البعيدة نسبيا عن ميدان الصراع المباشر، مركز تجميع اموال جسيمه له، كما انه أصبح في مصر يصنع السلاح الوفير، وفي قلعة صلاح الدين اتسع الوقت لتدريب المقاتلين. وكان صلاح الدين قد نضجت ملكاته ومواهبه اثناء فترة التسابق، واكتملت له الظروف المواتية لتحقيق امنيته التي جاهد طوال حياته في سبيلها، وهي مواصلة الجهاد والحرب مع الفرنج، واخراجهم من ارض الساحل - الديار المقدسة.

وقد جاءت وفاة املرك - بعد وفاة نور الدين - تمهيداً لانتصارات صلاح الدين المقبلة، وهنا رأى فرنج الشرق، في هذه الآونة، وفيما تعرضت له أسرة املرك من احداث، نذيراً بزوال مملكة بيت المقدس والذي تم فعلاً بعد موقعه حطين 1187 كما سيأتي معنا عزيزي القارئ..

2.3 توحيد القوى العربية الإسلامية

وقد كان صلاح الدين مثل نور الدين يستهدف من وراء ذلك تكوين جبهة إسلامية قوية

في الشرق العربي الإسلامي، او على حد قوله: «جمع الكلمة». وقد ورد ذلك في كتاب ارسله صلاح الدين إلى الملك الصالح (ماجد ص 166).

قامت استراتيجية صلاح الدين على توحيد الصف الإسلامي في مصر وسوريا والقضاء على عوامل ألفرقة التي ظهرت في الدولة النورية من اجل مواجهة الصليبيين، وبحسب تأكيده فقد قرر بعد أن سيطر على الجبهة المصرية - كما مر معنا - ان يعيد فتح سوريا من اللاتين. وكان لديه اعتقاد راسخ ان العناية الالهية قد اختارته كأداة لتخليص القدس وانقاذها من ايدي الصليبيين.

على هذا فقد كتب إلى الخليفة العباسي يخبره انه خليفة نور الدين، وبصفته هذه فإنه سيستولي على سوريا اللاتينية. ولقد سيطر هذا الهدف على بؤرة شعـوره ولـم يغـب عـن باله .. وفي رسائله للخليفة كان يؤكد دائما على انه بطل الجهاد ضد اللاتين [Stevenson 208].

أما من الناحية التكتيكية فقد تظاهر صلاح الدين بولائه للملك الصالح بن نور الدين وانه انما جاء ليخلص له حَقَّهُ في ارث ابيه فقد قال «أنا مملوك الملك الصالح» [الكامل ج 11 ص 417].

ولقد كان ابتداء صلاح بالاستيلاء على دمشق 570 هـ/ 1174 وذلك بعد أن تم استدعاء الملك الصالح من قبل الزنكيين، أتباع والده، في حلب، وبالفعل اعادوه إلى حلب [الكامل ج 11 ص 415] وكان الامراء في دمشق، وفي طليعتهم ابن المقدم، قد راسلوا الصليبيين يطلبون الاتفاق والصلح وعندما علم صلاح الدين بسلوكهم «استصغر اهل الشام وعلم ضعفهم» [الروضتين ج 1 ص 233] ذلك ان الصلح والاتفاق كانا موجهين ضده. ولم يلبث هؤلاء الامراء ان استعانوا بسيف الدين غازي اتابك الموصل وعم الملك الصالح، وعرضوا عليه تسليم دمشق. وتشاء الاقدار ان يتراخى سيف الدين في الاستجابة للدعوة، مما جعل ابن المقدم يتخذ الخطوة الحاسمة في تاريخ الحروب الصليبية ومستقبل حركة الجهاد، وهي دعوة صلاح الدين نفسه ليتسلم دمشق [عاشور ج 2 ص 741].

وقد استعان صلاح الدين على كسب قلوب الناس بالمال «وأنفق في الناس مالاً جزيلاً، وأمر فنودي بإطابة النفوس وازالة المكوس وابطال ما حدث بعد نور الدين من القبائح والمنكرات والضرائب» [المقريزي ج 1 ص 58].

وسار صلاح الدين بعد ذلك إلى حمص في ديسمبر وراسل من فيها من حكامها النوريين، فامتنعوا عن تسليمها، فقاتلهم «فملك البلد وأمّن اهله» [الكامل ج 11 ص417] ولكن القلعة لم تسقط بيده وبقيت صامدة حتى عودته من حلب. وبعد محاصرة القلعة ارسل صلاح الدين رسولاً إلى سنان شيخ الجبل وزعيم الحشاشين يسأله التوبة عن آثامه على ان يعامله صلاح الدين بأمان، وان لا يتدخل في شؤون الحشاشين. وقد وافق شيخ الجبل على هذا العرض من صلاح الدين وقد حافظ كل منهم على هذا العهد، وكان هذا بعد ان حاول الحشاشون اغتيال صلاح الدين وفشلوا [Runciman II p. 410].

ومن ثم سار صلاح الدين إلى حماة وهو لا يزال يرفع شعار طاعة الملك الصالح وانه انما خرج لحفظ بلاده. فلما وصل إلى حماة امتنع اميرها عز الدين جُردبك عن تسليمها اياه. فأرسل صلاح الدين يعرفه بموقفه من طاعة الملك الصالح وانه انما يريد الحفاظ على بلاده، فاستحلفه جردبك على ذلك فحلف. وبذلك تم لصلاح الدين الاستيلاء على حمص [الكامل ج 11 ص 418].

ثم توجه صلاح الدين إلى حلب، فقاتله أهلها، وبقي صلاح الدين محاصراً لها ولكنها رفضت الاستسلام له، وفي الوقت نفسه لم يتردد اصحاب السلطان فيها من الاستعانة بالباطنية والصليبيين.

جدير بنا ان نذكر هنا، عزيزي القارئ، ان الصليبيين ممثلين بريموند الثالث أمير طرابلس ادركوا خطورة الوضع الجديد، وما يخطط له صلاح الدين من وحدة قوية تضم القاهرة ودمشق وحلب لذلك اسرع هذا بالتدخل وتصفه المصادر الإسلامية بانه «اعظم ملوكهم شجاعة واجودهم رأيا ومكراً ومكيدة» [الكامل ج 11 ص 419].

وكان مفتاح افساد الخطة الصلاحية والضمان الوحيد لإفشالها، ومنع تحقيق الوحدة بين النيل والفرات هو الاستيلاء على حلب، من اجل ذلك ارسل ريموند الثالث إلى صلاح الدين يرغبه في الصلح ويلوح له بان «الفرنج قد تعاضدوا وساروا يداً واحدة»، ولكن صلاح الدين لم يخش التهديد ورد قائلاً «لست ممن يرهب تأليب الفرنج» [الروضتين ج 1 ص 239، عاشور ج 2 ص 743].

ومهما يكن من امر فإنه لم يكن بالامكان السيطرة على حلب من قبل صلاح الدين الا بخوض معركتين الاولى هي معركة قُرون حماة، وقد دارت بين صلاح الدين وكَمُشْتَكين حاكم حلب نيابة عن الصالح في اواخر ابريل 1175، انتهت بانتصار صلاح الدين، ولم يُضِع صلاح الدين ثمرة انتصاره، فزحف مباشرة على حلب، حيث بدأ صلاح الدين منذ الآن يكشف الغطاء عن حقيقة سياسة وانه يرفض الولاء للصالح كما ازال اسمه عن السكة.

أرسى صلاح الدين العلاقة مع أهل الصالح بعقد صلح معهم وقد نصت شروط الصلح «بأن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها. ثم استزاد صلاح الدين منهم معرة النعمان وكفر طاب وبعرين بارين بعد ذلك [السلوك ج 1 ص 59]، [ابن شداد النوادر السلطانية ص 84] [الكامل ج 11 ص 422].

والمعركة الثانية هي معركة تل السلطان وهنا اصطدم صلاح الدين بسيف الدين غازي بن زنكي صاحب الموصل، في تل السلطان، بالقرب من حلب. وكان صلاح الدين قد ارسل عساكره إلى حلب فأرسل يستدعيها، وقد تمخضت المعركة عن انتصار صلاح الدين على جيش سيف الدين «الذين لم يلبثوا أن هُزموا ولم يلو أخ على أخيه» [الكامل ج 11 ص 428].

وقد استولى صلاح الدين على قلعة عزاز في يونيه 1176 ثم شرع في حصار حلب. على ان صلاح الدين لم يلبث ان قبل الصلح ورضي في ذلك الصلح بأن يرد عزاز إلى الصالح اسماعيل. «وتقررت القاعدة في الصلح للجميع، للملك الصالح، ولسيف الدين صاحب الموصل، ولصاحب الحِصْن، ولصاحب ماردين، وتحالفوا واستقرت القاعدة على ان يكونوا كلهم عونا على الناكث الغادر» [الكامل ج 11 ص 431].

وفي هذه الاثناء لم يتقاعس الصليبيون عن التصدى لصلاح الدين، فعقب انتصار صلاح الدين على الزنكيين في تل السلطان، قام بلدوين ملك بيت المقدس، بمحاولة لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حلب، فأغار بالاشتراك مع ريموند الثالث حاكم طرابلس، على سهل البقاع.

نختم هذه الصفحة من جهاد صلاح الدين فنقول: ان صلاح الدين تصدى بقوة لثلاثة خصوم هم؛ الزنكيون والحشاشون والصليبيون. وقد واتت الظروف صلاح الدين وتمكن من ان يحكم دولة كبيرة تمتد من ليبيا إلى نهر دجلة. حيث لم يتمكن أمير مسلم، ولمدة قرنين فيما بعد،

ان يكون بمثل هذه القوة. فقد كانت وراء ثروة مصر والمدن العظيمة دمشق وحلب تحت سلطته المباشرة. وحولهن والى الشمال الشرقي وحتي اسوار الموصل كانت هنالك اقطاعيات يحكمها امراء يستطيع الاعتماد عليهم. فعز الدين حاكم الموصل كان يخشاه، والسلطان السلجوقي في الاناضول، والامراء السلاجقة في المشرق كانوا لا يمتلكون القوة لمعارضته. وكذلك لم تعد امبرطورية بيزنطية تشكل خطراً عليه [Runciman II p. 435].

3.3 جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين

عزيزي القارئ، بدأ جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين منذ عودته من مصر إلى بلاد الشام. ولكن هناك علامات بارزة، ومعارك معينة لهذا الجهاد مع الصليبيين. ففي اواخر نوفمبر 1177 غادر صلاح الدين العريش ليشن هجوما على المراكز الصليبية على شاطئ فلسطين الجنوبي مثل الداروم وغزة. ولما وجد ان الداوية في غزة قد استعدوا لهجومه وحصنوا قلعتهم اتجه بسرعة نحو عسقلان. ويبدا انه في الوقت الذي شغل المسلمون فيه بالغنائم «وانبسطو وساروا في الارض آمنين مطمئنين»، [الكامل ج 11 ص 442] استطاع بلدوين ملك بيت المقدس ان يشق له طريقا خارج عسقلان، وسرعان ما اصبح بلدوين نفسه نقطة تجمع يتجمع حولها ويلجأ اليها فلول الصليبيين وحاميات المدن الصليبية القريبة، وهنا باغت هؤلاء قوات صلاح الدين. وبهذا حلت الهزيمة في صفوف المسلمين عند تل الصافية واستطاع صلاح الدين ان ينجو بنفسه بصعوبة «وتكاثر الفرنج عليه فمضى منهزما» [الكامل ج 11 ص 443] وعاد إلى مصر في حالة سيئة فوصل القاهرة 1177 انتظاراً لفرصة اخرى. [عاشور ج 2 ص 756].

وعندما توجه صلاح الدين إلى دمشق اصدر امراً لابن اخيه فروخ شاه ان يراقب تحركات الصليبيين، على رأس قوات دمشق، وكانت التعليمات ان لا ينخرط في حرب مع العدو حتى يتقدموا مسافة كبيرة في الاراضي الإسلامية. وهنا قادت طليعة فروخ شاه المتقدمة، قادته إلى صدام شامل وانخراط كامل في معركة مع الصليبيين وبهذا حاز انتصارا عظيماً، في 10 ابريل 1979. وقد كان الملك بلدوين مع جيشهم. وخلال القتال كان في خطر عظيم ولم يسلم من اصابات خطيرة ولم يتم انقاذه سوى بتضحية اتباعه المقربين، وبصورة خاصة همفري صاحب حصن بانياس، وشرطة المملكة. ولقد كانت جروحه قاسية لدرجة كبيرة حتى انه توفي بعد 12 يوما في قلعة يعقوب 22 ابريل.

لم يلبث صلاح الدين طويلاً حتى خاض معركة اخرى مع الصليبيين الذين رغبوا بقيادة بلدوين الرابع، في وضع حد لإغارات صلاح الدين. ففي 10 يونية 1179 في تل القاضي قرب مرجع دارت معركة بقيادة صلاح الدين ضد الصليبيين بقيادة بلدوين نفسه. وكان عدد الصليبيين (1000) جندي مسلحين بالحراب. وعندما اقترب هؤلاء من عسكر صلاح الدين، حدث ان كانت فرقة إسلامية تحت قيادة عز الدين فَرّوخشَاه أو فرّخ شاه أحد قادة صلاح الدين، جاهزة للقيام بحملة عسكرية. وكان هذا مساء السبت 9 يونية 1179 . وفي الحال توقف القائد المسلم أو انه تراجع. ولكن عندما قاد صلاح الدين قواته، في الصباح الباكر انزل بالصليبيين هزيمة منكرة. وقد كتب عماد الدين كاتب صلاح الدين اسماء الاسرى على شمعة في الفجر، وبلغ عددهم سبعين أسيراً [Stevensopn p. 221]، ولم ينج الملك بلدوين الا بصعوبة.

من هنا فقد اكتفى صلاح الدين عقب انتصاره بمهاجمة حصن الاحزان، ونجح في فتحه في اواخر اغسطس سنة 1179 وذلك «بعد قتال وحصار، فغنم منهم مائة الف قطعة حديد من انواع الاسلحة وشيئاً كثيرا من الاقوات وغيرها، وأسر نحو السبعمائة وخرب الحصن حتى سوّى به الارض» [المقريزي السلوك ج 1 ص 67] وقد اشعل صلاح الدين النيران في حطام بيت الاحزان، وشاهد الصليبيون من طبرية السنة اللهيب والدخان المتصاعدة منه.

ويحتل الفصل المتعلق برينولد دي شاتيون حاكم الكرك حيّزا خاصاً. ذلك ان رينولد ومنذ سنة 1176 عاد إلى الظهور بعد أن امضى خمس عشرة سنة ونصف السنة في الأسر. وقد كان الافراج عنه بسبب الصداقة المؤقته التي ربطت بين انطاكية وحلب. ولما كان بوهمند الثالث اميراً لانطاكية فقد ذهب رينولد دي شاتيون (أرناط) إلى القدس في الجنوب وهناك بدأ نجمه بالبروز. ولم تكن سنوات الأسر قد اطفأت حماسته المتأججة كما لم تطفئ جذوة نفسه. وفي هذه الأيام الاخيرة للمملكة ظل ملئياً بروح الاندفاع والطاقة التي لا تستقر بل تستمر في التحفز تجددها نسبة غير قليلة من الجرأة. وكانت نفسه تواقه طوال الوقت للعدوان وليس للسلام الضعيف ويصفه ابن الأثير بقوله: «كان من شياطين الفرنج ومردتهم واشدهم عداوة للمسلمين» [الكامل ج 11 ص 470].ومع ذلك فان ما احرزه كان قليلاً ولقد ضايق مثلما آذى وأساء، ومع كل هذا فقد قوّى رجوعه من موقف الصليبيين. وقد تزوج رينولد سيدة

الكرك وبهذا أصبح سيد القلاع والحصون القريبة من البحر الميت.

ولما كانت الكرك في موقع متوسط على طريق القوافل بين سوريا ومصر، فقد حدّد أرناط دوره من هذا الموقع ومن هذا المنطلق. ففي صيف 1181 تناسى ارناط أمر الهدنة المعقودة بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس، وخرج على رأس قوة من رجاله وتوغل في الصحراء حتى بلغ تيماء وهي واحة في منتصف الطريق بين الاردن والمدينة المنورة وقد وصفها صلاح الدين بانها «دهليز المدينة». يعبر منها ارناط «للاستيلاء على تلك النواحي الشريفة» [الكامل ج 11 ص 470]. ولكن فروخ شاه بن أخ صلاح الدين اضطره للعودة إلى امارته عندما اسرع إلى غزو امارة الكرك اللاتينية ويصف ابن الأثير موقف فروخ في هذه الوقعة بقوله: «فجمع العساكر الدمشقية، وسار إلى بلده ونهبه وخربه، وعاد إلى طرف بلادهم، واقام بها ليمنع البرنس من بلاد الإسلام، فامتنع بسببه من مقصده، فلما طال مقام كل واحد منهما في مقابلة الآخر علم البرنس ان المسلمين لا يعودون حتى يفرق جمعه، ففرقهم وانقطع طمعه من الحركة، فعاد فروخ شاه إلى دمشق، وكفى الله المؤمنين شر الكفار» [الكامل ج 11 ص 470].

وفي عام 1183 سار صلاح الدين من مصر إلى أيله (العقبة)، فسمع ان الفرنج قد جمعوا له ليحاربوه، فسيَّر الضعفاء من جيشه مع اخيه، وشن الغارات بأطراف بلادهم واكثر ذلك بالكرك والشوبك، فلم يخرج له منهم أحد.

وعندما حاول رينولد ارناط مهاجمة مكة والمدينة من البحر، ولجأ من اجل ذلك إلى صناعة السفن ووضعها في البحر عند أيله (العقبة)، توجه قائده لؤلؤ إلى عيذاب، وراح يقفو اثر سفن العدو، فبلغ رابغ وساحل الجوزاء وادركهم بساحل الجوزاء، فاوقع بهم هناك، «فلما رأوا العطب وشاهدوا الهلاك خرجوا إلى البر، واعتصموا ببعض الشعاب فنزل لؤلؤ من مراكبه اليهم وقاتلهم اشد قتال فرسانا ورجالا، فظفر بهم وقتل اكثرهم، واخذ الباقين اسرى وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها لمن رام اخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله، صلى الله عليه وسلم، وعاد بالباقين إلى مصر، فقتلوا جميعهم» [الكامل ج 11 ص 490].

على ان من يدرس معارك صلاح الدين مع الصليبيين في هذه الفترة يظهر له ان جل هذه المعارك لم يكن المقصود منها سوى الاعداد والاستعداد للمعركة الكبرى معركة انقاذ الساحل،

او انها بمثابة التمهيد او التمرين المسبق والمناورات التي تسبق المعركة الكبرى الساخنة. كما ان من يتعمق وَضْعَ صلاح الدين تجاه الصليبيين، يخرج بالانطباعات التالية كما صَوَّرها المؤرخون الغربيون للحروب الصليبية انفسهم:

- فصلاح الدين هو الاقوى بين الامراء والملوك المسلمين جميعا في وقته [Stevenson p. 230] ويذكر ستيفنسون ان كاتبه القاضي الفاضل يقول بمبالغة متسامح عليها، انه لم تكن هنالك أرض إسلامية لم تكن خاضعة له. [المصدر نفسه].

- ويرى المراقبون لوضع الصليبيين في هذه الآونة انهم كانوا كأنما يصارعون القدر. لقد كانت قدرتهم على المقاومة المستمرة تعتمد على كمية العون الذي يتلقونه من اوربا لقد كانوا يتشاورون مع بعضهم، كما هي الحال عندما يكون الشر والويل ليس في المستطاع السيطرة عليه. لقد تحدثوا وتناقشوا بحدة ولكنهم عرفوا في اعماق قلوبهم انه لا يوجد علاج حقيقي [Stevenson p. 231].

وقد كانت تهمة الانحطاط التي اتهمهم بها وليم الصوري، قد اصبحت العلامة الفارقة لهم والصفة العامة لهم لدى المؤرخين الذين جاءوا بعده، من اولئك الذين انقادوا لوليم الصوري نفسه. [نفس المرجع].

امام هذه المعطيات في الصف الصليبي لم يكن صلاح الدين ليقف ساكتا. لقد حاول صلاح الدين ان يوظف النزاعات بين صفوف الصليبيين وان يفيد من اخطائهم. ولقد كان المسلمون متحدين ومتكاتفين كما لم يكونوا في اي وقت مضى.

ومع اقتراب اللحظة الفاصلة، استمر صلاح الدين في مناوشتهم، فقد هاجم ومعه ابن اخيه فروخ شاه، حصن كوكب الذي يشرف على اقليم الغور. وكان ان اسرع الصليبيون اليهم حيث شنوا هجوما عند عَفَربلا «واستشهد جماعة من المسلمين وكان النصر لأهل الإسلام» [ابن واصل مفرج الكروب ج 2 ص 115، المقريزي السلوك ج 1 ص 78].

جدير بالذكر ان الصليبيين ظلوا حتى النهاية يحاولون اللعب على الجبهة الإسلامية الداخليه لدى صلاح الدين فقد عقد تحالف ضد صلاح الدين بين الصليبيين من جهة والزنكيين من جهة اخرى، والواقع ان الزنكيين لم يقفوا مكتوفي الايدي أمام تهديد صلاح الدين للموصل،

وانها ارسلوا سفارة من الموصل إلى ملك بيت المقدس يعرضون عليه دفع جزية سنوية قدرها عشرون الف دينار، وتسليم بانياس وحبيس جلدك للصليبيين، فضلاً عن اطلاق سراح جميع من لدى المسلمين من الاسرى اذا نجح الصليبيون في طرد صلاح الدين من دمشق.

ومهما يكن من أمر ففي عام 1182 قام الملك بلدوين، ومعه البطريرك يحمل صليب الصلبوت بحملة على منطقة حوران، نهبت اذرعات (درعا) ووصلت إلى بصرى، بينما استعاد ريموند أمير بصرى قلعة حبيس جلدك. وفي ديسمبر من نفس العام قاد ريموند فرسانه واخترقوا مرة اخرى منطقة بصرى، وبعد أيام قلائل ذهب الجيش الملكي مرة اخرى إلى دمشق، وعسكر في داريا في ضواحي دمشق [Runciman II p. 434]. على أن الفتيل الذي اشعل النار في الحرب الفاصلة كانت نزعة التحدي والصلف التي مارسها ارناط ضد المسلمين حتى اللحظة الاخيرة. ففي ربيع 1187 ضرب ارناط عرض الحائط بالمعاهدة بينه وبين صلاح الدين. فقد سدد رينولد الضربة الاولى للمسلمين مستفيدا من موقعه المتوسط، على طريق القوافل بين مصر والشام. فكما يحدثنا ابن الأثير: ان اجتازت به قافلة عظيمة جزيلة الأموال، كثيرة الرجال، ومنها جماعة صالحة من الاجناد، فغدر ارناط بهم، وغنم اموالهم ودوابهم وسلاحهم واودع السجون من أسره منهم. وعندما كتب اليه صلاح يلومه ويهدده ان لم يطلق الاسرى والاموال، لم يجبه إلى ذلك واصر على الامتناع.

وكان الرد العملي من صلاح الدين الدعوة إلى تحشيد جنوده من كل مكان من الموصل وديار الجزيرة واربل إلى مصر والى سائر بلاد الشام، من أجل الجهاد. ثم خرج من دمشق ووجه سراياه إلى الكرك والشوبك، الذين حاصروا ارناط بحيث بات «لا يقدر على المنع عن بلده، وسائر الفرنج قد لزموا طرف بلادهم، خوفا من العسكر». [ابن الأثير الكامل ج 11 ص 528-530].

ولم يتوقف صلاح الدين، بل حول قسما من جيشه نحو عكا، ووصل هؤلاء إلى صفورية حيث جرت معركة كبرى «تشيب لها المفارق السود» [الكامل ج 11 ص 530]. آية الأمر ان المسلمين، وربما ساعدهم في ذلك كثرة عددهم، احرزوا نصراً كبيرا، فقد قتل عدد كبير من الفرسان الصليبيين ومعظم من ظلوا احياء اخذوا اسرى وقد شجع هذا الحدث فريقا بينما ارعب الفريق الآخر [Stevenson p. 242] .

وهكذا نلاحظ، عزيزي القارئ، ان الساعة الحاسمة، ساعة التحرير .. التي طالما انتظرها صلاح الدين والمسلمون معه قد ازفت. وان روائح حطين، المعركة الفاصلة لتحرير بيت المقدس، أصبحت تهب، وان صلاح الدين الذي طالما تغذى كيانه بهذا الهدف، أصبح يحدّث نفسه باليوم الموعود، اليوم الذي سيتقرر فيه المصير!

4.3 معركة حطين، مقدماتها، أحداثها، نتائجها.

عزيزي القارئ، سنعالج في هذ المعركة مقدماتها وكيف افضت إلى نشوبها واحداثها، وما ترتب على هذا النشوب وهذه الأحداث من نتائج ..

3 .4 .1 المقدمات:

يأتي في طليعة هذه المقدمات مهاجمة رينولد دي شاتيون (أرناط) المدينة الإسلامية المقدسة، مكة، في عام 1182، والقوافل الغنية المتوجهة اليها. فمن عيذاب توجهت وحدات الاسطول الصليبي إلى حرق السفن الإسلامية في الحوراء وينبع ميناءي المدينة، وتوغلت حتى رابغ أحد موانئ مكة. وعلى مسافة قريبة اغرق الصليبيون سفينة حج متوجهة إلى جدة. ومن هنا فقد رُوع العالم الإسلامي. ولا شك انه تحركت في نفوسهم عوامل الرد الجذري على هذا الخطر الصليبي على الديار المقدسة [Runciman II p. 437] .

وهنا نجد ان أمير البحر المصري حسام الدين لؤلؤ لحق باسطوله إلى الحوراء يخرب الاسطول الصليبي ويأسر كل من هو على هذا الاسطول. وقليل من هؤلاء ارسلوا إلى مكة، حيث نحروا في منى في موسم الحج. وأما الباقي فقد اخذوا إلى القاهرة حيث قطعت رؤوسهم وهنا أقسم صلاح الدين، بقوة ان رينولد سينال العقاب لهذه المحاولة القاسية الرهيبة القسوة !

لقد اثرت هذه الحادثة من ناحية اخرى، اذ تعززت فيها قوة الصف الإسلامي، وازدادت عزلة الصليبيين. فبعد ان كان اتابكة دمشق، ثم اتابكة حلب، واتابكة الموصل يحرصون علي محالفة ملوك بيت المقدس، كلما هددهم خطر من جانب زنكي او نور الدين اذ بالصليبيين بعد محاولتهم الاعتداء على الحرمين يبدون على حقيقتهم، بما حال دون تعاون أي قوة إسلامية معهم. بل ان المسلمين رأوا في تهديد الحرمين نذيراً بقيام الساعة وعلامة على «غضب الله لفناء

بيته المحرم» [ابن واصل ص 129] و[عاشور ج 2 ص 788].

– توفي الملك بلدوين الخامس، عام 1186، الذي تولى بعد بلدوين الرابع الملك الذي كان يعاني من الجذام. وكان ان ترتب على هذه الوفاة ان تولت على عرش مملكة بيت المقدس، الأميرة سيبل زوجة جاي لوزنجيان، واثناء تتويجها طلبت سيبل من جاي ان يقترب وان يركع أمامها ووضعت التاج على رأسه [Runciman II p. 448] .

وهذا معناه انه أصبح ملكاً على بيت المقدس، وقد عُرف الملك جاي بالجبن والضعف .. يقول تريس Treece: «لما كان جاي جبانا في اعماقه، فانه يقال انه كان خائفاً من جيرارد زعيم الداوية، اكثر من خوفه من صلاح الدين نفسه» (Treece, The Crusades, p. 193) وقد ظهر تردده عشية معركة حطين عندما عدل عن البقاء في صفورية تحت تأثير امرائه بعد ان كان قد وافق على البقاء، وهو الأفضل استراتيجياً، وكان هذا تحت تأثير بعض الامراء، مثل أمير الداوية وريتولد دي شاتيون. كما انه في مواقف كثيرة كانت دائما، مواقفه تتميز بالخور والتردد وعدم الحسم الأمر الذي زاد في سوء الامور، وسيرها نحو التدهور باتجاه الصدام مع المسلمين، وهو غير مستعد، او انه في ظل ظروف غير مواتية. يقول رونسيمان «ان سلوك جاي قد هز الجنود الذين آمنوا انه جبان والبارونات الذين عرفوه بأنه ضعيف» [Runciman II p. 439].

– ومن المقدمات، أيضا، التي قادت إلى موقعة حطين، محاصرة صلاح الدين لمدينة الكرك 1184 حيث صادف في نفس الوقت زواج الامير همفري تورون (تبني) في لبنان احدى الاميرات الصليبيات. وكان صلاح الدين قد استعد تلك المرة استعداداً قويا، فأحضر المنجنيقات وآلات الحصار حتى اذا ما اوشك ان يحقق غرضه، تدخلت مملكة بيت المقدس لتفسد عليه عمله. وهنا اضطر صلاح الدين إلى الانسحاب، وانتقم من مملكة بيت المقدس بالاغارة على نابلس وسبسطية وجنين [عاشور ج 2 ص 790] وهذا أيضا مما زاد في السلوك نحو المعركة الفاصلة وزيادة تأزم الموقف وتوتره، فالأمور لم تنته إلى حل، ولم تستقر حالة السلام المطلوبة على حال.

– في مارس 1187، اي في الجزء الأول، من السنة التي وقعت فيها موقعة حطين اعترض

رينولد دي شاتيون / ارناط قافلة للمسلمين محملة بالاشياء الثمينة. وقد استولى على البضائع، واخذ المسافرين أسرى، وعندما فشلت رُسُلُ صلاح الدين في حفز رينولد على تسليم المال والرجال اقسم صلاح الدين - مرة اخرى - أن يقتله اذا وقع اسيرا في يده. ويعلق رونسيمان على هذا الاعتراض لطريق القوافل من قبل رينولد بقوله: «لقد كان هذا خرقاً مخزيا للمعاهدة، جعلت الحرب امراً لا مفر منه، هذه الحرب التي كانت اوضاع البلاد غير مواتية لها» [Runciman II p. 450]. وفي نفس الوقت فقد هدد رينولد [ارناط] ان يهاجم الحجاج المسلمين مما جعل صلاح الدين يرابط بالقرب من بصرى ومعه فئة مختارة من فرسانه، حتى تمكن الحجاج من المرور بسلام. وبينما كان ينتظر صلاح الدين هناك غرب، الحقول حول الكرك والشوبك وعليه فقد قيل: «لقد كان الذئب مدركاً ان الأسد بانتظاره، ولذلك لم يستطع التحرك !» [Stevenson p. 241].

وتصف المصادر الإسلامية هذا الحدث بقولها إن صلاح الدين تذرع بالحلم، وأرسل إلى أرناط مقبحاً اعماله «ويتهدده ان لم يطلق سراح الاسرى والاموال» ولكن ارناط «امتنع من اجابة السلطان لاطلاقهم» وأصم اذنيه عن التهديد «وابى الا الاصرار والاضرار» [السلوك ج 1 ص 93]. لقد بلغ من جرأة ارناط وقحته وحرصه على استفزاز المسلمين أن رد على صلاح الدين قائلاً «قولوا لمحمد يخلصكم !» [ابن واصل مفرج الكروب ج 2 ص 194] وهنا نذر صلاح الدين ان ينتقم «نذر دمه واعطى الله عهدا إن ظفر به ان يستبيح مهجته» [مفرج الكروب ج 2 ص 185] كل هذه المحرضات، على الحرب، اضافة إلى الهدف الاستراتيجي الكبير الذي كان قد نذر صلاح الدين نفسه لتحقيقه ونعني به تحرير الساحل وبيت المقدس، جعل معركة حطين أمراً لا بد منه.

2.4.3 الاحداث:

- انعقد مجلس حرب من ملك بيت المقدس وبارونات الامارات الصليبية المختلفه، في صفورية، وهنا أظهر ريموند أمير طرابلس، معارضته لترك الموقع الراهن في صفوريه والسير المحوط بالخطر في حرارة تموز فوق التلال العارية [Runciman II p. 456]. فهم اي الصليبيون اذا استمروا في موقعهم، وافترض ان المسلمين زحفوا اليهم، سيكونون في موقع افضل، لأن المسلمين سيصلون مجهدين بسبب وعورة الطريق وحرارة الجو وقلة الماء [Stevenson pp. 244-245].

الا ان هذا الرأي الذي حمل منطقيةً ومعقولية معينة لم ينل اعجاب ارناط، فاتهم ريموند بأنه يبالغ في التخوف من المسلمين «وانه يريدهم ويميل اليهم، والا ما كنت تقول هذا». «وما قولك انهم كثيرون: فان النار لا يضرها كثرة الحطب» [الكامل ج 11 ص 532]. لكن مداولات الحضور أيدت وجهة نظر ريموند في الاستمرار على الاقامة في موقعهم في صفورية. لكن سيد فرسان الداويّة قال لجاي: «هل ستثق في بخائن؟» .. وهنا ارسل برسله خلال المعسكر ان يعلنوا ان الجيش سيرحل في الفجر إلى طبرية» وعندما سمع ريموند بهذا، صاح قائلاً «يا الهي، لقد انتهت الحرب، اننا ميتون لا محالة. لقد انتهت المملكة !» [Runciman II p. 457].

أسئلة التقويم الذاتي (5)

- تحدث عن ما تعرفه عن مقدمات موقعة حطين ؟

- في اليوم التالي، السبت، وصل الصليبيون إلى حطين منهكين مرهقين، فباتوا ليلتهم في بؤس وحزن. وبالمقابل كان المسلمون الذين عسكروا إلى الغرب من بحيرة طبرية وجعلوا الماء تحت سيطرتهم في أفضل حالاتهم النفسية. وبينما كان الصليبيون يئنّون من العطش والانهاك. كانت اصوات المسلمين تملأ الفراغ الكبير وقد «اكثروا التكبير والتهليل طول ليلتهم». وعندما كان بعض الصليبيين، الذين يدفعهم العطش إلى التسرب ليلاً إلى الماء، كانوا يجدون المسلمين لهم بالمرصاد. ومن أجل زيادة الآلام في صفوف الصليبيين عمد المسلمون إلى اشعال النار في الهشيم، الذي كان يغطي التلة. والأمر الذي جعل الدخان يعمي العيون ويزيد في العطش وسوء الحالة، الأمر الذي زاد الطين بلة. فبالإضافة إلى حرارة تموز اللاهبة جاء حر الدخان وفقدان الماء ليزيد من هول الحر! «وكانت الريح على الفرنج فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان وحر القتال» [قارن عن وصف المعركة في هذه المرحلة منها، Stevenson p. 246، الكامل ج 11 ص 534].

وعندما اصبح الصباح، وجد الصليبيون ان صلاح الدين قد وظف ستار الليل في إحكام الاحاطة بهم «احاطة الدائرة بقطرها» [الكامل ج 11 ص 535] فركب الفرنج، ودنا كل طرف من الطرف الآخر، والصليبيون قد اشتد بهم العطش [Runciman II p.4]، او

كما يقول رونسيان: لم يكن لدى الجيش المسيحي فكرة سوى فكرة الماء واشتد القتال وصبر الفريقان، ورمى رجال النشاب من المسلمين بنشابهم كانه الجراد المنتشر.

وهنا قاد ريموند فرسانه من اجل ان يقوم بعملية التحام في صفوف المسلمين. وبكل رجاله توجه نحو الكتيبة التي يقودها تقي الدين عمر. ولكن تقي الدين لم يَتَصَدَّ له، بل فتح الصف لإتاحة الفرصة له بالمرور، ومن ثم «التأم الصف» [الكامل ج 11 ص 535] وبهذا فان ريموند ورجاله لم يستطيعوا العودة لرفاقهم، وبكل البؤس - كما يقول رونسيان - اكملوا طريقهم إلى طرابلس. وبعد قليل لحق بهم باليان صاحب يُبْنَى ورينولد صاحب صيدا حيث شقوا طريقهم خارج المعركة. وقد كان هؤلاء هم الاخيرون في الهرب [Runciman II p. 458]. وقد أثنى بهاء الدين بن شداد على ريموند لانه بادر بالهرب: «وكان القومص ذكي القوم وألمعيّهم فرأى امارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن، محاسنة جنسه عن نفسه، فهرب في بداية الامر قبل اشتداده، واخذ طريقه نحو صور». [النوادر السلطانية ص 100].

وهكذا ظل المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وأمامهم الصليبيون يتراجعون، والقتل والاسر يعملان في فرسانهم، حتى بقي ملك بيت المقدس وحوله مائة وخمسون من الفرسان، فقبض عليهم المسلمون جميعا وهم يتساقطون على الارض لا يستطيعون حراكا من الانهاك والعطش والخوف.

ولعله لا يكتمل وصف هذه المعركة الا بوصف أحد مشاهدها، الذي يصور كيف ان الحرب كانت سجالاً بين الطرفين لفترة من الوقت، وانها استمرت في هذه الفترة بين شد وجذب، وكر وفرّ حتى تم النصر للمسلمين. يذكر ابن الأثير ومعه طائفة اخرون من المسلمين هذا الحوار الذي دار بين صلاح الدين وابنه، في أواخر المعركة، يقول ابن الاثير: «حكي لي عن الملك الأفضل، ولد صلاح الدين، قال: كنت إلى جانب ابي في ذلك المصاف، [الموقعة]، وهو اول مصاف شاهدته، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بازائهم من المسلمين، حتى الحقوهم بوالدي. قال فنظرت اليه، وقد علته كآبة، واربدّ لونه وامسك بلحيته، وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان. قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي: هزمناهم! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الاولى، حتى الحقوا المسلمين بوالدي،

وفعل مثلها فعل اولاً، فالتفت والدي الي، وقال: اسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمه، قال: فهو يقول لي، واذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى، وبكى من فرحه» [الكامل ج 11 ص 536].

انتهت المعركة، وقد يئس الصليبيون ان يجدوا للخلاص طريقا فنزلوا عن الدواب وجلسوا على الارض، فصعد المسلمون اليهم، فأسروهم جميعا، وفيهم الملك واخوه، والبرنس ارناط صاحب الكرك، واسروا أيضًا صاحب جبيل وابن هنفري [همفري] ومقدم الداوية، واسروا أيضًا جماعة من الداوية، وجماعة من الاسبتارية. [الكامل ج 11 ص 537].

وقد كثر القتل والاسر فيهم، «فكان من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا واحداً ومن يرى الاسرى لا يظن انهم قتلوا واحداً» [الكامل ج 11 ص 537].

بعد هذا جاءت ساعة المواجهة العظيمة بين صلاح الدين ومجموعة أسراه وبالذات ارناط! وتمضي الرواية التاريخية لتقول: ان صلاح الدين احضر ملك الفرنج عنده، وبرنس صاحب الكرك، وأجلس الملك إلى جانبه، وقد أهلكه العطش فأسقاه ماء مثلوجا، فشرب وأعطى فضله، برنس صاحب الكرك فشرب، فقال صلاح الدين: ان هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلم البرنس، وقرعه بذنوبه، وعدد عليه غدراته، وقام اليه بنفسه فضرب رقبته وقال: كنت نذرت دفعتين ان اقتله ان ظفرت به: احداهما لما اراد المسير إلى مكه والمدينة، والثانيه لما أخذ القفل غدرا، ولما قتله وسحب واخرج ارتعدت فرائضُ الملك، فسكن جاشه وأمنه [الكامل ج 11 ص 537].

بعد هذا النصر المبين، انصرف صلاح الدين من حطين، في حين سيق الاسرى إلى دمشق حيث حبس الامراء، وبيع عامة الفرسان والجند في اسواق الرقيق. وقد بلغ من كثرة الاسرى ان الاسير كان يباع في دمشق بثلاثة دنانير وكان «يباع الرجل وزوجته واولاده في المناداة بيعة واحدة» وقد بلغ سعر الجملة للاسرة المؤلفة من الصليبي وزوجته وابنائه الثلاثة وبنتيه ثمانين ديناراً [عاشور ج 2 ص 809].

3.4.3 النتائج:

يعلق ستيفنسون على نتائج معركة حطين بقوله: ان هزيمة اللاتين في حطين كان المقدمة

لما يمكن وصفه بالانهيار الكلي لمملكة بيت المقدس وفي تفسير احداث هذه الشهور - من المجابهة بين الطرفين الإسلامي والصليبي - يجب وضع عبقرية صلاح الدين في المكان الارفع. لقد رأى فرصته، وعرف كيف يوظفها وكرس نفسه بدون احساس بالتعب للمهمة والغاية. وهنا يقع انجاز اي قائد عظيم. لقد كان اللاتين بلا جيش، وبلا حاميات كافيه، وبدون قادتهم الطبيعيين، وهم كل القادة في المملكة ومقدمو الداوية والاسبتاريّة المتوافرون وكل هذه كانت نتيجة هذا اليوم المأساوي. من هنا فلا عجب انه هنا يكمن ايضا، المزيد. لقد هبطت عليهم موجة من الاحساس باليأس، هذه الموجة التي كانت تتجمّع، منذ وقت، وبقوة تشل منهم الكيان. لقد فقد جيشهم، ولكن اسوأ الاشياء ان الله مقابل خطاياهم، قد نسيهم [Stevenson p. 248]!

أما رونسيمان فيقيّم النصر بقوله «انه في قرون حطين، فان الجيش الاعظم الذي قدر للمملكة انه تجمعه اكثر من اي وقت قد اضمحل وانتهى. وقد فقد الصليب المقدس، والمنتصر اصبح سيد العالم الإسلامي بأجمعه» [Runciman II p. 460].

وقد سلمت كونتيسة طرابلس، طبرية لصلاح الدين وقد عاملها صلاح الدين بالشرف الذي تستحق وسمح لها بالذهاب مع كل افراد بيتها إلى طبرية. وفي نابلس صمدت حامية باليان لأيام قليله وحصلت على شروط طيبة عندما سلمت. وقد قاوم حصن تبنين لمدة اسبوعين قبل ان يسلم. وفي نفس الوقت جاء أخو صلاح الدين الملك العادل من مصر وحاصر مدينة يافا. ولما لم تستسلم المدينة له سِلما اقتحمها واخذها عنوة، واخذ جميع سكانها من رجال ونساء واطفال، اسرى.

وقد استسلمت صيدا بدون اي مقاومة في 29 يولية 1187. وقد حاولت بيروت ان تدافع عن نفسها ولكنها سلمت في 6 اغسطس. وقد سلمت جبيل بعد ايام قلائل. وفي نهاية اغسطس كان قد تبقى لدى المسيحيين جنوب طرابلس وصور وعسقلان وغزة وقليل من الحصون المعزولة والمدينة المقدسة. وقد سلمت عسقلان في 4 سبتمبر بالقوة. وقد سمح للسكان بأن يرحلوا مع كل ممتلكاتهم المحمولة [Runciman II p. 460-462].

5.3 تحرير بيت المقدس، أثره ونتائجه

كانت حطين معركة فاصلة أو كما يقول أحد المؤرخين: «كانت حطين اعظم من مجرد كارثه حربية، لقد كانت في حقيقة أمرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على اكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى» [عاشور ج 2 ص 810].

لقد كان اول عمل عمله صلاح الدين بعد حطين، هو تسلم حصن طبريه، واكرام الكونتيسه ايشيف زوجة ريموند الثالث حيث «اخرجها من حصنها بالامان، ووفى لها وللفرسان بَنيها بشروط الايمان، فخرجت بمالها ورجالها ونسائها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها ورجالها» [الروضتين ج 2 ص 79 في قلعجي ص 328] ثم سار نحو عكا وكان حاكمها جوسلين الثالث دي كورتناي، الذي كان ضعيفا متخاذلاً اذ ما كاد صلاح الدين يشارف المدينة حتى أرسل جوسلين مفاتيحها مشترطا تأمين الفرنجة على ارواحهم وارزاقهم «فأمنهم على أنفسهم وأموالهم وخيرهم بين الاقامة والظعن» [الكامل ج 11 ص 538] ويكمل ابن الأثير روايته ويقول «فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين الذين رأوا فيها من الذهب والجوهر والسقلاط والبندقي والشكر والسلاح وغير ذلك من الامتعة كثيرا» [الكامل ج 11 ص 519]. ولم يلبث أن وجد الصليبيون في صلاح الدين قلبا رحيما، ويقال ان صلاح الدين اطلق اربعة آلاف اسير من المسلمين كانوا في عكا، ورتب في كنيستها العظمى منبراً اقيم فيه الجمعه، كما اقطع ذاتها لابنه الافضل»] انظر المقريزي السلوك ج 1 ص 94 والكامل ج 11 ص 540-539].

وقد وجه صلاح الدين عساكره للاستيلاء على المواقع القريبة فاستولوا على الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية والفولة وسبسطية وتبنين، وكان اخوه الملك العادل سيف الدين يزحف من مصر اجابة لطلبه فيستولي على مجدل يابا ويافا [المقريزي السلوك ج 1 ص 195].

ثم اتجه صلاح الدين إلى صيدا، فاستولى عليها، وواصل مسيره إلى بيروت فسلمت بعد حصار قصير. فلما احتل المسلمون بيروت ارسل صاحب جبيل هيو إلى السلطان يطلب منه اطلاق سراحه مقابل تسليمه جبيل ومن فيها من اسرى المسلمين، فقبل السلطان ذلك، واطلق سراحه وتسلم منه المدينة [عاشور ج 2 ص 817].

ولم يواجه صلاح الدين صعوبة تذكر في فتح هذه المدن الا في صور. ذلك ان صلاح الدين

قد استولى على معظم المدن والقلاع والمراكز الساحلية في جنوب بلاد الشام، الا انه ترك من فيها من الصليبيين احراراً، كما ترك لهم حرية البقاء او الخروج فقصد معظمهم مدينة صور. وسرعان ما ادرك صلاح الدين ان وضع صور اصبح صعبا .. يقول ابن الاثير: «وكان قد اجتمع في صور من الفرنج خلق كثير لأن صلاح الدين، كان كلما فتح مدينة مثل، عكا وبيروت وغيرهما، مما ذكرنا اعطى أهلها الامان، فساروا كلهم إلى صور، وكثر الجمع بها الا انه ليس لهم رأس يجمعهم. ولا مقدم يقاتل بهم، وليسوا أهل حرب، وهم عازمون على مراسلة صلاح الدين وطلب الامان وتسليم البلد اليه» لكن هذا الوضع للناس في صور قد تغير بقدوم من يعرف بلقب المركيز واسمه الحقيقي كونراد دي مونتفرات وهو أحد امراء ايطاليا الذي قدم من القسطنطينية مع عدد من الفرسان لخلافٍ نشأ بينه وبين امبرطورها، وكان يحمل ثروة طائلة وخبرة عظيمة، وعزيمة جبارة وقرر الصمود في صور وجعلها قلعة لمقاومة صلاح الدين: فحفر فيها الخنادق وانشأ الابراج، وجدد الاسوار، ودرب الجند، وقوى النفوس، وشحذ العزائم حتى اصبحت مركزا معيناً للفرنجه يَفدون اليه ويعتمدون عليه، ثم اصبحت قاعدة للحملة الصليبية الثالثة [قلعجي ص 329]. ويصف ابن الأثير المركيز فيقول: «وكان من شياطين الانس حسب التدبير والحفظ» [الكامل ج 11 ص 544].

ويرى المؤرخون في مجيء المركيز إلى صور، حدثاً تاريخيا هاما غيَّر الموقف بالنسبة للصليبيين «اذ وجدوا فيه زعيما التفوا حوله، وعقدوا عليه آمالهم، بعد ان ذهب عنهم زعماؤهم في واقعة حطين وكان في عزم اهل صور مكاتبة صلاح الدين وطلب الامان وتسليم البلد، فلما جاءهم المركيز ردهم عن ذلك العزم وقوى نفوسهم وضمن لهم حفظ البلد» [التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص 189].

ومهما يكن من أمر فقد رحل صلاح الدين عن صور إلى عسقلان «بوابة القدس» فحاصرها ومعه اخوه العادل وولده العزيز عثمان، واحضر الملك جاي، وابلغ الحامية انه مستعد لاطلاق سراحه، ان هي استسلمت له، فأبت ذلك، ورفضت مساعي جاي، فأعاده إلى الاسر ثم افرج عنه بعد بضعة اشهر اعترافاً بمساعيه هذه، وشدد الهجوم على المدينة، فاستسلمت بعد عدة أيام، ثم بعث بسراياه في نواحيها فاستولت على حصون الداوية. ثم احتلت الرملة والداروم والخليل وبيت لحم.

فتح القدس

خلخلت موقعة حطين، عزيزي القارئ، الوضع الديمغرافي للمدينة بحيث اصبحت نسبة السكان فيها 50 امرأة وطفل مقابل كل رجل، وهذا ان دل على شيء فهو يدل على ان قدرة المدينة الدفاعية اصبحت ضعيفة جدا، كان هذا عندما غدت الطريق مفتوحة أمام صلاح الدين، فسار اليها بجيشه، فبلغها في 15 رجب سنة 583 هـ/ 20 ايلول 1187. الا انه لم يشأ ان يفتحها عنوة وبالقوة ففاوض حاميتها على التسليم، متعهداً باحترام الاماكن المقدسة وشعائر الديانة المسيحية ومشاعر المسيحيين، وكتب لهم في ذلك كتابا جاء فيه: **«انني أنا نظيركم ايضا، واعرف ان القدس هي بيت الله، ولست آتيا لكي أدنس قدسيتها بسفك الدماء، فعليكم ان تدعوها، وانا اكفيكم امركم وأهب لكم من الارض ما تستطيعون ان تعملوا فيه»** [تاريخ الحروب المقدسة في المشرق ج 2 ص 90] الا انهم رفضوا الدعوة إلى السلم وأبوا الا المقاومة والقتال. وهنا أقسم صلاح الدين على أخذ بيت المقدس بحد السيف ومع ذلك فقد تصرف صلاح الدين مع من بداخل المدينة من الصليبيين تصرفا كريما. ولكنهم اصروا على موقفهم، وعندئذ قرر صلاح الدين ان **«لا يبرح حتى يبر بقسمه، ويرفع باعلاه علمه»** [الفتح القسي ص 43].

وطاف السلطان بمدينة القدس عدة أيام دارساً متفحصاً، ثم اتخذ جبل الزيتون مركزا لجنده، لأنه وجد اسوار المدينة في هذه الناحية اضعف منها في اية ناحية اخرى. ثم نصب المجانيق، وضايقها بالزحف والقتال، وكان فرسان الفرنجه يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد يقاتلون مستبسلين ثم يعودون يقول ابن الاثير: **«ونصب الفرنج على سور البلد مجانيق ورموا بها، وقوتلوا اشد قتال، رآه أحد من الناس، كل واحد من الفريقين يرى ذلك دينا، وحتما واجبا، فلا يحتاج فيه إلى باعث سلطاني، بل كانوا يمنعون ولا يمتنعون ويزجرون ولا ينزجرون»** [الكامل ج 1 ص 547].

وفي هذه الفترة التي تصاعد فيها القتال إلى اشده، استشهد من بين المسلمين أحد كبار مجاهديهم واسمه عز الدين عيسى بن مالك، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك، فحملوا حملة رجل واحد، وازالوا الفرنج عن مواقعهم، وزحفوا إلى الخندق، فاجتازوه،

والتصقوا بالسّور، في ناحية باب العمود، فنقبوه. هنا ادرك المدافعون عن المدينة انه لابد من طلب الأمان من صلاح الدين او كما يقول رونسيمان بشيء من التهكم المبطن: «ولكن البطريرك هيرقليوس لم تكن له رغبة ان يموت شهيدا! وانهم اذا ماتوا شهداء فانهم سيتركون نساءهم واطفالهم إلى العبودية التي لا بد منها. وانه لا يعطي مباركته لمثل هذا العمل غير التقي. وقد وافقه على هذا الرأي قائد الدفاع عن المدينة باليان وفي 30 سبتمبر ذهب هو بنفسه إلى معسكر صلاح الدين ليسأله عن شروطه للتسليم [Runciman II p. 464].

وتذهب الرواية التي تتحدث عن الفتح أن صلاح الدين أمسك بيد باليان، وذهب به حيث يمكنه الاطلاع على المدينة، حيث كانت الاعلام الصفراء تخفق فوق عدد من اسوار المدينة، والى العلَم الذي كان رجاله يرفعونه في تلك اللحظة فوق ثغرةٍ جديد أحدثوها في السور القديم وقال له: «هل لمدينة وقعت في الأسر ان تطلب شروطا للصلح ؟» فقال باليان كما يروي ابن الأثير وغيره: «اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير لا يعلمهم الا الله تعالى، وانما يفترون عن القتال رجاء الايمان ظنا منهم انك تجيبهم اليه، كما اجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فاذا رأينا ان الموت لا بد منه، فوالله لنقتلنَّ ابناءنا ونساءنا ونحرق اموالنا وامتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهما، ولا تسبون، وتأسرون رجلاً ولا امرأة، فاذا فرغنا من ذلك خرّبنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانا الا قتلناه ثم نخرج اليكم كلنا فنقاتلكم قتال من يريد ان يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل امثاله، ونموت اعزاء او نظفر كراما» [ابن الأثير ج 11 ص 549-548].

وهنا استجاب صلاح الدين إلى بذل الامان للفرنج، ويعلق محمد كرد على هذه الاستجابه من صلاح الدين لرسول الصليبيين بقوله: «وكان رأى صلاح الدين أخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته اولاً من اهراق الدماء، كما اهرق اجدادهم دماء المسلمين، وهذا التهديد من سفير الصليبيين في سبيل الصلح لا شأن له مع صلاح الدين، وهو في تلك القوة والمنعة، ولكن صلاح الدين يرمي إلى مقصد أعلى من جميع مقاصد جماعة الصليبيين، كان يريد بما فعل من قبل الفداء تعليم الصليبيين درسا في مكارم الاخلاق وسماحة الإسلام» [خطط الشام ج 2 ص 61].

ولم يرض صلاح الدين ان يدخله الا ومعه مندوبون من اطراف البلاد الإسلامية فدخله ومعه زهاء عشرة آلاف عمامة (ماجد ص 172).

غاية الأمر أن صلاح الدين كتب فصلاً في التسامح، لعله لم يُكتب فصل مثله في كل العصور، فبعد ان دخل القدس في يوم الجمعة 2 اكتوبر 2 ذكرى ليل 27 رجب 583 هـ وهي ليل اسراء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى بدأت عملية انسانية في التعامل مع سكان المدينة المفتوحة. فبعد أن فرض على الرجل عشرة دنانير، وخمسة دنانير للمرأة وديناراً واحداً للطفل. هنا تَبَدَّت سماحة صلاح الدين وتسامحه ومن حوله اقرباؤه ورجاله على اعظم وجه. فقد طلب الملك العادل من اخيه الف اسير ليعفو عنهم نظير خدماته. فمنحه صلاح الدين هذا العدد وفي الحال عفا العادل عنهم. وعندئذ سأل البطريرك ان كان بإمكانه ان يمنح بعض العبيد ليعفو عنهم فمنحَهُ صلاح الدين سبعمائة واعطى باليان خمسمائة. وعندئذ اعلن صلاح الدين انه سيعفو عن كل رجل كبير السن وكل امرأة كذلك.

وعندما جاءت اليه النساء اللواتي فدين انفسهن وسط الدموع، يسألنه إلى اين يذهبن، لأن ازواجهن او آباءَهُنَ قد ذبحوا او وقعوا في الأسر. وهنا رد عليهن صلاح الدين بإطلاق سراح اقربائهن كما أعطى لهؤلاء الأرامل واليتامى الهدايا من خزينته ولكلٍ حسب حالتها. يقول رونسيمان «لقد كانت الرحمة والعطف في تناقض غريب مع الاعمال التي قام بها المسيحيون المتصرون في الحملة الصليبية الاولى» [Runciman II p. 466] ويقول ايضا: «كان المتصرون معقولين وانسانيين، فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانٍ وثمانين عاما يخوضون في دماء ضحاياهم، لا نجد في هذه المرة بناءً نهب ولا انسانا اصابه أذى، ونرى الحراس تنفيذاً لأوامر صلاح الدين - منبثين لحراسة الطرق والابواب وحماية المسيحين من اي اعتداء قد يصيبهم» [Runciman II p. 466].

وقد كان البطريرك اللاتيني هراقليوس اول من غادر القدس، وكان يحمل مقداراً كبيراً من الاموال والجواهر، فقيل للسلطان: «خذ ما معه لتقوي به المسلمين» فقال «لا اغدر به!» ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير. وهمَّ بعض الامراء باعتراض البطريرك لما رأوا معه من الاموال، فمنعهم صلاح الدين وقال لهم «الوفاء خير» (دول الإسلام ج 2 ص 70 في قلعجي ص 329].

وبعد ان تسلم صلاح الدين في بيت المقدس الفدية المتفق عليها، اخذ يعد الترتيبات لترحيلهم إلى الأراضي الصليبية في صور وطرابلس فقد جمعهم صلاح الدين خارج المدينة تحت حراسة شديدة وقسمهم ثلاث مجموعات، مجموعة قادها الداوية، ومجموع قادها الاسبتارية، والمجموعة الثالثة قادها باليان نفسه، ثم ارسلهم مخفورين خوفا عليهم من ان يتعرضوا لاعتداءات البدو في الطريق ولكن اهل طرابلس خشوا على أنفسهم ومدينتهم من تلك الجموع، فاغلقوا ابواب مدينتهم في وجوههم، ورفضوا ان يستضيفوا اخوانهم في محنتهم.

فطن صلاح الدين، بعد ان حل مشاكل الناس التي نجمت عن الفتح، إلى العناية بالمقدسات الإسلامية فأمر بغسل الصخرة «بعدة احمال من الورد وبخرت وفرشت. ثم دخل صلاح الدين المسجد الأقصى يوم الجمعة 4 شعبان (9 اكتوبر) ثم ذهب ليصلي في قبة الصخرة ويشكر الله على توفيقه ونصره. وقد قام صلاح الدين «بعمارة المسجد الأقصى واستنفاذ الوسع في تحسينه وترصيفه وتدقيق نقوشه» هذا في حين اغلقت كنيسة القيامة ولم تفتح ابوابها الا بعد ثلاثة ايام وعندئذ قرر على من يرد اليها من الفرنج قطيعة يؤديها. [المقريزي السلوك ج 1 ص 97، ابن الأثير ج 11 ص 551].

6.3 استمرار الجهاد الإسلامي: حصار عكا وسقوطها

انتقل صلاح الدين لإكمال مهمته في حرب الاسترداد، ففشلت جهوده امام صور ولم يجد بداً من تركها ووجه قواته ضد امارتي طرابلس وانطاكية وفي اواخر ديسمبر 1178 استولت قوات صلاح الدين على قلعة هونين «وهي من أحصن القلاع وأمنعها» [ابن واصل مفرج الكروب في اخبار بني ايوب ج 2 ص 247]. وفي هذه الفترة لم يستطع صلاح الدين استعادة قلعة صفد وحصن كوكب، لكنه احتلها فيما بعد: صفد 1188، وكوكب اوائل عام 1189 [عاشور ج 2 ص 829 عن الروضتين].

وتعتبر الفترة من 1187 – 1190 اعظم الفترات التي استعاد فيها صلاح الدين مواقع وحصوناً من ايدي الصليبيين، فلم يبق من مملكة بيت المقدس سوى مدينة صور، ومن امارة طرابلس سوى مدينة طرابلس. وقلعة انطرسوس وحصن الاكراد، ومن امارة انطاكية سوى انطاكية وميناء السويدية وحصن المرقب. وهكذا بدا البنيان الصليبي الكبير وكأنه أُقيم على

شفا جرف هار، فانهار فجأة قبل ان ينقضي عليه سوى قرن واحد من الزمان [عاشور ج 2 ص 837، Stevenson, p. 257].

ويعدّد ابن الأثير اسماء القلاع التالية التي استعادها صلاح الدين في هذه الفترة، رغم المعاناة الكبيرة: جبلة، واللاذقية، وصهيون ويكاس والشغر والكرك وشقيف أرنون [الكامل ج 12 ص 12-9].

جدير بنا ان نذكر هنا ان مدينة صور تولى الدفاع عنها الامير كونراد دي مونتفرات ومما زاد في مناعتها وصعوبة مراس المدافعين عنها انها اصبحت بمثابة مخزن او مستودع لبقايا الصليبيين الذين وفدوا عليها من كل مكان استولى عليه المسلمون، ذلك **«لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينة من عكا وبيروت وغيرهما، مما ذكر، اعطى أهلها الامان فساروا كلهم إلى صور، فكثر الجمع بها»** [الكامل ج 11 ص 544].

وهنا نجد، عزيزي القارئ، أن هذا اول فشل يتعرض له صلاح الدين في اعماله الحربية ضد الصليبيين منذ موقعة حطين. ويلقي ابن الأثير على صلاح الدين باللائمة، لأنه تميز بالتسامح مع خصومه وانه سمح لهم باتخاذ صور مركز تجمع للانطلاق من جديد، فهو يقول: **«لا ينبغي ان يترك الحزم، وان ساعدته الاقدار، فإن يعجز حازما، خير له من ان يفرط مضيعاً للحزم»** [الكامل ج 11 ص 556].

وكما كان، شأن صور وامتناعها على المسلمين بفضل الامير كونراد، فان طرابلس، استعصت أيضًا على المسلمين بفضل ملك صقليه وليم الثاني فقد بادر هذا إلى ارسال اسطول يحمل بضع مئات من الفرسان إلى طرابلس، تحت قيادة امير البحر البرنديزي، الذي منع صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس واللاذقية. [السلوك ج 11 ص 101].

على ان الحدث الأهم في الحروب الصليبية هو قدوم الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق الإسلامي، الذي كان بمثابة بعث للحملة الصليبية من جديد! فقد حفزت اوربا في السنوات قبل حطين، كما ان نداءات البابا مهدت الطريق إلى حملة صليبية عامة. وكان سقوط بيت المقدس بمثابة الشعلة التي حركت القطار الذي كان معداً للانطلاق وبهذا اصبح كل المسيحيين لهيبا من النار العظيمة مرة اخرى !

ويعلق ابن الأثير على هذا الخروج الصليبي في هذه الحملة بقوله: «ان الرهبان والقساوسة وخلقاً كثيرا من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد واظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من ايديهم، واخذ البطرك الذي كان بالقدس، ودخل بهم إلى بلاد الفرنج يطوف بهم جميعا ويستنجدون اهلها، ويستجيرون بهم، ويحثونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس، وصوروا المسيح عليه السلام، وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام وقالوا: هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين، وقد جرحه وقتله».

وكان اول من تحرك في الحملة الصليبية الثالثة، من الملوك الثلاثة الذين شاركوا في قيادتها، ملك المانيا فردريك بربروسا فيما عرف بحملة بربروسا الذي تحرك في 1189، على رأس جيش يقدر بمائة الف محارب، سالكا الطريق البري إلى القسطنطينية عبر هنغاريا، وهنا سعى الامبرطور البيزنطي اسحق انجيلوس إلى عقد تحالف مع صلاح الدين ضد ملك الالمان وكان ان شعر الغرب المسيحي بالغضب على الامبرطور البيزنطي. على انه يبدو ان الامبرطور البيزنطي لم يبال بردة الفعل المسيحية الغربية بل ارسل رسالة إلى صلاح الدين يخبره فيها بوصول فردريك بربروسا، ويعده انه لا يمكنه من العبور في بلاده.

وكما حصل مرات كثيرة للقوات الصليبية، فقد القى الالمان بأنفسهم في اتون الاراضي السلجوقية، وهذا ما جعل القبائل التركمانية، كما هو متوقع تتصدى للصليبيين [النوادر السلطانية ص 192]. ولم تكن هذه الهجمات التركمانية هل كل المصاعب التي تعرض لها الالمان بل كانت ندرة الزاد وقلة الماء «ودخول الشتاء فتراكمت الثلوج واحتاجوا إلى اكل الدواب!» [ابن واصل مفروج الكروب ج 2 ص 318].

ويقول ابن الأثير «وساروا على بلاد الإسلام وهي مملكة قلج ارسلان. فلما وصلوا إلى اوائلها ثار بهم التركمان الاوج، فما زالوا يسايرونهم ويقاتلون من انفرد منهم، ويسرقون ما قدروا عليه، وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديدا، والثلج متراكما، فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم» [الكامل ج 12 ص 48]. وهذا هو جزء من فصل كبير من العذاب ولولا حزم بربروسا – على كبر سنه – لتضاعفت ابعاد الكارثة.

وكان المسلمون قد تخوفوا اشد الخوف من الحملة الالمانية، بل لقد تحدثوا بعبارات تفيد

اليأس من الاحتفاظ ببلاد الشام امام تكاثف جهود الالمان من الشمال والفرنسيين والانجليز من الجنوب. من ذلك ما قاله ابن الأثير انه: «لما وصلت الاخبار بوصول ملك الالمان أيقنا انه ليس لنا بالشام مقام» [الكامل ج 12 ص 586] ويقول أيضًا «وكان عند الفرنج من الباعث الديني والنفساني ما هذا حده، فخرجوا على الصعب والذلول، برا وبحرا، من كل فج عميق، ولولا ان الله تعالى لطف بالمسلمين، وأهلك ملك الالمان لما خرج على ما نذكره عند خروجه إلى الشام، والا كان يقال: ان الشام ومصر كانت للمسلمين» [الكامل ج 12 ص 33].

على ان هذه المخاوف تلاشت بالنسبة للحملة الالمانية عندما توفي الملك الصليبي الالماني وهو يستحم في نهر في كليكيا، وعندما خرج المسلمون وبخاصة أهل حلب، واخذوا منهم خلقاً كثيرا، ومات اكثر ممن أخذ، فبلغوا طرابلس، ومكثوا بها أياما، فكثر فيهم الموت ولم يبق منهم سوى نحو الف رجل، فركبوا في البحر إلى الصليبيين الذين كانوا على عكا اوائل اكتوبر 1190 [الكامل ج 12 ص 48] وكان هؤلاء الذين نجوا من نحو مائة الف قدموا، بقيادة سوابي ابن فردريك بربروسا.

رأى صلاح الدين مهاجمة الصليبيين أمام عكا ليقعوا بين جيوش المسلمين من ناحية وحامية المدينة من الناحية الاخرى، بين فكي الكماشة، وبين المطرقة والسندان كما يقال وبذلك ارتكب المسلمون غلطتهم الاستراتيجية الكبرى. وسيزداد الامر استفحالاً مع قدوم النجدات الاوربية الاخرى عبر البحر وبعدد عظيم.

فقد حاصرت اساطيل كثيرة عكا، حتى قدر المؤرخون عدد المحتشدين في سبتمبر 1189 بعشرين ألفاً، وكان من اوائل من احتشدوا غاي ملك بيت المقدس السابق وكونراد مونتفرات حاكم صور.

لم يقف صلاح الدين ساكتا امام تجمع القوات الصليبية والقاء السفن بحمولاتها البشرية حول عكا، بل هب لقتالها ويدأ هجومه منذ سبتمبر 1189 واستمر على ذلك قرابة السنتين، شكلت الحروب فيها بين صلاح الدين والصليبيين ملحمة بشرية كبرى. ويبدو انه بالرغم من كل شيء اثرت ضربات صلاح الدين هذه بالصليبيين حتى اضحوا وقد اتوا لحصار عكا محاصرين من قبل صلاح الدين بين القوات الإسلامية داخل عكا والقوات الإسلامية خارجها.

ويصور لنا ابن شداد احدى صفحات هذه الحرب في هذا الوقت المبكر منها «تعبأ الناس للقتال، واحدقوا بالعدو، وعزموا على مهاجمة القوم، على ان يترجل الامراء ومعظم العسكر، ويقاتلوا العدو في خيامه ... وان يدخل الراجل كله إلى داخل عكا، ويخرجوا مع العسكر المقيم بالبلد من ابواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر الإسلامية من خارج من سائر الجوانب، ويحملوا حملة الرجل الواحد، والسلطان يعاني هذه الامور بنفسه ويصافحها بذاته، لا يتخلف عن مقام من هذه المقامات وهو من شِدَّة حرصه» ووفور همته كالوالدة الثكلى !» [النوادر السلطانية ص 153].

وهكذا استمرت الحرب أمام عكا، طويلة، واتخذت طابع حرب الخنادق فحامية عكا الإسلامية محتمية خلف اسوار المدينة، والصليبيون المحاصرون في عكا محتمون في الخنادق التي حفروها وراء الحيطان التي بنوها، وقد لجأ الصليبيون إلى الحرب من وراء التلال: «فلما رأى الفرنج ان ذلك جميعه لا ينفعهم عملوا تلا كبيرا من التراب مستطيلاً، وما زالوا يقربونه إلى البلد، ويقاتلون من ورائه لا ينالهم من البلد أذى، حتى صار على نصف علو، فكانوا يستظلون به، ويقاتلون من خلفه، فلم يكن للمسلمين فيه حيلة لا بالنار ولا بغيرها، فحينئذ عظمت المصيبة على من بعكا من المسلمين، فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم، فلم يقدر لهم على نفع [الكامل ج 12 ص 65]. واصبح هنالك انقطاع وعدم تواصل بين السلطان وجنده داخل المدينة «فلم يقدر السلطان الوصول إلى البلد ولا استطاع أهل عكا ان يصلوا إلى السلطان»، واصبحت وسيلة التواصل هي الحمام الزاجل والعوامين في البحر «فنكتب اليهم ويكتبون الينا على اجنحة بالترجمة]الشفرة[المصطلح عليها سر الامور» [الفتح القسي ص 192].

ورغم مرور الوقت، ومع استقواء الصليبيين بما جاءهم من نجدات، كما سيأتي، عزيزي القارئ، فإن عكا استمرت في صمودها، لا سيما وان صلاح الدين نجح في عملية انزال لقوات جديدة، وحمل الاسطول القوات السابقة «لعظم شكايتهم من طول المقام بها ومعاناة التعب والسهر وملازمة القتال ليلا ونهاراً، على انه يلاحظ ان تلك العملية لم تتم بالدقة المطلوبة، فبدلاً من استبدال ستين أميراً تم استبدال عشرين فقط، الأمر الذي عزا اليه المؤرخون سقوط عكا فيما بعد.

ومهما يكن من أمر، فقد اثر وصول فيليب اغسطس إلى عكا تأثيراً كبيرا فبينما ابتهج الصليبيون، اكتأب المسلمون، لا سيما ان ملك الفرنسيين كما يقول ابن شداد «كان عظيما عندهم، مقدما محترما، من كبار ملوكهم، ينقاد اليه الموجودون في المعسكر بأسرهم، بحيث اذا حضر حكم على الجميع» [النوادر السلطاني ص 243].

وهنا تشجع الصليبيون وعملوا على ردم الخندق المحيط بالمدينة، ولم يجدوا امامه لردمه وطمه سوى «جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب النافقات» [مفرج الكروب ج 2 ص 350].

وتبع فيليب اغسطس ريتشارد ملك الانكليز [الانكتار] الملقب بقلب الأسد، والذي احرز في هذه الحرب شهرة كبيرة، وكان ريتشارد يقود اسطولاً كبيرا. وقد احتل قبرص وهو في طريقه إلى فلسطين. وقد كان لأسطول ريتشارد اثر فعال في تشديد الحصار على عكا.

وتكشف هذه الملحمة حول عكا وفي داخلها صورة من الابداع الحربي فقد صنع الصليبيون ابراجا كبيرة من الاخشاب والحديد ذات خمس طبقات يسع سطحها منجنيقا ومن المقاتلة ما يزيد على خمسمائة رجل. وقد علت هذه الابراج على اسوار المدينة ومنازلها وكانت مكسوة بجلد البقر ومبللة بالخل والطين كي لا تتأثر بالنار اذا اطلقت عليها، وكان الافرنج يقذفون منها النار والاحجار والسهام. وقد جمع السلطان الصناع والنفاطين المحنكين، وحثهم على الاجتهاد في احراقها ووعدهم بمكافآت ثمنية، ولكنهم اخفقوا وضاقت بهم الحيل، ثم تقدم شاب من دمشق يشتغل في صناعة النحاس يدعى علي ابن عريف النحاسين واعلن انه يستطيع احراقها. فأفسح له صلاح الدين المجال، فتمكن الشاب من احراقها، اذ رمى بالمنجنيق قدور النفط البارد لتبلل الابراج من كل ناحية، ثم رمى بالنار فاشتعلت فيها. وقد اراد صلاح الدين مكافأة هذا الشاب النابغه فرفض المكافأة قائلاً «انما فعلته لله، ولا أريد المكافأة الا منه» [العبر وديوان المبتدأ والخبر ج 5 ص 321، قارن قلعجي ص 390].

وجملة القول ان كلاً من الفريقين استنفذ ما عنده من جهد وفن وذخائر وآلات حصار، في البر والبحر، مما لم يشهد مثيله في جميع ادوار الحروب الصليبية [قلعجي ص 391].

ومهما يكن من أمر فقد اشتد الضغط على حامية عكا المحاصرة، ولكن صلاح الدين استمر

على روحه العالية في حث المسلمين على الجهاد «وصار يطوف بين الجند بنفسه وهو ينادي: يا للإسلام» واخيرا ارسلت اليه حامية عكا رسالة جاء فيها «انا قد بلغ منّا العجز إلى غاية ما بعدها الا التسليم، ونحن في الغد ثامن الشهر (جمادي الاولى 587هـ) ان لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الامان ونسلم البلد» [ابن شداد النوادر السلطانية ص، مفرج الكروب ج 2 ص 356]. ولكن شروط الصليبيين كانت قاسية: اذ اشترطوا ارجاع صليب الصلبوت واعادة مملكة بيت المقدس إلى حدودها التي كانت عليها سنة 1187 وكان ان تدخل كونراد دي مونتفرات وعقد اتفاقية مع حامية عكا دون موافقة صلاح الدين: على اساس من السماح لحامية عكا بالخروج مقابل فدية قدرها (200) الف دينار، وتحرير (2500) من اسرى الصليبيين فضلاً عن رد صليب الصلبوت [مفرج الكروب ج 2 ص 360-359، قارن الكامل ج12 ص 67].

وهنا دخل الصليبيون عكا سنة 587 هـ/ 1190. وهنا أيضا وقع ما لم يكن في الحسبان اذ ان ملك الانجليز ريتشارد قتل (2700) اسير من أهالي عكا دون ان يضطرب له ضمير. وقد تناول المؤرخون الغربيون هذه المذبحة البشرية، بلاذع النقد، على حين اثنوا على صلاح الدين وما انطوت عليه نفسه من روح التسامح وسعة الصدر والحلم والوفاء بالوعد [التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص 260، 286 .Stevenson p].

ويمكن تعليل سقوط عكا في يد الصليبين إلى عدة اسباب يمكن استنباطها من متابعة سير المعركة الملحمة والتي يمكن تلخيصها على الوجه التالي: اشترك الصليبيون بأكثر من ربع مليون جندي، وامتاز الصليـيون في هذا الحصار بأسطول قوي، والآت حربية ضخمة، على حين امتاز المسلمون بوحدة القيادة الكفيلة بالانتصار لولا ما تسرب إلى صفوف المسلمين من ضجر في المعسكر الصلاحي، وملل من طول الحصار في جند الحامية المحصورة بعكا. [المرجع نفسه ص 262-260].

ومهما يكن من أمر فإن ستيفنسون Stevenson مؤرخ الحروب الصليبية في المشرق يقول: «من المؤكد ان المسلمين قد هزموا في الميدان المفتوح وعندئذ فإن إعادة فتح بقية البلاد غير صعب. ولكن مع ذلك، وفي النهاية، فإن اللاتين لم يكسبوا سوى مدينة واحدة وجوبهوا بجيش في المعظم والمجمل غير مهزوم» [Stevenson p. 273].

7.3 الحروب بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد

بعد سقوط عكا في يد الصليبيين، استولى هؤلاء على حيفا، التي تخلت عنها حاميتها الإسلامية. وقد لحقت بحيفا قيسارية .

على ان الموقعة الكبرى، التي حصلت بين المسلمين والصليبيين في هذه الفترة، هي معركة ارسوف. ولقد حارب ريتشارد قلب الأسد هذه المعركة بقوة واقتدار. فثبت في القتال، ونظم جيشه أفضل تنظيم. فقد كان ريتشارد في احسن حالاته من الناحية القتالية، فقد اعتاد ريتشارد ان يقاتل في الطليعة، ولكنه قاتل في هذه المعركة في المؤخرة فقد وقف وراء جنوده يحرضهم ويشجعهم للتقدم. ولقد كانت الحرارة قاسية، والصليبيون، المثقلون بالسلاح وغير المعتادين على الشمس، خسروا انفساً كثيرة من ضربة الشمس، وكثيرون اغمى عليهم وكثيرون قتلوا حيث هم. ولقد هلك دوق بورجندي والكتائب الفرنسية بينما كان في المؤخرة. وقد وصف رونسيمان اليوم الحاسم في المعركة على هذا الوجه: رجال النشاب الصليبيون كانوا في المقدمة وخلفهم كان الفرسان. وكان (الداوية) في اليمين وبالقرب منهم كان البريتون ورجال آنجو، وبالقرب من هؤلاء كتائب جيشين، تحت قياد جاي واخوه جيوفري من لوزجنان. وفي القلب كان الملك نفسه ومعه الكتائب النورمندية، وبعدئذ الفلمنكية، والبارونيون المحليون. وفي اليسار المتطرف كان الاسبتاريون، وعندما كان الجميع قد انتظموا، مرّ ريتشارد ودوق بورجندي بين الصفوف راكبين، ومعطين لهم كلمات تشجيعية.

انقض رجال صلاح الدين بعد أن قسموا أنفسهم وصفوفهم وقد كان الانقضاض الأول من قبل الفرسان وسيوفهم وبلطاتهم تلمع وقد وجهوا هجومهم بأشرس حالاته ضد الاسبتاريين، والى جانبهم الفلمنكيون والبارونات المحليون، للقضاء على يسار الجيش. ولكن الفرسان حافظوا على مواقعهم، وبعد كل موجة كان رجال النشاب يصلحون صفوفهم. وبالرغم من توسلات جنوده فان ريتشارد لم يسمح لأي جزء من جيشه ببدء القتال حتى يصبح الجميع جاهزين وحتى تصبح كل الهجمات ضعيفة، وحتى يصبح الجيش الإسلامي اكثر قربا .. وقد ارسل قائد الاسبتاريين لريتشارد يهدد بان فرسانه سوف يستسلمون اذا لم يقوموا بالهجوم. ولم يلبث هؤلاء ان قام اثنان من متقدميهم بإلقاء انفسهما في أتون المعركة. وهنا التحم

الفريقان. وانتهت بفوز الصليبيين وانهزام المسلمين. وفي المساء كان الجيش المسيحي مسيطراً على الميدان ومستمراً في مسيرته نحو الجنوب [Runciman III p. 56].

ويصور المؤرخ العربي ابن شداد المعركة من الزاوية التي رآها فيقول: «ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة واخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفرج لهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها» [انظر عاشور ص 875].

ويقول رونسيهان استنتاجا ان موقعة ارسوف لم تكن حاسمة، ولكنها كانت نصراً معنويا للمسيحيين. فقد كانت خسائرهم، وهذا ما يثير الدهشة، قليلة ... ولكن خسائر المسلمين كانت أيضًا قليلة. ولم يسقط على ارض المعركة اي أمير ذي أهمية.

وفي اليوم الثاني كان صلاح الدين قد استجمع قواته حوله وكان على استعداد لجولة اخرى. رفض ريتشارد ان يتيحها له ولم يكن في حالة كافية من القوة بحيث يقوم بها. وقيمة النصر تكمن في الثقة التي أعطاها للمسيحيين. فقد كانت اول موقعة مفتوحة منذ حطين، واظهرت ان صلاح الدين يمكن ان يهزم. وبما انها قد جاءت بعد سقوط عكا، أظهرت انها تدل على ان القدس نفسها يمكن ان تنقذ مرة اخرى. ولقد اصبحت شهرة ريتشارد في القمة. ولقد كانت هذه المعركة بمثابة حادثه واعدة لمستقبل الحرب الصليبية [Runciman III p. 57].

على ان كارثة اخرى كانت بانتظار المسلمين عند عسقلان فقد اراد صلاح الدين ان يحشد قواته فيها وحولها كما فعل في عكا، ليتخذ منها قاعدة لمعركة فاصلة يستعيد فيها هيبته ويعيد للمسلمين فيها ما فقدوه من اراضيهم ومعنوياتهم. ولكن امراءه خالفوه الرأي وصارحوه الرأي بقولهم: «ان اردت حفظها فادخل انت معنا او بعض اولادك الكبار، والا فما يدخلها منا أحد، لئلا يصيبنا ما اصاب عكا» [الكامل ج 12 ص71] ودعوه إلى ترك الساحل واتخاذ خط دفاعي داخل البلاد [الناصر صلاح الدين ص 145].

تألم السلطان لذلك وقرر التخلي عن المدينة على ان تقع في يد الصليبيين، فعمد إلى هدمها واحراقها بعد ان اخرج الناس منها [السلوك ج 1 ص 106] وكانت «بلداً نضراً خفيفا على القلب محكم الاسوار، عظيم البناء، مرغوبا في سكناه، فلحق الناس عليه حزن عظيم، وعظم عويل أهله على مفارقة اوطانهم» [النوادر السلطانية في قلمجي ص 409] ثم هدم اللد والرملة

للغرض نفسه [مفرج الكروب ج 2 ص 371-370]. وكان يقول وهو يرى تلك الحصون تتداعى تحت معاول جنوده: «والله لأَنْ أفقد اولادي بأسرهم، أحب الي من ان أهدم حجراً واحداً ..» [النوادر السلطانية في قدري قلعجي ص 409].

وقد اتجه صلاح الدين إلى بيت المقدس في اواخر 1191 للاشراف على الدفاع عنها وكان ريتشارد قلب الأسد يتحرك هو أيضًا نحو القدس حتى وصل إلى النطرون وبيت نوبا، وقد زحف الشتاء ببرده وعواصفه «وحالت الامطار والاوحال بينهما .. وفي هذا الوقت اوعز صلاح الدين إلى البدو والاعراب بضرب مؤخرة جيش الصليبيين وقطع خطوط مواصلاته، في ما نسميه اليوم حرب العصابات حتى اصبح شغل الصليبيين الشاغل كيف يحمون أنفسهم من هذه الغارات الصغيرة المفاجئه. ومع ذلك فقد تحمل الصليبيون العناء من اجل الوصول إلى القدس، مما اعاد إلى الاذهان ذكرى الحملة الصليبية الاولى 1099. ولكن الفارق كان ان صلاح الدين «قسم سور البلد على اولاده واخيه واجناده، فشرعوا في انشاء سور جديد» [الروضتين ج 2 ص 116 في عاشور ج 2 ص 879].

أمام هذه الحال من تكسر جهود الصليبيين على جدار صمود المسلمين كان لا بد من العودة إلى المفاوضات من جديد. فقد ارسل ريتشارد رسالة إلى صلاح الدين: «ان المسلمين والفرنج، قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية. وقد تلفت الاموال والارواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه ... ونصطلح ونستريح من هذا التعب الدائم» [النوادر ص 314 في عاشور ج 2 ص 879].

وقد بلغ من تمسك ريتشارد بمدينة القدس انه ارسل إلى صلاح الدين يقول: «القدس متعبدنا، فلن ننزل عنه، ولو لم يبق منا الا واحد» ولذلك رد صلاح الدين على طلب ريتشارد قائلاً «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا اعظم مما هو عندكم، فانه مسرى نبينا ومحشر امتنا، فلا تتصور ان ننزل عنه، ولا نقدر التلفظ بذلك بين المسلمين» [مفرج الكروب ج 2 ص 273].

وكان ريتشارد يرغب في العودة إلى بلاده. فتقدم بعرض جديد للصلح من شأنه ان يصون كرامة الفريقين ومن شروطه ان يتزوج الملك العادل الاميرة جوانا اخت ريتشارد وأرملة ملك صقلية، وان يتنازل السلطان لاخيه عن البلاد الساحلية التي احتلها، كما يتنازل ملك الانكليز

عن المدن التي افتتحها كصداق لأخته، وان تكون القدس ملكا للزوج والزوجة بوصفهما محايدين. فيفتحا ابوابها للمسيحيين والمسلمين على السواء «ويرضي العادل الفرنج والداوية والاسبتارية ببعض القرى ولا يمكنهم من الحصون» [الفتح القسي ص 309].

ومن الطريف ان الملك العادل رحب بذلك ترحيبا كبيرا ورأى في ذلك عين الصواب [الروضتين في عاشور ج 2 ص 882]. لكن صلاح الدين اعلن قبوله لهذا المشروع لعلمه انه غير قابل للتنفيذ من قبل ملك انجلترا «وان هذا منه مكر وهزو» وسرعان ما ظهر ان العقبة في طريق تنفيذه لم تأت من صلاح الدين او ريتشارد قلب الأسد ولكن من الاميره جوانا نفسها التي رفضت هذا الزواج لانها لا تريد ان تمكن مسلماً من نفسها مما جعل ريتشارد يطلب من العادل اعتناق المسيحية - ولو في الظاهر - لتذليل هذه العقبة! وعندئذ عرف العادل «انها خديعة» وصرف النظر عن الموضوع.

في هذا الوقت عقد الصليبيون مؤتمراً في عسقلان في ابريل 1192 لحل النزاع بين كونراد دي مونتفرات زعيم صور من ناحية وجاي لوزجنان زعيم قبرص من ناحية اخرى، على عرش بيت المقدس. وعندئذ اجمع الامراء على اختيار كونراد لعرش بيت المقدس، ولكن لم تمض اسابيع حتى اغتيل بيد أحد الحشاشين.

وهنا يظهر ان ريتشارد حاول محاولة اخيره للاستيلاء على بيت المقدس ووصل في مسيرته إلى بيت نوبه في 11 يونيه 1192. على ان المسلمين لم يتركوا الصليبيين يتقدمون بهدوء «وألهوْهم بالنهب والسلب وسلطوا عليهم وكمنوا لهم تحت كل رابية» [مفرج الكروب ج 2 ص 382].

ويروي أبو شامة كيف اتخذ صلاح الدين عدته لمقاومة الصليبيين، فوزع اسوار بيت المقدس على الامراء للدفاع عنها «وتقدم اليهم بتهيئة اسباب الحصار، واخذ في افساد المياه ظاهر القدس، فخرَّب الصهاريج والجباب بحيث لم يبق حول القدس ماء يشرب اصلاً» [ابو شامه الروضتين ج 2 ص 198 في عاشور ج 2 ص 889].

وهنا بدا واضحاً ان ريتشارد بالنظر لظروف كثيرة من بينها تآمر اخيه يوحنا في بلاده، ومن بينها عدم رغبته الصادقة في ان يستمر سنتين او ثلاثاً في حصار القدس، مثلما استغرقت معركة عكا. فارتدوا عن القدس وقد اصبحوا على مرمى السهم منها دون ان يخوضوا مع حاميتها اية معركة.

ويحكي ابن شداد كيف ان المسلمين ابتلوا ابتلاءً شديدا وبلغت القلوب الحناجر كما يقال يحكى ان صلاح الدين دخل المسجد الاقصى «وصلى ركعتين ورأيته ساجدا وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه» حين وصله انسحاب الصليبيين من بيت المقدس! على ان شعور ريتشارد بعجزه عن احتلال القدس قد حمله على القيام باعمال انتقاميه، فقطع الطريق بين مصر والشام، واعتدى على كثير من القوافل واحرز كثيراً من المغانم، ومن هذه المغانم عدا الاسرى والاموال اربعة آلاف وسبعمائة جمل والف وخمسمائة حصان ومثلها من البغال والحمير، وبذلك تضاعفت قوة الصليبيين ماديا ومعنويا، وصح عزم امرائهم على احتلال القدس!

الا ان ريتشارد عارضهم في ذلك ووصفهم بالجنون قائلاً: «هذه المدينة لا يمكن حصارها وصلاح الدين حي وكلمة المسلمين مجتمعه» [الكامل ج 12 ص 75].

وعلى هذا فقد استمر ريتشارد باتباع اسلوب المفاوضات من اجل حل المشكلة القائمة بين الطرفين. ويلاحظ هنا ان ريتشارد قد تنازل عن المطالبة بالسيطرة السياسية على بيت المقدس، واكتفى بالتمسك بحق الصليبيين في حماية الاماكن المقدسة. ولم يفت ملك الانجليز ان يخاطب مشاعر صلاح الدين الانسانية، فقال ما معناه: «انَّ جماعة من الرهبان والمنقطعين، قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وانا اطلب منك كنيسة القيامة، وتلك الامور التي كانت تضيق صدرك مما يجري في المراسلة مع الملك العادل تركتها واعرضت عنها، ولو اعطيتني مقرعة او خربة رضيت بها» [النوادر السلطانية ص 216 في قلعجي ص 420]. فوافق صلاح الدين على ذلك «واما بقية البلاد فنقسمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي معنا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العملين يكون مناصفه، وعسقلان وما وراءها يكون خرابا لا لنا ولا لكم» [المرجع نفسه ص 421].

على ان المفاوضات تعثرت حول عسقلان التي رفض ريتشارد قلب الاسد التنازل عنها لتعبث بها ايدي الخراب، لكن صلاح الدين قام بعمل تكتيكي بارع عندما انقض على يافا «فحاصرها ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى ان يأخذ البلد عنوة وغنم الناس منها شيئاً عظيماً» [السلوك ج 1 ص 110] بعد معركة عنيفة ابدى الفرنجة فيها استبسالاً كبيرا «ورأى الناس من صبر القوم وثباتهم، وسداد حركاتهم وسكناتهم» [النوادر السلطانية 221 من قلعجي ص 421]. والحقيقة ان معركة يافا التي تجدد فيها القتال اكثر من مرة بالنظر إلى النجدات التي

كانت تأتيها من البحر، قد فتَّتْ في عضد ريتشارد الذي اعتبر كل الانتصارات التي أحرزت على صلاح الدين كانت جزئيه عمليه لم تنل من مملكة صلاح الدين الشامخه الصرح الراسية الاساس المترامية الاطراف التي تحيط ببقايا المستعمرات الصليبية من كل مكان، ولولا المجاعة التي اجتاحت سكان عكا لاستمرت مقاومتها سنين اخرى وربما تحولت هزيمتها إلى انتصار.

يقول جون لامونت: «ولا ريب ان احزان ريتشارد لفشله في احتلال القدس، كانت منبعثه من شعوره بالخزي لعدم تمكنه من الوصول إلى هدفه، ولم تكن صادرة عن تمكنه من انقاذ قبر المسيح» والواقع ان ريتشارد قلب الاسد وفيليب اغسطس لم يكونا «مدفوعين بالدين مثل اندفاعهما برغباتهما لكسب المجد عن طريق الحرب في الشرق» [دراسات اسلامية ص 103].

ومهما يكن من أمر فقد عاد ريتشارد إلى الحديث عن الصلح، وتراجع عن تمسكه بعسقلان .. وقد تم عقد الصلح في 22 شعبان سنة 588 هـ 2 ايلول سبتمبر 1192، ومثل صلاح الدين فيه ولداه: الملك الأفضل والملك الظاهر واخوه الملك العادل، وناب عن ريتشارد في التوقيع هنري دي شامبانيا (الكندهنري) وباليان دي ايلين (يبنى) (باليان بن بارزان) وادنفروا الرابع دي توردن.

وقضت الاتفاقية بان يسود السلام بين الفريقين ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، وبان يكون للصليبيين المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بما فيها قيساريه وحيفا وأرسوف، وتبقى صيدا وبيروت وجبيل للمسلمين، وتكون عسقلان مدينة غير مسلحة في ايدي المسلمين، في حين تكون اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وان يكون للمسيحيين حرية الحج إلى بيت المقدس دون مطالبتهم باية ضريبة. واعلن صلاح الدين: «ان الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم ان يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا ان يدخل بلادهم فليفعل «فابتهج الجميع» وكان يوما مشهوداً عم فيه الطائفتين الطرب والسرور لما نالهم من طول الحرب» [انظر النوادر السلطانية ص 236 في قلعجي ص 427].

4. الخلاصة

عالجنا في هذه الوحدة، عزيزي القارئ، أبعاداً عدة، كان كل بعد منها يفضي إلى البعد الذي يأتي من بعده وهذه مسيرة التاريخ عندما تصطخب فيه الاحداث وتضطرب الحركة وتستمر الاحداث بالمسير إلى الأمام بقوة وحزم ونشاط !

وقد لاحظنا في البداية من هذه الوحدة ان رد الفعل الاسلامي ضد الكيان الصليبي لم يكن سريعا. فالمسلمون لم يهبوا من أول وهلة ضد الخطر الصليبي بل انتظروا بعض الوقت ليمتصوا الضربة ثم يردوا عليها فيما بعد.

وكانت البداية والانطلاقة في رد الفعل من قبل مودود، وهو من اوائل الداعين لحركة الجهاد: منقذ الدين ومخلص الاسلام والعقيدة. ومع مودود كان رجال مثل ايلغازي وارتق وبرسق وغيرهم.

وقد وصل مودود في جهاده (بدأ من الموصل) إلى طبرية وتجاوزها في اراضي مملكة بيت المقدس الا ان مودود لم يمكث طويلاً على مسرح الجهاد بل استشهد، في مسجد دمشق. وكان استشهاده خسارة كبرى للاسلام.

ومما يبقي في الذاكرة من ملاحم رد الفعل الاسلامي وحركة الافاقه، معركة مرج الدماء Ager Sanguinas، هذه المعركة التي انتصر فيها المسلمون انتصارا عظيما (1119) ولم ينج منها أحد من الصليبيين الا قليلا وسقط فيها قتيلاً الأمير روجر امير انطاكية.

ومن رجال الجهاد في هذه الفترة، بلك بن بهرام، الذي لم يلبث أن استشهد، واعتبر استشهاده ضربة للاسلام. وجاء من بعده اقسنقر البرسقي الذي هزم في معركة كل دانيث. والذي كان مصيره الاستشهاد مثل اسلافه.

على ان المجاهد الذي سجل له تاريخ الحروب الصليبية صفحات باهرة هو عماد الدين زنكي محرّر الرها. وقد تولى دفة الجهاد سنة 1127. وكان هذا انطلاقاً للمقاومة الجادة. وقد قام عماد الدين زنكي بفتح حلب وحصون اخرى حولها، كما فتح حماه، واعترف كل من أمير شيزر وحمص بحكمه وسيطرته. لكن الانجاز الاعظم في حياته هو استرجاع الرها سنة 1144 وكان

انتصار عماد الدين زنكي هنا عائداً إلى شخصيته القوية وبالمقابل ضعف شخصية خصمه، حاكمها جوسلين، وتقاعُس الصليبيين عن نصرتها.

وقد كانت نتائج سقوط الرها رهيبة على الصليبيين واعتبرت بمثابة فتح الفتوح. حتى انه عندما استشهد عماد الدين زنكي قال القائل: لقد قتلت المسلمين بقتله !

كما عالجنا في هذه الوحدة الحملة الصليبية الثانية، وقائديها لويس السابع الفرنسي وكونراد الثالث الالماني. وقد بلغ جيش كل منهما (70) الفاً. لكن كونراد خسر جيشه في آسيا الصغرى. وفي النهاية اختار الملكان دمشق هدفا لهما. لكن حملتهما على دمشق كان مصيرها الفشل ودافع أهل دمشق عنها ببسالة وكان الانتصار على هذه الحملة هو الثاني (1148).

كما عالجنا حروب نور الدين ضد الصليبيين بعد أن ألقينا ضوءاً على شخصيته التي مفتاحها التدين والجهاد بشكل لم يسبق له نظير من الاستمساك والتضحيه. اتخذ نور الدين من حلب قاعدة له. وتمكن من قتل ريموند حاكم انطاكية وأسر جوسلين حاكم الرها سابقا. الا ان المسلمين خسروا عسقلان في جنوب بيت المقدس سنة 1153. غير ان نور الدين عوض عن خسارة عسقلان بالاستيلاء على دمشق: هذه المدينة التي كان سقوطها خسارة للصليبيين وركنا ركينا في دولة اسلامية واحدة. بل ان الاستيلاء على دمشق كان الاستيلاء على داخلية سوريا جميعها، بحيث ان الطريق اصبح مفتوحا باتجاه مصر .

عالجنا كذلك موضوع مصر بين نور الدين والصليبيين: وبالذات هنا جرى الحديث عن التسابق بين نور الدين واملرك ملك بيت المقدس للاستيلاء على مصر في حملات ثلاث: الحملة الاولى سنة 1164، هذه الحملة التي بدأها شيركوه وتمكن على اثرها من اعادة شاور إلى الوزارة، والذي ما لبث ان غدر به واستنجد بالصليبيين عليه مما اضطر شيركوه للانسحاب عائدا إلى دمشق. والحملة الثانية سنة 1167 وفي هذه الحملة دارت معركة البابين بين رجال نور الدين والصليبيين. وانتهت الحملة بعقد صلح ينص على انسحاب الطرفين. ولكن الحملة الثانية لم تنه الصراع على مصر. والحملة الثالثة سنة 1168 التي حسمت موضوع مصر وجعلتها تسقط في يد نور الدين وانسحب ملك بيت المقدس سنة 1169. وبهذا تقرر مصير التسابق لصالح المسلمين.

ومهما يكن من أمر فقد كان موضوع صلاح الدين هو الركن الثاني الذي احتل الأهمية الكبرى في هذه الوحدة الهامة. فقد كان صلاح الدين هو الذي انهى الخلافة الفاطمية سنة 1171. وكان صلاح الدين هو الذي قطف ثمار توحيد سوريا ومصر. وقد تشكلت لدى صلاح الدين قناعة معينة وهي ان الله اختاره لتخليص القدس وقد تمكن صلاح الدين قبل ان يبدأ معاركه مع الصليبيين من استرجاع سوريا والاستيلاء على دمشق وحلب من ورثة نور الدين.

بعد ذلك التفت صلاح الدين للصليبيين وتمكن من احباط محاولات رينولد دي شاتيون في مهاجمة مكة والمدينة. وغاية الأمر ان صلاح الدين أصبح هو الاقوى بين الأمراء والملوك الاسلاميين جميعا بحيث ان مصير الصليبيين اصبح وكأنهم يصارعون القدر! هنا أصبحت تحرشات رينولد دي شاتيون بمثابة الفتيل الذي يشعل النار. وبالذات عندما غدر بقافلة المسلمين التي كانت تسير بين مصر والشام.

معركة حطين احتلت اهتماما خاصا في هذه الوحدة وكانت مقدماتها محاولات رينولد دي شاتيون التصدي للمسلمين حتى ان صلاح الدين أقسم على عقابه! ومن مقدمات حطين أيضاً ان جان أصبح ملكاً على القدس، وكان الجبن ميزة فيه!

وأما احداث حطين فقد عقد الصليبيون مؤتمر صفورية الذي لم يتمخض عن شيء سوى انهم القوا بأنفسهم للموت كما قال أحد قادتهم حيث ساروا إلى لقاء المسلمين في قرون حطين قرب طبرية. وهنا حرمهم المسلمون من الوصول إلى الماء، كما احرقوا الهشيم. وهكذا اجتمع على الصليبيين العطش وحر الزمان والدخان وحر القتال! وقد كثر القتل والأسر في الصليبيين. وانتهت المعركة بهزيمة كبيرة للصليبيين تقرر فيها مصير القدس وكثير من ديار الاسلام التي احتلها الصليبيون قبل ذلك.

كان تحرير القدس امتداداً لمعركة حطين التي وصفها المؤرخون بأنها اكثر من معركة فاصلة، بل انها بشيرٌ بنجاح المسلمين في القضاء على اكبر حركة استعمارية في العصور الوسطى. فبعد هذه المعركة، استولى صلاح الدين على عكا ذلك الثغر العظيم، ومن ثم استولى على صيدا ثم بيروت. الا ان صور استعصت عليه لان المركيز كونراد دي مونتفرات امتنع فيها. ومع ذلك فان صلاح الدين استولى على عكا ثم الرملة والداروم والخليل وبيت لحم.

وأما بالنسبة لفتح بيت المقدس فان تعامل صلاح الدين مع أهل بيت المقدس يعتبر صفحة عظيمة من التسامح قلَّ في التاريخ ان سجل أحد مثلها ابدا! فقد قبل صلاح الدين الفداء ولم يقم بأي اذى لأهل المدينة !

عالجنا ايضا، وفي ختام هذه الوحدة استمرار الجهاد الاسلامي، وحصار عكا وسقوطها. ففترة 1190-1187 من اعظم الفترات التي استرد فيها صلاح الدين مواقع وحصوناً من ايدي الصليبيين: جبلة واللاذقية وصهيون والشغر والكرك وشقيف ارنون. ومع ذلك فقد استمرت صور التي اصبحت بمثابة المستودع الذي اودع فيه كل الهاربين من الصليبيين من الحصون والمدن التي سقطت في يد صلاح الدين، نقول استمرت صور تمتنع على المسلمين.

في هذه الفترة وعلى اثر سقوط القدس قامت الحملة الصليبية الثالثة بقادتها الثلاثة فردريك بربروسا وفيليب اغسطس وريتشارد قلب الأسد. وقد ركز هؤلاء في حملتهم على عكا وتمكنوا من قطع المسلمين في داخل عكا عن قيادتهم المتمثلة في صلاح الدين. الأمر الذي جعل عكا - بفعل الضغط الشديد أيضًا - تسقط في يد الصليبيين.

وقد استمرت الحروب بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد وتمكن ريتشارد من الانتصار في معركة ارسوف. وعلى الاثر اصبحت شهرته في القمة، مما جعل صلاح الدين يتخوف على مصير القدس. لكن ريتشارد قبل بالنهاية بعقد صلح مع صلاح الدين ألا وهو صلح الرملة (1192) على ان تبقى القدس للمسلمين ويسمح للمسيحيين بالحج اليها.

5. لمحة مسبقة عن الوحدة الخامسة

سنبحث في هذه الوحدة في عدة قضايا من أهمها الحملة الصليبية الرابعة (1204) هذه الحملة التي توجهت إلى القسطنطينية بدلاً من ان تتوجه إلى مصر حيث كان مقرَّراً لها ان تتجه. وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى الاستهتار الذي اصاب الحملات الصليبية. هذه الحملة انهت الدولة البيزنطية مؤقتاً ولكنها زادت في اضعاف الصف الصليبي.

كما ستتحدث عن الحملة الصليبية الخامسة التي توجهت إلى مصر بقيادة حنا دي برين وبالرغم من انها احتلت دمياط لفترة من الوقت الا انها فشلت في حملتها واضطرت ان تغادر مصر والجلاء عن دمياط وسيكون لنا اطلالة من خلال البحث والدراسة على الحملة السادسة

هذه الحملة الفريدة بين الحملات، والتي لم تجر فيها الدماء. لكن جرى فيها مفاوضات بين الكامل سلطان مصر وفردريك الثاني امبرطور المانيا وانتهت هذه المفاوضات بتسليم القدس للالمان ..

الحملة السابعة ستكون أَحَدَ فصول الوحدة الخامسة وهي حملة سيقودها لويس التاسع على مصر وتنتهي بالهزيمة في المنصورة. ويلقى لويس التاسع حتفه في الحملة الثانية التي هي آخر الحملات الصليبيه، وآخر من سنعالج. في هذه الوحدة.

6. إجابات التدريبات

تدريب (1)

يطلق المؤرخ البريطاني ستيفنسون على رد الفعل الاسلامي بانه «**عاصفة الهجوم الاسلامي**». ويقف على رأس ابطال الجهاد الاسلامي، مودود، حاكم الموصل .. وقد اعتبر مودود، منقذ الدين، ومخلص الاسلام، كما يقول ستيفنسون ايضا، وقد اكتسبت شخصيته طابعا عميقا من الايمان، والتبتل في سبيل الرسالة حتى انه اعتبر بمثابة القدوة والمثل لمن جاء بعده.

قام مودود بعدة حملات اثناء جهاده ضد الصليبيين:

أ – الهجوم على الرها سنة 1110، سنة 1111. وفي هذا الهجوم الاخير اجتمع تحت قيادة مودود جميع حكام الاقاليم من دولة السلاجقة: سكمان القرطبي، صاحب خلاط وتبريز وبعض ديار بكر، والأمير ايلنكي، وزنكي ابنا برسق، وكانا يحكمان همذان وخوزستان، والأمير احمد بك (احمد يل) صاحب مراغه في اذربيجان وغيرهم. ولكن مصير الرها لم يتقرر على يد هذه الحملة لشدة دفاع الصليبيين عنها.

هاجم مودود الرها مرة ثالثة سنة 1112، وعلى ما يظهر فان هجمات القوات الاسلامية على الرها وما جاورها لم يتوقف حتى اصبحت الرها بمثابة قلعة وسط صحراء مجدبة مليئة بالأعداء من كل جانب.

وقد تحالف مودود بعد ذلك مع طغتكين بعد ان عبر الفرات إلى الشام. وهنا وفق المسلمون في دحر الصليبيين إلى طبريه، وكثر القتل والاسر فيهم، وممن أسر ملكهم بلدوين. وغنم المسلمون اموالهم وسلاحهم وكان لمودود انتصارات مجيدة اخرى في نفس الموقع.

على ان هذا المجاهد العظيم، باعث حركة الجهاد، استشهد قبل ان يكمل رسالته. فبعد ان وصل إلى مسافة متقدمة في الهجوم على الصليبيين، عاد إلى دمشق وهناك دخل الجامع ليصلي فيه ويده في يد طفتكين. وهنا وثب عليه باطني، وجرحه اربع جراحات .. وكان صائما، فحمل إلى دار طفتكين، واجتهد به ليفطر فلم يفعل .. وقال: «**لا لقيت الله الا صائما**» فمات من يومه وقيل في تفسير موته: «ان الباطنية (الحشاشين) خافوه وقتلوه، وقيل بل خافه طغتكين فوضع عليه من قتله !».

تدريب (2)

دور نور الدين في الجهاد ضد الصليبيين

1- حروب نور الدين ضد الصليبيين في بلاد الشام: الجبهة الشمالية:

ابتدأ نور الدين معركته ضد الصليبيين بالتمركز في حلب .. ثم استولى على حمص سنة 1149 وتمكن من قتل ريموند حاكم انطاكية سنة 1149 .. وكان لقتله اثر كبير على الجبهتين الاسلامية والصليبية: ايجابا وسلباً. ثم تمكن نور الدين من اسر جوسلين واعتُبر اسره كذلك انجازاً عظيماً.

وأمام سقوط عسقلان في يد الصليبيين .. عسقلان هذه، ثغر جنوب فلسطين وعروس المدن، تمكن نور الدين من حصار دمشق والاستيلاء عليها. وقد ترتب على سقوط دمشق عدة نتائج، بحيث اعتبر في جوهره نقطة تحول كبرى من وحدة بلاد الشام، كما انها اوجدت نوعاً من التوازن بين المسلمين والصليبيين .. ثم انه بالاستيلاء على دمشق انفتح الطريق جنوبا إلى مصر ...

2- استيلاؤه على مصر بعد سباقه مع الصليبيين حولها: وبالفعل جرى تسابق بين نور الدين وأملرك ملك بيت المقدس للاستيلاء على مصر في حملات ثلاث: -

أ- الحملة الاولى سنة 1164: هذه الحملة التي بدأها شيركوه وشارك فيها صلاح الدين، وتمكن على اثرها من اعادة شاور إلى الوزارة، والذي ما لبث ان غدر بشيركوه واستنجد بالصليبيين عليه مما اضطر شيركوه للانسحاب عائداً إلى دمشق.

ب- الحملة الثانية سنة 1167. وفي هذه الحملة دارت معركة البابين بين رجال نور الدين والصليبيين ..وعلى ما يظهر فانها لم تكن معركة فاصلة .. وانتهت الحملة بعقد صلح ينص على انسحاب الطرفين، لكن الحملة الثانية لم تنه الصراع على مصر.

ج- الحملة الثالثة سنة 1168. وهذه الحملة هي التي حسمت موضوع مصر وجعلتها تسقط في يد نور الدين. وانسحب ملك بيت المقدس الصليبي، وبهذا تقرر مصير مصر ..

تدريب (3)

معركة حطين:

- وقعت هذه المعركة، في موقع قرون حطين.

- وضع المسلمون امام اعدائهم .. وكان هنالك فرق كبير بين كل من الطرفين، فبينما كان الصليبيون يئنون من العطش والانهاك .. كان المسلمون في احسن اوضاعهم من هذه الناحية.

- اشعل المسلمون النار في الهشيم .. ومن هنا اجتمع على الصليبيين العطش وحر النار والدخان.

- تمكن جنود صلاح الدين من الاحاطة بجنود الصليبيين، احاطة الدائرة بقطرها.

- اشتد القتال وصبر الفريقان.

- وهنا جرت حالات تسرب من قبل الصليبيين خارج المعركة! فقد قاد ريموند فرسانه من أجل ان يقوم بعملية اقتحام في صفوف المسلمين .. وبكل رجاله توجه نحو الكتيبة التي يقودها تقي الدين عمر .. ولكن تقي الدين لم يَتَصَدَّ له، بل فتح الصف لإتاحة الفرصة له وللمرور ومن ثم التأم الصف .. وبهذا فان ريموند ورجاله لم يستطيعوا العودة إلى رفاقهم .. وبكل البؤس اكملوا طريقهم إلى طرابلس .. ولحق بهم قادة وكتائب صليبية اخرى ..

- استمر المسلمون يزحفون نحو قمة الجبل وامامهم الصليبيون يتراجعون، والقتل والاسر يعملان في فرسانهم، حتى بقي ملك بيت المقدس، وحوله مائة وخمسون من الفرسان فقبض عليهم المسلمون جميعا.

- كثر القتل والاسر بين الصليبيين «فكان من يرى القتلى لا يظهر انهم اسروا واحداً ومن يرى الاسرى لا يظهر انهم قتلوا واحدا».

أما عن اهمية هذه المعركة:

1- يعلق ستيفنسون على هذه المعركة فيقول: ان هزيمة اللاتين في حطين كانت المقدمة لما يمكن وصفه بالانهيار الكلي لمملكة بيت المقدس.

2- اصبح اللاتين بلا جيش وبلا حاميات كافية، وبدون قادتهم الطبيعيين، وكل هذه كانت نتيجة هذه المعركة.

3- كانت حطين معركة فاصلة او كما يقول أحد المؤرخين: **«كانت حطين اعظم من مجرد كارثة حربية، لقد كانت في حقيقة امرها بشيراً بنجاح المسلمين في القضاء على اكبر حركة استعمارية شهدها العالم في العصور الوسطى»**.

7. مسرد المصطلحات

الأبراج:

وهي ادوات كبيرة تقام من الاخشاب والحديد وقد بلغ حجمها في حصار عكا خمس طبقات.

الإفاقة

هي الصحوة، وهي تيار من الوعي على الخطر الصليبي لحق به العمل على تلافي هذا الخطر والقضاء عليه، فيما تحول إلى حركة جهادية متكاملة، تولى امرها رموز معينه مثل مودود وايلغازي وارتق و عماد الدين زنكي.

الباطنية / الحشاشون:

فرقة اسلامية متطرفة تنتسب إلى الاسماعيلية، وليس من السهل التعرف على حقيقة عقائدها، لكنها اتخذت الاغتيال اسلوبا لها للتخلص من خصومها.

الجهاد:

الحرب التي اساسها الدين. ولقد اعتبر الجهاد في سبيل الله من أصل الدين. «ان الله يحب الذين يجاهدون في سبيله صفاً كانهم بنيان مرصوص» القرآن 9:81 وليس وارداً عليه كما هو عند المسيحية.

ولقد استمرت هذه الحرب طوال الحروب الصليبية حتى تمكن المسلمون من تحرير آخر شبر من اراضيهم من سيطرة المحتل الصليبي.

حرب الخنادق:

وهي الحرب التي جرت في عكا حيث وقفت الحامية الاسلامية محتمية خلف اسوار المدينة بينما الصليبيون المحاصِرون (بكسر حرف الصاد) كانوا يحتمون في الخنادق التي حفروها وراء الحيطان التي بنوها.

الحرب الساخنة:

هي الحرب الفعلية والقتال بالسلاح، وهي عكس الحرب الباردة، التي يطلق عليها أيضًا الحرب النفسية.

الحمام الزاجل:

من وسائل المخابرة بالبريد الحمام الزاجل، وقد استخدم في معركة عكا بصورة خاصة. وقد كان له شأن عظيم. وقد كان للمخابرة بالحمام ابراج، في قلعة القاهرة على عهد الايوبيين في القرن السابع للهجرة. وهي تنقل الرسائل إلى سائر الجهات.

الشهيد:

صفة اطلقت على المجاهدين، الذين نذروا حياتهم كلها للجهاد في سبيل الله، حتى ولو لم يقتلوا فعلاً في ميدان المعركة. فنور الدين محمود يطلق عليه الشهيد لأنه قضى حياته في سبيل الله وسيطر على بؤرة شعوره شيء واحد هو تخليص الوطن الاسلامي من المحتلين الاجانب، ولقد رقي هذا السلوك بنور الدين إلى رتبة الشهادة والاستشهاد ولو انه لم يمت على ارض المعركة ولم يسل دمه بفعل سيف او رمح !

المنجنيق:

هو آلة قذافة. وقد استخدمها المسلمون في الحرب الصليبية. والمنجنيق اصناف كثيرة وهي تستخدم أما لرمي السهام او الحجارة او قدور النفط أو العقارب. وكان المسلمون يستخدمون المنجنيق لهدم الحصون بالحجارة الضخمة، او لرمي الاعداء بالنبال، او لاحراق اماكن العدو بالنفط ونحوه.

الوحدة الخامسة

حروب الفرنجة (الصليبيين) بعد صلاح الدين

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي القارئ: سنبحث في هذه الوحدة أحوال الدولة الايوبية بعد صلاح الدين، وماذا جرى من صراع بين أبنائه، وكيف تدخل الملك العادل، أخو صلاح الدين في هذا الصراع واستطاع ان يكيفه بحيث يحوز هو في النهاية بحصة الأسد. وكان هذا بعد وفاة الملك العزيز، ابن صلاح الدين وحاكم مصر.

وسنعالج أيضاً احوال الصليبيين في بلاد الشام بعد اختفاء صلاح الدين عن المسرح وبعد كل التغيرات التي احدثها: هنا سنلاحظ ان الهدوء ساد حالة المملكة الصليبية في عكا، وان العادل – من ناحية – آثر عدم تحريك الاوضاع الهادئة لذلك لم يهاجم عكا.

غير ان بمقدار ما سادَ الاوضاع في عكا من هدوء فقد اضطربت في انطاكية وقبرص.

وسنعالج في هذه الوحدة موضوع المملكة الصليبية الرابعة (1204)، هذه الحملة التي كانت تهدف في البداية ان تحتل مصر. وقد جرى الاتفاق على ذلك مع البندقية. لكن اضطراب الاوضاع في القسطنطينة جعل البندقية تبادر إلى طلب الهجوم على زارا على الشاطئ المقابل للبحر الادرياتيكي.

وكان رأس الحربة والسبب في توجيه الحملة إلى زارا بدلاً من مصر هو الكسي انجيلوس الذي طالب بعرش أبيه، والذي ازيح عنه بفعل الاضطرابات، ووعد أيضاً بتسديد الديون للبندقية. وان يقدم امدادات لفتح مصر. كما ان الوثائق كشفت انه كان هنالك اتفاق سري بين البندقية وسلطان مصر على عدم مهاجمة مصر، اضافة إلى أسباب منها النفور القديم المتأصل بين الصليبين والبيزنطين!

غاية الأمر ان الحملة تقدمت إلى القسطنطينية واحتلتها وقامت بعملية نهب وسلب، لهذه المدينة العظيمة، رهيبة!.

وهنا تمكن الصليبيون من اقامة امبراطورية لاتينية محل الامبراطورية البيزنطية استمرت (50) عاماً!

وعلى وجه العموم فإن الحملة الصليبية الرابعة لم تأت للصليبيين إلا بإضعاف مركزهم، وبأنها حطمت وحدة العالم البيزنطي، مما عاد بالضعف ايضاً على العالم المسيحي والصليبي بمجمله!

وسنعالج في هذه الوحدة، الحملة الصليبية الخامسة، وسنلقي الضوء عن سبب تحوّل الحملات الصليبية إلى مصر حيث ستكون الاجابة: لأن مصر اصبحت مركز ثقل المقاومة الاسلامية.

اما لماذا كانت نقطة الانزال والانطلاق إلى داخل مصر هي دمياط، فإن الاجابة عليها لأن دمياط طريق ميسر ووسيلة سهلة للمواصلات.

غاية الأمر ستوضح لنا هذه الوحدة مجريات الحملة الخامسة من احتلال دمياط، إلى توغل الصليبيين إلى الداخل، وتقدمهم إلى فارسكور والبحر الصغير، وهنا سيقعون في مصيدة شائكة، حيث يفتح المصريون عليهم السدود وتغرق الارض تحت ارجلهم، ولم يعد باستطاعتهم العودة إلى دمياط، وهكذا تنتهي هذه الحملة التي قادها حنا دي برين، بالفشل والجلاء عن دمياط.

والحملة السادسة، هي ما ستتولى الحديث عنها، بعد الحملة الخامسة، وهذه الحملة فريدة منَ بين الحملات! فهذه الحملة التي قادها فردريك الثاني، الذي استنجد به الملك الكامل، لم تنعم ببركة البابا بل بحرمانه! وكان عددها قليلاً يقدر بحوالي (500) جندي، وهذه هي الحملة التي لم ترق فيها الدماء. ولكن الضحية في هذه الحملة التي لم يستل فيها إلا سلاح المفاوضات ولغة الكلام، كانت مدينة القدس، مضافاً اليها بيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا. وقد اعتبر المسلمون هذا العمل مروعاً! ولكن هيهات، فقد ظفر الصليبيون ببيت المقدس التي شاهدنا مقدار التضحيات التي قام بها صلاح الدين من اجل استعادتها للمسلمين.

أما الحملة السابعة، فتأتي على أثر استعادة المسلمين بيت المقدس بقيادة الملك الصالح ايوب، ويقود هذه الحملة الملك لويس التاسع المعروف بالتُّقي وستستولى هذه الحملة - كما سنلاحظ - على دمياط. لكن نقطة ضعفها القاتلة ستكون في جمود الجيش في هذا الثغر. حتى اذا تحرك الصليبيون بعد لأي. فان ضربتهم القاضية ستكون في المنصورة. وسيزيد الطين بلة ان المسلمين سيقطعون خط الرجعة، وسيحال بين السفن الصليبية والعودة إلى القاعدة دمياط.

وتكون النتيجة النهائية الاستسلام الكامل للصليبيين، ورحيلهم من حيث أتوا.

وسنختم، عزيزي القارئ، بالحملة الثامنة، حيث سيتولى الملك لويس التاسع مشروع حملة جديدة. إلى ثغر جديد بعيداً عن مصر! هذه المرة، وإلى تونس ولكن خاتمة هذه الحملة ستكون مأساوية، وعلى ارض تونس سيقضي لويس التاسع.

ولن يكون المستفيد من هذه الحملة سوى المسلمين في المشرق ممثلين بالظاهر بيبرس الذي سيغتنم فرصة اخفاق الحملة على تونس، فيستولى على صافيتا وحصن الأكراد.

والمهم في هذه الحملة -كما سترى- انها ستكون خاتمة الحملات.. فلم تقدم إلى الأراضي المقدسة حملة صليبية من الدول الأوربية!

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عزيزي القارئ، بعد قراءتك هذه الوحدة وتنفيذ النشاطات والتدريبات الواردة فيها ان تكون قادراً على أن:

1- تعرض أحداث الحملات الصليبية الرابعة (حملة القسطنطينية) وتربطها بحقيقة الأطماع الصليبية.

2- تعلل أسباب المشكلات التي واجهها الكيان الصليبي بعد صلاح الدين.

3- تعلل أسباب توجيه الحملات بعد صلاح الدين إلى مصر وتونس.

4- تقدر أهمية الصمود والوحدة في تحرير الأمة والوطن من الغزاة.

3.1 أقسام الوحدة

تقسم هذه الوحدة إلى خمسة أقسام رئيسة ترتبط بقائمة الأهداف السابقة:

القسم الأول: «أحوال الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين». ويرتبط هذا القسم بالهدف الأول للوحدة.

والقسم الثاني: «احوال الصليبيين في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين». ويرتبط هذا القسم بالهدف الثالث للوحدة.

والقسم الثالث: الحملة الصليبية الرابعة (1204) ويرتبط هذا القسم بالهدف الثالث للوحدة.

والقسم الرابع: «الحملات الصليبية على مصر» والذي يشمل الحملة الخامسة والسادسة والسابعة ويرتبط هذا القسم بالهدف الخامس.

والقسم الخامس: الحملة الصليبية على تونس (الثامنة)ونهاية الحملات الصليبية المنظمة ويرتبط هذا القسم بالهدف الثالث.

2. أحوال الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين

اصاب الناس الحزن الشديد على وفاة صلاح الدين فقد توفي كما يقول ابن شداد في يوم «لم يُصب الاسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين، وغشى القلعة بدمشق والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداءه بنفوسهم» ابن شداد (النوادر السلطانية ص 420). وحتى المؤرخين الأوربيين ترحموا على صلاح الدين وانزلوه منزلة عظمى في تاريخهم واشادوا بصلابته وروحه المتسامحة في نفس الوقت، وعَدُّوه اعظم شخصية مرت على تاريخ الحروب الصليبية (Runciman 78-III PP:77).

وأما عن مكانته في التاريخ فيقول ابن شداد أيضاً :»ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلاّ في آلاته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا لمن يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنةً ويسرة» (ابن شداد ص 44-43) والحقيقة ان مفتاح شخصية صلاح الدين وسر اسرار وجوده هو تفانيه في سبيل الجهاد والصبر على شدائده وتضحياته العظيمة.

وما ان انتقل صلاح الدين إلى الرفيق الأعلى حتى جرى تقسيم املاكه بين اولاده. وكان الملك الأفضل، وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ملازماً لأبيه عند وفاته. فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وصرخد وبصرى وهونين وتبنين إلى الداروم. اما الابن الثاني لصلاح الدين وهو الملك العزيز عثمان، فكان بمصر عند وفاة أبيه فاحتفظ بها في حين أخذ الابن الثالث، الظاهر غازي، حلب وجميع اعمالها وشمال الشام. اما الملك العادل - اخو صلاح الدين- فقد اخذ الكرك والاردن فضلاً عن الجزيرة وديار بكر، وكلها اقطاعات ثانوية، لا تتناسب مع مكانته ولا تليق بطموحاته.

وتذهب الروايات التاريخية إلى أن الأفضل، الذي اوصى له صلاح الدين من بعده لم يكن الرجل المناسب في المكان المناسب، ولم يكن يستحق هذه الوصاية فالمقريزي يصفه بأنه يحب اللهو واللعب وتعاطي الملذات (المقريزي السلوك جـ1 ص118)، اما ابن تغري بردي فيصفه «بالملك النوام» (النجوم الزاهرة ج 6 ص 120-122). ويذهب ستيفنسون إلى ان

الأفضل كان الأقل شعبية بين ابناء صلاح الدين (Stevenson P. 293). وزاد في عزلته وقلل من قوته وسيطرته انه ابعد امراء والده ومستشاريه، الذين لجأوا إلى أخيه العزيز في مصر فاستعدوه على اخيه الأفضل.. وبعد ان استمع اليهم قربهم اليه واحسن إليهم وازداد بهم قوة يقول ابن واصل: «واستمال الملك العزيز -رحمه الله- اصحاب والده وامراءه ومماليكه واحسن اليهم وقربهم منه فعظم بذلك شأنه، واجتمعت كلمتهم على نصرته، وتقرير قواعد ملكه» (ابن واصل جـ 3 ص12). ولعله من هنا بدأت الوحشة وحصلت الفرقة بين الاخوين، وتحرك العزيز نحو الشام لينظر في امره مع أخيه الأفضل.

فقد خرج العزيز من مصر في صيف 1194 قاصداً الشام وبدأ في محاصرة الأفضل في دمشق وبحسب رواية ابن واصل الذي غطى احداث هذه الفترة يوماً فيوماً تقريباً «اتفق رأي الأمراء بمصر على أن تكون المملكة مجتمعة للملك العزيز عماد الدين عثمان وقالوا : هو أولى اولاد السلطان بذلك اذ هو المحيي لسنة والده في الشجاعة والكرم» ويقية الرواية انهم «اشاروا على الملك العزيز بالتوجه إلى الشام لتجتمع له المملكتان، وتنتظم ممالك والده في ملكه» (ابن واصل جـ3 ص26).

وهنا لم يزد رد فعل الأفضل على الاستنجاد بعمه العادل: «ثم سير الملك الافضل رسولاً إلى عمه العادل يستخدمه ويخبره بقصد أخيه اليه، ويسأله ان يعاونه عليه» (ابن واصل جـ3 ص28). وبالفعل لبى العادل الاستنجاد والتقى العم بابن اخيه العزيز في المزّه وطلب اليه ان يصالح اخاه ويعود من حيث اتى. فقال الملك العزيز لعمه «انا داخل في رضاك، وأي شيء امرتني به امتثله، واقبل كل شيء تُشير به علي، وألتزم كل شرط تشترطه، وانت عمنا وشفعتك تشملنا». فرد عليه العادل: «نفِّس الخناق عن اخيك» (ابن واصل جـ3 ص30).

وبهذا وضع العادل في موضع الحكم بين الاخوة، والقضاء بين المتخاصمين، ولما كان على ما هو عليه من الطموح وبعد النظر «ذا مكر شديد وخديعة، صبوراً ذا اناة وتؤدة» (ابن واصل جـ3 ص271) فانه لم يتعجل الحوادث ويحرق المراحل، ولهذا قبل بالتسوية بين الاخوة المتخاصمين والتي قضت بأن يحتفظ الأفضل بدمشق وطبرية واعمال الغور، في حين يأخذ العزيز بيت المقدس وما جاوره من اعمال فلسطين، ويأخذ الظاهر جبلة واللاذقية. على أن الأفضل لم يلبث ان عاد إلى جاري عادته «فتشاغل عن أمور الناس بادمان الشراب» فكان أن خرج العزيز في العام التالي إلى دمشق (1194-1195) قاصداً الأفضل ودمشق. وهنا استنجد الأفضل

بعمه العادل مرة أخرى بدلاً من محاولة التفاهم مع أخيه فكما يذهب ابن واصل :«أشار العقلاء على الأفضل بمكاتبة أخيه وملاطفته واسترضائه ومصافاته ولو فعل لصلح حاله واستمر ملكه» بمعنى أنه كان سيبتعد عن وضع مصيره بيد عمه الذي كان يخطط لاحتواء الوضع كله والسيطرة على المملكة الأيوبية.

غاية الأمر ان العادل توجه مع الأفضل نحو مصر ومن ثم بدأ بمكاتبة امراء العزيز يستميلهم اليه مما أدى إلى اضطراب بعض امراء عسكر العزيز وبالذات الاسدية والاكراد، وجعلهم ينضمون إلى معسكر العادل (ابن واصل ص46). وهنا جرت عملية موائقة بين العادل والأفضل فقد اتفقا على أن يكون للملك العادل ثلث الديار المصرية وثلثاها للملك الأفضل.

على أن العادل آثر المصالحة مع العزيز على الحل الذي اتفق به مع الأفضل، فقد اشار العادل على العزيز ان يعفو عن الامراء الاسدية والاكراد، وان يصفح عن جرمهم ويعيدهم إلى خدمته «وحلف العادل لابن اخيه العزيز واختار المقام عنده بمصر لتقرير قواعد ملكه» (ابن واصل جـ 3). وهكذا لم يجد الأفضل امامه سوى الرجوع الى دمشق، من حيث أتى، بعد ان تصالح الأخوان وحلف كل منهما لصاحبه على الاتفاق.

لكن الأفضل، ما ان وصل إلى دمشق، حتى تعرض إلى دسائس ووساوس وزيره ضياء الدين بن الأثير، نقطة ضعفه، فثناه عن المهادنة وحَذّره من اخيه وعمه وقال: «انت اكبر الأخوة وافضلهم، وما تَمَّ عجز، وفي الغيب لله قضايا، وله الطف خفايا، دمشق مدينة حصينة وأهلها يحبونك ويؤثرونك» (ابن واصل جـ3 ص59). ولكن هذا الرأي سيثبت فشله، فلم يلبث العادل ان رحل مع العزيز إلى دمشق 593هـ/ 1196 فاحتلاّها دون مقاومة وهنا سلم الملك العزيز دمشق إلى عمه العادل ورحل عنها إلى الديار المصرية، اما الملك الأفضل فقد أبعد إلى حوران.

في عام 595هـ توفى الملك العزيز مما احدث خللاً وعدم توازن في المعادلة الايوبية، وعاد الصراع من جديد بين الملوك والأمراء الايوبيين. فقد اتفقت كلمة الأمراء الايوبيين في مصر على مكاتبة الأفضل ليقدم إلى البلاد ويكون وصياً (اتابكا) على المنصور بن العزيز (ابن واصل جـ3 ص90) وبالفعل وصل الأفضل من صرخد بحوران في سبعة أيام. على أن الأمراء لم يلبثوا ان غيروا رأيهم وعادوا الى الاتفاق، على استدعاء العادل الذي تمركز في دمشق، حيث جرى حصاره في دمشق من قبل الأخوين الأفضل والظاهر، لكن الخلاف لم يلبث ان نشب بينهما بفضل دسائس العادل، ولم يلبثا ان رحلا عن دمشق، حيث رجع الأفضل إلى مصر، والظاهر إلى حلب.

وصل العادل إلى مصر، ودخل في معركة فاصلة مع الأفضل، الذي انهزم ولجأ إلى القاهرة فكتب له العادل قائلاً: **«انا لا احب ان اكسر ناموس القاهرة، لأنه أعظم معاقل الاسلام، ولا تحوجني إلى أخذها بالسيف، واذهب الى صرخد، وانت آمن على نفسك»** (ابن واصل جـ ص109).

هكذا ازيح الأفضل عن الصورة، وبهذا تمكن العادل من الاستيلاء على القاهرة والقيام باتابكية المنصور. لكنه لم يلبث على هذا الحال إلا أياما فقد عزم على عزل المنصور واخراجه من الديار المصرية، ومعه والدته واخوته، حيث سيرهم إلى الرها، فأقاموا بها بعض الوقت، ثم انتقلوا إلى حلب واقاموا عند الملك الظاهر صاحبها.

ولم يلبث العادل ان عاد إلى دمشق واستطاع بذكائه ودهائه واستمالة الظاهران يعاقب الأفضل باخذ حوران منه واعطائه سميساط وحدها. كما انه اقطع حماه للمنصور بن العزيز.

وهكذا اعاد الملك العادل وحدة المملكة الايوبية تحت سلطانة واناب عنه ابنه الكامل في مصر، والمعظم عيسى في دمشق، والاشرف في حوران.

ويصف المؤرخون العادل بأنه كان ملكاً كثير المعرفة بعيد النظر، عظيم الفطنة، مستقيم السيرة، حسن النوايا والمقاصد، وكان شأن اخيه محباً للعلم والعلماء، وقد اصبح ملكاً على الشام وأعالي الجزيرة ومصر وجزيرة العرب دون منازع، كما اصبحت امبراطوريته تعادل في اتساع رقعتها امبراطورية أخيه، واصبحت الخطبة تقرأ له من على المنابر وتضرب السكة باسمه (قلعجي ص479).

أسئلة التقويم الذاتي (1)

بين كيف تمكن الملك العادل من السيطرة على مملكة صلاح الدين.

3. أحوال الصليبيين في بلاد الشام بعد وفاة صلاح الدين

لقد كان لفشل الحملة الصليبية الرابعة في ارسال معونات مادية الى فلسطين بعض ايجابياته. فقد تركت المملكة الصغيرة (عكا) في سلام. واستمرت الهدنة التي عقدها الملك املرك مع السلطان العادل تؤدي غرضها الذي عقدت من اجله. فبدون معونة من الغرب لم يكن الفرنجة بقادرين على المغامرة بوقف العمل بهذه الهدنة. وفي هذه الأثناء كان الملك العادل مشغولاً بتجميع وتوحيد اركان مملكته لدرجة انه لم يرد ازعاج نفسه بالاستيلاء على دولة تسبب له أذى. لقد كان هذا هو الاجدى للعادل، لأنه حاول الهجوم على عكا فإنه كان سيحرض الصليبيين على القيام بحملة جديدة. وهكذا فقد استمر يوحنا ابلين يحكم ثلاث سنوات اخرى في عكا عن ابنة أخته ماريا.

لكن ماريا- الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس - بلغت في (1208) سن الرشد، فبدأت مشكلة البحث عن عريس ملائم، له من المقدرة والخبرة، ما يستطيع بهما حماية الصليبيين والدفاع عن كيانهم بالشام (Runciman III P. 132).

وكان الاختيار سيقع على واحد من الامراء الصليبيين في الشام، فانعقد مجلس في عكا برئاسة البطريرك لبحث هذا الموضوع. ورأى المجتمعون الرجوع إلى الملك فيليب اغسطس ليتولى هو اختيار الرجل المناسب من بين المرشحين. وبالفعل وصلت السفارة الصليبية إلى فرنسا. وهنا وقع اختيار ملك فرنسا على حنادي برين الذي كان في الستين من عمره. وبالرغم من تفاوت السن بين برين وعروسه التي لم تبلغ العشرين بعد، إلا انه اعتبر الاختيار المناسب، لأنه كان يجمع في شخصه الخصائص والملامح اللازمة للصليبيين في الشام (عاشور جـ2 ص950).

ومهما يكن من أمر، فإنه على أثر بعض الاعمال الاستفزازية التي قام بها الفرسان الداوية خرج الملك المعظم -ابن العادل- على رأس جيوشه قاصداً عكا. وقد حصل المسلمون على غنائم كثيرة.

وفي عام 1212 توفيت الملكة ماريا. ولكن تم الاتفاق بسرعة على ان يقوم حنا دي برين بالوصاية على المملكة وعلى ابنته يولاند، حتى تبلغ سن الرشد.(Runiman III P. 132).

وقد حرص حنا دي برين على الا يضيع سنوات الهدنة مع المسلمين سدى، وإنما اخذ يعمل على تصفية المشاكل الداخلية للصليبيين، ويعدهم ويمنيهم بمشروع كبير لغزو مصر. وكان

حنا دي برين قد بادر بعد الهدنة السابقة مع العادل بإرسال الرسل الى روما يطلب إلى البابا اعداد حملة جديدة تصل إلى الشرق مع انتهاء العمل بالهدنة.

كانت الدول اللاتينية الأخرى اقل حظاً من مملكة عكا. ففي قبرص صعد الى الحكم هيو Hugh بن الملك املرك، الذي توفى 1205، وكان عمر هيو عشر سنوات. ولذلك اعطيت الوصاية عليه إلى فارس فرنسي، كان يعمل شرطياً (كونستابل) لاملرك وكان قد تزوج باخت هيو الكبرى بورجندا. وقد كان هذا الوصي حاكماً فاشلاً فقد شغل الجزيرة في حروب مع المسلمين، وعندما سلم السلطات إلى صهره في عام 1210، فانه اجبر على أن يذهب الى المنفى بسبب تهمة الاختلاس خلال مدة عمله.

تمتع هيو بمزاج ناري، فقد كانت علاقاته مع جيرانه، والحكام الذين يتبعون له، والكنيسة والبابوية، كلها عاصفة. ولكنه مع ذلك حكم مملكته بحزم.

وإذا نحن التفتنا الى امارة انطاكية والاوضاع فيها نجدها عاصفة اكبر بكثير مما كان عليه الأمر في قبرص! فقد كان بوهمند كونت طرابلس، قد أقام حكمه في انطاكية بعد وفاة أخيه أبو همند الثالث في عام (1201) متحديا بذلك ابن اخيه ريموند روبين.

ولقد كان لبوهمند، هذا،مشاكله الخاصة به، فبالرغم من ان انطاكية كانت له، كما كان يتمتع بتأييد الكومونة، فقد كانت سيطرته على الجانب القروي مقيدة ومحدودة. وبينما حاول بوهمند قمع الثورة التي قامت عليه في طرابلس، فان ليو الارمني حاصر انطاكية ولم يتحول عنها الا بعد ان قدم الظاهر الايوبي صاحب حلب لنجدة بوهمند. وبعد وفاة املرك، كب يوحنا ابلين كل دعم للثوار، الذين هزمهم بوهمند في نهاية سنة (1206) بعد ان فقد احدى عينيه في احدى الحملات.

وهنا لجأ بطريرك اللاتين إلى المؤامرات، في انطاكية. وفي نهاية العام التالي (1207)، ادخل بعض الفرسان الذين كانوا مخلصين له، الى المدينة، في الليل. وقد عملوا على السيطرة على المدينة السفلى، ولكن بوهمند جمع قواته في القلعة وبسرعة طردهم إلى الخارج. وهكذا فان البطريرك بطرس الذي ثبتت عليه التهمة في التآمر قدم إلى المحاكمة والقي به في السجن. ولم يعط طعاماً ولا ماء. ومن فرط يأسه ابتلع الزيت من سراجه ومات وهو على حالة من العذاب.

وعلى أية حال، عزيزي القارئ، فقد كان للتأثير الخارجي، والذي بدأنا هذه الوحدة بالاشارة إليه ونعني به تحديداً الحملة الصليبية الرابعة الأثر الأكبر في تغليب حالة من الهدوء والاستقرار بين المعسكر الصليبي والمعسكر الاسلامي، فالمشروع الذي كان مقدراً له غزو

الشرق الاسلامي (مصر وبلاد الشام) تحول الى الحرب مع اليونان وإلى فتح القسطنطينية (1204-1202) وكان الذي ادى إلى هذا الانعطاف الراديكالي هو الاحقاد المبيتة والطويلة المدى بين البيزنطيين واللاتين، اضافة إلى مصالح جمهورية البندقية التجارية. فقد اعتمد الصليبيون على البنادقة من اجل توفير السفن، وهكذا قال داندولو، دوق البندقية الكلمة الفصل في أمر الحرب. وعلى هذا فإنه لم يصل سوريا سوى نسبة غير ذات بال من القوة الصليبية تمثَّلت في الاسطول الفلمنكي في عام (1203). ولم يكن من بين قادة هذا القسم من كانوا على مستوى متقدم في الرتبة والاهمية ليجعلوا املرك يتراجع عن هدنته مع المسلمين. وقد ذهب بعض افراد هذه القوة البحرية ليشاركوا في الحرب التي كانت تدور رحاها بين بوهمند انطاكية وليو الارمني.

ولقد بقي الآخرون في عكا، عندما سقطت سفينتان كانتا على ساحل قبرص في قبضة الاسطول الاسلامي الذي كان يعسكر بالقرب من صيدا. وهنا وجد الملك املرك بعض العذر لبدء حرب جديدة مع المسلمين. فقد بدأ املرك والقوات في عكا في غزو المناطق الاسلامية القريبة من عكا. لكن ظهور الطاعون قطع عليه الاستمرار في هذا الغزو.

غاية الأمر، فان سقوط القسطنطينية عام (1204) سبَّب عملية خروج جماعية exodus كاملة للصليبيين والفرسان السوريين الى اليونان. وفي هذا الظرف ظَلَّت سيّاسة اللاتين المعلنة هي ان يعقدوا سلماً مرة اخرى. بل لقد أصبح العادل راغباً ومستعداً لان يتقدم بتنازلات. فمما لا شك فيه انه اصيب بالذعر من جراء سقوط القسطنطينية. فقد قبل باعادة يافا للصليبيين. كما سلمت لهم الناصرة ثانية. وقد جرى اقتسام مدخولات صيدا ومقاطعات اخرى مع الصليبيين. وقد اتفق على شروط هذه الاتفاقية في سبتمبر (1204). وكان على الاتفاقية ان تستمر إلى (1210) (Stevenson P. 296).

ويقول سعيد عاشور، بصورة اكثر تحديداً، ان الملك العادل ترك للصليبيين -بمقتضى الصلح- النصف الخاص، بالمسلمين في صيدا واللد والرملة، كما اعطاهم الناصرة لتسهيل مهمة الحجاج المسيحيين (عاشور جـ2 ص946).

أسئلة التقويم الذاتي (2)

ما هو اثر سقوط القسطنطينية في يد الصليبيين على الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام؟

4. الحملة الصليبية الرابعة

1.4 الاستيلاء على القسطنطينية

كان البابا انوسنت الثالث هو الذي وضع لنفسه وللكنيسة البابوية برنامجاً ضخماً يأتي على رأسه محو آثار حروب صلاح الدين في المشرق العربي الاسلامي واستعادة بيت المقدس مرة ثانية من المسلمين. وكان البابا قد صعد على سدة البابوية عام (595-1198)، قلعجي ص457).

وكان هذا التوجه من البابا قد تناغم مع نصائح ريتشارد قلب الأسد: ان يوجه الصليبيون ضربتهم ويلقوا بثقلهم ضد مصر، لانها اثبتت انها مركز المقاومة الحقيقي ضد الصليبيين بالشام، والمستودع التعبوي والمخزن الكبير الذي استمد منه الايوبيون مواردهم البشرية وقوتهم المالية في محاربة الصليبيين. (عاشور ص931).

وهنا كان لابد من الاتفاق مع البندقية، التي انتهزت حاجة الصليبيين الى المال وعجزهم عن دفع ثمن نقلهم إلى مصر فعرضت على هؤلاء ان تقوم بنقل (4500) فارس وخيولهم، و(20) الف جندي، وان تطعم هؤلاء الجند والفرسان، وتقدّم (50) سفينة لكي تصاحب الحملة، وذلك بشرط ان تأخذ البندقية نصف مكتسبات الحملة وفتوحها، وبمجرد ان توقع الاتفاقية، كان الشرط أيضاً، ان يُدعى الصليبيون للتجمع في البندقية ويبحرون من هناك ضد مصر (Runciman 3, P.113).

جرى هذا التوجه، وتم هذا الترتيب والقسطنطينية -التي ستكون مسرح الاحداث المقبلة- تعاني من ضعف الحكام فيها. فالامبراطور -اسحق انجيلوس الذي صعد إلى السلطة في هذه الفترة وتوصل إلى سُدّة الحكم في القسطنطينية لم يثبت جدارته. فموظفوه كانوا فاسدين وليس من السهل السيطرة عليهم، كما كان هو مسرفاً لدرجة كبيرة لا تحتملها امبراطوريته الفقيرة. ومع هذا فقد بدأت اسرته بهجرانه، وفي عام 1195 قام اخوه الكسيوس بتدبير انقلاب ضده وقد سُملت عينا اسحق ورمي بالسجن ومعه ابنه الاصغر الكسيوس، ولم يكن الامبراطور الجديد، الكسيوس الثالث، باقدر من اخيه بالشيء الذي يعتبر به، وقد أبدى بعض النشاط الدبلوماسي. ولكن الشؤون الداخلية تركت لزوجته أفروسين التي كانت مسرفة وتحيط بها حاشية فاسدة كما كان حال شأن صهرها المخلوع.

ما يهمنا ذكره هنا هو ان الاستعدادات للحملة الصليبية راحت تسير سيراً سريعاً بفضل جهود جماعة من المتحمسين والدعاة الذين لم يكونوا يقلون في حماستهم عن دعاة الحملة الصليبية الأولى. وكان على رأس هؤلاء البابا انوسنت الثالث. وفي فرنسا كان الوكيل الرئيس للبابا كونت نيفيللي، في فرنسا، الذي طالما بحث عن دور يكون هو الموحي فيه بحملة صليبية وقد اشتهر بانه لم يكن خوافاً أو وجلاً. وتلبية لطلب البابا راح يطوف اركان البلاد ليقنع الفلاحين لكي يتبعوا امراءهم إلى الحرب المقدسة. وفي المانيا كانت مواعظ أبوت مارتن في بيريس، موحية بشكل مساو للكونت نيفيللي. (Runciman III P. 109).

وكان من أوائل من برزوا للمشاركة في هذه الحملة بلدوين التاسع امير فلاندرز، واخوه هنري، وبونيفيس دي مونتفرات، وتيبولد الثالث شامبني، ولويس أمير بلوا.

وفي مارس 1201 توفي تيبولد شامبني فجأة، فاختارت الحملة بدلاً منه بونيفيس دي مونتفرات. وكان هذا اختياراً طبيعياً. فبيت مونتفرات كان له صلات على مستوى النبلاء مع الشرق ولقد قدم بونيفيس إلى فرنسا في عام 1201، وقابل زملاءه الرئيسيين في سواسون، حيث اعتمدوا قيادته (Runciman III P. 111).

كل هذا جرى على جهة الاستعدادات لارسال الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر.. لكن حصل أيضاً ما لم يكن في الحسبان عندما بادرت البندقية، التي لم تكن عندئذ تهتم بالصالح الصليبي قدر اهتمامها بمصالحها الخاصة؛ فانتهزت فرصة حاجة الصليبيين، إلى المال وعدم تمكنهم من دفع ثمن نقلهم بالسفن إلى مصر، لتطلب من الصليبيين، كبديل، مهاجمة مدينة زارا على الساحل المواجه للبحر الادرياتيكي واستردادها من هنغاريا وتسليمها للبنادقة، كثمن لانتقالهم إلى مصر. وكان ان استجاب الصليبيون لهذا العرض، وهاجموا زارا وحاصروها، وعبثا حاول أهلها اظهار شعائر المسيحية على الاسوار لردع الصليبيين عن محاربة ابناء دينهم (الروم جـ2، ص176)، فقد استولى الصليبيون على المدينة ونهبوها ثم قدموها للبندقية لقمة سائغة.

إلى هنا، فقد كان من المفترض، ان تتوجه الحملة الصليبية الرابعة، نحو مصر، ولكنها توجهت نحو القسطنطينية، فما الذي جرى؟ ولماذا تغيرت مصائر الأشياء وتحولت الوجهة فبدلاً من أن تكون مصر، موضوعياً، هي الهدف أصبحت القسطنطينية هي الهدف والمطلب. هذا هو السؤال الذي يطرح نفسه؟

وللإجابة عن هذا السؤال يذهب البعض إلى ان بداية الانحراف نحو القسطنطينية كانت بتبني الصليبيين والبنادقة لقضية الكسي انجيلوس، المطالب بعرش ابيه، ووجهوا الحملة نحو القسطنطينية. وكان البندقيون ينتظرون مثل هذه المناسبة للثأر من القسطنطينية التي جردتهم من الامتيازات التجارية، (قلعجي ص459) لا سيما وان الكسي انجيلوس تعهد لهم باخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية، كما تعهد بدفع مبلغ كبير من المال، اضافة الى تسديد ديون البنادقة على البيزنطيين وان يقدم لهم امدادات لفتح مصر، وفرقة من الجيش قوامها عشرة آلاف جندي علاوة على (500) فارس يبقون في الأراضي المقدسة (Runciman III P. 115).

بينما يذهب مؤرخون آخرون الى أنه كان هناك اتفاق سري بين البندقية وسلطان مصر الملك العادل لتحويل هذه الحملة عن اراضيه. (الروم جـ2 ص177) ومهما يكن فالبنادقة، حتى لو لم تربطهم معاهدة سرية بالعادل، فانهم لم يكونوا مستعدين لمعاداة هذا الملك، وحمل الصليبيين إلى شواطئ مصر، نظراً لما صار لهم من مصالح اقتصادية واسعة في مصر عندئذ (Setton II P. 161).

ومن ناحية اخرى يرى المؤرخ نورمابيتر ان الرخاء العظيم في بيزنطية كان وبالاً عليها، حيث يقول: «**اذا نظر الانسان إلى الحروب الصليبية، من وجهة نظر الامبراطورية الاغريقية، لا يسعه إلا ان يتبين ان هذا المجهود العظيم الذي بذلته المسيحية لتخليص قبر المسيح، انما كان شره على الدولة اكثر من خيره. فهذه الحروب التي قاربت بين عالمين عاجزين عن التفاهم بيزنطية والغرب إلا أن النتيجة زادت من حدة الضغائن وأسباب الكراهية بينهما، واطلعت كذلك الغرب، والبندقية منهم خاصة، على غنى الدولة والميادين التجارية الفسيحة التي تضمها، فاثارت بذلك نيران الطمع**» (انظر قلعجي ص461). ولقد كان هنالك اسباب اخرى كافية ادت إلى خيار القسطنطينية يمكن تلخيصها، عزيزي القارئ، بما يلي:

1- عرقلة القسطنطينية لجهود الصليبيين في الشرق.

2- النفور القديم المتأصل بين الكنيستين الشرقية والغربية.

3- رغبة البابا في تحقيق سيادة البابوية العالمية وإدخال الكنيسة الشرقية تحت نفوذه.

غاية الأمر أن الصليبيين والبنادقة توجهوا نحو القسطنطينية وظهر اسطول الصليبيين أمامها وكان ذلك في آخر حزيران 1203 / 600هـ ونزلوا بالقرب من غلاطة، وقطعوا السلاسل التي تحمي مدخل القرن الذهبي، حيث دخلت مراكب البندقية واحرقت المراكب البيزنطية ثم اقتحم

الصليبيون اسوار العاصمة، واستولوا على المدينة، وفر اليكسي الثالث بخزينة الدولة، واطلق سراح اسحق الثاني، واعلن ابنه شريكاً في الحكم باسم اليكسي الرابع(قلعجي ص 461).

وهنا طالب الصليبيون ودوندلو شيخ البندقية، الحاكمين الجديدين بدفع المال المتفق عليه، فاستمهلهم ألكسي الرابع ورجاهم ان يقيموا خارج اسوار العاصمة.

ويحدثنا المؤرخون ان البيزنطيين سخطوا على اللاتين الفاتحين، واتهموا اسحق وابنه بالخيانة وحقيقة الأمر ان الثورة لم تكن ضد اسحق وابنه. بل كانت ضد التدخل اللاتيني في القسطنطينية، ليس غير. وهنا ابرزت الاحداث أليكس دوقاس صهر اليكسيب الثالث في اوائل 1204/ 601 ليدعو إلى الثورة ويتبعه الشعب، ويقضي على اسحق وابنه، ونودي بقائد الثورة هذا، امبراطورا باسم اليكسي الخامس.

لكن هذه الحركة من قبل البيزنطيين لم تحمهم من القدر المحتوم! إذ ان الصليبيين والبنادقة ما لبثوا ان انفقوا على احتلال العاصمة من جديد، واقامة حكومة لاتينية فيها، واقتسام الغنائم فيما بين الطرفين. وتأليف لجنة فنية من ستة بندقيين وستة فرنسيين تتولى انتخاب امبراطور «يحكم لمجد الله ومجد الكنيسة الرومانية المقدسة ومجد الامبراطورية» (الروم جـ2 ص178). على ان يحكم هذا الامبراطور ربع العاصمة وربع الدولة التابعة لها، ويوضع تحت تصرفه قصران من قصور العاصمة او يقسم ما بقي من العاصمة واراضي الدولة مناصفة بين البندقية وسائر الصليبيين.

وحاصر الصليبيون القسطنطينية، فماهي إلا أيام قليلة حتى فر الكسي الخامس، وهنا جرت عملية سلب ونهب للقسطنطينية غير ذات مثيل في التاريخ وروى رونسيمان قائلاً: لقد كانت القسطنطينية ومنذ تسعة قرون عاصمة للحضارة المسيحية. وكانت مليئة باعمال الفن التي خلدت من الحضارة الاغريقية القديمة بكل مهارات الصانعين المبدعين. ولقد ادرك البنادقة قيمة هذه الاشياء، وحيثما استطاعوا امسكوا بالكنوز وحملوها لكي يزينوا الميادين والكنائس والأمكنة في بلدهم. ولكن الفرنسيين والفلمنكيين كانوا مملوئين بالرغبة والشهوة للتدمير والتخريب. فاندفعوا بجمهور من الرعاع في الشوارع، منتزعين كل شيء يلمع، ومحطمين كل مالا يستطيعون حمله، ولم يكونوا يتوقفون الا من أجل ان يذبحوا او يغتصبوا، أو لكي يحطموا ويفتحوا اجرار النبيذ من أجل انعاش أنفسهم. ولم تسلم من جرائمهم الصوامع ولا الكنائس ولا المكتبات.وقد رأى الجنود السكارى في كنيسة أيا صوفيا نفسها يمزقون الستائر

الحريرية وينزعون ويمزقون الفاصل الايقوني الى قطع صغيرة، بينما كانت الكتب والايقونات تداس تحت الاقدام. وبينما كانوا يشربون بمرح من كؤوس المذبح فان مومساً وضعت نفسها على عرش البطريرك وبدأت تغني اغنية فاحشه فرنسية. ولقد اغتصبت الراهبات في اديرتهن. واقتحمت القصور والاكواخ وحطمت.

وقد ترك الاطفال والرجال الجرحى يموتون في الشوارع. ولمدة ثلاثة أيام استمرت المناظر المروعة للنهب وسفك الدماء، حتى تحولت المدينة العملاقة الجميلة إلى مذبح او سلخانة!

ويضيف رونسيمان الى هذه الصورة الرهيبة، تعليق المؤرخ ويلاهاردوين الذي يقول: إنه لا احد يستطيع ان يحصي عدد الذهب والفضة، والصواني والجواهر والـ Samite والحرائر والاكسية المصنوعة من الفراء وغيرها من الجواهر الVair والفضة الرمادية، والفرو الثمين، ويقول بمصداقية المؤرخ العالم انه منذ خلق العالم فانه لم يؤخذ من مدينة واحدة مثل هذا المقدار الضخم من الاشياء ولقد وزع كل شيء حسب المعاهدة: للصليبيين، و للبنادقة و احتفظ به الى امبراطور المستقبل (Runciman III 123 /124).

2.4 الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية:

بعد هذا الاحتلال، وعلى الصورة الفظيعة التي صورها المؤرخون، للقسطنطينية، اقام الصليبيون دولة صليبية لاتينية استمرت (50) عاماً. وفيما يلي شيء من التفصيل:

لقد انتخب بلدوين التاسع كونت فلاندرز امبراطوراً على القسطنطينية، ثم قسمت الدولة البيزنطية، فتولى الامبراطور على العاصمة، وعلى الاراضي التي تاخمت المضيقين البوسفور والدردنيل، وبحر مرمرة، وعلى بعض جزر الارخبيل الكبرى. واستولى مركيز مونتفرات على سالونيكا وما جاورها من اراضي مقدونية. ونال دوندولو شيخ البندقية حصة الأسد، فاستولى على حي كبير من القسطنطينية، ليمارس فيه البنادقة نشاطهم التجاري، كما استولى على ديراتزو وغيرها من النقاط الهامة في ساحل الادرياتيك الشرقي، واحتل كورفو وغيرها من جزر مداخل هذا البحر وبعض الاماكن في شبه جزيرة المورة وجزيرة كريت، وبعض المرافئ على شاطئ تراقية وغاليبولي وثلاثة أثمان القسطنطينية.

واتخذ دوندلو لنفسه لقب دسبوتس «سيد الربع والنصف لجميع الامبراطورية الرومانية» وظل خلفاؤه في البندقية يستعملون هذا اللقب حتى منتصف القرن الرابع عشر.

وهكذا، وكما جرى الحال في بيت المقدس عند احتلالها من الصليبيين لأول مرة، قامت في بيزنطة امبراطورية لاتينية على أساس اقطاعي، وقسمت اراضيها الى عدد من الاقطاعيات. واقسم امراء هذه الاقطاعيات يمين الولاء والطاعة للامبراطور.(قلعجي ص464-465).

ولقد كتب الامبراطور بلدوين التاسع الى البابا ينبئه بفتح القسطنطينية، وبارتقائه عرشها «بنعمة الله مؤكداً خضوعه للسدة البابوية. فأجابه البابا متهللاً بالرب لتمجيد اسمه بالاعجوبة التي تمت فتشرف العرش الرسولي وشعب المسيح» وطلب إلى جميع الاكليروس وجميع الملوك والشعوب ان يؤيدوا الامبراطور الجديد (الروم جـ2 ص 181).

استمرت هذه الامبراطورية كما اسلفنا مدة (50) عاماً ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماذا جرى من أمر البيزنطيين أمام هذا الاحتلال الكارثة وأمام تكوين الامبراطورية اللاتينية؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تقتضينا الرجوع إلى قول رونسيمان الذي هو من اصدق المراجع عن الامبراطورية واكثرها اصالة: يقول رونسيمان: انه في ايام الكارثة تكشف الروح الاغريقية عن نفسها على أعلى حالة من الشجاعة والحيوية. فقد تجمعت المقاومة البيزنطية في بقاع بيزنطية متعددة أهمها: نيقيه التي اصبحت مركزاً لامبراطورية البينزطية الشرعية، حيث تأسست اسرة مالكة جديدة بدأت بثيودور الأول، وختمت بميخائيل باليولرغوس، الذي انضم اليه أفراد الشعب ودخلوا العاصمة القسطنطينية من 25 تموز 1261/ 660 هـ واعلنوا عودة الدولة البيزنطية.

وهكذا اندثرت الامبراطورية الرومانية اللاتينية، وكان فناؤها جزاء وفاقا. ولكن ما هي العبر والدروس والنتائج التي يمكن استنتاجها من ظهور هذه الدولة وفنائها كإحدى نتائج الحملة الصليبية الرابعة.

أدت الحملة الصليبية الرابعة، بطريق مباشر أو غير مباشر الى اضعاف مركز الصليبيين بالشام، وخراب ديارهم واقفار بلادهم من المقاتلين، وهي الحملة التي كان مفروضاً فيها ان تُنجد الصليبيين بالشام، وتخفف عنهم وتدعم مركزهم، وتعينهم على مقاومة الضغط الاسلامي الواقع عليهم لذلك لا عجب إذا قرر أحد مؤرخي الحروب الصليبية: «ان الحملة الصليبية الرابعة جاءت نذيراً بفشل الحركة الصليبية باجمعها» (عاشور جـ2 ص 940).

اجتذبت الامبراطورية اللاتينية، الفرسان الغربيين اكثر مما اجتذبتهم سوريا، حتى ان بعض الافرنج القاطنين في سوريا تركوا بيوتهم ليشاركوا في مغامرات الشمال. أما عامة الناس الذين كانوا عماد الحملات الصليبية فقد فقدوا كل اهتمام بها.

ولا نجد افضل من هذا المقتطف نختم به تقييمنا للحملة الصليبية :«لم يكن هنالك جريمة ضد الانسانية اكثر من الحملة الصليبية، فهي لم تقتصر على تدمير او تبديد كل كنوز الماضي التي جرى المحافظة عليها وخزنها باهتمام عظيم، كما انها لم تقف عند حد جرح حضارة كانت لا تزال نشيطة وحية، بل انها كانت عملية غباء سياسي كبير كما أنها ايضا لم تجلب اي عون للمسيحيين في فلسطين. بل على العكس حَرَمتهم من مساعدة محتملة. بل هي قد خيّبت اي رجاء بالدفاع عن المسيحية، ...ومع ذهاب القسطنطينية، فقط تحطمت وحدة العالم البيزنطي ولا يمكن ان يتم اصلاحه من جديد، ولا حتى بعد أن استعيدت العاصمة نفسها....».

أسئلة التقويم الذاتي (3)

بين النتائج التي ترتبت على نجاح الحملة الصليبية في احتلال القسطنطينية 1204.

5.الحملات الصليبية على مصر

1.5 الحملة الصليبية الخامسة

أسباب هذه الحملة: لم ينس الصليبيون نصيحة الملك ريتشارد الذي نصح -كما سبق ان ذكرنا- بجعل الهجوم الصليبي ينصبُّ على مصر، كما ان مجلس المجمع المقدسLatern ذكر ايضاً ان مصر هي الهدف الرئيس للحملة الصليبية: ذلك أنه إذا طرد المسلمين من وادي النيل، فانهم لن يفقدوا ولايتهم الأغنى فقط، ولكنهم لن يستطيعوا الاحتفاظ باسطول في شرقي البحر المتوسط، كما انهم لن يستطيعوا ان يستبقوا القدس ضد هجوم كماشه يأتي من عكا ومن السويس (Runciman III P. 150).

وغني عن القول هنا، ونحن نتعرض لأسباب هذه الحملة، عزيزي القارئ، ان الجمهوريات الايطالية البحرية، كانت قد ادركت ان مركز الثقل في السياسة الاسلامية، قد انتقل بعد وفاة صلاح الدين من سورية إلى مصر، وان سفنها لا يتسنى لها الاتصال بالبحر الأحمر والإسهام في تجارة المحيط الهندي ما لم يتم لها السيطرة على وادي النيل (قلعجي ص485).

على أن هنالك سبباً تعبوياً وظفه حنا دي برين ونقصد به ان برين استغل تلك الجموع الصليبية التي وفدت على بلاد الشام بعد سفر ملك هنغاريا ففكر بالقيام بحملة على الدلتا: الاسكندرية أو دمياط، وايده في تفكيره هذا الصليبيون في بلاد الشام، وعلى رأسهم الداوية والاسبتارية، فضلاً عن الصليبيين في قبرص. (عاشور جـ2 ص964).

ولكن لماذا دمياط بالذات؟ في الحقيقة ان الصليبيين وحنا برين بصورة خاصة لم يجدوا للصليبيين اية قاعدة للارتكاز عليها لغزو مصر برياً. وهكذا فانهم اختاروا النزول بدمياط لا لان دمياط اقرب الموانئ المصرية الى الصليبيين بالشام فقط، بل لان فرع دمياط من النيل يمثل ايضاً طريقاً ميسراً ووسيلة سهلة للمواصلات تربط المهاجمين بحرياً بقواعدهم. وعلى ما يبدو فان الصليبيين نسوا ما يمكن ان يتعرضوا له في غزوهم لمصر عن طريق النيل من عقبات طبيعية تتمثل بطبيعة نهر النيل وما يكتنفه من سدود وترع وقنوات مما يجعل وصولهم الى القاهرة أمراً متعذراً. (نفس المرجع).

ترأس حنا دي برين هذه الحملة ووصلت سفنها الى دمياط في اواخر ايار (مايو) 1218

فاقام الصليبيون معسكرهم على الضفة الغربية المواجهة للنيل. ثم لم تلبث ان وصلت امدادات في ايلول 1218، وكان يرافقها الكاردينال بلاجيوس مندوباً عن البابا وقائداً أعلى للحملة (قلعجي ص 487). وقد وجد الصليبيون ان المدينة محصنة تماما، اذ كانت تمتد بعرض النيل مآصر «وهي سلاسل من حديد عظام القَدْر وَالْغِلَظ، تمتد في النيل لتمنع المراكب الواصلة في بحر الملح (المتوسط) من عبور ارضي مصر (المقريزي السلوك جـ1 ص188). وكان يرتبط بهذه المآصر برج يقع على جزيرة ملاصقة للضفة الغربية من النهر ويغلق الممر الوحيد الذي يمكن ان يؤدي الى داخل البلاد، ويقع وراء هذه المآصر جسر من القوارب. وقد ركز الصليبيون على هذا البرج، الذي اعتبرته المراجع الاسلامية «قفل الديار المصرية» وقد قضى الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون البرج عن طريق «آلات ومرمات وابراج يزحفون بها الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه». (ابن الاثير الكامل جـ12 ص326-325). وأخيراً تمكن الصليبيون في 24 اغسطس 1218، اي بعد ثلاثة شهور، من الاستيلاء على البرج وقطع الماصر التي كانت تعترض مجرى النيل. وقد اعتبرت هذه العملية بالنسبة للمسلمين خسارة كبرى ويقال ان الملك عادل لم يحتمل ذلك الخبر «فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت» ثم توفى في اغسطس 1218 (السلوك جـ 1 ص190).

حاول الملك الكامل ان يسد مجرى النيل بإقامة جسر عظيم بعرض المجرى، ولكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر وعندئذ لجأ الكامل الى «عدة مراكب وملأها وخرقها وغرقها في النيل، فمنعت المراكب من سلوكه» (ابن الاثير الكامل جـ12 ص324) وهنا فطن الصليبيون الى وجود خليج هناك، كان النيل يجري فيه قديماً، فحفروه حفراً عميقاً وأجروا فيه الماء الى البحر المتوسط وبذلك تمكنت سفنهم من دخول النيل حتى وصلت الى موضع يقال له بورة يقابل منزلة العادلية وهنا آثر الكامل - خليفة العادل- التسلل من معسكر في العادلية قاصداً اشموم طناح. وقد لحق به عسكره تاركين وراءهم كل ما معهم من مؤن وسلاح وبذلك حانت الفرصة للصليبيين فعدوا نهر النيل الى الضفة الشرقية، واستولوا على معسكر العادلية، وبنجاح الصليبيين في عبور النيل بدأت المرحلة الثانية أمام حملة حنا برين وهي حصار دمياط والاستيلاء عليها، ويعزو رونسيمان فرار الكامل المفاجئ الى اشموم طناح، الى انه اكتشف مؤامرة ضده حاكها افراد حاشيته، وهنا فكر الكامل بالفرار الى اليمن حيث كان يحكم ابنه الملك المسعود ولكنه عدل عن ذلك عندما سمع ان اخاه المعظم قد وصل اخيراً لنجدته. وفعلاً كان هو الذي انقذ موقف الكامل وقبض على المتآمرين ولاقوا جزاءهم. ولكن الذي حصل حقيقة كما يقول

رونسيمان: «ان الكامل استبقي عرشه ولكن الثمن الذي دفعه هو دمياط»(Runciman III .(P. 157

ومهما يكن من أمر، فقد ساء الموقف في مصر نتيجة فرار الكامل وتراجعه، مما انذر بانهيار جبهة المسلمين انهياراً تاماً، وتذكر بعض المراجع ان الكامل والمعظم ارسلا يطلبان المساعدات من جميع أرجاء العالم الاسلامي، وبخاصة الخليفة العباسي الذي لقبته المراجع الصليبية بلقب «بابا الاسلام» (النجوم الزاهرة جـ6 ص230-231).

عرض الكامل -كمخرج من هذا المأزق- على الصليبين عرضاً سخياً الا وهو استعداده لاحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة باستثناء حصن الكرك ووادي عربة، اي اعادة المملكة كما كانت عليه في فلسطين 1187، باستثناء قاطع الاردن وذلك مقابل جلاء الصليبيين عن مصر. ولكن بلاجيوس رفض هذا العرض، وهو فرصة سيندم عليها فيما بعد.

عاد الكامل لعرضه مرة أخرى الجلاء عن مصر مقابل القدس وعسقلان وطبرية وجبلة واللاذقية وسائر ما فتحه صلاح الدين من الساحل، ما عدا الكرك والشوبك ويعلل الاستاذ سعيد عاشور تكرار عرض الكامل على الصليبيين الى احساسه بسوء موقفه لأن النيل جاء فيضانه منخفضاً في تلك السنة مما هدد البلاد بالمجاعة «وغلت الاسعار بارض مصر. فكانت من اشق السنين واشدها على مصر» (المقريزي السلوك جـ1 ص206). وفي هذا الوقت، ايضاً، وكما لا تأتي المصائب فرادى، ساء موقف حامية دمياط وتعرضت للمجاعة والوباء «فتهكتهم الامراض وغلت عندهم الاسعار وامتلأت الطرقات من الاموات وعدمت الاقوات». (السلوك جـ1 ص206). اما الصليبيون فقد وصلتهم في سبتمبر 1219 نجدة قوية من الانجليز والفرنسيين وعندئذ ضيق الصليبيون الخناق على دمياط وازدادت حالتها سوءاً. فحاول الكامل ان يمدها بخمسمائة من جنوده لكن هؤلاء الجنود، وقعوا في ايدي الفرنجة، فقتلوهم وصفوا رؤوسهم على الخنادق (النجوم جـ6 ص238) كما راع ذلك اهل دمياط وزاد من قنوطهم بعد أن اهلكتهم الامراض وغلت عندهم الاسعار حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير، وامتلأت الطرق من الاموات، وعدمت الاقوات، وصار السكر في عزة الياقوت، وفقدت اللحوم وحالت الحال بالناس إن لم يبق عندهم غير شيء يسير من القمح والشعير، فقط، فتسور الفرنج السور وملكوا منه البلد، فكانت مدة الحصار ستة عشر شهراً، واثنين وعشرين يوماً، وعندما اخذوا دمياط وأعملوا السيف في الناس، فلم يُعرف عدد

من قُتل لكثرتهم (السلوك جـ1، ص206).

استسلمت دمياط في 5 تشرين الثاني (نوفمبر) 1219 وأَعمل الفرنجة في أهلها السيف قتلاً وأسراً» (النجوم الزاهرة جـ6 ص228).

في هذا الوضع الخانق وبينما كان يشتد الحصار على دمياط. عاد الكامل الى اللجوء للسلاح الدبلوماسي ونعني به عرض الصلح على الصليبيين مقابل الجلاء عن مصر ففي سبتمبر 1219 جاء سجين صليبي من معسكر الكامل يعرض هدنة قصيرة ومقترحاً ان المسلمين سيكونون مستعدين للتنازل عن القدس. وقد قبلت هذه الهدنة ولكن المسيحيين رفضوا ان يناقشوا شروط السلم كاملة.

وفي نهاية اكتوبر ارسل الكامل بفارسين لكي يعطوا للفرنجة شروطه المحددة : إذا كانوا على استعداد للجلاء عن مصر، فانه سيعيد لهم الصليب الحقيقي The True Cross، وبامكانهم ان يأخذوا القدس، وكل فلسطين المركزية ومعها الجليل. ولن يحتفظ المسلمون الا بقلعة الكرك والشوبك شرق الاردن وهم مستعدون ان يدفعوا تعويضاً لهم Tribute. ولقد كان هذا العرض كما يذكر رونسيمان مذهلاً. فالحرب ستتوقف، والمدينة المقدسة ومعها بيت لحم والناصرة والصليب الحقيقي، ستعاد للمسيحية.

وقد نصح الملك حنا برين بقبول العرض وايده في ذلك باروناته والبارونات الآخرون من انجلتره وفرنسا والمانيا. ولكن بيلاجيوس لم يقبل بأي من هذه الشروط، ومثله كان موقف بطريرك القدس. فقد اعتبروا من الخطأ التوصل إلى اتفاق مع المارقين Infidels! وقد وافقت هؤلاء الرافضين الفرق الدينية العسكرية (الداوية والاستبارية) لاسباب استراتيجية. فقد كانت القدس وحصون الجليل قد خربت. ولن يكون بالامكان الاحتفاظ بالقدس دون السيطرة على شرق الاردن. وكان الايطاليون معارضين لشروط الصلح بنفس الدرجة.

ويبدو ان الصليبيين ارادوا ان يجعلوا من دمياط بعد احتلالها -مركزاً منيعاً لهم، لا يقل أهمية عن عكا وصور فبالغوا في عمارتها وتحصينها واسكنوا جالية من الغربيين فيها (ابن الاثير الكامل جـ 12 ص 331) وجعلوا جامعها كنيسة وبثوا سراياهم في القرى يقتلون ويأسرون فعظم الخطب واشتد البلاء (المقريزي السلوك حوادث 616هـ) والواقع ان الصليبيين وجدوا في دمياط مركزاً تجارياً وحربيا فريداً، يهيء لهم السيادة البحرية التامة على شرق البحر التوسط،

ويهددون منه القاهرة ويقطعون المواصلات بين مصر وبقية بلاد البحر المتوسط. (عاشور جـ2 ص977).

لم يجد الكامل من وسيلة اخرى يتوسل بها سوى ان يعيد عروضه السلمية من جديدا وفي تلك المرة يذكر ابن الاثير انه عرض عليهم مقابل الجلاء عن دمياط تسليمهم **«البيت المقدس وعسقلان وطبرية وصيدا وجبلة واللاذقية وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل، ما عدا الكرك»** ولكن بيلاجيوس رفض من جديد ذلك العرض الكفيل بمحو آثار حطين **«وطلبوا ثلاثمائة الف دينار عوضا عن تخريب القدس ليعمروه بها، فلم يتم بينهم أمر وقالوا لا بد من الكرك»**.

وكان آخر عرض تقدّم به الكامل في الصلح عندما علم بنية الصليبين في الزحف على القاهرة، وهنا جدد عرضه عليهم للمرة الأخيرة ولكن بلاجيوس وشيعته امتنعوا وقالوا **«لا بد ان تعطونا خمسمائة الف دينار لنعمر ما خرَّبتم من أسوار القدس مع اخذ ما ذكر من البلاد، واخذ الكرك والشويك أيضاً»** (السلوك جـ1 ص207).،،

ومهما يكن من أمر فان الصليبيين توجهوا بتاريخ 12 يوليو 1221 نحو فارسكور، وهناك نظمهم بيلاجيوس على هيئة معركة. لقد كان جيشاً قوياً. ويحدثنا المؤرخون المعاصرون انه كان لديهم (630) سفينة من احجام مختلفة، و (5000) فارس، و(4000) نبال و (4000) من المشاة. ولقد سار الحجاج في ركاب الجيش وقد أمروا ان يبقوا ملاصقين لضفة النهر من اجل ان يمدوا الجنود بالماء. وتركت حامية كبيرة في دمياط. وفي 24 يوليو كان جميع الجيش المسيحي قد رابط على طول البحر الصغير في مواجهة المسلمين وهنا كما يقول رونسيمان: راحوا يتخبطون خلال البرك الموحلة، بينما يتبعهم فرسان جيش السلطان والحرس النوبي من المشاة، ولم يلبث المسلمون ان قطعوا السدود. ولم يشعر الصليبيون الا وقد غرقت أكثر الارض المحيطة بهم بحيث لم يبق لهم سوى ممّر ضيق يستطيعون العودة من طريقه إلى دمياط. وعندئذ تنبه الصليبيون الى خطورة موقفهم فارادوا الارتداد بسرعة نحو دمياط ولكن الكامل كان قد **«انزل عند شارمساح (شمالي شربين) الفي فارس في الاف من العربات ليحولوا بين الفرنج ودمياط»**. ويصوّر هنا هذه المرحلة من المعركة التي اغرقت الارض تحت ارجل الصليبيين وانقطع عليهم خط الرجعة بقوله: **«فعبرت طائفة من المسلمين الى الارض التي عليها الفرنج ففجرت النيل، فركب الماء اكثر تلك الطرق، ولم يبق للفرنج جهة يسلكون منها غير جهة واحدة فيها ضيق، وعبرت العساكر عليها، فملكت الطريق الذي يسلكه الفرنج ان ارادوا**

العودة إلى دمياط فلم يبق لهم خلاص» (الكامل جـ12 ص329).

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة. لقد اقتربت كثيراً من النجاح. وربما كانت القاهرة قد احتُلت وقُضي على الحكم الايوبي في مصر. لكن الذي حصل كان مخيباً للآمال من كل طريق، للصليبيين، فقد عرض الصليبيون -في هذه المرة- الصلح بعد ان عانوا الهلاك فارسلوا الى الملك الكامل في 28 اغسطس 1221 يعرضون استعدادهم لترك دمياط مقابل السماح لهم بالخروج من المأزق الذي وقعوا فيه وتركهم يعودون الى بلادهم سالمين (النجوم الزاهرة 1261).

وهنا اشترط السلطان الكامل عليهم شروطاً معينة لا سيما وان الجيش الصليبي قد اصبح تحت رحمته: يجب على الصليبيين ان يتخلوا عن دمياط، ويقبلوا بهدنة مدتها (8) سنوات يتم توكيدها من قبل الامبراطور، ويجب ان يتم تبادل الأسرى بين الطرفين ويجب على السلطان -من ناحية- ان يتخلى عن الصليب الحقيقي. وحتى يتم تسليم دمياط فان على الصليبيين ان يسلموا للكامل قادتهم كرهائن، وقد سمى الكامل اسماء هؤلاء القادة، بيلاجيوس والملك حنا برين، ودوق بافاريا، ورؤساء الفرق، و(18) آخرين بين كونت ومطران. وقد ارسل الكامل للصليبيين بالمقابل احد ابنائه الصالح ايوب، واحد اخوانه وعدداً من الامراء الصغار.

وقد تسلم المصريون دمياط في 29 رجب 618هـ/ 7 ايلول سبتمبر 1221م محققين بذلك نصراً لم يكن في حسبانهم، فاطلق الصليبيون الصالح نجم الدين ايوب ومن معه، كما اطلق الملك الكامل رهائنه من الملوك والأمراء، ويقول ابن الأثير مصوراً هذه الواقعة من دخول دمياط بعد تحريرها: «ولما دخلها المسلمون رأوها وقد حصنها الفرنج تحصيناً عظيماً بحيث بقيت لاترام، ولا يوصل اليها، واعاد الله سبحانه وتعالى، الحق الى نصابه، ورده الى اربابه، واعطى المسلمين ظفراً لم يكن في حسبانهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم ان يسلموا البلاد التي اخذت منهم بالشام ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله اعادة دمياط، وبقيت البلاد بايديهم على حالها، فالله المحمود المشكور على ما انعم به على الاسلام والمسلمين، من كف عادية هذا العدد». (الكامل جـ12 ص331).

أسئلة التقويم الذاتي (4)

بين ابعاد الخطة التي اتبعها المسلمون في احباط الحملة الصليبية الخامسة.

2.5 الحملة الصليبية السادسة

1.2.5 ظروف وأسباب سبقت الحملة:

استنجد السلطان الكامل الايوبي بفردريك الثاني امبراطور المانيا. ضد اخيه المعظم، حاكم دمشق، الذي استنجد بدوره بجلال الدين الخوارزمي صاحب خوارزم. وقد وعد السلطان الكامل فردريك الثاني بأن يعيد القدس اليه. وقد اورد المقريزي هذه الحادثة بقوله ان الملك المعظم كاتب جلال الدين «واتفق معه معاندة لأخيه الكامل ولاخيه الاشرف». وكان ان رد الكامل على ذلك بان طلب من الامبراطور فردريك الثاني «ان يحضر الى الشام والساحل ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل». ولهذا الغرض ارسل الكامل الى الامبراطور مبعوثاً خاصاً، هو الأمير فخر الدين يوسف. وفي طريق عودة السفارة من الغرب، مرت بدمشق لتطلب من المعظم تسليم بيت المقدس للامبراطور، ولكن المعظم «اغلظ له وقال: قل لصاحبك ما انا مثل الغير، وماله عندي سوى السيف!» (المقريزي).

ومهما يكن من أمر فقد توفي الملك المعظم، وتبدل بوفاته الموقف باتفاق اخويه الكامل والاشرف على اقتسام بلاده، بل ان الكامل ارتحل فعلاً من مصر، على رأس جيشه واحتل بيت المقدس ونابلس في صيف 1228 على هذا فقد خُلق واقعٌ جديد، الكامل فيه، ليس بحاجة إلى نجدة فردريك، بالنظر لاختفاء المعظم عن مسرح الاحداث وبهذا فقد احتار الكامل كيف يتصرف مع فردريك فهو لا يستطيع الوفاء له بالقدس، ولا يستطيع محاربته، من هنا فقد عمد الى مسايسته وملاطفته. (انظر عاشور ص1007).

2.2.5 صفات الحملة الفريدة:

ولعل هذه المقدمة عن الظروف والاسباب التي سبقت الحملة تقودنا إلي التعرف على صفات هذه الحملة الفريدة، فهذه الحملة ليست كغيرها من حيث موقف البابا منها، فهي لم تنعم ببركة البابا بل على العكس من ذلك فقد كان نصيبها الحرمان لتأخر فردريك في الشروع في الحملة لاسباب صحية. كما ان هذه الحملة كانت حملة صغيرة لم تتجاوز(500) فارس. فالامبراطور فردريك لم يستطع تكوين حملة كبيرة. واضافة الى هذا كانت الحملة اشبه بزيارة ودية يقوم بها امبراطور مع افراد حاشيته فهي تخلو من روح التشفي والانتقام (عاشور جـ2 ص1002). ويطلق رونسيمان على هذه الحملة : حملة الدبلوماسية.

على هذه الخلفيات من اسباب الحملة وظروفها وصفاتها الفريدة تجمعت ظروف اخرى زادت في حراجة موقف الامبراطور فردريك: فالبابا الذي بادر بحرمان الملك فردريك-كما اشرنا اعلاه، عزيزي القارئ- والذي كان يكره فردريك، عاد الى حرمان الامبراطور من جديد، وذلك لانه قام بالحملة قبل ان يقوم بعملية التطهير منالآثام (Absolution). ولم يتوقف اعداء الامبراطور عند البابا بل وجد من انصاره -اي البابا- في المشرق، والذين لم يتأخر هذا في الكتابة اليهم من وقف منهم موقفاً سلبياً ضد الامبراطور، ففرسان الداويه وفرسان الاسبتارية وقفوا جانباً بعد ان كتب اليهم البابا ان فردريك لا ينبغي ان يعترف به (Stevenson P.309). كما ان انصار يوحنا دي برين ويوحنا حاكم بيروت كانوا اعداء له.

هذا هو الاطار العام الذي تحرك فيه الامبراطور فردريك الثاني وحملته. ولكن قبل ان نعرف عما تمخضت عنه، دعونا نقترب اكثر للتعرف على شخصيته وعلى شخصية خصمه وصديقه اللدود الكامل: يرسم رونسيمان -كعادته- صورة واضحة للامبراطور فردريك ويلقى المؤرخون المسلمون وغيرهم أضواء -بالمقابل- على الكامل، فالامبراطور فردريك الثاني، في الخامسة والثلاثين من عمره، ويمتاز بالوسامة والملامح المنسجمة، ويمتاز بحضور ثقافي بل بتميز كبير في هذه الناحية، وهو يتقن ست لغات، مثقف ثقافة ممتازة بالفلسفة، ويمكن لحديثه ان يكون ساحراً اذا اراد ولكنه من ناحية اخرى لئيم وأناني وبعيد النظر! وهو من حيث تكوينه العام -وبسبب نشأته في صقلية- نصف عربي ونصف يوناني! (Runciman III p. 175). ويثني المؤرخون العرب على حبه للجدل والرياضيات، ومهارته في ميادين السياسة والحرب والقانون.. وقد اعتبره البعض اعجوبة الدنيا (عاشور جـ2 ص995).

وقد توافق الكامل في الميول والطباع والاتجاهات نحو العلوم والبحث العلمي مع الامبراطور فردريك الثاني، الأمر الذي جعل الحملة الصليبية تتسم بمسحة من التسامح المطلق ليس له نظير في أية حملة صليبية اخرى. (عاشور جـ2 ص996).

في ظل هذه المعطيات المختلفة جرى التفاوض بين الملك الكامل والامبراطور فردريك مما شكل في حقيقة الأمر، الوقائع الفعلية لهذه الحملة، فهذه الحملة لم يستل فيها اي سلاح من اي نوع سوى سلاح الكلمة والتفاوض، هذا التفاوض الذي استمر عدة شهور من المساومة في جو يسوده الخداع المتبادل من ناحية، والاعجاب من ناحية أخرى (Runciman III

(P.168) فلا الامبراطور ولا السلطان كانا متعصبين في الاستمساك بدين كل منهما. بل كان كل منهما مهتماً بطريقة حياة الآخر.، كما ان كليهما لم يكونا راغبين للذهاب للحرب، اذا كان بالامكان تجنبها. ولكن كل منهما –ايضا– ومن أجل المكانه لدى شعبه كان على استعداد للذهاب مع المساومة الى الحد الممكن. ويبدو أن فردريك كان محتاجا للوقت كما ان جيشه لم يكن قادراً على القيام بحملة. وكان حرمان البابا سيفا مصلتاً على رقبته وليس هذا فقط بل ان البابا كتب الى الكامل يحرضه على عدم تسليم بيت المقدس للامبراطور. وذلك لان البابا كان يعلم انه لو يقدر لفردريك الانتصار في مهمته، فان ذلك سيكون في نظر المعاصرين بمثابة حكم الله للامبراطور المحروم. وفي هذا فصل الخطاب بين فردريك وجريجوري او بين الامبراطورية والبابوية. (عاشور جـ 2 ص1008).

لذلك لجأ فردريك الى اسلوب الاستعطاف والتذلل للسلطان، حتى قيل إنه كان يبكي في بعض مراحل المفاوضات، وقد جاء في احدى رسائله الى السلطان «انا اخوك وأحترم دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وانا وريث مملكة بيت المقدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا اريد ان انازعك ملكك، فلنتجنب اراقة الدماء». وجاء في رسالة اخرى «انا مملوكك وعتيقك، وليس لي عما تأمره خروج، وانت تعلم اني كبير ملوك البحر، وقد علم البابا باهتمامي وطلوعي فان رجعت خايبا، انكسرت حرمتي بينهم،.. وهذا القدس فهي اهل اعتقادهم وضجرهم والمسلمون قد خربوها، فليس لها دخل طائل، فان رأى السلطان ان ينعم علي بقبضة البلد، والزيارة يكون صدقة منه! ويرتفع رأسي بين ملوك البحر» (عاشور جـ2 ص1010).

انتهت المفاوضات بين الطرفين الى عقد اتفاقية بين الفريقين في 18 فبراير 1229 وتقضي هذه الاتفاقية باقرار السلام بينهما لمدة (10) سنوات، وان تمنح للصليبيين القدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا، على ان تبقى القدس على ما هي عليه «ولا يجدد سورها، وان تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج وان الحرم وبما حواه من الصخرة والمسجد الاقصى يكون بايدي المسلمين لا يدخله الفرنج الا للزيارة، ويتولاه قوام من المسلمين ويقيمون فيه شعائر الاسلام من الأذان والصلاة» (الكامل جـ12 ص37، السلوك جـ1 ص230).

وسرعان ما وضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ «فنودي بالقدس بخروج المسلمين منه وتسليمه الى الفرنج» (السلوك جـ1 ص231)، كما اعلن فردريك الثاني في جنوده «اشكروا الله واحمدوه إذ أتمَّ عليكم نعمته، فان اتمامها كان معجزة من الله وليس نتيجة الشجاعة او الحروب،

وما اتمه الله لم تستطع قوة من قوى البشر على الارض اتمامه لا بكثرة ولا بأي وسيلة اخرى» (شمس العرب -انظر قلعجي ص506).

ويروي المقريزي ان الامبراطور شاهد قسيساً يحمل الانجيل ويريد دخول المسجد الأقصى، فنهاه عن ذلك ومنع اي شخص من الفرنجة ان يدخل اليه الا بعد استئذان، وقال «انما نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه فلا يتعدى احد منكم طوره» (السلوك جـ1 ص232).

3.2.5 رد الفعل الاسلامي على الاتفاقية:

لم يكن تسليم بيت المقدس للصليبيين بتلك السهولة، فالتنازل عن بيت المقدس، التي استردها صلاح الدين بعد جهاد وتضحيات جسيمة، اثار موجة عامة من الغضب والأسى في العالم الاسلامي :«فاستعظم المسلمون ذلك واكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه» (ابن الاثير الكامل 12 ص483). ويصف المقريزي بتفصيل رد الفعل الاسلامي على تفريط الكامل بالقدس فيقول: «فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس الى مخيم الكامل، واذنوا على بابه في غير وقت الأذان، فعظم على أهل الاسلام هذا البلاء، واشتد الانكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه في سائر الاقطار» (المقريزي السلوك جـ1 ص231). اما في مدينة دمشق فقد اقيم مجلس وعظ رُثيت فيه بيت المقدس بأشعار شهيرة ذكرها المؤرخون. وهكذا «قامت القيامة في جميع بلاد الاسلام، واشتدت العظايم بحيث انه اقيمت المآتم» (العيني عقد الجمان، 626 هـ ابو الفدا المختصر 626هـ).

ويتحدث رونسيمان من جانبه عن رد الفعل الاسلامي فيصف كيف ان امبرطوراً محروماً تمكن من ان يسترجع الاماكن المقدسة للمسيحية، ويروي كيف ان العالم الاسلامي قد روع! ويضيف إلى ذلك تعليق الملك الكامل انه تنازل فقط عن بيوت مخربة وكنائس، بينما ظلت معابد الاسلام سالمة للعقيدة وبدون ان تمس ولكنه -رونسيمان- يعلق على ذلك بقوله: ان هذا التعليق كان عزاء ضعيفاً، ومثله قول الملك ان المسلمين لا زالوا اسياد الاقليم! (Runciman III P. 187).

هكذا كان رد الفعل الاسلامي، لكن الذي يثير الدهشة من أمر هذه الحملة ان الصليبيين ايضاً لم يجدوا فيها مناهم ولا مبتغاهم! بل ان الرافضين بينهم ندبوا واعولوا ان القدس لم

تسترجع بقوة السيف واصابهم الغثيان والاشمئزاز، ان يحتفظ «الكفار» بمعابدهم، وكلهم يذكر مفاوضات الحملة الخامسة عندما رفض كل عرض الملك الكامل لان الاستراتيجيين اشاروا الى انه بدون شرق الاردن، لا يمكن المحافظة على القدس. فكيف كيف يمكن المحافظة عليها الآن عندما لم يبق الا قطعة من الارض تربطها بالساحل (Runciman III P.187).

أ- ويذهب ستيفنسون الى ان المسيحيين شعروا ان المعاهدة نوع مهين - من الحل الوسط ويجلب العار- .(Stevenson P. 313).

ب- كما نضيف الى ذلك قوله ان المسلمين اعتبروا تسليم القدس نوعاً من الخيانة وتنازلاً طوعياً عن الاماكن المقدسة(Ibid) .

خلاصة القول اذن، عزيزي القارئ، بالنسبة لرد فعل المسلمين والصليبيين ان الطرفين تشككوا في القصة او المشروع باكمله. فالعدمية او الكلبية التي سادت المفاوضات لا يمكن «ان تحظى بقلوب الشعوب» كما يقول رونسيمان (Runciman P.190).

ابحر فردريك الثاني من عكا في اول مايو 1229 قاصداً قبرص ثم بارحها الى ايطاليا فوصلها في 10 يونية 1229م. وعلى هذا الوجه انتهت هذه الحملة التي اتصفت بالغرابة منذ البداية وحتى النهاية.

ومن يحاول ان يقيّم الحملة السادسة، بموضوعية، كما ان من يحاول ان يضعها في منظورها التاريخي، ودور فردريك فيها، لا يستطيع ان يتجاهل دور فردريك والكسب الكبير الذي حققه للمسيحية. ولقد حاولت البابوية في بداية الأمر ان تقلل من شأن هذا الدور، ولكنها لم تستطع -وفي النهاية لا يصح الا الصحيح- المضي في ذلك طويلاً فاضطرت الى الاعتراف اخيراً بما حققه الامبراطور من انتصار للمسيحية، وعلى هذا فقد عقدت معه صلح سان جرمانو (1230) وبمتقضى هذا الصلح رفع الحرمان عن الامبراطور. (عاشور جـ2 ص1017).

التقويم الذاتي (5)

- وضح كيف تمكن فردريك الثاني عن طريق المفاوضات من الاستيلاء على بيت المقدس من الملك الكامل الايوبي.

3.5 الحملة الصليبية السابعة

1.3.5 المعارك التي سبقت هذه الحملة :

I. حملة (1239).

جاءت هذه الحملة بعد موت السلطان الكامل وانتهاء الهدنة التي عُقدت بين هذا السلطان والامبراطور فردريك. وقد وصلت هذه الحملة سوريا –عكا– في سبتمبر 1239. وكان قائدها، ثيبولد، كونت شامبني، وملك نافار، وفي الطريق الى غزة، خرج عدة مئات من فرسان الصليبيين ليهاجموا المسلمين على حين غرة بالقرب من غزة. ولكن النتيجة كانت غير ما قدَّره الصليبيّون حيث عاد عليهم ذلك بكارثة محققة إذ هاجمهم المسلمون فجأة وعن حين غفلة، فمزقوهم اربا. وكان هذا في 13 نوفمبر (1239) (Stevenson P. 314).

II. معركة 1244:

ولكن المعركة التي كانت حاسمة بشكلٍ اكبر، هي معركة اكتوبر (1244)، فقد بلغ من حدة النزاع بين الملوك الايوبيين أن حاول كلٌ من الملوك الايوبيين الثلاثة: الصالح ايوب ملك مصر، وعمه الصالح اسماعيل ملك دمشق، والناصر داود ملك الاردن، محالفة الصليبيين ضد خصومه، مقابل تعهده بان تكون السيطرة للصليبيين على بيت المقدس مطلقة تامة، بمعنى ان يستولي الصليبيون على الحرم الشريف بما فيه المسجد الشريف وقبة الصخرة. (قلعجي ص815).

وهنا آثر الصليبيون محالفة صاحب دمشق والاردن. مما دفع الملك الصالح ايوب الى الاستعانة بالخوارزمية (نسبة الى خوارزم) والذين كانوا قد فروا من وجه التتار، ودعوتهم لمساندته في صد الهجوم الثلاثي، فزحف عشرة آلاف منهم على بلاد الشام «وهم ينهبون ويقتلون ويسبون» (السلوك جـ1 ص316) وارتكبوا من الفواحش ما ارتكبه التتار (خطط الشام جـ2 ص) واستولوا على طبرية ونابلس واحتلوا القدس في 11 تموز/ يوليو 1244م. وفي القدس اعتدى الخوارزمية على بعض المواضع المسيحية فيها فكان رد الفعل عنيفا ايضاً في غرب اوروبا، مما ترتب عليه مجيء الحملة الصليبية السابعة بزعامة لويس السابع الى الشرق. (عاشور جـ2 ص1051).

غاية الأمر ان الخوارزمية اشتركوا في صد الجيش الشامي والجيش الصليبي اللذين كانا يقاتلان جنبا الى جنب وتحت اعلام واحدة، الا ان الصالح الايوبي وحلفاءه استطاعوا ان يُنزلوا بخصومهم هزيمة ساحقة. «وَأُسرَ من الفرنج خَلْقٌ من ملوكهم وكبرائهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة» (قلعجي انظر الاصل) وخسروا عدداً من فرسانهم وشجعانهم. ويذكر ستيفنسون ان ابعاد الكارثة التي حلت بالصليبيين يمكن ادراكها من مصير المنظمات الصليبية، فمن بين ثلثمائة من فرسان الداوية، ومائتين من فرسان الاسبتارية، فرّ ثلاثون فقط من الداوية، وستة وعشرون من الاستبارية، اما الآخرون فقد قتلوا او أُخذوا إسرى وكان قائد الداوية من بين الذين سفك دمهم واما قائد الاستبارية فقد كان من بين من اخذوا اسرى (Stevenson P. 323).

ومن نتائج هذه المعركة ان انتزع الملك الصالح ايوب من الناصر داود القدس والخليل وبيت جبريل والاغوار، ثم حاصر دمشق وفيها صاحبها الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب دمشق. ولم يلبث ان انزل هزيمة ساحقة بالخوارزمية الذين ثاروا عليه 1246م.

وهكذا استعادت المملكة الايوبية بزعامة الملك الصالح ايوب وحدتها بكاملها تقريبا حتى حلب والجزيرة العليا، فلما زار القدس 1249/ 1248، اعاد تجديد حصونها، وتقوية دفاعها، وتوافد الملوك والامراء اليها لاعلان ولائهم له، بينما تقلصت حدود الصليبيين الى يافا، فكان لا بد ان تقوم اوربا بمحاولة جديدة لانقاذ مستعمراتها في الشرق.

شخصية قائد الحملة السابعة وخصمه: تولى قيادة الحملة السابعة الملك الفرنسي لويس التاسع، وعلى وجه العموم فقد كانت الحملة فرنسية الطابع، وحملة استعمارية فرنسية (عاشور جـ2 ص1553). وقد تميز لويس التاسع بالتدين، حتى ان البابا يقول عنه إنه أعزّ اولاده، ويسميه الناس «ابن البابا في الرب» (قلعجي ص552).

اما خصمه، الملك الصالح ايوب، الذي اشرنا اليه اعلاه، فتستطيع استنتاج ابعاد شخصيته من قول ابن تغري بردي: «لكنه كان عنده سياسة حسنة ومهابة عظيمة، وسعة صدر في اعطاء العساكر والانفاق في مهمات الدولة، لا يتوقف فيما يخرجه عن هذا الوجه، وكانت همته عالية جداً، وآماله بعيدة، ونفسه تحدث بالاستيلاء على الدنيا باسرها، والتغلب عليها، وانتزاعها من يد ملوكها، حتى لقد حدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد والعراق، وكان لا يمكِّن القوي من الضعيف وينصف المشروف من الشريف... وفي الجملة هو عندي اعظم ملوك بني ايوب» (النجوم الزاهرة جـ6 ص336-335). اما عن الحملة نفسها، فان حملة لويس التاسع بلغت

عدد وحداتها البحرية (18000) قطعة تحمل نحو (50) الف مقاتل من مشاةٍ وفرسان بكامل معداتهم وسلاحهم ومؤنهم وخيولهم ويلغ من كثرة السفن انها كست البحر حتى لم يعد يُرى سوى الساريات وهي تعلو وتهبط فوق سطح الماء.

ابتدأت الحرب بين الطرفين بالحرب النفسية والاعلامية، فقد ساد الغضب الملك الصالح أيوب حينما تلقى رسالة لويس التاسع واجابه عليها ساخراً: «وصل كتابك، وانت تهدد به بكثرة جيوشك وعدد ابطالك، فنحن ارباب السيوف، وما قتل منا فرد الا جددناه، ولا بغى علينا باغ الاّ دمرناه. فلو رأت عيناك ايها المغرور حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منك الحصون والسواحل، وأخربنا منكم ديار الاواخر والاوائل، لكان لك ان تعض على اصابعك بالندم، ولا بد ان تزل بك القدم، في يوم اوله لنا وآخره عليك، فهنالك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون. فاذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على اول سورة النحل «اتى امر الله فلا تستعجلوه» وكن فيه على آخر سورة (ص) «وَلَتَعْلَمُنَّ نبأه بعد حين» ونعود فيه إلى قوله تبارك وتعالى وهو اصدق القائلين «كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة باذن الله والله مع الصابرين» وقول الحكماء «إن الباغي له مصرع» (السلوك جـ 1 ص335-334).

سقوط دمياط : وضع المسلمون قواتهم في معسكر على الضفة الغربية المقابلة لدمياط وفي مقابل الشاطئ كانت السفن اللاتينية. ولا نعلم لماذا لم يمض طويل وقت حتى استولى الرعب على أهل دمياط. فتركوا مدينتهم مولين الادبار، بعد ان اشعلوا النار في سوق المدينة، بل ان بعض عرب كنانة الذين عهد اليهم الملك الصالح بالدفاع عن المدينة فروا هاربين ايضاً «وتركوا ابواب المدينة مفتحة»، وفاتهم عند فرارهم ان يقطعوا الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل. وهكذا اصبحت دمياط مدينة مفتوحة، فدخلتها قوات لويس التاسع في بسهولة بالغة في 6 يونية 1249. ويروي المقريزي ان الصليبيين «عندما رأوا ابوابها مفتحة، ولا احد يحميها، خشوا ان تكون مكيدة، فتمهلوا حتى ظهر ان الناس فروا وتركوها، فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة العظيمة، والعدد الكثيرة والاقوات والازواد والذخائر والاموال والامتعة وغير ذلك، صفواً عفواً» (المقريزي، عاشور جـ2 ص1060).

والواقع ان سقوط دمياط بتلك السهولة كان «مصيبة لم يجر مثلها» على حد قول ابن تغري بردي (النجوم جـ6 ص330). ويقول رونسيمان: «ان خسارة دمياط قد اصاب العالم الاسلامي بصدمة» (Runciman III P.263).

ومهما يكن من أمر فان الصليبيين لم يلبثوا ان وجدوا في دمياط قدراً كبيراً من المؤن فاخذوا يعملون بسرعة لتحويلها الى مدينة فرنجية، وبدأوا بتحويل جامع دمياط الى كنيسة نوتردام (مريم العذراء) وعينوا لها بطريركا كاثوليكياً.

على ان الملك لويس ارتكب في هذه اللحظات الحاسمة خطأ استراتيجياً لا يُغتفر، فقد فات الملك ان الفترة التي قضاها في الانتظار في دمياط، بدون أن يتقدم الى الداخل، قد اعطت خصومه وقتاً لتعزيز قواهم وتنظيم دفاعهم، بحيث بدا ان مركز الثقل اخذ يتحول الى جانبهم، مما جعل نابليون يقول بعد نيف وخمسة قرون «ان جمود الجيش الفرنسي في دمياط، كان غلطة من ابعد الاغلاط عاقبة في تاريخ الحروب» (قلعجي ص529).

وكان الملك الصالح قد عاقب امراء بني كنانة عقاباً عسيراً لفرارهم من دمياط «فأمر بشنق بني كنانة فشنقوا عن آخرهم» (ابو الفدا، المختصر، حوادث 648هـ).

ولم يكد الصليبيون يزحفون من دمياط نحو الجنوب، حتى توفي الملك الصالح في المنصورة في 23 نوفمبر 1249. فتولت ادارة الامور زوجته شجرة الدر، وسارت الاستعدادات الخاصة بالدفاع سيراً طبيعياً، واستمرت الكتب والمراسيم تخرج بتوقيع السلطان المتوفي كانه على قيد الحياة.

وصل الزحف الصليبي الى مشارف المنصورة، وهنا ارتكب الصليبيون خطأ استراتيجياً آخر اذ ان روبرت دي ارتوا أخا لويس التاسع بعد ان عبر بحر أشموم مع مقدمة الجيش الصليبي، لم يشأ ان ينتظر عبور بقية الجيش الصليبي ومعهم لويس التاسع -طبقاً للخطة الموضوعة- وانما قام باقتحام المنصورة دون ان يستمع الى اوامر الملك بعدم الاقدام على تلك الخطوة. وهكذا اوغل الفرسان الصليبيون داخل المنصورة حتى وصلوا الى جدران القلعة. وهنا كان قد وقف المماليك يتربصون بهم الدوائر في الشوارع الجانبية. وكان المماليك قد وجدوا في شخص بيبرس البندقداري، القائد الموعود او المنتظر. وبالفعل فقد بلغت المعركة أقصى خطورتها حتى اطلق ابن واصل على ذلك اليوم «يوم الكبسة» (عاشور جـ 2 ص 1069). والمهم ان المماليك قد استمروا في ضغطهم على الصليبيين باتجاه البحر حتى سقط الفرسان الداوية فيه ولم ينج منهم

سوى خمسة! (Runciman III P. 267). ويقول العيني في وصف هذه اللحظات الحاسمة من موقعة المنصورة: «فانقضت الطائفة التركية من الجاندارية والبحرية الصالحية وحملوا على الفرنجة حملة زعزعت وهدمت بنيانهم واناخوا عليهم حربا دراكا وقتلاً واهلاكا، فكانت عدة القتلى منهم ألفاً وخمسمائة وولوا منهزمين» (العيني، عقد الجمان حوادث 637هـ).

وكان على رأس القتلى روبرت دي ارتو نفسه، فضلاً عن عدد من امراء الصليبيين، اضافة الى فرسان الداوية، كما ذكرنا. وهكذا كانت المنصورة مقبرة الجيش الصليبي كما يقول غروسه المؤرخ الفرنسي (قلعجي ص542).

ومن أجل قطع خط الرجعة على الصليبيين، الذي ارادوا العودة بعد هذه الهزيمة الفاجعة الى دمياط، فقد بنى السلطان توران شاه عدة سفن وحملها مفصلة (مصنوعة) على الجمال الى بحر المحلة وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة، وبذلك قطع الطريق على السفن الصليبية وحيل بين الصليبيين وبين الاتصال بقاعدتهم في دمياط. ولم تلبث سفن المسلمين ان انقضّت على المراكب الصليبية بحيث استولى المسلمون على (52) سفينة، وكانت السفن الفرنجية محملة بالميرة والمؤن. (عاشور جـ2 ص1070).

وكما جرى في الحملة الخامسة، وبالنظر لأن الجيش الصليبي حوصر في نفس المكان الذي حوصرت فيه الحملة الخامسة! فقد عرض الملك لويس التاسع استبدال دمياط بالقدس، وقد اراد لويس - وقد شعر بعجزه عن الاحتفاظ بدمياط- ان يضمن لجيشه انسحاباً سلمياً من مصر، مع استرداد القدس.

وتحدثنا روايات المؤرخين، عزيزي القارئ، عن بقية المعركة ذاكرةً ان الجيش الصليبي حوصر من جميع الجهات برا وبحراً. وكان واضحاً ان نهاية هذا الجيش قد ازفت. وهنا لجأ جيوفري من سرجين قائد حرس الملك الى أخذ الملك الى قرية منية ابي عبدالله التي تقع شمال شارمشاح عند فارسكور في قلب القتال عند منتصف الطريق بين المنصورة ودمياط. وكان المفاوضون الصليبيون قد نجحوا في اقناع الجنرالات المصريين في السماح للجيش الصليبي بالانسحاب مقابل تسليم دمياط، عندما ظهر جاويش فرنسي اسمه مارسيل، وسارع الى صفوف قادة المسيحيين ليخبرهم باسم الملك ان يسلموا بلا شروط. وقد اطاع هؤلاء الأمر الذي لم يكن لويس التاسع يعلم من امره شيئاً! وقد القى هؤلاء اسلحتهم وقد احاط المسلمون

بهذا الجيش وقادوه الى الأسر. (Runciman III P. 267).

وقد كان من جملة الأسرى لويس التاسع الذي اخذ الى المنصورة ووضع في دار ابن لقمان. (المقريزي السلوك جـ1 ص356). وهذه الدار لاتزال معروفة بالمنصورة، ومازالت آثارها شاخصة حتى يومنا هذا.. وهنالك قيد ملك الفرنسيين بالسلاسل ووضع تحت حراسة الطواشي «صبيح المعظمي» الشديدة.. وصبيح هذا من اتباع المعظم توران شاه الذين جلبهم معه من حصن كيفا، وانعم عليه بالاقطاعات الكبيرة والأموال الوفيرة (جوزيف نسيم يوسف، هزيمة لويس التاسع، ص 82).

وقد قدر المؤرخون عدد القتلى من الصليبيين بثلاثين الفاً. (قلعجي ص547).

أمام هذه المعطيات جميعاً، من مجريات المعركة العظيمة، ونتائجها الوبيلة على الصليبيين، حتمت المفاوضات بين الطرفين بالافراج عن الملك لويس التاسع وباقي الامراء مقابل فدية قدرها ثمانمائة الف دينار. وتركت معدات القتال والاسلحة والذخائر والمؤن غنيمة للمصريين.

نتائج الحملة: كانت كارثة هذه الحملة على مصر ليست فقط سبباً في تدمير الجيش الفرنسي بل حرمت الشرق الصليبي من كل جيوشه، وقد شعر الملك بمرارة بفشل الجهد العظيم الذي كرسه للحملة. وكرجل متدين احس الملك بان الكارثة انما هي رحمة له!

جاءت لتلقنه درساً في التواضع، وان الثمن الذي دفعه لهذه الموعظة الكبيرة هو حياة ألوف من الضحايا البريئين!

أسئلة التقويم الذاتي (6)

بيّن الأخطاء العسكرية التي ارتكبها الصليبيون في الحملة السابعة.

6. الحملة الصليبية على تونس (الثامنة) ونهاية الحملات الصليبية المنظمة.

1.6 أحداثها وموقف الدولة الحفصية منها

جاءت هذه الحملة (1270) نتيجة جهد الأمير شارلز حاكم صقلية، الذي اقنع الملك لويس التاسع، الذي لم تخمد من حماسته للعقيدة تجربته المريرة في مصر بالقيام بهذه الحملة: فقد اخبر شارلز هذا لويس التاسع أن أمير تونس الحفصي كان مستعداً للتحول الى الديانة المسيحية وان كل ما يحتاجه هو استعراض قوة يأتي به إلى الصف المسيحي، وهكذا ستضاف مقاطعة جديدة للمسيحية في نقطة ذات أهمية استراتيجية كبيرة لأي حملة صليبية جديدة.

ولعل قدرة لويس التاسع على الحكم على الاشياء التي قد ضعفت بسبب المرض هي التي جعلته يندفع وراء هذا المشروع. فاصدقاؤه العقلاء مثل جوانفيل، لم يكن سراً رفضهم للمشروع. ولكن الذي رجح الموقف لصالح الحملة، بالرغم من كل شيء، هو ايمان لويس باخيه شارلز، الذي كان اول من اشار عليه بهذا المشروع. (Runciman III P.291).

غاية الأمر ان لويس التاسع اقلع من آج-مورتيز على رأس حملة قوية. وكان بصحبته اولاده الاحياء الثلاثة، بالاضافة الى زوج ابنته، الملك تيبولد اوف نافار، وابن اخيه، روبرت اف ارتوا، وكونت بريتاني ولا مارش ووريث فلاندرز، وجميع ابناء رفاقه في الحملة الصليبية السابقة (الحملة السابعة)، وكونت سينت بول، وهو من الاشخاص الذين بقوا على قيد الحياة من تلك الحملة وكونت سواسون.

وصلت الارمادا (الحملة البحرية) الى قرطاجة في 18 يولية، في الموسم الذي تكون فيه الحرارة لاهبة في الصيف الافريقي. (Runciman III P. 291).

وهنا أبدى أمير تونس عدم رغبته في ان يتحول الى العقيدة المسيحية، وبالمقابل فانه اعاد تحصين عاصمته، كما اعاد بناء القلاع في عاصمته التونسية. ولم يحتج الملك الفرنسي الى الحرب فقد تولى المناخ ذلك عنه! فقد انتشر الوباء بسرعة في صفوف المعسكر الفرنسي. فقد سقط الأمراء والفرسان والجنود بالالوف مرضى. وكان الملك من بين الأوائل الذين اصيبوا وتوفوا، وكان هذا في 25 اغسطس. وعندما وصل شارلز انجو في هذا الوقت، ومعه جيشه، علم ان اخاه قد مات قبل ساعات قليلة فقط، وكان وريث العرش الفرنسي مريضاً بشكل خطير، وأما جون يرستان،

الذي ولد في دمياط فقد كان في النزع الأخير من الموت. (Runciman III P. 292).

كانت قوة الأمير شارلز السبب في ان حفظت الحملة من الكارثة حتى الخريف، عندما دفع له الأمير الحفصي تعويضاً كبيراً من اجل ان يرجع الى ايطاليا. ولكن الحملة، بوجه عام، قد تبددت ولم يفد منها. (Runciman III P. 292).

2.6 مصيرها أما رد فعل المسلمين على هذه الحملة فنجده اكثر ما نجده واضحاً لدى السلطان بيبرس من النواحي التالية:

- خشي بيبرس من غزو مصر وفلسطين. وكجزء من دفاعه عن هذه البلاد هدم تحصينات عسقلان. (Stevenson P. 343).

- اهتم بيبرس، بالثغور والشواني وحصنها خوفاً من مصير شبيه بمصير المنصورة.(عاشور جـ2 ص 1151).

- بعد ان ثبت فشل هذه الحملة بوفاة لويس التاسع، عاد بيبرس الى فلسطين والشام ليستولي في (1271) على صافيتا وحصن الاكراد وعكا والقرين. وفي 1275 عاد لغزو ارمينيا الصغرى فاستولى على سيس واياس، وتوفى في دمشق في اوائل 1277 .(عبد العظيم رمضان ص 527).

- على أن رونسيمان هو الذي يزودنا بالفكرة القائلة بأن هذه الحملة كانت خاتمه الحملات الصليبية على المشرق، حيث يقول:

«عندما وصلت اخبار مأساة تونس الى المشرق، سرّي عنلى المسلمين، وراح المسيحيون ينتحبون ويندبون حظهم، وكان هذا الأسى مبرراً. فلن يقوم، منذ اليوم جيش من الوطن الأم لكي يمد يد الانقاذ لمسيحيّي المشرق، ولقد كان الملك لويس ملكاً عظيماً وفاضلاً لفرنسا، ولكن بالنسبة لفلسطين التي أحبها باعزاز اكبر فانه لم يقدم لها سوى الخيبة والأسى. وعندما كان يستلقي على فراش الموت كان يفكر في المدينة المقدسة التي لم يقدّر له ان يراها والتي لم تستطع محاولاته لانقاذها ان تحقق اهدافها واثبتت انها عديمة الجدوى. لقد كانت آخر كلماته «القدس. القدس!» (Runciman III P. 292).

تدريب (1)

ما الاسباب التي دفعت الصليبيين الى توجيه الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية بدلاً من مصر؟

تدريب (2)

تميزت الحملة السادسة بتفردها عن غيرها من الحملات؟ وضّح أبعاد هذا التميّز والتّفرد؟

تدريب (3)

للحملة الثامنة على تونس أهميتها بيّن أبعاد هذه الأهمية؟

7. الخلاصة

قلنا في هذه الوحدة انه ما ان لحق صلاح الدين بالرفيق الأعلى حتى سادت موجة من الحزن عليه. ويعود السبب في ذلك، عزيزي القارئ، الى مكانته وحبه للجهاد وللدور العظيم الذي اضطلع به. على ان مكانة صلاح الدين العظيمة هذه، لم تمنع الصراع بين اولاده بعد اختفائه من مسرح الجهاد وكان اول خلاف نجم بين الافضل حاكم دمشق والعزيز حاكم مصر. ولعل مما زاد في شدة الخلاف بين ابناء صلاح الدين عمهم العادل الذي تمكن في نهاية الأمر من سحب السلطة من ابناء أخيه ووضعها بين يديه . ولم يكن هذا الا بعد وفاة العزيز، اذ تمكن العادل ان ينتصر على الأفضل الذي عين وصياً على أولاد أخيه العزيز. ومن ثم تمكن من ان يستولي على القاهرة.. وبعد ان عزل ابن اخيه العزيز المنصور اصبح العادل هو الذي بيده مقاليد الامور، بل اعاد توحيد المملكة الايوبية تحت سلطته. اكثر من ذلك لقد عرف العادل بانه ملك قدير عادلت امبراطوريته امبراطورية اخيه صلاح الدين فيما بعد.

كما عالجنا في هذه الوحدة احوال الصليبيين في بلاد الشام بعد صلاح الدين. فقد عاشت مملكة عكا في سلام، ومن ناحية العادل آثر ان يترك هذه المملكة دون الهجوم عليها. وبالنسبة للتطورات الداخلية في عكا فإنه وقع الخيار من قبل ملك فرنسا على حنادي برين الأمير الفرنسي ليتزوج الأميرة ماريا التي بلغت سن الرشد في عكا واصبحت تنتظر من يكون عريساً لها.

ومهما يكن من أمر فان الاوضاع في الامارات الصليبية الأخرى وبالذات انطاكية كانت مضطربة.

وفي هذه الظروف جاءت الحملة الصليبية الرابعة (1204) على القسطنطينية، الأمر الذي ساعد في ان تسود حالةٌ من الهدوء بين المسلمين والصليبيين. بل جعلت العادل يشعر بالخوف من الصليبيين ويقدم لهم بعض التنازلات ليكسب سكوتهم.

وقد اخذت الحملة الرابعة منا ما تستحقه من اهتمام. وتحدثنا عنها من زوايا متعددة:-

- فقد كان الخيار على مصر بالنسبة لهدف هذه الحملة، وكان هذا بحسب نصيحة ريتشارد قلب الاسد الذي اعتبر ان مصر هي مركز الثقل الاسلامي من الناحية الاستراتيجية وانه ما لم يجر تحييدها فإن الصليبيين سيظلون في بلاد الشام في خطر.

– وقد تبنى البابا انوسنت الثالث مشروع غزو مصر.

– جرى الاتفاق مع البندقية لنقل الجنود الصليبيين الى مصر وان يكون -ايضاً- الابحار من البندقية.

– في هذا الوقت الذي كان الاستعداد يجري لغزو مصر كان الوضع في القسطنطينية مضطربا وذلك لأن امبراطور القسطنطينية اسحق انجيلوس لم يثبت جدارته مما جعل الكسيوس – احد الطامعين– يقوم بتدبير انقلاب ضده واعتلى العرش باسم الكسيوس الثالث. وقد شارك في الحملة الأمراء الفرنسيون وسارت الاستعدادات لها على قدم وساق.

– حصلت مفاجأة غير متوقعة في خط سير الحملة فبدلاً من ان تتوجه الحملة الى مصر طلبت البندقية توجهها الى زارا على الشاطئ المقابل للبحر الادرياتيكي.

وجرى التساؤل في هذه الدراسة ولكن لماذا زارا؟!!

وهنا نجد الاجوبة التالية في انتظارنا: السبب المباشر كان الاستجابة الى الكسي انجيلوس – ابن اسحق انجيلوس– الذي طالب بعرش ابيه ووعد بتسديد الديون للبندقية وان يقدم الامدادات لفتح مصر. وأما بالنسبة للاسباب الأخرى فقد تراوحت بين اتفاق سري بين البندقية وسلطان مصر العادل بعدم الهجوم على مصر، والرخاء في بيزنطة واسباب اخرى كثيرة من بينها النفور القديم المتأصل بين الصليبيين والبيزنطيين.

غاية الأمر، كما بينا، ان الحملة تقدمت واحتلت القسطنطينية وفر اليكسي الثالث بالخزنة. وأمام هذا الواقع الجديد اختار الشعب امبراطوراً جديداً عينته الثورة هو اليكسي الخامس. والمهم في الأمر – اكثر من اي شيء آخر – ان القسطنطينية تعرضت لعملية سلب ونهب رهيبة يصفها رونسيمان. وقد تمكن الصليبيون بعد هذا جميعه من اقامة امبراطورية بزعامة كونت فلاندرز الفرنسي.

ومهما يكن من امر فانه بعد خمسين سنة تمكن البيزنطيون من اعادة الامبراطورية البيزنطية الى ما كانت عليه، ولا نستطيع ان ننهي بحثنا عن الحملة الرابعة دون أن نذكر بعض نتائجها والتي منها انها اضعفت مركز الصليبيين، كما انها حطمت وحدة العالم البيزنطي.

بعد الانتهاء من الحملة الرابعة. عالجنا موضوع الحملة الخامسة. وتساءلت هنا أيضاً لماذا مصر؟ وأجبنا لانها مركز ثقل المقاومة الاسلامية. وعن سؤال: لماذا في مصر دمياط بالذات

كانت الاجابة لانها طريق ميسر ووسيلة سهلة للتواصل مع قلب مصر عن طريق النيل.

في مصر. تمكن الصليبيون من اختراق المآصر والاستيلاء على البرج في نهر النيل.. وعلى الأثر حاصر الصليبيون دمياط. وهنا تمكن الصليبيون من الاستيلاء على دمياط بعد حالة المجاعة والوباء. جدير بنا ان نذكر هنا -وكما ثبت في البحث- ان الملك الكامل عرض على الصليبيين قبل سقوط دمياط وبعده، ان يفتديها بإحياء مملكة بيت المقدس الصليبية القديمة لكن توسلات الكامل ذهبت ادراج الرياح. وتقدم الصليبيون نحو فارسكور والبحر الصغير.

لجأ المصريون في هذه المرحلة الحساسة من ابتعاد الصليبيين عن قاعدتهم في دمياط الى فتح السدود على الصليبيين. ولم يشعر الصليبيون الا وقد غرقت الارض من تحتهم ولم يعد باستطاعتهم العودة إلى دمياط.

وهكذا -وبإيجاز- انتهت الحملة الصليبية الخامسة الى الفشل والجلاء عن دمياط.

عالجنا في هذه الوحدة ايضاً موضوع الحملة السادسة. التي خاضت بموضوع استنجاد الملك الكامل بالامبراطور فردريك الثاني الالماني. ضد اخيه المعظم، على ان يعطيه الملك الكامل بيت المقدس،

ومهما يكن من أمر فقد كان لهذه الحملة صفات معينة فريدة:- فهذه الحملة لم تنعم ببركة البابا بل بحرمانه! كما ان عدد الحملة لم يزد عن (500) جندي. كما ان هذه الحملة على غير عادة الحملات الأخرى لم يستل فيها اي سلاح.

بل جرت -كما عرضنا- مفاوضات ادت الى عقد اتفاقية 1229 منحت فيها القدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا لفردريك.

اما عن نتائج هذه الحملة فقد ذكر رونسيمان ان العالم الاسلامي قد روع!

كما ان الصليبيين شككوا بالمشروع برمته.

ومع ذلك فإن من يضع الحملة في منظورها لا يستطيع ان يقلل من دور فردريك والكسب الذي حققه للمسيحيين.

كما عالجنا موضوع الحملة السابعة.

فبعد ان قام الملك الصالح ايوب باسترجاع بيت المقدس بواسطة الجند الخوارزمية تدخل

العالم المسيحي لإعادة الاوضاع الى ما كانت عليه وكانت الحملة الصليبية هذه المرة بقيادة الملك لويس التاسع. الذي وجه دفة الحملة نحو دمياط. وكان مصير دمياط هذه المرة السقوط

بيد الصليبيين. كما جرى في المرة السابقة. لكن الخطأ العسكري الجسيم كان في توقف الصليبيين من دمياط وانتظارهم هناك.

وعندما تقدم الصليبيون الى المنصورة، ضرب هؤلاء الصليبيون بقوة في المنصورة. وتمكن المسلمون -اكثر من ذلك- من ان يقطعوا عليهم خط الرجعة ومنع السفن الصليبية من العودة الى دمياط القاعدة!

وكان من نتائج هذه الحملة، تدمير الجيش الفرنسي. وشعر الملك لويس التاسع بمرارة الفشل. ولكن بموجب فلسفته. فان الحملة جاءت لتلقنه درساً في التواضع.

وأخيراً القينا الضوء على الحملة الصليبية الثامنة، هذا المشروع الذي تولى امره الملك لويس التاسع. الذي خرج (1270) في حملة الى تونس. ولكن هذه الحملة الأخيرة بين الحملات الصليبية المختلفة، لم يكن مصيرها بافضل من سابقاتها، اذ توفي لويس التاسع في 25 اغسطس على ارض تونس. ولم يفد الصليبيون في هذه الحملة من شيء سوى استيلاء بيبرس -مستفيداً من هذه الحملة- على صافيتا وحصن الاكراد.

غاية الأمر. وخاتمته ان هذه الحملة كانت خاتمة الحملات الصليبية، فلن تُقدم حملة من الاراضي الاوروبية الى الاراضي المقدسة..

8. لمحة مسبقة عن الوحدة السادسة

سننشير في الوحدة السادسة، عزيزي القارئ، وهي بعنوان «دورالمماليك في تصفية وجود الفرنجة (الصليبيين)» الى تحالف المسيحيين الشرقيين (الاردن) مع المغول.

وستتحدث عن معركة عين جالوت (1260) العظيمة والتي كانت نقطة تحول في التاريخ.

وسنتتبع دور الظاهر بيبرس في تصفية الوجود الصليبي على الارض الاسلامية: قيسارية، يافا، عتليت، ارسوف، صفد، وغيرها.

وبعد ذلك سنتحدث عن دور اسرة قلاوون العظيم في اكمال تصفية الوجود الصليبي

أ. بالنسبة لخليل بن قلاون الذي استولى على حصن المرقب واللاذقية وطرابلس.

ب. الاشرف خليل قلاون الذي استولى على عكا واستعادها للمسلمين.

ثم سنتحدث عن استمرار الحروب بين المماليك والصليبيين في ارمينيا وقبرص ورودس.

وسنختتم بالقول ان قوة العثمانيين اوقفت اي محاولات لغزو صليبي جديد لعالم الاسلام.

9. إجابات التدريبات

تدريب (1)

بداية الانحراف نحو القسطنطينية، كان بتبني الصليبيين والبنادقة لقضية الكسي انجيلوس، المطالب بعرش ابيه، وعلى هذا وجهوا الحملة الصليبية نحو القسطنطينية. وكان البنادقة يتظرون مثل هذه المناسبة للثأر من القسطنطينية التي حرمتهم من الامتيازات التجارية، لا سيما وان ألكسي انجيلوس تعهد لهم بإخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية، اضافة الى تسديد ديون البنادقة على البيزنطيين، وان يقدم لهم بالتالي امدادات لفتح مصر، وفرقة من الجيش قوامها عشرة آلاف جندي يبقون في الأراضي المقدسة.

بينما يذهب مؤرخون، الى انه كان هناك اتفاق سري بين البندقية وسلطان مصر، الملك العادل، لتحويل هذه الحملة عن اراضيه. حتى لو لم يكن هناك اتفاق مكتوب فإن البنادقة لم يكونوا مستعدين لمعاداة مصر وخسران مصالحهم هناك.

ومن ناحية اخرى، يرى مؤرخون آخرون ان الرخاء في بيزنطة كان وبالاً عليها، حيث يقول نورما بيتر : «اذا نظر الانسان الى الحروب الصليبية، من وجهة نظر الامبراطورية الاغريقية، لا يسعه الا ان يتبين ان هذا الجهد العظيم الذي بذلته المسيحية لتخليص القبر المقدس، كان شره على الدولة اكثر من خيره، فهذه الحروب قاربت عالمين عاجزين عن التفاهم بيزنطة والغرب. فكانت النتيجة ان زادت في حدة الضغائن وأسباب الكراهية بينهما، وأطلعت كذلك الغرب والبندقية منهم بخاصة على غنى الدولة والميادين التجارية الفسيحة، التي تضمها، فاثارت بذلك نيران الطمع»

ومهما يكن من أمر فقد كان هنالك اسباب اخرى كامنة ادت الى خيار القسطنطينية يمكن تلخيصها بما يلي:

1. عرقلة القسطنطينية لجهود الصليبيين في الشرق.

2. النفور القديم المتأصل بين الكنيستين الشرقية والغربية.

3. رغبة البابا في تحقيق سيادة البابوية العالمية وادخال الكنيسة الشرقية تحت نفوذه.

تدريب (2)

هذه الحملة ليست كغيرها من الحملات من حيث موقف البابا، فهي لم تنعم ببركة البابا، على العكس من ذلك فقد كان نصيبها الحرمان لتأخر فردريك في الحملة لأسباب صحية.

كانت الحملة، حملة صغيرة لم تتجاوز (500) فارس.

الأكثر من ذلك لقد كانت الحملة اشبه بزيارة ودية يقوم بها امبراطور مع افراد حاشيته، فهي تخلو من روح التشفي والانتقام، ويطلق رونسيمان على هذه الحملة حملة الدبلوماسية.

ولم يتوقف اعداء الامبراطور عند البابا، بل وجد من انصاره -اي البابا- في المشرق من وقف موقفاً سلبياً ضد الامبراطور ففرسان المعبد وفرسان القديس يوحنا وقفوا جانباً، بعد أن كتب اليهم البابا ان فردريك لا ينبغي ان يعترف به، كما ان انصار يوحنا دي برين ويوحنا حاكم بيروت كانوا اعداء له.

تدريب (3)

.1 اهميتها الاستراتيجية: لانه من خلال تونس ستضاف مقاطعة جديدة للمسيحية في نقطة ذات أهمية استراتيجية كبيرة لأي حملة صليبية جديدة.

.2 ابدت العاصمة التونسية مقاومة من خلال اعادة بناء القلاع وتحصين المدينة من جديد.

.3 فشل الحملة من جراء دفاع أهل تونس عنها ومن خلال الوبا الذي انتشر بسرعة في صفوف الصليبيين.

.4 رد فعل المسلمين على الحملة، في المشرق، أحد أبعاد أهمية هذه الحملة، ويمكن تلخيص رد الفعل هذا بما يلي:

أ. هدم بيبرس تحصينات عسقلان كجزء من دفاعه عن فلسطين ومصر.

ب. اهتم بيبرس، بالثغور والشواني وحصنها خوفاً من مصير شبيه بالمنصورة.

جـ. بعد ان ثبت فشل هذه الحملة بوفاة لويس التاسع، عاد بيبرس الى فلسطين والشام ليستولي في (1271) على صافيتا وحصن الاكراد من بلادامارة طرابلس والقرين من بلاد عكا. وفي (1275) عاد لغزو ارمينيا الصغرى فاستولى على سيس واياس من بلاد امارة انطاكية.

.5 كانت هذه الحملة خاتمة الحملات الصليبية على المشرق، ويعلق رونسيمان على هذه الناحية بقوله:

«عندما وصلت اخبار مأساة تونس الى المشرق سرّي عن المسلمين وراح المسيحيون ينتحبون ويندبون حظهم، وكان هذا الأسى مبررا، فلن يقوم منذ اليوم جيش من الوطن الام لكي يمد يد الانقاذ لمسيحيي المشرق. ولقد كان الملك لويس ملكاً عظيماً، وفاضلاً لفرنسا، ولكن بالنسبة لفلسطين التي احبها باعزاز، فانه لم يقدم سوى الخيبة والأسى».

10. مسرد المصطلحات

الأرمادا:

الحملة البحرية، والكلمة في الاصل مأخوذة من الارمادا الاسبانية او الاسطول الاسباني، وهي مشتقة من كلمة (arm) ذات الاصل اللاتيني وتعني السلاح.

التطهير: (Absolution):

الغفران الرسمي للذنوب والاخطاء كفّارة العشاء الرباني.

الحملة الدبلوماسية:

هي الحملة الصليبية السادسة لأنه لم يقع فيها قتال بل تفاوض ومفاوضات.

الخوارزمية:

نسبة الى خوارزم، وهم مجموعة كبيرة من الجنود كانوا قد فروا من وجه التتار، وقد احتلوا القدس واستعادوها من الصليبيين، لكن ممارساتهم مع المسيحيين والمسلمين لم تكن دائماً منضبطة الأمر الذي دفع الى مجيء الحملة الصليبية السابعة.

الكنيسة الشرقية:

الكنيسة التي تخضع لبطريركية القسطنطينية، (الارثودكسيه او اليونانية).

الكنيسة الغربية:

الكنيسة التي تتبع للبابا (الكاثوليكية).

الكومونة:

اصغر وحدة لحكومة محلية وقد ساد هذا النظام في اواخر الحروب الصليبية مثل عكا وانطاكية.

نبّال:

مشتقة من نبل وتعني السهم، والنبال هو الذي يرمي بالسهام في المعارك الحربية.

الهدنة:

وقفٌ مؤقت للحرب بموجب اتفاقية متبادلة، وفي الغالب من أجل الوصول الى تسوية نهائية.

الوصاية:

نوع من الحماية أو المراقبة من قبل شخص نحو شخص، أو دولة على دولة.

الوحدة السادسة

دور المماليك في تصفية وجود الفرنجة (الصليبيين)

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي القارئ، سنحاول ان نبحث في هذه الوحدة في تحالف المسيحيين الشرقيين مع المغول. هذا التوجه الذي لم يقبله المسيحيون الغربيون أو الصليبيون. وبالرغم من محاولة كتبغا معهم الذي طلب من الصليبيين التعاون معه. لكن الصليبيين ظلوا على موقفهم السلبي من المغول.

سنعنى بعد ذلك، عزيزي القارئ، بموضوع معركة عين جالوت 1260، هذه المعركة التي تجلى فيها الفن العسكري المملوكي. والتي اعتُبرت معركة فاصلة أنقذت مصر وبلاد الشام.

وسنحاول تفهُّم وضع الصليبيين في هذا المنعطف من تاريخهم وكيف انهم اصبحوا ضعفاء أنهكتهم الحرب الأهلية، وأضرّ بهم فقدان القيادة الشبيهة بالقيادة التاريخية التي جاءت بالحملة الصليبية الاولى. اضافة الى الظروف الجديدة التي استجدت وجعلت الغرب المسيحي في شغل عن الحروب الصليبية في المشرق.

هنالك قادة عظام- عزيزي القارئ- لعبوا دوراً عظيماً في تصفية الوجود الصليبي على الارض العربية الاسلامية: ومن هؤلاء الظاهر بيبرس الذي سيصفى- كما سيُظهر البحث- الجيوش الصليبية المتبقية في قيسارية ويافا وعتليت وأرسوف وصفد. وسيتوج اعماله في الاستيلاء على انطاكيه التي غنم منها المسلمون غنائم عظيمة، حتى ان النقود وزعت بالطاسات ! والآن الجدير بالذكر ان سقوط انطاكيه دليل جديد على انهيار ذلك البناء الضخم الذي اقامه الصليبيون في الشام. توفي الظاهر بيبرس سنة 1277م.

مع غياب الظاهر بيبرس، تتولى اسرة قلاون قيادة دفة المقاومة ضد الصليبيين. وهذا ما سنحاول ان نتحدث عنه بالتفصيل. وسنشير اشارات مقتضبة في هذه العجالة والتمهيد الى دوري قلاون، والأشرف خليل بن قلاون.

سار قلاون من معركة الى معركة. فقد كان حصن المَرقَب من أول ما احتل. بل كان احتلاله صدمة كبيرة للصليبيين.وهنا شعر الصليبيون بالأسى والاسف لعدم تحالفهم مع المغول.

غاية الأمر ان قلاون استمر في فتوحه. فاستولى على اللاذقية سنة 1287 ثم استولى على طرابلس سنة 1288/ 1289 بالرغم من كثرة الصليبيين التي قدمت من قبرص وعكا.

والحق ان سقوط طرابلس، اصاب كل صليبي بشعور بالأَسى والخسارة حتى الاعماق. بل ان كل صليبي بعد سقوط طرابلس أصبح يتحسس رأسه !

بعد ذلك سيكون دور السلطان الاشرف تحرير عكا بعد معركة عظيمة وقتال شوارع. ومحاولات مستميتة من الصليبيين وبخاصة المنظمتين الاسبتارية والداوية في الدفاع عنها.

من الجدير بالذكر هنا ان سقوط عكا في يد المسلمين قرر مصير المدن الباقية على الساحل من طرطوس حتى عتليت.

وهكذا فإننا نستطيع القول ان دولة الصليبيين قد دالت في الشام وانتهى امر الصليبيين برحيلهم الى بلادهم وترك بلادنا لينعم بها اهلها كما كانوا دائما عبر التاريخ.

وسنبين -عزيزي القارئ- ان المماليك لهم دور في مجابهة الأرمن وانهاء دولتهم. فنتيجة الضغط المملوكي سقطت دولة أرمينية وانتهى وجودها السياسي. وانتهى امر ارمينيا بأن أصبحت جزءا من نيابة حلب وتابعة لسلطنة المماليك.

كما انه كان للمماليك دور في مجابهة القبارصة اللاتين والحقيقة ان القبارصة هم الذين بدأوا بالعدوان على المماليك. وهاجموا الاسكندرية وسلبوا ونهبوا واعتدوا على النساء والبنات والاطفال. انتقم المماليك الجراكسة لحادث الهجوم على الاسكندرية وقاموا بثلاث حملات على قبرص. تمكنوا في الحملة الثالثة منها ان يهزموا جانوس ملك قبرص ويستولوا على نيقوسيا 1426.

وكانت رودس المحطة الاخيرة التي استُخدمتْ بمثابة قاعدة للهجوم على مصر. لكن رودس انتهت بالدخول في حكم العثمانيين سنة 1522 بعد ان دخل المماليك سنة 1517 تحت حكم العثمانين بعد ان ضعفت اموالهم بتحول الطريق التجاري عنهم الى رأس الرجاء الصالح.

وسنختم بالاشارة - عزيزي القارئ- الى ان بروز قوة العثمانين اوقفت اي محاولات للصليبيين لغزوِ صليبيٍ جديد لعالم الاسلام.

2.1 أهداف الوحدة

يتوقع منك، عزيزي القارئ، بعد قراءتك هذه الوحدة وتنفيذ النشاطات والتدريبات الواردة فيها أن تكون قادراً على أن:-

1. تعرض العلاقة بين الصليبيين والمغول.
2. تعرض العلاقة بين المماليك والمغول.
3. تفسر اسباب انتصار المماليك في معركة عين جالوت.
4. تقدر أهمية معركة عين جالوت في التاريخ الاسلامي.
5. تشرح دور المماليك في تحرير المشرق العربي الاسلامي من الفرنجة (الصليبين).
6. تبين دور المماليك والشعب في حركة التحرير.
7. تعلل اسباب نجاح المماليك في طرد الصليبيين الفرنجة من الشام.
8. تحلل الاسباب التي أدت الى نجاح المسلمين في تحرير المشرق العربي الاسلامي من الصليبين.

3.1 أقسام الوحدة

تقسم هذه الوحدة إلى أربعة أقسام رئيسة ترتبط بقائمة الأهداف السابقة.

القسم الأول : »العالم الاسلامي بين المغول والصليبين» يرتبط بالهدف الأول. القسم الثاني : «عين جالوت 1260» ويرتبط هذا القسم بالأهداف الثلاثة الأولى . القسم الثالث : «دور المماليك في تحرير المشرق الاسلامي من الفرنجة (الصليبيني)» والذي يتحدث عن الظاهر بيبرس وقلاون وأسرته وتحرير عكا والحروب المملوكية مع ارمينية وقبرص ورودس، ويرتبط هذا القسم بفروعه الاربعة بالأهداف : الخامس والسادس والسابع والثامن. القسم الرابع : استمرار الروح الصليبية في الغرب ويرتبط هذا القسم بالهدف الثامن.

2. العالم الإسلامي بين المغول والصليبيين

أول ما يواجهنا في موضوع العالم الاسلامي بين المغول والصليبيين هو علاقة المسلمين بالمسيحيين المحليين أو ما يسمون بالمسيحيين الشرقيين، هؤلاء المسيحيون الذين وقفوا مع المغول ضد المسلمين وتحالفوا معهم بينما لم يكن موقف الصليبيين والمسيحيين الغربيين متطابقا معهم. فقد اتخذ موقف المغول والمسيحيين المحليين من المسلمين شكل حملة صليبية. فكما تذكر لنا المصادر فان الخطة المغولية المسيحية الخاصة بغزو الشام اشترك في وضعها ملك ارمينيا الصغرى، هيثوم الأول. وقد كان غزو القدس هو الشعار الذي تبناه هولاكو ا فقد طلب هولاكو من حليفه الارمني ان يلتقي به على رأس جيش يبدأ من الرها **«حتى يذهب معه الى القدس، ويخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين»** [عاشور جـ2 ص1123]. وعلى ما يظهر فإن هيثوم الأول لم يكن يعبر في تحالفه مع المغول عن سياسته وتوجهه وانما كان يعبر ايضا عن سياسة زوج ابنته الأمير الصليبي، بوهمند السادس امير انطاكية وطرابلس، ونحن نعلم، عزيزي القارئ، مدى تأثير هاتين الامارتين في الكيان الصليبي في المشرق الاسلامي. كما نعلم مدى قوة الرباط الذي يجمع هاتين الامارتين مع امارة ارمينيا وآسيا الصغرى [Setton II, P.P. 572].

وعلى طريق القدس ومن خلال المجهود الحربي المشترك للمغول والارمن حاصر المغول مدينة حلب في 18 يناير 1260 وعندئذ **«دام القتل والنهب من نهار الأحد الى نهار الجمعة». اما الاسرى فكانوا «زيادة على مائة الف من النساء والصبيان» وقد بيع معظم أولئك الاسرى في أسواق الرقيق في مملكة ارمينية الصغرى وفي المدن الصليبية في الشام. ولم يتعرض المغول لكنيسة اليعاقبه في حلب، في حين حرص هيثوم الأول ملك ارمينية على احراق جامع حلب بنفسه»** (عاشور جـ2 ص1124).

هكذا يتضح لنا التميز بين المسيحيين والمسلمين في موقف المغول من الطرفين: فبينما كان جزاء المسلمين من المغول الذبح في كل البلاد التي دخلوها في بغداد وحلب وغيرها. وكان على رأس القتلى الخليفة العباسي نفسه واحرقوا جامع الخليفة فإنهم اظهروا اهتماما خاصا وعطفا شديدا على المسيحيين الشرقيين، كما احترموا المؤسسات المسيحية بوجه عام. آية ذلك والاشارة اليه أن هولاكو الحاكم المغولي الذي كانت اصابعه تقطر بدماء المسلمين خرّب بغداد تخريبا عجيبا، هذا الحاكم الغاشم هو الذي انعم على البطرق النسطوري في بغداد

بالهدايا الثمينة وخصص أحد قصورها مقراً له ! لذلك فليس عجبا ان يرحب بل يهلل الارمن المسيحيون بهؤلاء المغول لما قاموا به من اعمال في العراق والشام، واعتبروا المغول ومرسلي العناية الالهية لحماية المسيحين، ومن هنا كان حرص ملوك هؤلاء المسيحيين وأمرائهم على مرافقتهم ومشاركتهم في حملاتهم ومسيرة فتوحاتهم. وكما يقول مؤرخو هذه الفترة فإن المعاصرين من المسيحيين الشرقيين وجدوا في غزوة المغول للعراق والشام فرصة ثمينة للثأر من الاسلام، واعتبروا تلك الغزوة المغولية الدموية بمثابة حملة صليبية جديدة اتت لنصرة المسيحية والمسيحيين، ولكن قدومها هذه المرّة لم يكن كالمعتاد من الغرب بل من الشرق.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه ! لماذا وقف المسيحيون الغربيون/ الصليبيون/ الفرنجة موقفا سلبيا من المغول بينما وقف ابناء دينهم الشرقيين هذا الموقف الذي اشرنا اليه اعلاه ؟!

في الحقيقة ان الاجابة تحتمل عدة احتمالات :

الأول منها ان الصليبين لم يدركوا أهمية الحملة المغولية بوجه عام كما انهم- وهذا هو الأهم- لم يدركوا اهميتها بالنسبة لهم وعلى هذا فانهم اضاعوا من ايديهم فرصة ثمينة لم يتحها ولن يتيحها الزمان لهم مرّة اخرى ! (عاشور جـ2 ص1130).

والثاني منها ان الصليبيين الغربيين في الشام استاءوا مما اظهر المغول من عطف واضح على المسيحين الشرقيين دون الغربيين.

غاية الأمر ان هذا الموقف من جانب الصليبيين نحو المغول سوف يطّرد ويستمر رغم العروض المغولية المتكررة ورغم معرفة الصليبيين بشراسة المماليك في التصدي لهم !

أسئلة التقويم الذاتي (1)

علّل لماذا لم يستجب الصليبيون الى التحالف مع المغول .

فعندما تولى كتبغا ذو الميول المسيحية المعروفة قيادة المغول من دون هولاكو الذي عاد بعد وفاة اخيه منكوخان الى قراقورم في أواسط آسيا، عرض هذا التحالف مع الامراء الصليبيين في عكا وصور وقبرص اشبه بالتحالف القائم بين المغول من ناحية وملك ارمينية وملك انطاكية من الناحية الاخرى. لا سيما وان الجميع تجمعهم قضية واحدة وتوجد بينهم مصلحة واحدة الا وهي مواجهة العدو المشترك ونعني به المماليك في مصر: الاّ ان الصليبين ظلوا على موقفهم

السلبي من المغول، ولم يعرفوا ان المماليك هو العدو المنتظر بالنسبة لهم وان هؤلاء المماليك لن يكتفوا بأقل من تصفية كل الممالك والامارات الصليبية ويعفوا على آثارها كأن لم تكن ! بعد ان يكون المماليك قد قضوا على رأس الحربة المتمثل في الغزو المغولي ولن يكون هذا سوى في معركة عين جالوت عام 1260 والتي هي مدار حديثنا فيما سيأتي.

3. عين جالوت (1260)

عزيزي القارئ، ان من يقلب صفحات تاريخ هذه الفترة العصيبة من تاريخ المسلمين يجد هذه الرسالة المتحدية التي تتجلى فيها روح التعالي والغطرسة والعدوانية والتوسعية. يقول هولاكو موجها رسالته للمماليك:« قد سمعتم اننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الارض من الفساد وقتلنا معظم العباد ! فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي ارض تأويكم واي طريق تنجيكم واي بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص ولا من مهابتنا مناص. ! !،، [المقريزي، السلوك جـ1 ص428]. وربما كان مقدراً للمغول الانتصار والتغلب على المماليك لو تحالف العدوان الصليبي والمغولي معا ضد المماليك. ولكن لـمّا تمادى الصليبيون في موقفهم السلبي من المغول أصبح حظهم في الانتصار محدوداً. ومن هنا فقد استقر رأي المماليك على الحرب والمقاومة وكان أن قتلوا رسل هولاكو الى مصر وعلقوا رؤوسهم على باب زويله، وكان هذا في الوقت الذي ساحت قوات المغول في البلاد الاسلامية وباتجاه مصر «فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان واستاقوا من الاسرى والابقار والاغنام شيئا كثيرا» [رشيد الدين: جامع التواريخ جـ1 ص310].

ونحن هنا نجد مثلاً جيدا في تنكب الصليبين عن مؤازرة المغول وذلك في موقف الصليبيين في عكا؛ فبدلاً من ان يرجحوا كفة على كفة، انصرف تفكيرهم الى الثأر من المغول لما فعلوه في صيدا . وقد وصل بهم الحال انهم كانوا على استعداد لمحالفة المماليك ضد كتبغا !

ومهما يكن من أمر فإن خطة المماليك في مجابهة المغول عند عين جالوت بين بيسان ونابلس في شمال فلسطين، كانت خطة بارعة، فقد لجأ قطز سلطان المماليك الى اخفاء جيشه بين الاحراش والاشجار المحيطة بعين جالوت وترك مقدمة الجيش تتابع سيرها بقيادة بيبرس باتجاه المغول. وفي اثناء ذلك كان كتبغا قد وصل «وكان بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب !» [السلوك جـ1 ص431] فالتقى بهم المماليك عند عين جالوت في 3 سبتمبر (1260).

وقد اظهر المماليك شجاعة عظيمة في موقعة عين جالوت، حتى انه ليقال ان السلطان قطز عندما شاهد اضطراباً عسكرياً في أول المعركة، القى بخوذته الى الأرض وصرخ بأعلى صوته وإسلاماه! هذه الصرخة التي عبرت الاجيال، واصبحت صيحة الحرب للمسلمين في كل معاركهم ضد اعدائهم! وحمل بنفسه على العدو حتى تم القضاء على المغول قضاء تاما

«وولوا الادبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الموقعة، فأحدقت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى افنوهم قتلاً، ونجا منهم من نجا وتبعهم الامير ركن الدين بيبرس البندقداري، في جماعة من الشجعان الى اطراف البلاد، واستوفى اهل البلاد والضياع من التتار آثارهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، حتى انه لم يسلم منهم الا القليل جدا» [النجوم الزاهرة جـ7 ص-79 ص80].

ومن يحاول ان يمعن النظر، ويتبصر في نتائج موقعة عين جالوت يجد ان هذه الموقعة تعتبر من المواقع الفاصلة في التاريخ. فلو قدّر للمغول ان ينتصروا في هذه الموقعة لفعلوا بمصر وأهلها مثلما فعلوا بالمسلمين في العراق والشام. ولمرّت البلاد الاسلامية في الشرق الادنى في فترة حالكة تحت الحكم المغولي. ولكن انتصار المماليك لم ينقذ مصر فحسب، حيث كانت قاعدة المماليك، وانما انقذ بلاد الشام ايضا. فبعد الضربة القاصمة التي لحقت بالمغول في عين جالوت أدرك هؤلاء ان لا مقام لهم بالشام وان عليهم ان يرحلوا عائدين من حيث اتوا. فلم يعد بمقدورهم ان يقوموا بموجة جديدة الى هذه المنطقة كما ان جزءاً كبيراً من طاقتهم الذاتية تلاشت ولم تعد- باي حال من الاحوال- كما كانت عليه بالأمس.

ونختم هنا بالحديث عن الجبهة الاخرى التي لا زالت بانتظار المماليك لمواجهتها ومجابهتها ونعني بها جبهة الصليبيين: وهنا نلاحظ ان الجبهة الصليبية قد عانت من اكثر من عامل من عوامل الضعف فمن ناحية انهكت الحروب الاهلية المعسكر الصليبي، كما ان هذا المعسكر اعوزته القيادة الفاعلة ذات القدرة على المبادرة والتنظيم المبدع امثال غودفرى وبلدوين واملرك وبوهمند، ومن ناحية ثالثة فان المنبع الذي تعود ان يمد الصليبيين بدماء جديدة وحيوية مستمرة ونعني به غرب اوروبا والبابا، هذا المنبع قد فترت عزيمته واضمحلت حماسته للصليبيين في المشرق، وقد دخلت معطيات جديدة في صورة الحياة السياسية، الغرب بعامة جعل المجتمع الغربي لا يلتفت الى المشروع الصليبي في المشرق، ليس هذا فقط وانما ان يعيد النظر في المشروع الصليبي بمجمله. يقول رونسيمان متحدثاً عن نتائج موقعة عين جالوت ما نصه:» لقد انقذ انتصار المماليك الاسلام من اعظم تهديد خطير كان يمكن ان يواجهه في اي زمن. فلو قدّر للمغول ان يتوغلوا في مصر لما كان بالامكان ان تظل دولة اسلامية شرق مراكش. لقد كان المسلمون في آسيا اكبر بكثير من ان يجتاحهم ولكن لم يكن باستطاعتهم لو هزموا ان يبقوا العنصر المسيطر أو العنصر الحاكم.فلو انتصر كتبغا المسيحي، لتشجّعت

عواطف المغول المسيحية ومشاعرهم واستنهضت ولتوصل المسيحيون الآسيويون الى السلطة لاول مرّة منذ هرطقاتهم الكبيرة التي سبقت مجيء الاسلام. إنه لمن الكسل والرياضة الهادئة ان نفكر بالاشياء التي كان من الممكن ان تحصل لو انتصر المغول. فالمؤرخ لا يروي الا ما يحصل بالحقيقة والواقع. لقد جعلت عين جالوت من سلطنة المماليك في مصر القوة الكبرى في الشرق الأدنى للقرنين القادمين، وحتى ظهور القوة العثمانية. لقد اتمت تحطيم قوة المسيحيين المحليين. وبتقوية الاسلام وباضعاف العنصر المسيحي، فقد كان بامكانهم [القوة المملوكية] ان يحفزوا المغول الذين بقوا في غرب آسيا على اعتناق الاسلام. كما سارع المماليك في استئصال شأفة الدويلات الصليبية، فكما شاهد الزعيم الكبير للمنظمة التوتونية، فان المسلمين المنتصرين سيكونون راغبين في الخلاص من اعداء العقيدة» [Runciman III P.313].

4. دور المماليك في تحرير المشرق الإسلامي من الفرنجة (الصليبيين)

وعلى اية حال، وأمام هذا الواقع الجديد؛ ونعني به الخلاص من المغول وضعف المعسكر الصليبي الذي لم يحسن لعب ورقة المغول، فان المماليك الذين دفعوا بدماء جديدة في الجسد الاسلامي وبقوتهم التي بسطت سيطرتها على مصر والشام، اصبحوا يتربصون بالصليبيين الدوائر، ويصفّون مواقعهم، ويحتلون مدنهم،موقعاً تِلْوَ الموقع ومدينة تِلْوَ المدينة.

4.1 الظاهر بيبرس

كان أول من تولى استراتيجية تصفية الوجود الصليبي خطوة وراء خطوة، من المماليك هو الظاهر بيبرس الذي يعتبر ستيفنسون صعوده الى الحكم بداية مرحلة بعيدة الاثر في تاريخ الحروب المقدسة. فمن خلال بيبرس وجدت سياسة صلاح الدين امتداداً لها، لا سيما وهو الشخصية الذي يتميز بطاقة عظيمة لا تعرف الكلل، وإلى جانب هذا فانه يتميز بكونه رجل دولة يذكرك بسلفه العظيم: صلاح الدين ويقول عنه رونسيمان:«لقد كان تركيا من حيث المولد:– رجلاً ضخم الهيكل، بني البشرة، عيناه زرقاوان.. وقد صعد في مدارج التقدم بسرعة ومنذ انتصار (1244)على الصليبيين فقد اصبح من اقدر الجنود الصليبيين: فقد اثبت انه رجل دولة من مستوى عال» [Runciman III p.315][Stevenson p.334].

وقد وصف ابو المحاسن الظاهر بيبرس بانه «كان يحب ان يطلع على أحوال امرائه واعيان دولته، حتى لم يخف عليه من احوالهم شيء».

كما كان يرغب في اقرار العدالة، ويخاف من ان تتعرض رعيته لظلم الحكام: «وكل ذلك من كثرة عدله وانصافه للرعية والنظر في امورهم، وانصاف الضعيف من لمستضعف، والذب عنهم من العدو المخذول، رحمه الله وعفا عنه ...»(ابو المحاسن، النجوم الزاهرة،جـ7، ص197).

وقد وصف المؤرخ المقريزي الظاهر بيبرس، فقال انه كان «طويل القامة» أسمر اللون، في عينيه زرقة، وباحدى عينيه نقطة صغيرة، صوت جهوريا» اما عن سماته الخلقية فقد اثنت جميع المصادر على شجاعته: فالمقريزي يقول :»كان شجاعاً عسوفا عجولاً» (السلوك، جـ1، ص637).

وابو المحاسن يصف بيبرس بانه كان رحمه الله ملكا شجاعا، مقداما غازيا، مجاهداً مرابطاً خليقاً بالملك، خفيف الوطأة سريع الحركة يباشر الحروب بنفسه» (ابو المحاسن، جـ7، ص178 – 177).

فقد بدأت الحرب بين بيبرس والصليبيين ببعض المناوشات في اقليم الجليل ومن ثم اتجه بيبرس الى قيسارية واستولى عليها في عام فبراير 1265، ثم استسلمت له قلعتها في اوائل الشهر الثاني. وبعد ذلك انتقل بيبرس الى يافا التي فرّ منها معظم أهلها من الصليبيين من وجهه فاستولى عليها ودمّرها. ومن ثم توجه بيبرس في سياسة تمشيط لما يصادفه من مواقع، الى عتليت هذه القلعة التي شيدها الداوية سنة 1218 على البحر بين حيفا وقيسارية، فقد هاجمها بيبرس بنفسه واستولى على المدينة وقد استعصت عليه قلعتها فغادرها واتجه الى أرسوف التي كان يسيطر عليها فرسان الاسبتارية، وقد دافع هؤلاء عنها بقوة واستمر حصارها من 21 مارس الى 30 ابريل (1265)، بحيث تمكن المسلمون في النهاية من شق طريقهم من خلال شرخ اوجدوه في الحصن الذي استسلم. ولقد استسلمت حاميتها الصليبية وكانت حوالي (1000) مقاتل على شرط ان يتم الأمان لهم ولكن المدينة نفسها اقتحمت عنوة ودمرت اسوارها .(Stevenson p.332)

اما في طرابلس فان قوات حمص تمكنت من الاستيلاء على حصون القليعات وحلبا وعرقة، وهنا جمع السلطان قوات من اجل محاصرة صفد. وقد عسكر بقواته وجنوده على جسر يعقوب بانتظار آلات الحصار من دمشق ومن ثم بدأ يدك حصون المدينة. وقد فشلت عدة محاولات لاقتحام الحصن ولكن الحامية في النهاية استسلمت واستسلمت معها المدينة وتلا هذا ان استولى بيبرس على هونين وتبنين ومدينة الرملة.

ومهما يكن من أمر فقد تنافست المدن الصليبية فيما بينها على الحصول على السلام من بيبرس، كل على مسؤليتها الخاصة، ولكن السفارات من عكا وصور ويافا وبيروت، جميعها كان نصيبها الرفض من قبل بيبرس.

وقد وجد بيبرس في انحلال الصليبيين بالشام خير مشجع له على مهاجمتهم فاستولى على يافا في مارس 1268 وعندئذ هدم قلعتها وفرّ اهلها «في المراكب الى عكا» كما استولى على شقيف ارنون في لبنان من الداوية في منتصف الشهر التالي [النجوم الزاهرة، جـ2، ص142].

لقد كان تتويج فتوح بيبرس بالاستيلاء على انطاكية وهنا قسّم بيبرس جيشه الى ثلاث فرق، احداها اتجهت الى ميناء السويدية، لتقطع الصلة بين انطاكية والبحر، والثانية سدّت الممرات بين قيليقية والشام لمنع وصول اية مساعدة الى انطاكية من ارمينية الصغرى، في حين اخذت القوة الرئيسية تحت قيادة بيبرس نفسه تهاجم المدينة ففي 16 مايو من عام (1268) بدأ

هجوم بيبرس على قلعة انطاكية. وقد مر يوم أو يومان في مفاوضات لا جدوى من ورائها. وفي 19 مايو (السبت) بدأ الهجوم العام. وفي الساعة الرابعة من نفس النهار فقد تمكن المسلمون من كسب معركة السور وهنا توغلوا عمقا في المدينة. وقد ظلت القلعة بقواتها التي بلغت (8000) هي الوحيدة السالمة وتقاتل. ولكنها لم تملك الا ان تستسلم بشرط ان يبقى كل شيء داخل جدرانها بدون ان يمس. وقد قدّر عدد سكان المدينة بـ (100) الف وكانت الغنائم التي حصل عليها المسلمون عظيمة من كل وجه (Stevenson p.341) فقد بلغ من كثرة الغنائم ان «قسمت بالطاسات !» كما بلغ من كثرة الاسرى انه «لم يبق غلام الا وله غلام... وبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم» وقدرت بعض المراجع عدد الاسرى بانطاكية بمائة الف أسير [عاشور جـ2 ص1149].

يقول عاشور، مؤكداً على أهمية سقوط انطاكية في قبضة المسلمين، هذه الامارة التي كان ترتيب قيامها، الثانية، بعد الرها، يقول :«فجاء استيلاء المسلمين عليها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي اقامه الصليبيون في الشام في اواخر القرن الحادي عشر» [عاشور جـ2 ص1150].

لم يكن باستطاعة الداوية ان يحافظوا على قلاعهم في اقليم انطاكية، بعد سقوط مركز الامارة وعاصمتها. فاستسلمت قلعة بَغْراس دون مقاومة وهرب من كان فيها من الداوية. وبذلك انقطعت صلة المسيحين في طرابلس وعكا بأرمينيا الصغرى. وتبددت فكرة التحالف بين انطاكية وارمينية والمغول.

وفي عام 1271، استؤنفت الحرب الاستراتيجية بين المسلمين والصليبيين في سوريا. فقد هوجمت طرابلس واصيبت سمعة الإسبتارية كمقاتلين في الصميم، وذلك عندما تم اقتحام حصن الاكراد[Stevenson p.342]. وبعد هذا بعدة اسابيع، كانت هنالك مفاوضات لعقد معاهدة مع الصليبيين ونعني بهم، هيو الثالث ملك قبرص والامير ادوارد. وقد انطبقت هذه المعاهدة على اقليم عكا، شاملاً الطريق الى الناصرة، وقد قدرت مدتها بعشر سنوات وعشرة شهور وعشرة أيام، وعشر ساعات. [Stevenson p.342].

اما هيو الثالث فقد ظل في بلاد الشام يعمل جاهداً لاصلاح حال الفرنجة ووصل حبال الفرقة بينهم ولكن هيهات! فقد كانت عوامل الضعف ونوازع الفرقة اكبر من ان يتم عبورها، فنفض يده من بلاد الشام وعاد الى مملكته في قبرص (1276) دون ان يعين نائبا عنه يرعى

شؤون مملكته ببلاد الشام.

توفي بيبرس في عام 1277 بعد جهاد طويل ومرير وبعد ان قطع خطوة كبيرة في تصفية الوجود الصليبي بالشام، وبالذات الاستيلاء على انطاكية.

ويختتم ستيفنسون حديثه عنه بالتذكير بطاقته التي لا تنفذ! كما يشيد بتحركاته السّرية التي كانت مثار دهشة واعجاب تابعيه والمجاهدين معه. [Stevenson p.346].

أسئلة التقويم الذاتي (2)

حلّل شخصية الظاهر بيبرس وبين أهم انجازاته على طريق تصفية الجيوش الصليبية في المنطقة ؟

4.2 أسرة قلاون

توصل السلطان قلاون الى السلطة في عام (1279). فقد توفي الظاهر بيبرس (1277). وآنذاك أقام الامراء ابنيه السعيد بركه ثم العادل سلامش في منصب السلطنة على التوالي. وذلك حتى يظهر من بين الامراء المماليك من يستطيع ان يتغلب على الآخرين ويحوز السلطنة لنفسه. ولم يكن هذا سوى الأمير قلاون الالفي الذي استطاع ان يغتصب السلطنة، ولم يصل هذا الأمير الى السلطنة بدون متاعب بل تعرض لصعوبات لعل اشدها ثورة سنقر الاشقر في يونيه 1280؛ الذي حلت به الهزيمة وفرّ هاربا الى الرحبة ومنها الى قلعة صهيون في شمال سوريا. وهنا استنجد بالمغول ولكن هذا لم يجده نفعاً. ففي معركة حمص (30) اكتوبر 1280 حلت الهزيمة بالمغول وهلك منهم خلق كثير. وبهذا توطدت اركان السلطنة لقلاون لكي يقوم بدوره في تصفية بقية الوجود الصليبي على ارض الشام.

ابتدأ قلاون عهده بعقد اتفاقيات مع اعدائه. فقد عقد اتفاقيات مع الاسبتارية في عكا (مايو) 1281، ومع سنقر الاشقر في نهاية يونيه، ومع بوهمند امير طرابلس في 16 يوليه. وقد احتفظ سنقر بممتلكاته وتولى ممتلكات أخرى وهي انطاكيه وفاميه وكفر طاب. اما المعاهدة مع اللاتين فقد كانت مدتها عشر سنوات، وعشرة أشهر، وعشرة اسابيع وعشرة أيام. [Stevenson p.348].

ولكن أول صراع لقلاون مع الصليبيين هو مع فرسان حصن المرقب وقد جاء هذا الصراع على خلفية ان هؤلاء الفرسان هاجموا قافلة تجار للمسلمين مما جرّ عليهم النزاع مع امير حصن الاكراد. وهنا اغتنم قلاون الفرصة لكي يدمر حصن القلاقل والاضطراب ضد المسلمين.

وبالفعل فقد تميز هذا الحصن بالمناعة والقوة. وعلى هذا فقد اعتبر المراقبون الاستيلاء عليه خطوة كبرى في تقويض أركان الصليبيين بالشام، كما ان المسلمين اعتبروا اليوم الذي استولوا فيه على الحصن «يوما مشهوداً أخذ فيه الثأر من بيت الاسبتار؟ ومحيت آية الليل بآية النهار».

والحقيقة ان الاستيلاء على هذا الحصن تم صُلحاً وليس عنوة بعد ان ضيّق المسلمون الحصار عليه، وبعد ان استمر هذا الحصار (38) يوما حتى اتفق الطرفان على تسليم الحصن للمسلمين وكان لكل طرف اسبابه في هذا التسليم: الاسبتارية من ناحيتهم لانهم ادركوا أن وضعهم أصبح لا يمكن الدفاع عنه، والسلطان من ناحيته لأنه أراد ان يحافظ على جدران الحصن بدون ان تدمر. [Stevenson p.340].

اما شروط الاتفاق على التسليم فكان منها ان الخمسة والعشرين مقدماً من الاسبتارية، الذين كانوا في الحصن ينبغي ان يُسمح لهم بالخروج مع كل ما يمكن حمله من ممتلكاتهم وسيخرجون وهم ممتطون خيولهم وبكامل اسلحتهم. اما بقية الحامية فبامكانهم ان يتحرروا ولكن لا يأخذون شيئا معهم. وقد كان دخول قلاون رسميا الى الحصن يوم (25) مايو 1285. [Runciman III p.393] اما ما هي النتائج التي ترتبت على سقوط الحصن فيمكن اجمالها بما يأتي :

ان سقوط الحصن اوقع الرعب في نفوس أهل عكا من الصليبيين، لا سيما وانهم في نفس الوقت علموا ان شارل انجو قد توفي. وان ابنه شارل الثاني صاحب نابولي كان قد تورط في الحرب الصقليه لدرجة انه لم يعد يكترث بتاتا بصليبيي المشرق. كما ان الحرب قد شغلت جميع غرب اوروبا.

وهكذا فقد جاء زمن حاكم محلي ليملأ الفراغ. فبناء على مشورة الاسبتارية، فان هنري الثاني حاكم قبرص ارسل رسولاً اسمه جوليان لي جون، الى عكا لكي يعترف به ملكا على عكا. وقد وافق القومون. وتعاطف مع هذه الفكرة كل من فرقتي الاسبتارية والتيوتونية. اما الداوية، فقد وافقوا على ذلك بعد تردد ولكن العقبة ضد هذا التوجه كان في ان اودو بويلشيان رفض ان يستقيل من موقعه كحاكم. لا سيما وان الحامية الفرنسية كانت تؤيد اودو.

غاية الأمر ان مؤرخا مثل رونسيمان يتأسف لان الصليبيين لم يقيموا تحالفاً مع المغول. فهو يعتقد ان مثل هذا الحلف لو تم فان عمر الكيان الصليبي في المشرق (Outremer) كان قد استمر. وان المماليك كانوا سَيُعاقبون وتحطم اقدامهم ان لم ينتهوا كليا وان إيلخانيين ايران كانوا سيبقون كقوة مؤيدة للمسيحيين والغرب. ولكن الذي حصل هو ان الامبرطورية المملوكية هي التي استمرت وبقيت لمدة ثلاثة قرون. ومن بعد اربع سنوات من وفاة ارغون فان مغول ايران تحولوا الى المعسكر الاسلامي. وهكذا -يكمل رونسيمان- فان فرنجة المشرق فشلت قضيتهم بسبب اهمال الغرب وبسلوك فرق العباد من المسيحيين الشرقية انفسهم. فهذا الاهمال كان بصورة رئيسية نتيجة للحرب الصقليه التي كانت نتيجة حقد البابا والاستعمار الفرنسي. [Runciman III p.401].

4.3 الاستيلاء على اللاذقية (1287)

قد كان السبب في توجه قلاون لفتح اللاذقية هو شكوى اهل حلب من انه من غير الملائم ان يرسلوا بضائعهم الى ميناء مسيحي:اللاذقية، آخر بقايا امارة انطاكيه. [Runciman III p.403] . ومهما يكن من أمر إذ جاءت فرصة قلاون في ربيع هذا العام فقد هدمت هزة في 22 مارس اسوار هذه المدينة.ولما كانت اللاذقية غير مشمولة بالمعاهدة المتعلقة بطرابلس، فان قلاون أرسل الأمير حسام الدين طرنطاي، لكي يستخلصها. ولقد سقطت المدينة بسهولة بيده. ولكن المدافعين عن المدينة لجأوا الى قلعة في فم الميناء، ترتبط بالبر بممر. وقد وسع طرنطاي (أحد قادة قلاون) هذا الممر وبهذا اضطر الحامية للتسليم في (20 ابريل). ولم يحاول أحد ان يأتي لنجدتها.[Runciman III p.403].

4.4 الاستيلاء على طرابلس (1288- 1289)

وهنا نجد ان المماليك تحينوا الفرصة للاستيلاء على طرابلس: فلم تكد تمضي بضعة أشهر على وفاة حاكمها بوهمند السابع، حتى وصلت لوسي اخته ووريثته، لاستعادة حقها الشرعي. وقد ردّ قومون طرابلس على بالاستنجاد بجنده. ولم يكن المماليك بحاجة الى حافز يحفزهم ضد البيت الحاكم في طرابلس، وذلك منذ ان قام بوهمند السادس (1260) باستدعاء المغول الى الشام ومحالفتهم وحثهم على التنكيل بالمسلمين. وكل ما هنالك- أما الأهم بالنسبة للاستراتيجية المملوكية العامة فهو ان يتحين هؤلاء الفرصة المناسبة للاستيلاء على طرابلس

واختيار التوقيت المناسب. ويظهر ان الفرصة المناسبة قد حانت وان التوقيت المناسب قد آن اوانه. فقد اضطربت أوضاع طرابلس وانقسم أهلها أحزاباً وشيعا. وكان ابرز مظاهر هذا الاضطراب هو البغضاء التي صدرت من أهل طرابلس ضد الجنويين، حتى انهم ذهبوا الى القاهرة ليطلبوا من السلطان ان يتفضل بالاستيلاء على طرابلس! ولما كان لا بدّ من مبرر لذلك فقد اتخذ السلطان من اعتداء الصليبيين على المسلمين حجة؛ وجمع قواته وخرج من مصر الى الشام في فبراير 1289. [عاشور جـ2 ص1173].

ومع ذلك فإن الصليبيين تضامنوا في ما بينهم تضامن اللحظات الاخيرة، لحظات الضيق: فقد ارسل اليهم هنري ملك قبرص اخاه عموري، وبصحبته نجدة عاجلة، كما اسرع الاسبتارية– رغم عدائهم الشديد لاهل طرابلس– الى تقديم يد المساعدة. اما عكا فقد اسهمت هي الاخرى في مساعدة طرابلس، وكذلك تناسى الجنويون واهل بيزا واهل البندقية خصوماتهم مؤقتا، وتضامنت سفنهم في حماية طرابلس من ناحية البحر [المرجع نفسه].

وقد استخدم المسلمون 19 آلة حصار وكان معهم (1500) عسكري يعملون في اعمال معمار الهجوم، كما كان هنالك جنود الغام: وقد بدت الصورة في أن المسلمين يمتلكون التفوق العددي كما ان ادوات الحصار التي استعملوها لم يكن من السهل مقاومتها. بينما كان الصليبيون يسيطرون على البحر. [Runciman III p.406].

وعندما سقط برج المطران في الجنوب الشرقي من الجدران البرية وتبعه برج المستشفى بين برج المطران والبحر، اعتقد البنادقة ان الدفاع أصبح أمراً مستحيلاً. وهكذا اسرعوا في تعبئة سفنهم بممتلكاتهم وغادروا الميناء. كما ان الجنويين برئاسة زكريا انسحبوا ايضاً مما اوقع المعسكر المسيحي في الفوضى.

وفي صباح 26 ابريل سنة 1289، أمر السلطان بالهجوم العام. وهنا اندفعت جموع المماليك الى الجدار الجنوبي الشرقي المتهاوي الى داخل المدينة.

وهنا حاول أهل المدينة الذين اصابهم الرعب ان يصلوا الى القوارب في الميناء. وقد تمكنت الكونتيسية لوسيا، ومعها أملرك من قبرص واثنان من مارشالات الفرق المسيحية من الابحار الى قبرص. ولكن قائد فرسان المعبد بطرس مانسادا كان مصيره القتل، وكان معه بارثلميو امبرياكو. وقد تم القضاء على المقاتلين. اما النساء والاطفال فقد سقطوا اسرى.ولقد حاول

عدد من الصليبيين ان يعبروا بواسطة القوارب ذوات المجاديف الى الجزيرة الصغيرة، جزيرة سنت ثوماس، ولكن فرسان المماليك لحقوا بهم في الماء الضحل وقتلوهم الفدا وقد زار المؤرخ ابو الفدا تلك الجزيرة بعد المعركة. ولكنه لم يستطع البقاء فيها « من نتن القتلى»[عاشور،جـ2، ص1175].

وبعد ان تم تدمير مدينة طرابلس القديمة بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة بجوار النهر حول حصن صنجيل في الداخل- بعيداً عن الشاطىء- وذلك خوفاً من تهديد الصليبين.

ولم يلبث الصليبيون ان أخلوْا ماهم من مراكز ومدن في امارة طرابلس مثل بيروت وجبله، فاحتلها المماليك. وهكذا لم يبق للصليبيين من ملكهم في بلاد الشام سوى عاصمتهم عكا، وصيدا وصور وعتليت [المصدر نفسه] وأما بالنسبة لنتائج سقوط طرابلس فإنه كما جاء سقوط حصن المرقب صدمة كبيرة للصليبين في عكا فان سقوط طرابلس جاء صدمة مماثلة لأهل عكا، ومن جديد! فقد كان هؤلاء قد وطدوا انفسهم، في السنوات الاخيرة القليلة، على أنه طالما لم يصدر عنهم سلوك عدواني نحو المسلمين فان السلطان ليس لديه من مانع لاستمرار وجودهم في المدن المسيحية على الشاطىء، ولعله سيهاجم قلاعهم التي تشكل خطراً محتملاً عليه. ولعله سيعارض وجود الفرق الحربية المسيحية الذي كان دورهم هو القتال من اجل عقيدتهم. ولكن التجار واصحاب الدكاكين في الموانيء البحرية لم يكن لهم من دافع- في هذه الفترة- سوى العيش بسلام. وان بارونات المشرق المسيحي ليس لهم- ايضا- من رغبة في حملة صليبية. واما عكا- هكذا تمضي المقولة الصليبية- واخواتها من الموانيء الاخرى فلم تكن سوى مراكز تسهيلات تجارية للمسلمين كما هي للنصارى. وان اهلها قد اثبتوا حسن نيتهم في عدم التحالف مع المغول. كل هذه القناعات كانت تجول في صدور الصليبيين في عكا واخواتها، لكن هذه القناعات تبخرت عندما حصل الهجوم على طرابلس بدون دوافع ظاهرة سوى التحرّر من ايدي الصليبيين. فقد ابرز هذا الهجوم كما كانت حسابات الصليبيين غير صائبة فيما تبقى من المناطق. فقد عرفوا بل تيقنوا انه ينتظرهم نفس المصير الذي لحق بطرابلس وغيرها من قبل [Runciman III p.408].

أسئلة التقويم الذاتي (3)

تتبع وقائع سقوط طرابلس في يد المسلمين من البداية الى النهاية ؟

4.5 الاستيلاء على عكا (1291)

بدأ الاستيلاء على عكا بتحريض من البندقية.. ذلك ان البندقية التي لم تحرك ساكناً عندما استعاد المسلمون طرابلس هي التي تحركت للدفاع عن عكا سنة 1290، فالاستيلاء على عكا من قبل المسلمين يعتبر تهديداً مباشراً لمصالحها. وقد تلقى البنادقة دعم البابا في مشروعهم للدفاع عن عكا فقد منحهم ثلاثة الاف قطعة من الذهب من خزينته الخاصة. وقد وصل هؤلاء البنادقة الى عكا ومعهم عشرون سفينة حربية تحت قيادة ابن دوق البندقية نكولاس تايبولو. ومنذ ان وطئت أقدامهم أرض عكا اثبتوا ان في وجودهم احراجا كبيراً للسلطات. فقد كانوا على جانب كبير من الفوضى الى درجة السكر والعربدة! ولم يكن باستطاعة قوادهم التحكم في سلوكهم سيما وأنهم لم يكونوا يستطيعون دفع رواتبهم بصورة منتظمة. [Runciman III p.410].

فهؤلاء الرعاع من الصليبيني، هم انفسهم الذي اندفعوا بصورة فجائية في شوارع عكا وضواحيها، يذبحون كل مسلم تقع عليه اعينهم، ولما كانوا يظنون ان كل رجل صاحب ذقن هو مسلم، فان كثيرين من المسيحين اصابهم نفس المصير الذي اصاب المسلمين. ولقد اصيب بارونات عكا وفرسانهم بالرعب من جراء سلوك هؤلاء البنادقة، لا سيما وانه كان تربطهم معاهدة بالسلطان قلاون. ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا انقاذ من المسلمين الا النزر القليل. [Runciman III p.410].

وما ان سمع السلطان الاشرف قلاون بخبر المذبحة في عكا حتى انطلق من عاصمته القاهرة، على رأس جيش لانقاذها واستعادتها من الصليبيين، الاّ انه بعد ستة أيام توفي في مرج التين على مقربة خمسة أميال من العاصمة. ولكنه لم يَنْسَ وهو على فراش الموت ان يأخذ العهد على ابنه الاشرف خليل أن يستمر في الحملة.

على هذا فقد بدأ الاشرف خليل استعداداته لحصار عكا. وقد قدّر المؤرخون قواته ومعداته بالعدد الكبير، فقد كان لديه من المنجنيقات الضارية (92) منجنيقا. كما كان لديه (60) الفاً من الفرسان و (160) الفاً من المشاة. وبالمقابل كان لدى الصليبيين ما بين (14) الى(18) الف مقاتل من المشاة بالاضافة الى (700 – 800) فارس (Stevenson p.352) ومن يمعن النظر في عدد قوات الطرفين- وبخاصة بالنسبة للمسلمين- يلاحظ ان العدد كبير بكل المقاييس. ولعلّ هذا التحشيد العظيم كان يتساوق بما لعكا من مكانة عظيمة وبخاصة انها الثغر

الاكبر لدى الصليبيين، وانها لا بدّ من ان تسقط بيد المسلمين بحسب الاستراتيجية المملوكية التي بدأت منذ وقت مبكر مع الظاهر بيبرس.

وبالنسبة لمجريات المعركة فقد شاهدنا ان المسلمين يبدأوا هجومهم بدكّ اسوار المدينة وتحصيناتها بالمنجنيق أو بالأسلحة الثقيلة. فقد وصل السلطان خليل بن قلاون الى عكا في ابريل(1291). ومنذ وصوله بدأ الاشتباك. وفي 15 ابريل قام الداوية بهجوم على معسكر المسلمين. وهنا إما أنه قبض على هؤلاء المهاجمين أو انهم صدوا الى الخلف، وكانت خسائرهم جسيمة. وكذلك كان مصير الهجوم الذي قام به فرسان الاسبتارية فقد فشل فشلاً تاما. [Runciman III p.416].

ويظهر ان المسلمين بضرباتهم الموجعة احدثوا شرخاً في تحصينات المدينة مكنهم من دخولها. ولكنهم لم يلبثوا ان صُدّوا بواسطة هجوم يقوده قائد فرسان الاسبتارية، وعلى هذا تراجعوا خارج المدينة. ولكنهم سرعان ما استداروا لكي يقوموا بهجومهم النهائي في 18 مايو. وهنا بدأ قتال عظيم، نترك لرونسيمان تصوير بعض أبعاده : فقد شمل هذا الهجوم كل المسافة على طول السور من بوابة القديس انطونيو الى برج البطريرك بالقرب من الخليج. وقد انصب جهد المسلمين اكثر ما انصب على ما يسمى البرج الملعون على زاوية المدينة. وقد ألقى السلطان بكل إمكاناته في المعركة. فقد استمرت منجنيقاته بالقذف المتواصل. وقد تساقطت سهامه بكتل ثابتة في المدينة، وكانت كتيبة وراء اخرى تندفع لِتَدُكّ دفاعات العدو يقودها الامراء ذوو العمائم البيضاء. وكانت الضوضاء عارمة. فقد كان المهاجمون يصرخون صرخات الحرب. بينما كانت الطبول والصنوج المكونه من (300) ضارب على ظهور الجمال يحثونهم على الهجوم.

ويضيف رونسيمان الى ذلك قوله: كان هناك قتال عنيف في الشوارع. ولم يعد هناك من وسيلة لانقاذ عكا. وقد جرح في هذه المعركة وليم بيجو، زعيم الداوية. وقد حمله أتباعه الى بناء الداوية، حيث توفي. وقد كان معه ماثيو كليرمونت، الذي رجع الى المعركة والى حتفه معا. اما زعيم الاسبتارية فقد جرح أيضا، ولكن رجاله احضروه الى الميناء ووضعوه على ظهر سفينة وكان الملك الشاب هنري، ملك قبرص وعكا، واخوه املرك قد فرا من القتال. وقد اتُّهم الملك هنري، فيما بعد، بالجبن والخور، لانه ترك المدينة. ولكن رونسيمان يرفع اللائمة عنه عندما يلتمس له عذرا وبانه لم يكن بامكانه ان يفعل اكثر مما كان، وان واجب مملكته عليه كان بأن يتجنب السقوط في يد خصومه.(Runciman III p.418).

والواقع ان كثيرين من المدافعين عن عكا وقد وجدوا انفسهم بين نارين! المسلمين في الداخل والبحر من الخارج، فحاولوا الفرار ولكن السفن لم تكن تكفي لاستيعابهم. وهنا وقع العدد الاكبر منهم اسرى في يد المسلمين. والواقع ايضا ان عدد الأسرى غير معروف بالضبط. لكن هبوط ثمن الجارية الى درهم يعطينا فكرة عن عدد هؤلاء الاسرى والاسيرات!

ويحدثنا رونسيهان نفسه وهو يأسف لمصير عكا! ان الداوية شوهدوا فيها بعد في القاهرة وهم يعيشون حياة قذرة وان اناساً آخرين من الداوية شوهدوا وهم يقطعون الحطب بالقرب من البحر الميت. كما يحدثناان بعض هؤلاء الاسرى رجعوا الى اوروبا بعد (9–10) سنوات من الاسر (Runciman III p.419).

اما المدينة نفسها، كبنيان، أو معمار فقد خضعت الى عملية تدمير مقصودة أو هادفة. وذلك حتى لا تتحول موطىء قدم أو رأس حرب للصليبيين في اي معركة قادمة. فقد قام السلطان بهدم تحصينات فرسان الداوية والبروج المحصنة الاخرى، وتركت اسوار المدينة لتتآكل من تلقاء ذاتها.

جدير بنا، هنا عزيزي القارئ، ان نذكر ان سقوط عكا في يد المسلمين قرّر مصير المدن الباقية على الساحل من طرطوس الى عتليت.

اما صور فقد كانت تخضع للأميرة مارجريت، التي سلمتها الى ابن اخيها املرك، أخي الملك، ولكن حاميتها كانت صغيرة. وعند اقتراب المسلمين منها تخلى قائدها عنها، مبحراً الى قبرص، ومسلماً المدينة بدون اي قتال في 18 مايو سنة 1291.

اما في صيدا، فقد اسرع تيبالد، حاكمها، بالابحار الى قبرص من أجل ان يجمع الكتائب لإنقاذها. ولكنه ما ان وصل مأمنه، حتى نسي أو تناسى مصير صيدا، اما خوفاً وإما يأساً. ولقد قاتل الداوية بشجاعة عن قلعة صيدا، ولكن عندما قام مهندسوالمماليك ببناء ممر عبر البحر الى المدينة، كان الأمل في انقاذها قد فارقهم وسارعوا الى الابحار الى طرسوس وفي 14 يوليو سنة 1291 دخل الشجاعي (أحد قادة الاشرف خليل ابن قلاون) الحصن وأمر بتدميره. [Runciman III P.421] وبعد اسبوع من سقوط صيدا، ظهر شجاعي أمام بيروت وكان أهلها قد خالطهم الأمل بأن الاتفاقية المعقودة بينهم وبين السلطان سوف تحميهم من الهجوم. وعندما طلب السلطان من قادة الحصن القدوم اليه لتقديم فروض الطاعة والاحترام كان

مصيرهم الأسر. وما ان شعر حماة الحصن باختفاء قادتهم عن مسرح الدفاع، حتى فرّوا هم انفسهم وهكذا دخل المماليك المدينة في 31 يوليه 1291. وكما كان مصير المدن السابقة فقد دمرّت جدران الحصن. [نفس المصدر]، كذلك احتل المماليك حيفا وهدموها.

لقد كانت مدينة طرابلس، هي آخر المدن التي استولى عليها المماليك، فقد احتلت انطرسوس في 3 أغسطس والمدن الأخرى تقريبا في نفس الوقت. اما حصن الداوية في عتليت والذي تم هجره في مايو، فقد دمر هو ايضا في منتصف اغسطس [Stevenson p.354].

ولقد استمرت قوات السلطان في التجول صعوداً وهبوطاً على ارض الساحل وهم يدمرون اي شيء قد تكون له أهمية أو فائدة للفرنجة، يمكن ان يساعدهم في اي عملية انزال على الشاطىء فيما يعرف اليوم بسياسة الارض المحروقة.

غاية الأمر ان دولة الصليبيين قد دالت في الشام. وانتهى- كما يقول عاشور- امر تلك الجموع من الغزاة الغربيين الى حيث لا رجعة، وعادت بلاد الشام من قيليقية شمالاً حتى غزة والحدود المصرية جنوبا لا يقطنها الا ابناؤها الحقيقيون، ولا يتمتع بمائها وهوائها وخيراتها الا أهلها الاصليون [عاشور جـ2 ص1183].

وستظل، نساء قبرص، وحتى قرن سيأتي، عندما يخرجن من بيوتهن يرتدين معاطف سوداء. وكان هذا رمزاً الى الحزن والنحيب لموت الشرق الصليبي[Runciman III p.423].

أسئلة التقويم الذاتي (4)

ما هي نتائج سقوط عكا على الصليبيين ؟

4.6 استمرار الحروب بين المماليك وبقايا الصليبيين في أرمينية وقبرص ورودس

كان العداء بين المماليك والأرمن، في حقيقة الأمر، حلقة في سلسلة الصراع بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية زمن الحروب الصليبية. لذلك لم يكن أحد يتوقع ان ينتهي هذا الصراع بين الطرفين الا بانتهاء الحروب الصليبية نفسها على كافة الاصعدة وفي مختلف المواقع.

على هذا فإن الحروب الصليبية، في خواتيمها، شهدت هجوم السلطان المنصور قلاون على

اياس سنة 1283 حيث تمكن من انزال الهزيمة بالارمن. ويبدو أن الامور استقرت الامور بين الطرفين المملوكي والارمني، على ان يدفع الطرف الارمني الجزية للماليك، على ان هذه الجزية قطعت في عهد السلطان الاشرف خليل بطل عكا. الذي لم يتوان بعد انتصاره العظيم في عكا في ان يكتب لهيثوم الثاني ملك الارمن يخبره بفتح عكا ويطلب اليه ان يعتبر بما اصاب عكا والا كان جزاؤه الندم حيث لا ينفع الندم. [عاشور جـ2 ص1216].

أتبع السلطان الاشرف خليل رسالته حملةً الى بلاد الارمن لاستعادة بهنسى، وهنا انتهى الأمر باستيلاء المماليك ليس على بهنسى فقط وانما على مرعش وتل حمدون [ابن كثير البداية والنهاية جـ13 ص332] وعندما تخلى الارمن عن عهدهم، وحاولوا استرجاع بعض البلدان من المماليك ارسل هؤلاء بحملة هاجمت مدينة سيس واستولت على تل حمدون من جديد.

وقد تابع السلاطين المماليك سياسة الهجوم على الأرمن، فالسلطان الناصر محمد أرسل حملة على ارمينية الصغرى بقيادة الامير بكتاش الفخري سنة 1301. ثم هاجمت تلك الحملة سيس وخربتها.

تصاعد رد فعل الارمن ضد المماليك، بان لجأ الارمن الى الانضمام الى المغول في حملتهم على بلاد الشام (1303) مما اضطر السلطان الناصر محمد ان يوجه حملة كبرى ضد ارمينية الصغرى (1304) عقب فراغه من امر المغول. وفي تلك الحملة دخل المماليك سيس كما استولوا على قلعة تل حمدون، ثم عادوا يسوقون عدداً كبيرا من الاسرى وقدراً ضخماً من الغنائم. [المرجع نفسه].

وبنتيجة الضغط المملوكي سقطت دولة أرمينية وانتهى وجودها السياسي: هذه الدولة التي طالما ساندت الصليبيين وهددت المسلمين بالشام واطراف العراق وآسيا الصغرى. وكما قلنا في البداية فاننا بختم النهاية بالقول ان سرّ وجود مملكة ارمينيا ارتبط بظهور الصليبيين على مسرح الاحداث في المنطقة. وعلى هذا فانه ما ان آذنت هذه الحروب بالانتهاء وَقُضِيَ على الممالك والامارات الصليبية في القدس وساحل فلسطين والشام، وانتهى الهجوم الصليبِي على مصر بالفشل، حتى لم يعد للامارات والممالك الحليفة مثل ارمينية الصغرى مجال استراتيجي للحياة والوجود. فسقوط مملكة أرمينية ليس الاّ فصلا من الفصول الختامية في قصة الحروب الصليبية. فلقد عاشت هذه المملكة وتصاعدت قوتها ما دام الوجود الصليبي موجوداً كرافعة لها، فعندما اضمحل هذا الوجود اضمحلت هذه المملكة، وبالفعل فقد انتهى امرها نهائيا سنة 1374 بان اصبحت جزءاً من نيابة حلب التابعة لسلطنة المماليك في مصر والشام.

أسئلة التقويم الذاتي (5)

تحدث عن هجوم بطرس لوزجنان على الاسكندرية ؟

4.6.1 المماليك وقبرص

شاهدنا اثناء الهجوم المملوكي على عكا فرار الملك هنري الثاني بفرسانه الى قبرص، التي اصبحت منذ ذلك الوقت قلعة الصليبيين المتقدمة نحو الشرق (ماجد ص207).

وعندما تولى الملك بطرس الأول لوزجنان مملكة قبرص سنة 1359 والذي كان في جرأته ومغامرته نموذجا لفرسان العصور الوسطى، فانه صمم ان يضع جهوده كلها، وان يكرسها جميعها لخدمة القضية الصليبية والدفاع عن المسيحية في وجه الاسلام. وعلى هذا فانه لم يقنع بالقيام بمشروع صغير ضد المسلمين.. مشروع تكتيكي ان صح القول، وانما قصد الى مشروع كبير، مشروع استراتيجي يتمثل بحملة صليبية كاملة يؤثر فيها تأثيرا كبيرا على وضع الاشياء في المنطقة ويطعن المسلمين بها طعنة نجلاء [عاشور جـ2 ص1223].

ومن اجل الاستعداد الكامل لمثل هذه الحملة لجأ بطرس الى مستودع المال والرجال للحملات الصليبية دائما ونعني به دول اوروبا الغربية. وبالفعل فقد قام بطرس بجولة استمرت ثلاث سنوات، لاقناع ملوك أوروبا بتجهيز حملة صليبية ولكن هذه الدعوة بل هذه الجولة لم تتمخض عن الكثير. ويبدو ان البابا- وحده- هو الذي أظهر له التأييد، فتجمع له عدد كبير من فرسان الصليبيين، حيث تألفت في ذلك الوقت جماعة فرسان السيف. ويبدو ان بطرس شأنه شأن المتأخرين من قادة الحروب الصليبية مثل حنا بريين ولويس التاسع وجد أن التناقض الرئيسي في مصر. وان من أراد انقاذ بيت المقدس فلا بد له ان يضمن تحييد مصر. ولهذا فانه ما ان عاد بطرس من اوروبا واتخذ قاعدة تجمع في رودس، حتى اخذ يفكر في ان تكون الضربة القاضية والطعنة القاتلة في ارض مصر. وهنا اشار عليه خاصته ان يكون الهجوم على الاسكندرية يوم جمعة والمسلمون في المساجد. وقد لَقِيَ هذا الرأي اذنا صاغية من بطرس الذي ابحر على رأس حملة من رودس 28 سنتمبر (1365). ليصل الى الاسكندرية في 9 اكتوبر.

والظاهر ان توقيت هذه الحملة جاء مناسبا للصليبيين وذلك ان المماليك لم يكونوا في احسن أوضاعهم، فقد انشغل هؤلاء بمنازعاتهم الداخلية. وكان يتولى سلطنة مصر آنذاك سلطان صغير اسمه شعبان ووصيه يلبغا الخاصكي. فوصل بطرس الى ثغر الاسكندرية في

سبعين مركبا مشحونة بالمقاتلة ولم يأخذ بطرس سوى ساعتين لاقتحام اسوارها وهنا جرى للاسكندرية ما جرى لمدن الاسلام التي نذكر اقتحامها جيداً مثل دمياط وغيرها فقد انتشر الصليبيون في ارجاء الاسكندرية. واستولى الذعر على أهلها وفرّوا تاركين المدينة بما فيها للفرنج، حتى ضاقت على الفارين لكثرتهم فهلك منهم مئات من شدة الزحام. ومما زاد في اثر الكرب والمصيبة ان العربان تحولوا في المدينة كما هو شأن الصليبيين الى النهب والسلب فوقع الاسكندريون بين نارين العربان والصليبيين.

وحينما دخل بطرس نفسه الى الاسكندرية تسلّم الناس بالسيف. ولم يترك رجاله شيئاً من بشاعة السلوك البربري الوحشي الا وقاموا بممارسته فقد نهبوا الحوانيت والفنادق، واحرقوا القصور والخانات، واعتدوا على النساء والبنات، وخربوا الجوامع والمساجد، وقتلوا كل من صادفوه في الشوارع والبيوت. وقد بلغ من وحشية الصليبيين انهم كانوا يقتلون المرأة بعد ان يذبحوا ابنها على صدرها [عاشور جـ2 ص1225]. وقد قام الفرنجة من أهل الثغر بدور الدليل أو الطابور الخامس لهؤلاء الصليبيين فدلوهم على الخبايا واماكن المكنونات فنهبوها.

وقد كان من رأى بطرس الاستمرار في الغزو، ولكن اغلب مستشاريه اقروا العودة، وذلك لانهم سمعوا بان الأمير يلبغا الخاصكي يعد جيشا في القاهرة. وبالفعل فقد وصل الجيش المملوكي من الطريق الصحراوي، ومراكب الفرنجة على وشك الاقلاع وبعد ان أخذ الفرنجة نحو خمسة الاف أسير من الثغر. وقال المؤرخون العرب عن هذا الملك: انه جاء لصا وخرج لصا. [ماجد ص209].

اما رد الفعل المملوكي ضد قبرص فقد بدأ جديا عقب جلاء بطرس عن الاسكندرية سنة 1365، اذ أمر يلبغا الخاصكي ببناء المراكب والسفن، كما ارسل الى الشام يأمر بتشغيل كل من يعرف يمسك منشاراً في قطع الاخشاب وبناء السفن من أجل غزو قبرص.

والواقع أن الانتقام الاكبر لما أصاب الاسكندرية تأخر الى عهد المماليك الجراكسه. حيث قام برسباي، وهو من المماليك الجراكسة بارسال ثلاث حملات لغزو قبرص :

- الاولى: وتسمى بالغزوة الصغرى، وكان قصدها الاستكشاف عام (1424) وقد اغارت على ميناء ليماسول واحرقت عدة سفن للقبارصة، ثم عادت الى مصر بعد شهرين ومعها عدد كبير من الاسرى، وقدر ضخم من الغنائم.

- الثانية: وقد كانت اكبر من الاولى، فقد جمع لها عدد كبير من المماليك، وانضمت اليها مراكب من بيروت. وكان سير الحملة من طرابلس حيث اتجهت الى فاماجوستا، ومن ثم رست سفنها قرب فاماجوستا، مما حدا صاحب فاماجوستا الى ارسال سفارة الى المسلمين لطلب الأمان واخبارهم بدخوله في طاعتهم، ويقول انه مملوك السلطان وان المدينة مدينته، فاعطاه المسلمون امانا بعد ان رفع الراية السلطانية على قلعة المدينة. وخلال الأيام الاربعة التي مكثها المسلمون في منطقة فاماجوستا شنوا الغارات على الضِّيَع المجاورة واوسعوها نهبا وتحريقا، ثم اقلعوا بعد ذلك الى ناحية الملاحة، حيث دارت معركة بين المسلمين والقبارصة، قتل فيها كثير من الفرنج بعد ان حلت بهم الهزائم، ثم نهبت ليماسول من جديد. ولكن ارسال نجدة الى الجزيرة من البندقية، جعلت الحملة تنسحب، ومعها اسرى كثيرون. ولما وصلت الى القاهرة، في 9 سبتمبر تم استعراض الاسرى والغنائم. [عاشور، جـ2، ص1229، ماجد ص211].

- اما الحملة الثالثة: فقد نبعت من كون السلطان برسباي لم يقنع من ان الحملتين السابقتين قد قامتا بعمل جذري على ساحة الصراع، بل اكتفتا بالنهب والسلب والعودة ببعض الاسرى وبعض اكوام من الغنائم. ولو كان برسباي يبغي ذلك لا نطبق عليه ما قاله النويري على بطرس لوزجنان؛ من «انه فعل فعل اللصوص لا الملوك، لان الملوك اذا ملكوا بلداً صمدوا فيه ودافعوا عنه». على هذا فقد اكتسبت هذه الحملة (الثالثة) برسباي طابع الجهاد، وتجمعت جموعا كبيرة من المجاهدين في بولاق، واشتدت رغبة الناس في الجهاد، حتى اضطر السلطان الى الاعتذار بان السفن لم يعد فيها متسع لاحد [ماجد ص221]. ولقد تطوع لها عدد كبير من أهل مصر والشام، فنزلت الحملة في ليماسول، واستولت على قلعتها. وبعد ذلك انتشرت في داخل البلاد، حيث استعد جانوس ملك قبرص لمنازلتهم في خمسة الآف فارس وسبعة الآف راجل. وهنا هزم المسلمون القبارصة. وحاول جانوس ان يهرب، ولكنه ارتبك وسقط عن فرسه، فهمّ احد المسلمين بقتله، الا انه صاح بالعربية: «انا الملك» فاكتفى بأسره، واودع احد المراكب الاسلامية [ماجد ص211]. وبعدها اتجه المسلمون الى نيقوسيا عاصمة الجزيرة، وكان فيها اخو الملك، فاستولوا عليها في (1426). وبذلك اصبحت قبرص جزءاً من دولة المماليك.

واخيرا عاد المسلمون الى مصر ومعهم أكثر من ثلاثة الآف أسير على رأسهم، ملك قبرص جانوس نفسه فوصلوا القاهرة في 13 اغسطس وشقوا المدينة في موكب حافل، وفي ذيل الاسرى سار الملك جانوس ممتطيا بغلاً أعرج. حيث انتهى الى الدخول على السلطان فَقَبَّل الارض وهو جاسِرَ الرأس، ثم سجن في احد ابراج القلعة (عاشور جـ2 ص1231).

وكان لا بدّ من محادثات كثيرة بين ملوك أوروبا وبرسباي، لفك أسر جانوس. فتدخل قناصل الفرنجة، ودفعوا دية للملك مائتي الف دينار، على شرط ان يكون نائبا عن السلطان في الجزيرة، ويدفع الجزية، وبفضل هذا الانتصار، حكم المماليك قبرص مباشرة، وتدخلوا في شؤون الاسرة الحاكمة فيها، اكثر من خمسين عاما.

واذ كان نفوذ البنادقة قد امتد الى قبرص سنة 1471 حتى آلت الجزيرة اليهم فعلاً سنة 1489 . فقد حرصت البندقية على مسايرة السلاطين المماليك وعدم استفزازهم، وعلى هذا فقد استمرت في دفع الجزية المفروضة على قبرص وارسالها الى القاهرة حتى سنة 1517، اي حتى استيلاء العثمانين على مصر وعندئذ حولت البندقية الجزية الى السلطان العثماني.

4.6.2 المماليك ورودس

وهكذا رأينا من خلال الصفحات السابقة انه تم للمماليك اخضاع ارمينية الصغرى سنة 1374، كما تم اخضاع قبرص سنة 1426. وعلى هذا فلم يبق عليهم سوى اخضاع رودس دولة الاسبتارية.

وكان الاسبتارية قد اتخذوا من رودس قاعدة للقرصنة ضد المسلمين فكانوا يهاجمون سواحلهم شتاء وصيفا، ويأتون باسرى المسلمين اليها لبيعهم [ماجد ص213].

وقد كان الاسبتارية من بين من ساعد في الحملة على الاسكندرية سنة 1365 كما ان رودس اتخذت قاعدة للتجمع كما مرّ معنا. الاّ ان سقوط قبرص (1426) كان من المتوقع ان يؤذن بقرب دور رودس.. لكن رودس لم تسقط مباشرة في يد المسلمين. بل انها- على العكس- تحولت الى قاعدة فعليه للهجوم على مصر. ومن ذلك ان اربع سفن للصليبيين دخلت فرع رشيد سنة 1439، وبعد ان نهبت ودمرت عادت ادراجها؛ ولم يُفِد برسباي من نصره في قبرص ليهاجم رودس ايضا، الا أن جقمق غزاها من قبرص عدة مرّات. ولكن يبدو ان جقمق لم يحرز نصراً كبيرا ضد رودس، فقد صدّ صاحبها حملات المماليك. ويظهر ان فرسان الجزيرة، بعد ان اطمأنوا الى ان المماليك لن يعودوا لغزو جزيرتهم، طلبوا الصلح الذي وافق المماليك على منحهم اياه [ماجد ص214].

ونختم العلاقة بين المماليك ورودس بالقول عزيزي القارئ بأن العلاقة بينهما ظلت تتأرجح بقية القرن، لا سيما وان دولة المماليك دخلت مرحلة خريف العمر الامر الذي ادى إلى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، فهي لا تقوى على الانتقام. وكان ردّ السلطان الغوري على

اعتداء الاسبتارية على سفنه سنة 1510 هو ان القى القبض على جميع رجال الدين من القدس والفرنجة في الاسكندرية ودمياط، واغلق كنيسة القيامة سنة 1511 ولم يلبث العثمانيون ان التهموا دولة المماليك سنة 1517، ثم التهموا جزيرة رودس نفسها سنة 1522 م.

5. استمرار الروح الصليبية في الغرب

عمل المسلمون على نقل الحروب الصليبية الى أوروبا ذاتها، فقد تجاوز العثمانيون القسطنطينية في آسيا الصغرى، وتوسعوا في اوروبا وحاربوا البلغار وهزموهم قرب درنة. كما هزموا الصرب، وسيطروا على جزء كبير من النمسا ودقوا ابواب فينا، وهددوا هنغاريا التي استغاثت بأوروبا وكان هدف فرنجة اوريا منذ ظهور العثمانيين هو حفظ وسط اوربا منهم، فقاموا ضدهم بحملات عرفت بالحملات الصليبية المتأخرة. وفي هذا المجال تحركت حملة قوية، اشترك فيها فرسان من برغنديا وفرنسا وانجلترا والمانيا وايطاليا وبولونيا وهنغاريا، وهدفت ليس الى طرد العثمانين فقط من أوروبا وانما الوصول الى بيت المقدس، حيث مهدّ لهذه الحملة البابا بونيفاس التاسع (1404 -1389) وتقدم الجميع نحو بلدة نيكه بول، المسماة ايضا: نيكوبولس في شمال بلغاريا على الدانوب، بقيادة حنا النقاري من برغنديا، الذي اصبح يعرف بحنا الشجاع بسبب اقدامه، ومعه ملك هنغاريا سيجسمند. فدارت معركة شديدة في 25 سبتمبر سنة 1396، انتصر فيها الترك بقيادة بايزيد، واسر قائد الحملة، وعدداً كبيراً من الفرسان، وهرب ملك هنغاريا.

وقد قدّرت أوروبا عودة القوة العثمانية الفتية، التي تمكنت من الاستيلاء على القسطنطينية آخر معاقل البيزنطية في يوم الثلاثاء يونيو 1453.وأمام قوة العثمانين المسيطرة وطاقتهم المتدفقة، ذهبت عبثاً محاولات البابويه في الدعوة الى حملات جديدة.

وقد اشرنا سابقا الى استيلاء العثمانيين على جزر البحر المتوسط: قبرص التي استولى عليها سليم الثاني (1570)، ورودس التي حاصرها العثمانيون في عهد سليمان الثاني في عام 1522، وكريت التي كانت للبندقية منذ قيام الدولة اللاتينية الى ان استولى عليها الاتراك العثمانيون في عام 1667. [ماجد ص217].

غاية الأمر ان الفرنجة، بعد هزيمتهم في الشرق، فشلوا في الاحتفاظ ببلادهم أمام تجدد قوة المسلمين على يد دولة الترك العثمانيين...

من كل هذا يتبين لنا ان الصليبيين، الذين اتخذوا الدين ستاراً لمطامعهم الاستعمارية، فشلوا بسبب مقاومة المسلمين الشديدة لهم. وقد اتضح أن انتصار المسلمين عليهم في كل مرّة راجع على الخصوص الى اتحادهم، ولا سيما اتحاد مصر والشام. والملاحظ ان مصر شاركت في الجزء الاكبر من الصراع مع الصليبين وذلك بفضل مواردها ومثابرتها. ولا ريب، فان الحروب

الصليبية هي المظهر المبكر لماعرف بالمسألة الشرقية، وهو صراع انتهى بفشل الغرب فشلاً ذريعا، وغزوه في عقر داره.

تدريب (1)

1. لماذا اعتبرت معركة استعادة عكا من كبريات المعارك الاسلامية الصليبية؟ بين وقائع هذه المعركة ؟

تدريب (2)

2. بيّن بإيجاز دور خليل قلاون في تصفية الحصون الصليبية ؟

تدريب (3)

3. ماذا تعرف عن الملك بطرس لوزجنان.. قيّم محاولاته في الهجوم على مصر وماذا كانت نتيجتها ؟

6. الخلاصة

عالجنا في هذه الوحدة، عزيزي القارئ، موضوع تحالف المسيحيين الشرقيين (الأرمن) مع المغول وإستنتجنا ان الارمن اعتبروا المغول رسل العناية الآلهية لحماية المسيحية. بل لقد اعتبر الارمن الغزو المغولي بمثابة حملة صليبية جديدة.

ولكن لماذا وقف المسيحيون الغربيون موقفا سلبيا من المغول؟ والاجابة عن هذا السؤال ليست سهلة التفسير.ولعل عدم فهم المسيحيين الغربيين لدور المغول وقيمتهم الاستراتيجية سبب رئيس في هذا.

ثم عالجنا موقعة عين جالوت (1260م) وهي معركة فاصلة ونتائجها عظيمة الاثر. فهي التي انقذت مصر والشام والا لكانت البلاد الاسلامية قد مرّت بفترة حالكة.

ثم اكدنا على ان الجبهة الصليبية كانت جبهة ضعيفة. ويمكن ان نعزو ضعفها الى ما يلي:

الحروب الأهلية وفقدان القيادة وان هناك -ايضا- ظروفا استجدت في الغرب منعته ان يلتفت إلى الشرق.

ومع هذا الضعف توفرت النية القوية لتصفية بقية الوجود الصليبي على الارض الاسلامية. وهنا يبرزه اول ما يبرز، دور بيبرس الذي تمكن من استعادة قيسارية (1265) ويافا وعتليت وارسوف التي دافع عنها الاسبتارية بقوة، وصفد. ولكن تتويج حرب الاستعادة للظاهر بيبرس انما كان في استرجاع انطاكية. هذه المدينة العظيمة التي اعتبر استرجاعها دليلاً جديداً على انهيار ذلك البناء الضخم الذي اقامه الصليبيون في الشام.وآخر ما قام به الظاهر بيبرس اقتحام حصن الاكراد، وقد انتقل الظاهر بيبرس الى ربه عام 1277.

بعد بيبرس تولت السلطة اسرة قلاون. وكان اول صراع لقلاون مع الصليبيين على حصن المرقب وهو أهم الحصون الصليبية وكان سقوطه انذاراً بسقوط الكيان الصليبي في المنطقة.

هنا أحس الصليبيون بالاسف لانهم لم يتحالفوا مع المغول. ومهما يكن من أمر فقد استولى قائد قلاون طرنطاي على اللاذقية (1287). كما تم الاستيلاء على طرابلس سنة

1288/ 1289.. وقد استخدم المسلمون (19) آلة حصار في اقتحام طرابلس. وكان سقوط طرابلس ذا أثر خطير على الصليبيين بحيث ان كل صليبي أصبح يتحسس رأسه!

ويشعر بان دوره قادم لا محالة!

بعد هذه المدن التي تساقطت واحدة تِلْوَ الاخرى، جرى الاستيلاء على عكا حاضرة حواضر الصليبيين، وعاصمة المملكة الصليبية. وقد كان البنادقة هم السبب في نكبة عكا! هؤلاء الرعاع هم الذين اندفعوا في شوارع عكا وضواحيها يذبحون كل مسلم. وهنا هب السلطان الاشرف قلاون لنجدة المسلمين واستعادة عكا من الصليبيين، الاّ انه توفي في الطريق بعد ان أخذ العهد على ابنه الاشرف خليل، ان يستمر في الحملة.

وقد كان الاشرف خليل محل الوصية، فاستعد اتم الاستعداد لفتح عكا. استعداداً كبيرا وعظيما. ومثل ذلك أو قريب منه كان استعداد الصليبيين في عكا نفسها.

وقد بدأ المسلمون هجومهم بدك اسوار المدينة. وعندما حاول الصليبيون القيام بهجوم مضاد، فشلت محاولاتهم. وفي يوم 18 مايو سنة 1291 بدأ الهجوم النهائي، ووقعت في شوارع عكا معارك عنيفة، لم يملك معه الصليبيون الا ان يلجأوا الى الفرار بما تيسر من السفن. وكان من بين الفارين الملك هنري ملك قبرص وعكا.

ومهما يكن من أمر، فقد وصلنا الى نتيجة ان سقوط عكا في يد المسلمين قرر مصير المدن الباقية على الساحل من طرسوس الى عتليت. ومن بين هؤلاء صيدا وبيروت وعتليت.

وخلاصة الأمر ان دولة الصليبيين قد دالت في الشام وانتهى امر تلك الجموع من الغزاة الصليبيين الى حيث لا رجعة.

عالجنا بعد ذلك موضوع استمرار الحروب بين المماليك وبقايا الصليبيين في ارمينيا وقبرص ورودس.

فالبنسبة لارمينيا اشرنا الى هجوم المنصور قلاون على اياس سنة 1282 حيث انزل هزيمة بالارمن. وكان السلطان الاشرف خليل قد استولى على بهنسي ومرعش وقلعة تل حمدون. كما قام المماليك بهجوم سنة 1304 دخلوا فيه سيس وقلعة تل حمدون.

واما بالنسبة لقبرص فقد كان الملك بطرس لوزجنان يخطط لحملة على صليبيي المشرق يطعن بها المسلمين طعنة نجلاء. ومن أجل هذا قام بجولة في أوروبا لاقناع ملوكها بتجهيز حملة صليبية جديدة. لكن هنا الجولة لم تتمخض عن كثير.

ومهما يكن من امر، فقد اختار بطرس لوزجنان ارض مصر باعتبارها مركز الثقل الاستراتيجي لعالم الاسلام، لكي يجعلها نقطة انزال، وبالذات مدينة الاسكندرية. فقد ابحر

من رودس سنة 1365. وقد تمكن بعد الوصول الى الاسكندرية من اقتحامها في مدى ساعتين. وهنا تعرضت الاسكندرية لعملية سلب ونهب، رافقها احراق واعتداء على النساء والبنات وتخريب الجوامع والمساجد.

لكن لوزجنان لم يكن يملك القوة ولا الشجاعة على الاستقرار والاستمرار في الاسكندرية أو مصر. ولذلك فقد انسحب، وقال عنه المؤرخون: جاء لصا وخرج لصاً.

تأجل الانتقام لغزو الاسكندرية، لعهد المماليك الجراكسة. حيث قام برسباي بثلاث حملات على قبرص: الاولى للاستكشاف، والثانية توجهت نحو فاماجوستا، حيث طلب حاكمها الامان، والثالثة هي التي اكتسبت طابع الجهاد الحقيقي حيث نزلت في ليماسول. ومن ثم توجهت نحو الداخل. واشتبكت مع جانوس ملك قبرص. وأسرته ثم اتجهت الى نيقوسيا فاستولت عليها سنة 1426. ومن هناك عادت الحملة ومعها جانوس الملك اسيرا، حيث انتهى سجينا في سجن القلعة. وفي سنة 1489 آلت الجزيرة الى البنادقة.

بعد ارمينيا وقبرص عالجنا موضوع الصراع الاسلامي مع رودس. التي كانت تخضع للاسبتارية. بحيث اصبحت قاعدة فعلية للهجوم على مصر. لكن الاسبتارية لجأوا الى طلب الصلح من المماليك وحصلوا عليه. وبعد سقوط المماليك تحت الحكم العثماني. كان مصير رودس مشابهاً حيث دخلت تحت الحكم العثماني سنة 1522.

وختمنا بالقول ان بروز قوة العثمانية أوقف اي محاولات للصليبيين لغزو صليبي جديد لعالم الاسلام. وغاية الامر وخلاصته ان الفرنجة بعد هزيمتهم في الشرق، فشلوا في الاحتفاظ ببلادهم امام تجدد قوة المسلمين على يد دولة الترك العثمانيين.

7. لمحة مسبقة عن الوحدة السابعة

سنعالج في هذه الوحدة آثار الحروب الصليبية على الجبهتين: الجبهة الاسلامية، والجبهة الاوربية. ففي الجبهة الاولى تحول المسلمون من حالة التفكك والضعف الى حالة القوة والوحدة وكان هذا من الناحية السياسية.

أما من الناحية الاقتصادية فقد حصلت حركة تجارية غنية بين الشرق والغرب. وذهبت

حاصلات الشرق الاسلامي الغنية والمنوعة والمتميزة الى الغرب.

واما من الناحية الاجتماعية فقد ساد المجتمع الاسلامي في عهد المماليك حالة من البذخ والرفاهية شوهدت في اللباس والعمران وغير ذلك.

كما اننا سنعالج - في الوحدة السابعة- آثار الحروب الصليبية على الغرب الاوربي فنجد انهيار الاقطاع، وسيادة حالة من النهضة كما تأثر الصليبيون تأثراً كبيرا بالفن الحربي الاسلامي.

اما من الناحية الزراعية فقد تأثر الصليبيون من ناحيتين انعكستا على المجتمع الاوربي: الفن الزراعي وبخاصة الري، واستنبات ثمار معينة.

وستتحدث عن البعد الاقتصادي: فنجد حدوث تطورات في نظام الضرائب كما سنجد انتعاش المدن التجارية الايطالية وغيرها؛ كما سنجد افول النظام الاقطاعي.

واخيرا من الناحية الدينية.. فنجد تفوق دور البابوية الذي بلغ اقصاه بعد الحملة الصليبية الاولى وستستمر البابوية في عملية التحشيد من اجل الحروب الصليبية طوال الوقت.

8. إجابات التدريبات

تدريب (1)

اجل تعتبر معركة استعادة عكا من كبريات المعارك الاسلامية الصليبية. وسنذكر ادناه ما يؤيد ذلك :

السبب المباشر في هذه المعركة هو تدخل البنادقة في عكا، هؤلاء البنادقة الذين كانوا على شيء كبير من الفوضى. فهم الذين اندفعوا في الشوارع يقتلون كل صاحب ذقن لظنهم انه مسلم. ولما كان كثير من المسيحيين على نفس الوضع فقد اصابهم نفس المصير.

وما ان سمع السلطان اشرف قلاون بخبر المذبحة في عكا، حتى انطلق لانجاد عكا الآ انه توفي في الطريق. لكنه لم ينس وهو على فراش الموت ان يأخذ العهد على ابنه الاشرف خليل ان يستمر في الحملة وينقذ عكا.

سارت مجريات الاستيلاء على عكا بموجب الخطوات التالية :

1. الاستعداد والتحشيد: (92) منجنيقا، 60 الف من الفرسان و (160) الفاً من المشاة.

وبالمقابل كان لدى الصليبيين ما بين 18 - 14 ألف مقاتل من المشاة بالاضافة الى 700 - 800 فارس. ولعلّ هذا التحشيد يتفق مع ما كان لعكا من مكانة عظيمة.

2. بدأ المسلمون معركتهم بدك اسوار المدينة وتحصيناتها بالمنجنيق وبالأسلحة الثقيلة.

3. حاول الداوية القيام بهجوم على معسكر المسلمين ولكنهم صدوا الى الخلف.

4. بعد ان دخل المسلمون من الشرخ الذي احدثوه في تحصيناتهم لم يلبثوا ان صدّوا بواسطة هجوم يقوده فرسان القديس يوحنا.لكنهم سرعان ما استداروا ليقوموا بهجومهم النهائي في 18 مايو.

5. وصف رونسيان وقائع هذا الهجوم على هذا الوجه :

أ. شمل الهجوم المسافة على طول سور المدينة.

ب. انصب الجهد على البرج الملعون.

جـ. استمر السلطان يلقي بكل ثقله في المعركة.

د. كتائب تلو الأخرى تدك دفاعات العدو.

هـ. وفاة قائدي الداوية والاسبتارية.

و. الملك هنري يفر من القتال.

6. خضعت المدينة لعملية تدمير مقصودة حتى لا تتحول الى موطىء قدم أو رأس حربة للصليبيين.

تدريب (2)

1. اول صراع لقلاون هو مع فرسان حصن المرقب. هذا الحصن الذي اعتبر عش القلاقل والاضطراب ضد المسلمين. ولقد اعتبر الاستيلاء على هذا الحصن خطوة كبيرة في تقويض اركان الصليبيين في الشام. وقد تم الاستيلاء على هذا الحصن صلحاً وليس عنوة.

واما أهم نتائج سقوط هذا الحصن فكان ان اوقع الرعب في نفوس أهل عكا والصليبيين.

2. الاستيلاء على اللاذقية في 20 ابريل من عام (1287)، لا سيما وان اللاذقية لم تكن مشمولة بالمعاهدة المتعلقة بطرابلس.

3. الاستيلاء على طرابلس 1288/ 1289. وقد كان السبب المباشر في التعامل معها، هو كراهية أهل طرابلسل للتجار الجنويين حتى انهم ذهبوا الى القاهرة ليطلبوا الى السلطان أن يتفضل بالاستيلاء على طرابلس.

لكن الصليبيين تضامنوا مع طرابلس تضامن اللحظات الاخيرة: الاسبتارية وهنري ملك قبرص. وتناسى اهل جنوه وبيزا والبندقية خصوماتهم مؤقتاً.

وبسقوط برج المطران وبرج المستشفى انسحب البنادقة والجنويين وفي 26 ابريل (1289) امر السلطان بالهجوم العام. وكانت نتيجة الهجوم قتلى واسرى وفارين في البحر.

وبعد ان تم تحرير مدينة طرابلس القديمة بنى السلطان قلاون طرابلس الجديدة، بجوار النهر حول حصن صنجيل، بعيداً عن الشاطىء.

نتائج سقوط طرابلس: كما كان سقوط حصن المرقب صدمة للصليبيين، كذلك فان سقوط طرابلس اعتبر صدمة. فلم يكن هنالك دوافع ظاهرة لاحتلالها سوى التحرّر من الصليبيين.

تدريب (3)

الملك بطرس لوزجنان هو ملك مملكة قبرص، وقد تولى الحكم سنة 1359. طمع الملك بطرس لوزجنان بالقيام بمشروع كبير يتمثل بحملة صليبية كاملة يؤثر بها على الاوضاع في المنطقة ويطعن المسلمين طعنة نجلاء.

ومن اجل الاستعداد الكامل لهذا المشروع لجأ بطرس لوزجنان الى دول اوربا الغربية. ويبدو ان البابا -وحده- هو الذي اظهر له التأييد.

وقد ادرك بطرس لوزجنان، كما ادرك غيره ان مصر مركز الثقل ومبعث الخطر، لذلك ما ان عاد من اوربا حتى اتخذ قاعدة تجمع له في رودس. وهنا اشار عليه خاصته ان يكون الهجوم على الاسكندرية وبالفعل وصل بطرس لوزجنان الى ثغر الاسكندرية في سبعين مركبا مشحونه بالمقاتلة. ولم يأخذ بطرس سوى ساعتين لاقتحام اسوارها. وهنا استولى الذعر على أهلها وفرّوا تاركين المدينة بما فيها للفرنج.

وحينما وصل بطرس نفسه الى الاسكندرية، تسلّم الناس بالسيف ولم يترك رجاله نوعاً من بشاعة السلوك البربري الا ومارسوه. فقد نهبوا الحوانيت والفنادق واحرقوا القصور والخانات

واعتدوا على النساء والبنات.

ولقد كان من رأي بطرس الاستمرار في الغزو ولكن اغلب مستشاريه اقروا العودة وذلك لانهم سمعوا ان أمير مصر يعد جيشا في القاهرة. وبالفعل فقد وصل الجيش المملوكي من الطريق الصحراوي ومراكب الفرنجة على وشك الاقلاع. وبعد ان أخذ الفرنجة نحو خمسة آلاف اسير من الثغر. قال المؤرخون العرب عن هذا الملك: انه جاء لصا وخرج لصا.

9. مسرد المصطلحات

- الامان :.

هو ما يطلبه عادة احد الفريقين المتحاربين كمقدمة لعقد معاهدة أو تسوية امور الخلاف بينهما.

- الحملات الصليبية المتأخرة :

وهي الحملات التي قامت بها اوربا ضد العثمانيين وتهدف الى طردهم فقط من اوربا.

- رجل دولة :

سياسي واسع الخبرة والافق يحسن التخطيط ووضع الاستراتيجيات على مستوى رجل ذي أهمية مركزية في الحكم.

- فرسان القديس يوحنا :

وهم فرسان ينتسبون الى منظمة الاستبارية، والقديس يوحنا هو من رسل السيد المسيح.

- مقدمة الجيش :

طليعة.. وكل جيش يتكون عادة من الاقسام التالية: الطليعة (او المقدمة) والجناحان والمؤخرة (الساقة).

- النسطوري :

مذهب مسيحي يقول بكمال طبيعة المسيح البشرية. وهو ينتسب الى نسطورس وهو سوري الموطن وعندما تبوأ الكرسي البطريركي في القسطنطينية، عمل ضد اتحاد الطبيعة (الالهية والبشرية) في السيد المسيح ونهى عن تسمية العذراء بوالدة الاله «ثيوتوكوس» واستبدلها بالتسمية والدة المسيح، قائلا بانها لم تلد الهاً بل انساناً.

- الهجوم العام :

وهو الهجوم الذي توضع فيه كل قوات الجيش- بلا استثناء- في المعركة.

الوحدة السابعة

نتائج الحروب الصليبية وآثارها التاريخية

1. المقدمة

1.1 تمهيد

عزيزي القارئ، سنبحث في هذه الوحدة السابعة - وهي الأخيرة - من وحدات هذا الكتاب في آثار الحروب الصليبية على العالم الإسلامي . وسنبدأ بالآثار السياسية التي أصابت العالم الإسلامي، فبعد التفكك والتمزق، توحد العالم الاسلامي تحت فئات ثلاث : الزنكيين، والأيوبيين، والمماليك .

ثم سنبحث - على البعد السياسي - في صراع الدولة البيزنطية مع الصليبيين، هذا الصراع الذي أضر بالدولة البيزنطية ضررا كبيرا، الى الدرجة التي فيها زالت الامبراطورية البيزنطية وحلت محلها الامبراطورية اللاتينية !

أما عن الآثار الإقتصادية على العالم الإسلامي، سنجد انه رافقت الحروب الصليبية حركة تجارية غنية، فحاصلات الشرق اصبحت تصل الى الغرب، وهي كثيرة ومنوعة ومتميزة .

أما في الآثار الاجتماعية، فإننا سنلاحظ ان المماليك اشتهروا بحياة البذخ والحفلات والعمران الفاخر . لكن تحول الطريق التجاري عن المماليك هو الذي ادى الى ضعفهم وبالتالي سقوطهم امام العثمانيين سنة 1517 .

ويا عزيزي القارئ، فبعد ان سنتناول آثار الحروب الصليبية على العالم الإسلامي سنتحدث عن الجهة الأخرى ونعني بها آثار الحروب الصليبية على الغرب الاوربي، هنا سنجد الجوانب التالية :

أ) ضعف النظام الاقطاعي .

ب) الاثر الحضاري، ولكن هنا ينبغي ان لا نبالغ، فالاثر الحضاري الصليبي أقل من أثر اسبانيا وصقلية .

جـ) ومع هذا، فقد تأثر الصليبيون بالفن العسكري الإسلامي على اوسع نطاق، فن بناء القلاع والمجانيق والكباش الهادمة، واستخدام الدروع للفرسان، كما برز التأثير الحربي في نماذج

حربية أخرى مثل القلعة المستديرة .

د) وسنشاهد – عزيزي القارئ – الأثر الزراعي على الاوربيين، النواعير المائية والدواليب الهوائية، إضافة الى استنبات ثمار معينة مثل قصب السكر والذرة والليمون . وفي الصناعات انتقلت الى الغرب صناعات شرقية مثل الزجاج والخزف والقيشاني .

هـ) وستحدث عزيزي القارئ عن الآثار الاقتصادية، هنا سنجد، تحويل الممتلكات الى سيولة نقدية، كما سنجد فرض نظام ضرائب جديد من أجل الحروب الصليبية : نظام العشر، كما سنشاهد ان الغربيين تاجروا ببضائع معينة مثل الجنزبيل، والقرفة، والفلفل، والبهار، والسكر، والشاي، والقهوة، والشب، والعاج، والمنسوجات.

و) وسنعالج أخيرا، موضوع التأثير الديني، فنجد ان قيام الحملة الصليبية كان نصرا مبينا للبابوية، وسنجد ان البابوية هي التي قامت بعملية التحشيد طوال الوقت من أجل حملات صليبية جديدة، كما انه من تأثير الحركة الصليبية ولدت حركة تبشيرية.

1.2 أهداف الوحدة

يتوقع منك عزيزي القارئ بعد قراءتك هذه الوحدة، وتنفيذ الانشطة الواردة فيها ان تكون قادرا على أن :

1) تعرض النتائج السياسية للحروب الصليبية على الوطن العربي .

2) تحلل النتائج الاقتصادية والاجتماعية التي ترتبت على الحروب الصليبية .

3) تعرض المظاهر الحضارية التي انتقلت من الوطن العربي الى اوربا على أثر الحروب الصليبية .

4) تشرح النتائج الاقتصادية والاجتماعية للحروب الصليبية في المجتمعات الاوروبية .

1.3 أقسام الوحدة

تنقسم هذه الوحدة الى قسمين رئيسين يرتبطان بقائمة الأهداف السابقة :

فالقسم الأول : «نتائج الحروب الصليبية وآثارها التاريخية» والذي يتطرق إلى آثار الحروب الصليبية على العالم الإسلامي: سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ويرتبط هذا القسم بالهدف الأول والثاني .

أما القسم الثاني : «آثار الحروب الصليبية على الغرب الاوربي» وذلك من الناحية السياسية ومن ناحية انتقال الحضارة، ومن الناحية الاقتصادية، ومن الناحية الدينية، ويرتبط هذا القسم بالهدفين الثالث والرابع.

2. نتائج الحروب الصليبية وآثارها التاريخية

2.1 نتائج الحروب الصليبية

بدأت الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر واستمرت عبر القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لتنتهي مع آخر صليبي قتل، او غادر الموانيء الشامية عائدا إلى اوربا.

وأثناء هذه الفترة طويلة المدى حصلت اتصالات دائمة بين العنصرين الصليبي والاسلامي، الفرنجي والشرقي، الأمر الذي ترك نتائج خطيرة في التاريخ .

فقبل هذه الحروب التي عالجنا في حديثنا عنها، أبعادا كثيرة وآفاقا متعددة على الجبهات المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية المعرفية والعسكرية وغيرها . نقول قبل هذه الحروب لم تكن هناك بين المعسكرين سوى اتصالات فردية محدودة بين الشرق الاسلامي والغرب المسيحي، لا تتعدى تبادل الهدايا والكتب بين الملوك والحكام، في المناسبات، عن طريق بعض السفراء والمبعوثين . او مجيء بعض الحجاج الفرادى من الغرب الاوربي لزيارة بيت المقدس، ثم عودتهم بالسرعة التي حضروا بها دون ان يسمح لهم بالتجول في البلدان الاسلامية في ظل قيود معينة . واذا وجدت هناك علاقات تجارية بين بلدان الشرق الادنى الاسلامية، وبخاصة مصر والشام، من ناحية والغرب الاوربي من ناحية أخرى، فان تلك العلاقات ظلت حتى بداية الحروب الصليبية ضيقة المجال، محدودة النطاق.

حتى اذا جاءت الحروب الصليبية بفيضها المتدفق ومساحتها الجغرافية والزمنية العريضة، وابعادها المترامية رافقها ابعاد ديموغرافية وهجرات بشرية سكانية حين استقر الصليبيون في المشرق بأعداد كبيرة، كما رافقها حركة ملاحية ضخمة في البحر المتوسط بين الشرق والغرب، كما رافقها تلاقح فكري وفيض معلوماتي تمثل بما حمله الصليبيون الأوائل العائدون بعد الحملة الصليبية الاولى الذين رووا مزيدا من القصص والاخبار عن بلاد المسلمين وعاداتهم وسحر الشرق عموما ! الأمر الذي جعل لدى الاوربيين معرفة وثيقة بالشرق ظلت تنمو وتتزايد مع تقدم الزمن وحتى عصرنا الراهن . وعلى هذا فنحن نرى ان الحروب الصليبية كانت اضخم محاولة في نهاية العصور الوسطى لفتت انظار الغرب الاوربي الى الشرق الاسلامي.

على أن من يدرس نتائج الحروب الصليبية بإمعان يلاحظ ان العنصر اللاتيني وبخاصة الفرنسيين هم الذين وقع عليهم الدور الأكبر في الحملات الصليبية . وعلى هذا فان من استقر في الشرق وبخاصة في مملكة بيت المقدس هم الفرنسيون . وليس العنصر السكسوني او العنصر الالماني .

ومع هذا، فقد دالت دولة الصليبيين، ولكن ظلت هناك ذكريات لرموز معينة مثل لويس التاسع ماثلة في ذاكرة الفرنسيين وحدهم، او على الاقل أكثر من غيرهم من الاوربيين. كما انهم ظلوا ينظرون الى المنطقة على انها منطقة نفوذ لهم – على الاقل في المجال الحضاري – وعندما حصلت حملة نابليون بونابرت سنة 1798 على مصر والشام اعتبرها الفرنسيون نوعا من الإحياء لنفوذهم القديم .

ونحن في الصفحات التالية سنحاول، عزيزي القارئ، ان ندرس أثر الحروب الصليبية على العالم الاسلامي : سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، كما سنحاول ان ندرس من الناحية الأخرى، أثر الحروب الصليبية على الغرب الاوربي من النواحي السياسية، وانتقال الحضارة، ومن الناحية الاقتصادية، ومن الناحية الدينية، فعالم الغرب الاوربي والشرق الاسلامي اللذين ظلا في عزلة نسبية عن بعضهما حتى قامت الحروب الصليبية لتفتح عيون الغرب على الشرق، هذان العالمان يزوّداننا بالكثير عن تجربتهما التي نتجت عن اللقاء المباشر وعلى صعيد مشترك فترة قرنين طويلين من الزمن، نتجت عنها وقائع واحداث وتمخض عنها نتائج وآثار جديرة ان نتتبع ابعادها – وبإيجاز – في الصفحات التالية التي هي بمثابة خاتمة لدراستنا الموسعة لهذه الحروب.

2.2 آثار الحروب الصليبية على العالم الإسلامي

1.2.2 سياسياً

عندما قامت الحروب الصليبية كانت بلدان الشرق الاسلامي في وضع لا تحسد عليه من ناحية التفكّك الى درجة التمزّق، كل مدينة تشكل دولة خاصة بها ويحكمها او يتحكم بها أمير معين لا يهمه الا مصالحه الخاصة، ولا يكترث الا بمنافعه الذاتية، حتى انه كان يعتبر ان العالم ينتهي حيث تنتهي حدود امارته. هكذا كان الحال في انطاكية وحلب ودمشق وطرابلس والقدس والموصل ... فلم تكن هنالك قوة كبرى او حكومة مركزية تسيطر على شؤون عالمنا

الاسلامي وتجمع اطرافه في ذلك الوقت .فقد كان العالم الاسلامي تتحكم فيه قوتان هما: الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية، ولم تكن هاتان الخلافتان في أحسن أحوالهما بل كان كل منهما يسير من ضعف الى ضعف ومن اضمحلال الى اضمحلال .

هذه البلدان الاسلامية - سواء على مستوى المدن أم الخلافة - عندما اصطدمت بالقوة الصليبية الغالبة لم تصمد ! بل تمكن الصليبيون، بمدة قياسية، ان يقيموا على ارض الاسلام وفي عقر دياره ومدنه مملكة وامارات، أقاموا امارة الرها وامارة انطاكية وامارة طرابلس ومملكة بيت المقدس .

وكان على الأمة الاسلامية ان تنتظر حتى يظهر من بينها من يغيّر الحال الاسلامية من الضعف الى القوة ومن الهزيمة الى الغلبة، وبايجاز كان هذا العالم الاسلامي يحدث الثورة في كيانه، من أجل ان يضعه في مقابل الغازي الاجنبي، وبالفعل فقد مرّ العالم الاسلامي في مرحلة سميت مرحلة الإفاقة الاسلامية بدأت بمودود وزملائه من مثل ايلغازي وارتق، مرورا بعماد الدين زنكي بطل استعادة الرها، وابنه نور الدين الشهيد اللذين قاما بدور بارز في مجابهة الصليبيين، واللذين انتهيا الى تكوين جبهة اسلامية متحدة تمتد من النيل الى الفرات، وقد تَسَلَّم الراية من بعدهما صلاح الدين - رمز الجهاد الأكبر في هذه الفترة - الذي انزل ضربته القاصمة بالصليبيين في معركة حطين - قمة الانتصارات الاسلامية في فترة الحروب الصليبية كلها - ومن ثم تمكن من استعادة بيت المقدس، ذلك الانجاز التاريخي الاعظم، وهكذا فان صلاح الدين وضع الأسس لتحكم اسرته في الشام ومصر فيما عرف بالاسرة الايوبية او البيت الايوبي .

على هذا، فان رد الفعل الاسلامي، على الاخطار والتحديات التي لحقت بالعالم الاسلامي، انتهى الأمر فيه وتسلم مقاليده البيت الايوبي، هذا البيت الذي تمكن من ان ينجز الدور التاريخي وان يملأ الفراغ الاسلامي بمقاومة مبدعة للصليبيين الذين لم يكن وحتى ظهور هذا البيت برمزه العتيد صلاح الدين، من السهولة بمكان التصدي لهم والقيام بعملية اختراقية كبيرة لصفوفهم وحتى الاعماق !

ولقد استمر الكيان الايوبي يلعب دوره ايجابيا ممثلا بالجيل الأول حتى القرن الثالث عشر عندما اصابت البيت الايوبي الآفة التاريخية التي تصيب كل الأسر الحاكمة، عندما يمر عليها

عامل الزمن، ويغلبها الضعف، وتنطبق عليها نظريات ابن خلدون وشبنجلر وتوينبي وغيرهم من فلاسفة التاريخ .

نقول، عندما انقسم البيت الايّوبي وتحارب ابناء صلاح الدين واحفاده على الحكم، وبالتالي تمخّض الصراع عن ضعفهم وتمزق صفوفهم . كان هذا ايذانا بأنهم اصبحوا غير قادرين على القيام بواجبهم وتحمل اعباء رسالتهم في مجابهة الخطر الصليبي مضافا اليه خطر جديد وهو الخطر المغولي . هنا ظهر للمعاصرين ان على الايوبيين ان يخلوا المسرح وينسحبوا جانبا لكي يتيحوا المجال لقوة اخرى تملأ مسرح الاحداث، وتتسلم سدة مقارعة الاخطار الخارجية الصليبية المغولية، وتستمر في دورها في حمل الراية الاسلامية وحتى تصفية الوجود الصليبي.

هذه القوة التي ستحلّ محل الايوبيين هي قوة المماليك التي لم يكن لها من مبرر في حكم العالم الاسلامي بين الشام ومصر سوى مواصلة الجهاد، فالمماليك لم يكن لهم اي مجد موروث، بل ان وضاعة اصلهم وتواضع تراثهم كانت تجعلهم محل كثير من النقد والتجريح، على هذا فقد كان عليهم ان يجدوا مجالا وان يقوموا بممارسات تجعلهم مقبولين من الرأي العام الاسلامي . ولم يكن هذا المبرر سوى استئناف حركة الجهاد، وهذا ما حصل فعلا .

فقد تصدى المماليك لجبهتين عريضتين، الأولى هي جبهة المغول، وهنا انتصر المماليك على المغول في معركة تاريخية حاسمة هي عين جالوت (1260 م) - وقائدها العظيم هو السلطان سيف الدين قطز - التي كرست وجودهم ووضعتهم على بداية الطريق، والثانية هي الصليبيين : اذ فتح المماليك جبهة عريضة للصراع مع الصليبيين وهنا توالى أكثر من سلطان مملوكي على متابعة الجهاد المقدس ضد الصليبيين : من لدن الظاهر بيبرس الى المنصور قلاوون الى الاشرف خليل بن قلاون. وقد ابلى كلٌ من هؤلاء أمام انطاكية وطرابلس وعكا بلاء عظيما جعل العالم آنذاك يتقبّل بيتا جديدا في الحُكم هو البيت المملوكي، ويُعتبر دوره العظيم في تصفية الوجود الصليبي دورا كبيرا في حلقة الجهاد المتواصلة من الزنكيين عبورا الى الايوبيين وانتهاء بمن انتهينا اليهم، المماليك !

على ان هنالك أهمية كبرى للحركة الصليبية، ودور آخر للصليبيين في منطقة الشرق الادنى ونعني به التصدي للدولة البيزنطية، وهي التي كانت البوابة الشرقية والجدار المنيع للدفاع

عن الكيان الاوربي، حقيقة ان الحركة الصليبية في اول امرها قامت او - على الأقل كان احد اهدافها - الدفاع عن الدولة البيزنطية، لكن هذه الدولة نفسها هي التي شعرت ان الصليبيين اشد خطرا عليها من الدولة السلجوقية التي كانت تحتل قسما كبيرا من آسيا الصغرى، ذلك ان الصليبيين قاموا بدور كبير ضد الدولة البيزنطية، بل انهم دخلوا معها في صراع مباشر حول المناطق التي فتحها الصليبيون في المنطقة الاسلامية مثل انطاكية، هذا عدا عن خلافهم معهم في البلقان وآسيا الصغرى . ولقد تصاعد الصراع بين الطرفين حتى تمكن الصليبيون من الحاق ضربة مميتة بالامبراطورية البيزنطية وذلك سنة 1204 م، عندما قُضي قضاء تاما على الامبراطورية البيزنطية وسقطت القسطنطينية العاصمة العظيمة للدولة البيزنطية واحدى كبريات مدن العالم تحت سنابك خيل اللاتين وبدون أية رحمة ! وهنا تحولت الامبراطورية البيزنطية الى امبراطورية لاتينية والى أكثر من نصف قرن حتى سنة 1261 م . وعلى ما يظهر فان الدولة البيزنطية لم تستطع ان تقوم لها قائمة بعد هذه الضربة القاضية، ولم تكن الدولة التي تلتها الا دولة عادت الى الوجود ولكن لم تبلغ حدا يرتجى من القوة .

وهذا ما فتح فصلا جديدا للأحداث، اذ لم يلبث العثمانيون ان حلّوا محل البيزنطيين الذين تفككوا وتمزقوا ومن ثم اضمحلوا وسقطت عاصمتهم سنة 1453م في يد السلطان محمد الفاتح، ولو انك رحت تبحث عن السبب وراء هذا الاضمحلال البيزنطي لوجدته متمثلا بالمرض الذي اصاب الدولة البيزنطية من جراء جرثومة الحروب الصليبية التي كانت الدولة البيزنطية اول من اصطدمت بهم في جهدهم الصليبي ! (انظر عاشور، ص 1266) .

2.2.2 اقتصاديا

ما أن القى الصليبيون بثقلهم على المنطقة وأقاموا لأنفسهم كيانات سياسية فيها حتى تحرك التجار الاوروبيون من ايطاليا ومرسيليا واسبانيا ليقوموا بنشاط تجاري واسع بين الشرق والغرب، فأسسوا لأنفسهم مراكز وأحياء تجارية في المدن والثغور الرئيسة الاسلامية على ساحل بلاد الشام مثل عكا وصور وصيدا والسويدية واللاذقية وطرابلس وغيرها . وقد تاجر هؤلاء ببضائع وحاصلات الشرق التي حرصوا على ايصالها الى الدول الاوربية وأهمها المنسوجات القطنية والحريرية، اضافة الى الزجاج المصنوع في صور، واللؤلؤ والاحجار الثمينة الواردة من سيلان والهند، والعاج والاخشاب والعقاقير والتوابل الواردة من الشرق الاقصى .

وكانت هذه المواد تتدفق من اماكن وجودها وصنعها الى دمشق ومن ثم الى الموانيء الاسلامية حيث تشحن الى الغرب .

وكذلك كان الحال بالنسبة لمصر، فما كان يتجمع من بضائع عن طريق البحر الأحمر كان يحمل من موانيء دمياط والاسكندرية الى الغرب الاوربي. بالرغم من ان التركيز الصليبي كان على التعامل مع الموانيء الشامية أكثر من الموانيء المصرية في القرن الثاني عشر الميلادي .

على ان هذه الاوضاع تبدلت في القرن الثالث عشر الميلادي، بسبب ظهور عامل جديد، ونعني به العامل المغولي، اذ شجع المغول على سلوك الطريق التجاري البري المعروف باسم طريق الحرير، والممتد عبر الامبراطورية المغولية من الصين الى تركستان فموانيء البحر الاسود، او ميناء اياس على البحر المتوسط، كذلك ادى غزوهم للعراق الى قتل طريق الخليج العربي فبغداد فدمشق، الأمر الذي أثر في المركز التجاري لموانيء الشام تأثيرا خطيرا . اما طريق البحر الاحمر ومصر فقد ظل بعيدا عن الخطر المغولي، وعلى هذا، فقد تركز فيه الجزء الأكبر من تجارة الشرق الاقصى وصارت الاسكندرية ودمياط مركزا لنشاط تجاري كبير . تقصدها سفن المدن الايطالية مثل البندقية وبيزا وجنوه فضلا عن المدن الفرنسية (مرسيليا) واسبانيا من أجل العناصر الرئيسة في التجارة، في ذلك الوقت، ونعني بها التوابل والبخور وغيرها من حاصلات الشرق والتي كانت مواد أساسية في استهلاك كل بيت في اوربا .

وكل من يتأمل في هذا النشاط التجاري الواسع يجد انه انما جاء وليد الحروب الصليبية التي بالرغم من مآسيها والدماء التي سفكت من اجلها، لم يكن بد من ان ترافقها حركة تجارية واسعة وهذه الحركة عادت بالفوائد العملية على مصر والشام بصورة خاصة (عاشور، ج 2، ص 1263).

3.2.2 اجتماعيا

ان من يدرس الحياة الاجتماعية في هذه الفترة في مصر والشام بالذات بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر يجد كل صورة من صور المجتمع تنطق بوفرة الثروة والبذخ المطلق. فالعمارة المماليكية الفاخرة، والمتمثلة بالمساجد والقصور بالقاهرة ودمشق وبيت المقدس ... الخ، وحتى وضعنا الراهن، والتحف النادرة من أوانٍ ومشكاوات وصناديق ودكك ومناضد

مطعمة وغير مطعمة، والحفلات العديدة الزاخرة بشتى الوان الترف. كل ذلك يشهد على وفرة ثروة المماليك وهي الثروة المستقاة من التجارة الخارجية مع الغرب الاوربي، وبوجه خاص في عصر الحروب الصليبية .

والذي يدرس التاريخ بأبعاده العريضة يجد انه عندما تتغير المقدمات تتأثر او تتغير النتائج . فعندما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح واصبحت الطريق التجارية تدور حول افريقيا بعيدا عن البحر الاحمر كان هذا الاكتشاف بمثابة الضربة الكاسحة التي ضربت الكيان الاقتصادي المملوكي من الاساس الامر الذي انعكس على وضعهم السياسي فزاده ضعفاً وتفككا . وعندما حاول المماليك تدارك هذا الوضع بمحاولة ضرب البرتغاليين – لوقف هذا التدهور ولم ينجحوا – كان هذا ايذانا بسقوطهم امام الفتح العثماني (1517 م) . وبهذا دار التاريخ دورة كاملة، عندما جلا عن المسرح كلّ من تحرك عليه طوال القرون المتلاحقة من القرن الثاني عشر حتى القرن السادس عشر « وتلك الايام نداولها بين الناس».

اسئلة التقويم الذاتي (1)

بيّن الأثر الاقتصادي للحروب الصليبية على المشرق الاسلامي.

3. آثار الحروب الصليبية على الغرب الأوربي

1.3 من الناحية السياسية

كان للحروب الصليبية التي هزت المجتمع الاوربي حتى الاعماق أثر كبير على النواحي السياسية، اضافة الى النواحي الاجتماعية . فقد اضعفت الحروب الصليبية النظام الاقطاعي في الغرب. فقبل هذه الحروب كانت اوربا تعزف عن التجارة، حيث اكتفت بالنظام الاقطاعي اكتفاء ذاتيا. حتى ان نظامها الاقتصادي كان يقوم على اساس المقايضة، وليس على الاساس النقدي باستخدام المال، حتى اذا اشتعلت الحروب الصليبية، ضربت بقوة في اعماق هذا النظام الاقطاعي. فهذا النظام الذي كان يعتمد اعتمادا كبيرا على الاقنان ورقيق الارض، ضعف ضعفا كبيرا لأن الحروب الصليبية انتزعت هذه الطبقة التي كانت تقوم بفلاحة الارض من مواقعها، فهذه الحروب - ايضا - فتحت الباب على مصراعيه لهؤلاء لكي يتركوا الارض التي ارتبط بها آباؤهم واجدادهم بحجة المشاركة في النشاط الصليبي. وكان السيد الاقطاعي لا يستطيع ان يمنع الفلاحين من الخروج لخدمة الدين والكنيسة، فوجد ملاك الارض انفسهم فجأة أمام عجز خطير في الأيدي العاملة بعد ان استوعبت الحملة الصليبية الاولى وحدها أكثر من عشرة آلاف قن تركوا الارض التي كانوا يقومون بفلاحتها، واتجهوا الى الشرق بحثا عن حياة جديدة . وهكذا اضطر كبار الامراء والسادة الاقطاعيين الى البحث عن رجال احرار يقومون بفلاحة الارض، مما ادى الى تصدع الجهاز الاقطاعي وانهياره وانقراض طبقة الاقنان والعبيد تدريجيا من المجتمع الاوربي الغربي (عاشور، ج 2، ص 1272).

ومن المعروف ان النظام الاقطاعي ليس نظاما اجتماعيا فقط، وانما هو نظام سياسي . فهذا النظام هو الذي حدّد العلاقة بين الملك والأمراء الاقطاعيين، وجعل سلطة الملك سلطة محدودة بالنظر لقوة الأمراء الاقطاعيين وتمتعهم بقسط كبير من الاستقلالية وسيطرتهم على مختلف جهات الدولة من خلال امتداد اقطاعياتهم، الأمر الذي أثر بقوة على السلطة المركزية للملك. فالملك لم يكن ليستطيع ان يدّعي الاشراف على كافة ارجاء المملكة والا تعرض لثورة جامحة من قبل كبار الأمراء الاقطاعيين .

حتى اذا جاءت الحروب الصليبية قلبت الاوضاع رأسا على عقب، فضعفت الاقطاعية،

كما ذكرنا اعلاه، وباع كثير من الاقطاعيين اقطاعياتهم ورحلوا الى المشرق في الحملات الصليبية المختلفة. بل انهم وجهوا معظم طاقاتهم، وركزوا معظم جهودهم على الحروب الصليبية، ومدّوا بأبصارهم نحو الشرق بسحره واغرائه، بل ان كثيرا من زعماء البيوتات الاقطاعية ماتوا في الحرب الصليبية مثل امراء بيت تولوز وبيت بوربون من فرنسا .

2.3 الأثر الحضاري

غني عن القول في هذا المجال ان المستوى الحضاري في ديار الاسلام كان أعلى درجة وأغنى محتوى من المستوى الحضاري الاوربي، مما ترتب عليه ازدياد التأثير الحضاري الاسلامي في اوربا على التأثير الحضاري الاوربي في عالم الاسلام، اثناء الحروب الصليبية. بل ان هنالك تيارا حضاريا اوربيا اطلق عليه اسم «**النهضة في القرن الثاني عشر**» كان في جزء كبير منه، متأثرا بالحضارة الاسلامية، ومن آثاره ان كثيرا من مظاهر الحضارة الغربية انتقلت الى الغرب الاوربي.

على انه ينبغي هنا ان لا ننساق في تيار المبالغة فنعطي للحروب الصليبية حجما أكبر مما تستحق في التأثير الحضاري الاسلامي على الغرب . فمع ايماننا بهذا التأثير الا ان المناخ العام للحروب الصليبية وسيطرة جو الملاحم العسكرية عليه جعل من اسبانيا وصقلية، المهد الطبيعي لانتقال الحضارة الاسلامية الى الغرب. ففي اسبانيا وصقلية ازدهرت الحضارة العربية

الاسلامية وفيها تمت حركة ترجمة كبيرة للفكر العربي الاسلامي من اللغة العربية الى اللغةاللاتينية.

ومع ذلك فانه تمخض عن الاتصالات الحضارية والثقافية بين المسلمين والصليبيين، في بلاد الشام، على عهد الحروب الصليبية، ان انسياب كثير من المفردات والمصطلحات العربية إلى اللغات الاوربية منذ ذلك العصر .

كذلك تأثر الفن الحربي، وفن بناء القلاع عند الاوربيين بما شاهدوه من نظم ونماذج اسلامية زمن الحروب الصليبية (عاشور، ج2، ص 1270) فتقدمت حركات الحصار واستعمال المجانيق والكباش الهادمة واستخدام الدروع للفرسان وخيولهم وارسال الرسائل الحربية عن

طريق الحمام الزاجل . كذلك عرف الصليبيون كثيرا من فنون التحصين وعمل الاستحكامات عن طريق محاكاة القلاع الاسلامية، ومن ذلك نظام المشربيات الذي عرفته العمارة الحربية فضلا عن المدنية عند المسلمين. وهذه المشربيات عبارة عن دعائم يتقارب بعضها من بعض، وتحمل فوقها حواجز بارزة. وبين كل دعامتين فتحة مقفولة بباب مستور يمكن ان تصوب منها السهام الى رؤوس المحاصرين الذين يحاولون ان يحفروا تحت جدران الحصن او يشعلوا النيران فيه. كذلك يمكن ان يصب الزيت والماء المغليّان على رؤوس المحاصرين. وسرعان ما اقتبس الصليبيون فكرة المشربيات عن المسلمين ونقلوها الى الغرب الاوربي فظهر في قلاع معينة مثل قلاع شاتو جيار ونورويتش وغيرهما.

وهناك ظاهرة اخرى في فن العمارة الحربي استعارها الغرب من المسلمين في مصر والشام ابان الحروب الصليبية وهي جعل المدخل الحربي لباب الحصن او القلعة متعرجا او على شكل زاوية قائمة حتى لا يتمكن العدو اذا وصل قرب الباب من رؤية الفناء الداخلي للحصن او يصوب سهامه الى من فيه . ولم يعرف الاوربيون هذا النوع من المداخل الملتوية الا عن طريق العرب في عصر الحروب الصليبية، فطبقوه بعد ذلك في قلاعهم في اوربا، وظهرت هذه الظاهرة بوضوح في قلعة بوماريس في انجلترا، وفي قلعة كاركاسون في فرنسا (عاشور، ج2، ص 1271) .

وقد برز التأثير الحربي الاسلامي على الصليبيين في نماذج حربية اخرى مثل القلعة المستديرة، ذات الاسوار المتتالية، بدلا من البرج والفناء اللذين يجمعهما سور واحد، فهذه القلعة نمت في الشرق، والمدفع والبارود، وكلاهما كان المماليك اول من استعملها (ماجد، ص 219). الرنوك، وهي علامات الفرسان التي تبدو من اصل شرقي، وتدريبات الفروسية التي انتقلت تفاصيلها عن طريق شرقي. كما ان الصليبيين عرفوا في البحر عند المسلمين، انواعا جديدة من السفن كالشواني، وهي مراكب حربية ذات قلاع عديدة وَتستخدم للتجارة.

أما الأثر الزراعي على الصليبيين فنجده واضحا في استخدامات الاوربيين للنواعير المائية والدواليب الهوائية واستنباتهم ثماراً مثل : قصب السكر والذرة والليمون والسمسم والارز والبطيخ والمشمش والخوخ والقطن ... الخ . وفي الصناعات، انتقلت اليهم صناعات شرقية، مثل : الزجاج والخزف والقيشاني والمرايا والحلي والمنابح والاوعية والمساحيق والاصباغ

والعقاقير والسجاد والبسط وانواع المنسوجات. كما ظهر عندهم ما يعرف بالارابسك، الذي هو فن معماري عربي، يميل الى التكوينات الهندسية، وهو جوهر الفن الاسلامي (المرجع نفسه) .

والمظهر الثقافي هو اوضح ما انتقل الى الاوربيين عن طريق الحروب الصليبية . فقد كان الافرنج يستشيرون العلماء العرب في قضايا تتعلق بالطب والفلسفة والرياضيات، كما ان بعض الافرنج تعلموا العربية وبدأت اوربا تهتم بالاستشراق في بلادها . كذلك استوحى الاوربيون الآداب العربية، فكان الصليبيون قد سمعوا في الشرق عن قصص الف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، مما كان له أثره في ادب عصر النهضة على الخصوص . فمما استرعى الانتباه هو توسع افرنج العصور الوسطى في نظم الشعر والأغاني، فظهرت قصائد اشبه بالملاحم عن هذه الحروب، مثل قصيدة امبروز النورماني التي تتألف من اثنى عشر الف بيت من الشعر وتتحدث عن، وتصف الحروب الصليبية حتى سقوط عكا . وأخيرا فان الحروب الصليبية حملت على كتابة تاريخها من وجهة النظر الغربية والشرقية، بشكل لم يُعرف من قبل بالنسبة لتاريخ اوربا مما جعل الغربيين الحديثين يجمعون ما كتب عنها في مجموعتهم الشهيرة المعروفة باسم (Recueil des Historiens des Croisades, Paris, 1841-1966)، وفي غيرها . فهذه المجموعة تضم معظم ما كتب عن الحروب الصليبية، من مؤرخين معاصرين غربيين وشرقيين، وحتى من أرمن وروم. فيكفي ان نذكر من مؤرخي الغرب المعاصرين لهذه الحروب، مثل فوشيه دي شارتر، ووليم الصوري، وكلاري، وجوانفيل. ومن الشرقيين المعاصرين : ابن القلانسي، واسامة بن منقذ، وابن الاثير، وسبط بن الجوزي، وابو شامة، والمقريزي، والعيني، وابن تغري بردي .

3.3 من الناحية الاقتصادية

كان للحروب الصليبية، بالاضافة الى قضائها على النظام الاقطاعي، آثار كثيرة وخطيرة على التطور الاقتصادي تلمسه في الجوانب التالية :

- ان كثيرا ممن شاركوا في الحروب الصليبية باعوا ممتلكاتهم واراضيهم وحولوها الى سيولة نقدية يسهل حملها معهم، ولما كان اليهود ممن كانت تتوفر لديهم النقود، فانهم، كما هو معهود

عنهم، استغلوا الفرصة لتقديم القروض وبربا فاحش . وقد كان لهذا الموقف أثره السلبي على الاوربيين الذين حقدوا على اليهود، الأمر الذي ترتب عليه ما لقيه اليهود من اضطهاد في عصر الحروب الصليبية في اوربا الغربية .

– إلى عصر الحروب الصليبية بالذات ترجع فكرة فرض ضرائب ذات طابع حديث على الممتلكات لتحل محل الضرائب الاقطاعية المألوفة في العصور الوسطى . فبناء على حاجة لويس السابع، ملك فرنسا الى المال للمشاركة في الحملة الصليبية الثانية فرض ضريبة بمقدار العُشْر على جميع المنقولات الخاصة برجال الدين في مملكته . وكذلك فعل فيليب اغسطس، وريتشارد قلب الاسد عندما فرضوا الضريبة نفسها، ليس على رجال الدين فقط وانما على عامة الناس ايضا. وهي الضريبة التي عرفت باسم «عشور صلاح الدين **Saladin Tithe**» وهكذا تكون الحركة الصليبية قد ساعدت على احداث تغير وتطور ملموس في النظم المالية في غرب اوربا، وهو تطور له خطورته لانه يعتبر بداية ونواة لنظام الضرائب الحديث .

– ادى النشاط التجاري في عصر الحروب الصليبية الى انتعاش عدد كبير من المدن الاوربية التي شاركت في مثل هذا النشاط، مثل أمالفي ومرسيليا وناربون وبرشلونة، فضلا عن الثلاثة الكبار : البندقية وجنوه وبيزا. وقد حدث هذا في الزمن الذي تعرض فيه النظام الاقطاعي لهزة من الاعماق، الامر الذي ادى الى تطور خطير في الاقتصاد الاوربي باتجاه التحول من الزراعة الى التجارة، ولقد وضح هذا التحول في اسواق موانيء جنوب اوربا التي انطلقت منها القوافل التجارية الى وسط القارة وغربها، مما ادى الى نشاط كبير في اقليم فلاندرز وحوض الراين، فضلا عن سهول لمبارديا.

– ادى النشاط والازدهار التجاري لمدن جنوب اوربا، الى تحررها من النظام الاقطاعي، وبهذا اصبحت قدوة لبقية المدن في غرب اوربا حيث اخذت هذه المدن تنتزع اعترافات من السادة الاقطاعيين بحقوقها وحريتها . وبالتالي خفت قبضة الأمراء عن المدن في النواحي الادارية والقضائية والمالية، وصارت كل مدينة عبارة عن قومون، أي وحدة سياسية واقتصادية مستقلة في شؤونها الداخلية .

– على ان هنالك عددا من المظاهر والتجليات للحركة التجارية بين الشرق والغرب تمثلت

فيما يلي من الظواهر والمستجدات . فقد دخلت في الشرق كلمة فندق، وهي دليل على انتشار التبادل التجاري بين الشرق والغرب، وقد دخلت هذه الكلمة من الطليانية باسم Fendachi، وهي من اصل يوناني Fondacos، وتعني في الفارسية خانة، وهو بناء واسع من طوابق عدة، يتكون من غرف مختلفة، ومخازن للبضائع، وفناء داخلي يحتوي على الدواب، وبه كنيسة وحمام ومخبز ومقبرة، ويحاط بسور وحديقة . وكان يسكنه غالبا التجار الاجانب، يرئسهم رسول المدينة التجاري الاوربي او كبير الفرنجة من كل طائفة او ما سمي بالعربية والافرنجية القنصل Consul، وبالفارسية قنصول، كما سماه الترك شهبندر، فكان له حق التجارة، وحق محاكمة الذين ليسوا من الرعايا المسلمين، ووجدت معاهدات تنص على حقوقهم . وقد تعددت الفنادق في انحاء البلاد الاسلامية، واصبحت اشبه بقنصليات، كفنادق : البندقية، وجنوه، وبيش، «بيزة»، ومارسيليا، واربونه «ناربون» وقطالونيا «كتالونيا» واقريطش «كريت» ونابل «نابلس»، وبلرم «بلرمو» . فقد وجدت في مصر فنادق كثيرة، وبالقاهرة وحدها أكثر من مائتي فندق (ماجد، ص 225) .

وكذلك ظهرت في الشرق القيسارية او القيصارية، التي قد تكون محرفة من اللاتيني Caesarea، ويذكر المقريزي قياسر كثيرة في القاهرة. فكانت اذا غابت الشمس، منع الاجانب من السير في الشوارع ليلا، او التجول في اثناء صلاة المسلمين .

فكانت اوروبا تستورد عن طريق بلاد المسلمين - وبخاصة من مصر - بضائع كثيرة منها التوابل على الخصوص، التي كانت بالنسبة لرجال العصور الوسطى اشبه بالشاي والقهوة في عصرنا، مثل : الجنزبيل والقرفة والفلفل والبهار والسكر والشاي والقهوة والشب والعاج والمنسوجات، وغير ذلك . ولذلك ظهرت في دولة المماليك جماعة من التجار تخصصت لبيع التوابل . اما الشرق فكان يستورد من الاوربيين : الفواكه واللوز والجوز والخشب والمعادن وطيور الصيد، كما استورد الرقيق، الذي كان يغذي دولة المماليك التي هي دولة رقيق .

ولذلك كثرت العملة الاجنبية في مصر، مثل عملة البندقية Ducat، التي يسميها العرب «دوكات» نسبة الى الدوك او الدوق، وهو الـDoge، وعملة فرنسا والاراضي الواطئة : Florin التي يسميها العرب «افرنتية» جمع افرنتي، وقد عرفت العملة الاجنبية في الشرق

عموما باسم «مشخصة» بسبب صور القديسين، وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهيها . وكانت عملة البندقية، تعتبر افضل عملة، غلبت على اسواق العالم بما فيها مصر، والدليل على غنى دولة المماليك نتيجة للتجارة مع اوروبا هو كثرة مبانيها الفاخرة، التي تركوها في مصر (المرجع نفسه ص 226) .

أسئلة التقويم الذاتي (2)

بيّن الآثار الاقتصادية للمسلمين على الغرب الصليبي .

4.3 من الناحية الدينية

البابوية هي التي دعت الى الحروب الصليبية، هذه الحروب التي جاءت في توقيتها لتتزامن مع الصراع الكبير بين الكنيسة والسلطة الدنيوية، او ما سمي «النزاع بين البابوية والامبراطورية» . هذا الصراع الذي استخدمت فيه الاسلحة المادية وغير المادية لتحقيق اغراض كل منهما. فلما قام البابا اربان الثاني بالدعوة للحروب الصليبية المقدسة سنة 1095 م استجاب له الرأي العام المسيحي في الغرب الاوربي وكان هذا فوزا خطيرا للبابوية ضد الامبراطورية لانه اظهرها بصورة الزعيمة الفعلية للمجتمع المسيحي الجديرة بقيادته الكبرى ضد المسلمين لاسترداد القبر المقدس (عاشور ج 2، ص1277).

ولما كانت الحروب الصليبية تتطلب مزيدا من الموارد البشرية والمادية، فقد وظفت البابوية هذه الحروب لحشد أكبر قوة ممكنة مما امدها بقوة هائلة تفوقت فيها بمراحل على السلطة الامبراطورية الدنيوية.

وفي اواخر القرن الثاني عشر ابتدعت البابوية بدعة جديدة مؤداها ان تطلب الكنيسة الى رعاياها ممن لا يستطيعون المشاركة في الحروب الصليبية بأنفسهم ان يتبرعوا بمبلغ من المال، وعندئذ يحصلون على صكوك معينة – مفردها صك – تُغفر بموجبها ذنوبهم، وهي الصكوك التي اخذت البابوية تبيعها لمن يشاء والتي لم تلبث ان صارت موردا ماليا كبيرا للخزانة البابوية بقية العصور الوسطى (Cam. Med. Hist Vol.5 p.323)

واذا كانت البابوية قد أفادت ماليا من ناحية، وذلك من خلال بيع صكوك الغفران، فانها من ناحية أخرى خسرت عندما شارك ملوك الغرب الاوربي وبخاصة فرنسا وانجلترا، في الحروب الصليبية، واحتاجوا جراء ذلك الى الاموال ينفقونها على هذه الحروب، ففرضوا ضريبة العشور على الممتلكات المنقولة لرجال الكنيسة، وبذلك حطموا مبدأ الاعفاء من الضرائب الذي كان يتمتع به رجال الدين في اوروبا ووضعوا اساس سابقة خطيرة تمسّك بها الملوك، بالرغم من معارضة الباباوات لتلك الخطوة .

وثمة نتيجة اخرى توصلت اليها الكنيسة الغربية من خلال معاناة الحروب الصليبية الا وهي ان الحملات الصليبية المسلحة غير مجدية . ولذلك فانها استعاضت عن هذا الجهد الضائع بالتوجه نحو التبشير لنشر مباديء المسيحية بين المسلمين بصورة سلمية وعن طريق الاقناع . وقد جاء هذا التوجه نتيجة للثمن الباهظ الذي دفعته الكنيسة الغربية رجالا واموالا ولم يعد عليهم من جرائه سوى الندم !

وبالفعل فقد تحركت جهود المبشرين لغزو العالم الاسلامي فكريا، وقد وضح هذا في جهود القديس فرانسيس الاسيسي St. Francis of Assisi الذي وصل الى مصر في عام 1219 م، وقد أسهم ايضا في هذا الجهد اتباع القديس دومنيك الذين عملوا في النصف الاول من القرن الثالث عشر .

وقد اتخذت هذه الحركة التبشيرية اسلوبا جديدا عندما مدت جسورها ممثلة برمزها الشهير لويس التاسع بالاشتراك مع البابا انوسنت الرابع الى المغول وذلك لحصر المسلمين بين نارين، المسيحية الصليبية، والمغول . فقد ارسل الطرفان المبشر الفرنسيسكاني وليم روبركوي الى زعيم المغول لاقناعه بالدخول في المسيحية .

على ان اعظم شخصية في هذه الحركة التبشيرية في القرن الثالث عشر هي شخصية ريموند لول. وهو اسباني كرّس حياته لمهمة التبشير بين المسلمين بالذات . وهناك أخذ يعد مجموعة من المبشرين للقيام بمهمتهم التبشيرية، واهم وسائل الاعداد كانت تعليمهم اللغة العربية .

وبعد ان قضى ريموند عشر سنوات في اعداد اعوانه، اوفدهم الى شمال افريقيا، فضلا عن المغول والارمن للتبشير بالمسيحية الكاثوليكية . وبفضل جهوده قرر مجمع ڤيينا سنة 1311

م انشاء ستة معاهد لتدريس اللغات الشرقية في اوربا، وذلك لانه لا يمكن للمبشر ان ينجح نجاحا مضمونا الا اذا عرف لغة القوم الذين يبشر برسالته بينهم .

غاية الأمر ان اتساع حركة التبشير بالمسيحية بين الشعوب غير الاوربية جاءت من نتائج الحروب الصليبية . واذا كانت هذه الحركة لم تحرز نجاحا بين المسلمين وغيرهم من شعوب منطقة الشرق الادنى، فانها استمرت حتى احرزت بعض النجاح فيما بعد في شرق آسيا وبخاصة بين البوذيين. اما المغول فقد انتصر الاسلام في اكتسابهم حتى صارت الغالبية العظمى منهم في اواخر القرن الرابع عشر مسلمين (عاشور، ج2، ص 1279).

تدريب (1)

بيّن الآثار الحربية للمسلمين على الصليبيين ؟

تدريب (2)

بيّن الآثار الزراعية والصناعية للمسلمين على الصليبيين ؟

4. الخلاصة

عالجنا في هذه الوحدة، آثار الحروب الصليبية على العالم الاسلامي :

- من النواحي السياسية : فالعالم الاسلامي الذي بدا مفككا عندما اصطدم بالصليبيين انتهى متحدا، والتوحد والاتحاد بدأ بمودود بطل حركة الانقاذ واستمر الى الزنكيين ثم الايوبيين .

ثم قامت الدولة المملوكية لتحل محل الدولة الايوبية، وهنا يجب ان نشير الى دور البيت المملوكي في تصفيته الوجود الصليبي .

ومن الآثار السياسية للحملات الصليبية على المشرق، الصراع بين الصليبيين والبيزنطيين، اذ احس البيزنطيون ان الصليبيين اشد خطرا عليهم من السلاجقة، المهم ان الصليبيين اسقطوا الامبراطورية البيزنطية واقاموا مكانها امبراطورية لاتينية استمرت 50 عاما .

- وأما من الناحية الاقتصادية، فقد عالجنا الحركة التجارية بين الشرق والغرب، اذ انتقلت حاصلات الشرق من المنسوجات القطنية والحريرية، والزجاج الى الغرب، كما انتقلت سلع اخرى مثل الاحجار الثمينة والعاج والاخشاب، وعندما برز المغول على المسرح العالمي شجعوا طريق الحرير، واثروا سلبا على طريق البصرة والخليج العربي، ولكنهم لم يطالوا مصر التي استمرت فيها التجارة ناهضة .

- وأما من الناحية الاجتماعية، فقد عاش المجتمع المملوكي حياة البذخ والحفلات، والرفاهية التي ظهرت آثارها في العمارة المملوكية والتحف النادرة والحفلات العديدة الزاخرة بكل انواع الترف .

- كما عالجنا في هذه الوحدة آثار الحروب الصليبية على الغرب الاوربي والتي ظهرت فيما يلي :

1) ضعف النظام الاقطاعي، وقوة النظام الملكي .

2) الأثر الحضاري الذي ظهر كتيار في القرن الثاني عشر، اطلق عليه اسم «النهضة في القرن الثاني عشر» .

3) ومع ذلك فانه لا ينبغي ان يغيب عن بالنا ان الأثر الحضاري الصليبي كان اقل من اثر

اسبانيا وصقلية .

4) تأثر الصليبيون بالفن الحربي الاسلامي وبالذات استعمال المجانيق والكباش الهادمة. واستخدام الدروع للفرسان وارسال الرسائل الحربية عن طريق الحمام الزاجل.

كما افاد الغربيون من فن العمارة الحربي الاسلامي .

وقد برز التأثير الحربي الاسلامي على الصليبيين في نماذج حربية اخرى، مثل القلعة المستديرة ذات الاسوار المتتالية، كما ان الصليبيين اخذوا من المسلمين الرنوك. وهي علامات الفرسان التي تبدو من أصل شرقي.

- من ناحية الأثر الزراعي، فقد اخذ الاوربيون النواعير المائية والدواليب الهوائية، واستنبتوا ثمار قصب السكر والذرة والليمون والسمسم والارز والبطيخ والمشمش والخوخ والقطن، وفي الصناعات انتقلت اليه صناعات شرقية مثل الزجاج والخزف والقيشاني والمرايا والحلي والمسابح والمساحيق والاصباغ والعقاقير والسجاجيد والبسط.

- ومن الناحية الثقافية، تأثر الصليبيون بالطب والفلسفة والرياضيات، كما تأثروا بقصص الف ليلة وليلة وكليلة ودمنة .

- اما من الناحية الاقتصادية، فان كثيرا ممن شاركوا في الحروب حولوا ممتلكاتهم الى سيولة نقدية .

وقد أُقر نظام ضرائب جديدة من اجل الحروب الصليبية، فالملك لويس السابع فرض ضريبة بمقدار العشر على جميع المنقولات . وهي الضريبة التي عرفت باسم «عشور صلاح الدين» .

وأدى النشاط الاقتصادي الى انتعاش مدن اوربية كثيرا مثل امالفي ومرسيليا وناربون وبرشلونة، فضلا عن البندقية وجنوه وبيزا، وقد ادى النشاط والازدهار الى تحرر اوربا من النظام الاقطاعي. وهناك كثير من المصطلحات التي سادت في المناخ التجاري مثل كلمة فندق وهي من اصل يوناني وكلمة قنصل، وكذلك ظهرت القيصرية وتدفقت السلع من الشرق مثل القرفة والبهار والفلفل والفواكه واللوز والبضائع التي تستورد من الغرب .

- ومن الناحية الدينية، فإن قيام الحملة الصليبية الاولى كان نصرا مبيناً للبابوية، كما ان البابوية استمرت طوال الوقت تقوم بعمليات تحشيد، وابتدعت صكوك الغفران لتغفر ذنوب الرعايا مقابل ضريبة معينة، كما انه في العهد الصليبي ابتدأت حركة تبشير، وكان ابرز شخصية في ميدان التبشير هو المبشر ريموند لول .

5. إجابات التدريبات

تدريب (1)

تأثر الغربيون تأثرا كبيرا بالفن الحربي الاسلامي، ومما تأثروا به فن القلاع، والمجانيق والكباش الهادمة، واستخدام الرسائل عن طريق الحمام الزاجل .

كذلك عرف الصليبيون كثيرا من فنون التحصين وعمل الاستحكامات عن طريق حماة القلاع الاسلامية، ومن ذلك نظام المشربيات الذي عرفته العمارة الحربية، فضلا عن المدنية عند المسلمين وبواسطة هذه المشربيات يمكن ان يصب الزيت والماء المغليان على رؤوس المحاصرين .

وهناك ظاهرة أخرى من فن العمارة الحربي استعارها الغرب من المسلمين في مصر والشام إبان الحروب الصليبية، وهي جعل المدخل الحربي لباب الحصن او القلعة متعرجا على شكل زاوية قائمة حتى لا يمكن العدو اذا وصل قرب الباب من رؤية الفناء الداخلي للحصن او يصوب بسهامه الى من فيه .

وقد برز التأثير الحربي الاسلامي على الصليبيين في نماذج حربية اخرى، مثل القلعة المستديرة ذات الاسوار المتتالية، بدلا من البرج والفناء اللذين يجمعهما سور واحد، فهذه القلعة نمت في الشرق، بالاضافة الى المدفع والبارود التي كان المماليك اول من استعملها .

الرنوك وهي علامات الفرسان التي تبدو من اصل شرقي، وتدريبات الفروسية التي انتقلت تفاصيلها عن طريق شرقي . كما ان الصليبيين عرفوا في البحر، عند المسلمين انواعا جديدة من السفن كالشواني وهي مراكب حربية ذات قلاع جديدة .

تدريب (2)

الأثر الزراعي، الصناعي على الصليبيين، نجده في استخدامات الاوربيين للنواعير المائية والدواليب الهوائية واستنباتهم ثمارا مثل : قصب السكر والذرة والليمون والسمسم والارز والبطيخ والمشمش والقطن ... الخ، وفي الصناعات انتقلت اليهم صناعات شرقية مثل: الزجاج والخزف والقيشاني والمرايا والحلي والمسابح والاوعية والمساحيق والاصباغ والعقاقير والسجاد والبسط وانواع المنسوجات . كما ظهر عندهم ما يعرف بالارابسك الذي هو فن معماري يميل الى التكوينات الهندسية، وهو جوهر الفن الاسلامي .

6. مسرد المصطلحات

- الخلافة العباسية :

وهي خلافة قامت في العراق، واتخذت بغداد عاصمة لها، وهي تنتسب الى العباس عم الرسول، ومؤسسو هذه الخلافة هم احفاده وبالذات ابو جعفر المنصور .

- الخلافة الفاطمية :

وهي خلافة قامت في تونس، واتخذت المهدية عاصمة لها، وهي تنتسب الى فاطمة الزهراء، ولم تشتهر هذه الخلافة وتأخذ مكانتها التاريخية الا بعد ان فتحت مصر، واتخذت القاهرة عاصمة لها .

- الشواني :

مراكب حربية ذات قلاع عديدة .

- صكوك الغفران :

وهي صكوك اخذت الكنيسة تبيعها لمن يشاء مقابل غفران ذنوبه، ولم تلبث هذه الصكوك ان اصبحت موردا ماليا للخزانة البابوية.

- طريق الحرير :

طريق مشهور يمتد عبر الامبراطورية المغولية من الصين الى تركستان فموانيء البحر الاسود او ميناء اياس على البحر المتوسط .

- عشور صلاح الدين :

وهي ضريبة تفرض على رجال الدين والعلمانيين من أجل الحروب الصليبية وبمقدار العشر .

- فندق :

وتعني نُزُل، وهي كلمة تدل على انتشار التبادل التجاري بين الشرق والغرب اثناء الحروب

الصليبية . وقد دخلت هذه الكلمة من الايطالية باسم Fondachi وهي من اصل يوناني Fondacos. وتعني في الفارسية خانة . وهو بناء واسع من طوابق عدة يتكون من غرف مختلفة ومخازن للبضائع وفناء داخلي يحتوي على الدواب وبه كنيسة وحمام ومخبز ومقبرة ويحاط بسور وحديقة وكان يسكنه غالبا التجار الاجانب.

- القنصل :

وهو رئيس التجار الاجانب او كبير الفرنجة من كل طائفة، وقد سمي بالعربية والافرنجية القنصل، وبالفارسية قنصول، كما سماه الترك شهبندر، فكان له حق التجارة وحق محاكمة الذين ليسوا من الرعايا المسلمين .

- قومون :

وحدة سياسية واقتصادية مستقلة في شؤونها الداخلية .

- القيسارية او القيصارية :

وهي محرفة من اللاتيني Caesarea حيث كان الرومان يقيمونها في المدن كمستودع لبضائعهم .

- المقايضة :

وفيه تتم عملية تبادل السلع سلعة مقابل سلعة وليس على الاساس النقدي باستخدام المال.

7. المراجع

أ - المراجع العربية:

1) ابن شداد، بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية .

2) ابو شامة، شهاب الدين، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين .

3) الشيال، جمال الدين الشيال، معايير انتقال الثقافة العربية الاسلامية الى اوربا، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة .

4) عاشور، سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، 1963 .

5) عبدالرحمن بدوي، دور العرب في تكوين الفكر الاوربي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة .

6) قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1990 .

7) ماجد، عبدالمنعم، العلاقات بين الشرق والغرب، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1966 .

ب- المراجع الأجنبية:

8) Runciman, S., A History of the Crusades 3 Vols. (Cambridge) 1968.

9) Stevensen W., The Crusaders in the East, Beirut, 1968.

10) Atiyyah A.S, Crusade, Commerce and Culture, Bloomington, 1962.

11) Baker, The Crusades, (London), 1949.